جعفر الخليلي

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء الثالث

والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
أسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
مدينة الكاظمية - العراق

هكذا عرفتهم

الجزء الثالث

خواطر عن اناس افذاذ عاشوا بعض الوقت
لغيرهم اكثر مما عاشوا لانفسهم

تأليف
جعفر الخليلي

هديــة
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
إلى مكتبة الجوادين العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

ردمك الجزء الثالث : ٢ ـ ٠١٠ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤
ISBN : 964 - 503 - 010 - 2
ردمك الدوره : ٣ ـ ٠١٥ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤
ISBN : 964 - 503 - 015 - 3

الكتاب : هكذا عرفتهم /ج ٣
المؤلف : جعفر الخليلي
الناشر : انتشارات المكتبة الحيدرية
عدد الصفحات والقطع : ٣٤٤ صفحة وزيري
عدد المطبوع : ١٠٠٠ جلد من الجزء الثالث
الطبعة : الأُولى
سنة الطبع : ١٣٨٤ ـ ١٤٢٦ هـ
المطبعة : شريعت
سعر الدورة الواحدة (١ / ٧) : ٣٠٠٠٠ تومان

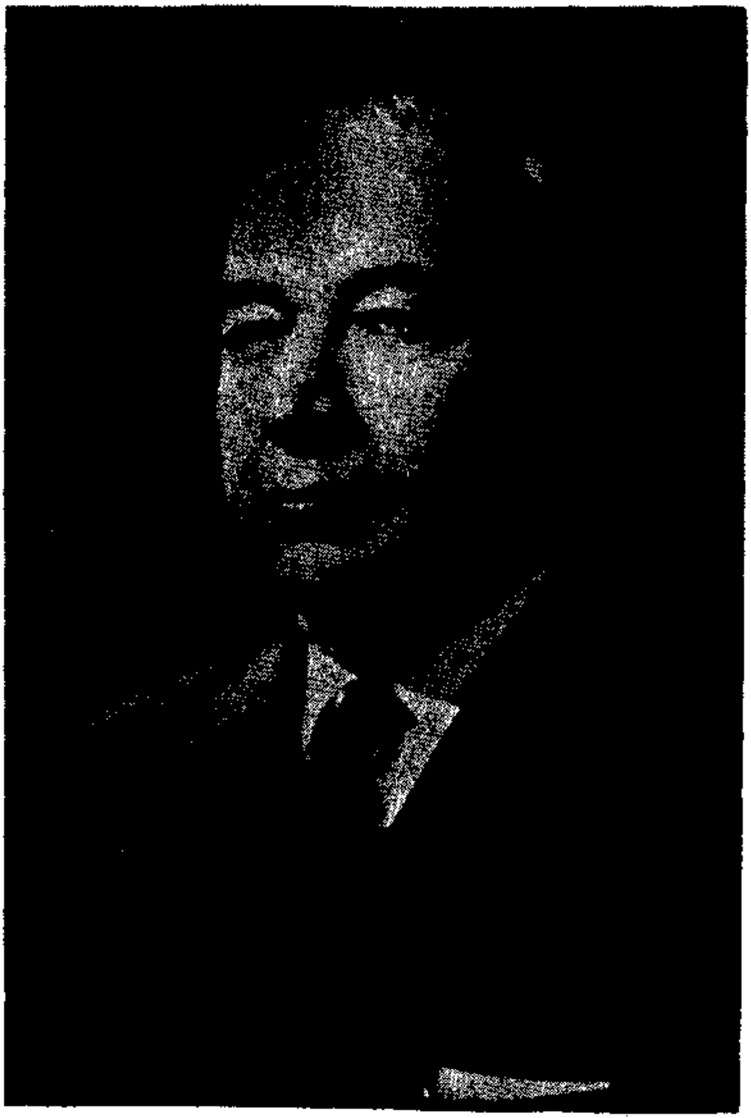

المؤلف في سنة ١٩٧٢

السيد محمود الحبوبي

كيف عرفت

محمود الحبوبي

هذا واحد من اقل القليل الذين تمتد جذور معرفتي بهم إلى ايام الطفولة، يوم كانت اعمارنا دون العاشرة او فوق ذلك بقليل ، فقد اعتادت بعض الأسر النجفية في فصل الربيع ان تنطلق من عقالها داخل سور هذه المدينة الذي يحوطها من جميع جهاتها،ويغلق ابوابه عليها بعد غروب الشمس بقليل فيعيش السكان كما يعيش النمل في قريته لا يخرج الا عند اعتدال الهواء ، وحينذاك يقصد البعض مسجد (الكوفة) ليقضي فيه بعض الايام والليالي من فصل الربيع ، ويقصد البعض مسجد (السهلة) لهذا الغرض ، وكلا المسجدين لا يبعدان عن النجف الا نحو عشرة كيلومترات ، اما الأسر الثرية فان لها بيوتاً في مدينة الكوفة على النهر،وكانوا يطلقون على الكوفة اسم (الجسر) وذلك لانعدام وجود الجسور على اغلب مدن الفرات ووجوده في هذه المدينة يومذاك ، وكانت هذه البيوت المطلّة على النهر بمثابة القصور حينذاك وليس بوسع احد امتلاكها او استيجارها من غير الموسرين والاغنياء ، ولم ازل اذكر بناء مؤلفاً من اسطبل صغير وغرفتين فوقه لا احسب يرتضيه واحد سكنا له اليوم ،من الطبقة دون الوسطى ،ولكنهم كانوا يسمونه قصراً!! وكان هذا القصر يقوم في الجانب الثاني من (الجسر) وكانوا يدعونه بقصر اغا مهدي ، وسعيد يومذاك من كان يرتبط بآل اغا مهدي ليقضي في هذا القصر ليلة او ليلتين .. !!

والنجفيون يسمون هذه الانطلاقة والخروج من النجف لقضاء بعض

الايام من فصل الربيع واوائل الصيف : (بتغيير الهواء) فيقولون لمن يسأل عن احدهم : (راح يغيّر هوه بالكوفة) ويقصدون به مسجد الكوفة او يقولون : (راح يغيّر هوه بالسهلة او بالجسر) .

وللسابقين من الأسر التي تقصد الكوفة او السهلة الحظ الوافر في احتجاز غرفة او غرفتين من تلك الغرف التي تحيط بالمسجد من اطرافه الثلاثة من الداخل، اما الأسر التي تتباطأ في الخروج وحجز الغرف المطلوبة فليس لها نصيب في تلك السنة من (تغيير الهوه) على حدّ تعبير النجفيين ، ذلك لان السكن في هذه الغرف مجاني . واذا ما حرم منها احد فلن يجد عنها بديلا .

وكنا نحن من (السابقين في هذه السنة لحجز غرفتين لنا في الجهة الشمالية التي كانت تمتاز على الجهتين الاخريين بغرفها الجديدة التي بناها احد المحسنين للانتفاع بها وكانت الغرفتان تتصلان بمقام الصالحين) او مقام النبي (ادريس) فقد نسيت الان المقامات واسماءها لبعد عهدي بها ، وكان آل الحبوبي من السابقين هم الاخرون في هذه السنة في احتجاز غرفتين من نفس هذه الجهة من الطرف الاخر ، وكانت احدى الغرف وايوانها قد خصت بالنساء، وامتدت الأزر والبسط وما يصلح ان يكون ستارة من فوق حبل تشده (العائلات) ، من طرف الايوان إلى الطرف الثاني ، وتنزل هذه الأزر والبسط او ما شاكلها من فوق الحبل الممتد حتى تصل الى الارض وتكون ستائر تحجب الحريم عند مدخل الديوان عن الخارج ، اما الغرفة الثانية فيفرش ايوانها ويفرش داخلها لجلوس الرجال واستقبال زوارهم .

ولم ادر كم هو عدد السنين التي استطعنا ان نقضي من ايام ربيعها في (تغيير الهواء) بالسهلة ؟ ولكني اعلم انني التقيت لاول مرة بالسيد محمود الحبوبي وابن عمه السيد باقر الحبوبي ابن المجتهد الكبير وشاعر عصره السيد محمد سعيد الحبوبي في هذا المسجد ، اما اسرتانا فقد كانتا على صلة قوية منذ عشرات السنين .

* * *

وكانت اعمارنا متقاربة كما ان طريقة نشأتنا وبيئتنا المنزلية كانت متقاربة ايضاً ، وهذا ما ساعد على ان يميل بعضنا إلى بعض اكثر من ميولنا للصبيان الاخرين من اولاد العائلات التي كانت تقصد السهلة (لتغيير الهواء) . واكثر من ميولنا لاولاد القوّام وسدنة المسجد .

وكنا نقضي النهار في البحث عن اعشاش العصافير داخل الميازيب ، وان الميازيب المطلّة من سطوح الغرف على ساحة المسجد كثيرة ،ولكن الصعود إلى هذه السطوح كان من الامور الشاقة ،ذلك لان ابواب السطوح كانت موصدة ، وكان خدم المسجد يمنعون الصعود اليها ، فكنا نتحايل في التسلق بمختلف الوسائل غفلة عن عيون القوّام وحذراً من صبيانهم لئلا يخبروا آباءنا وآباءهم ،ولعلنا كنا نستميل بعضهم بما كنا نقاسمهم به من الكعك المعروف (بالكليجة) والذي كان يوم ذاك اهم ما تجلبه (العائلات) معها من النجف إلى جانب عدة الشاي من السماور ودلال القهوة .

وكان خوفنا من آبائنا — اذا ما علموا بمحاولاتنا مطاردة العصافير في اعشاشها—اشد واعظم من خوفنا من خدام المسجد وسدنته ذلك لان آباءنـــا كانوا يقدّرون العواقب حتى قدرها اذكم من الاطفال قد سقطوا من اعلى السطوح في مثل هذه المحاولات او عند استطارة طيارات الورق وتهشمت عظامهم ،فعاشوا عالة على غيرهم اذا ما كتب لهم ان يعيشوا . والا ماتوا شر موتة ، ثم ان العبث باعشاش العصافير والاستيلاء على الافراخ مناف لقواعد الرأفة بالحيوان ولهذا لا يبعد ان يكون قصاصنا شديداً عند آبائنا لو علموا بذلك .

وكان السيد باقر الحبوبي اكثر جرأة من السيد محمود على ما اذكر ، ولست بذاكر كم مرة توفقنا في الصعود إلى السطوح بتسلقنا وكم مرة خبنا ولكني اذكر جيداً اننا كنا نحاول هذا ومعنا البعض من اولاد (اهل الهوه) واننا قد حصلنا على بعض الفراخ من العصافير وهي لما تنهض بعد وكنا نعسّها من افواهنا ونلقمها بعد ان نكون قد مضغنا الخبز مضغاً جيداً .

واللعبة المهمة التي كانت تشغل اغلب اوقاتنا في مسجد السهلة والتي كنا

نلعبها انا والسيد محمود والسيد باقر والاولاد الاخرين هي لعبة (الطوبة) وهي كرة لا يزيد حجمها على حجم البرتقالة كانت تكوّر من الخرق تكويراً شديداً ثم ينسج عليها بخيوط الصوف او الحرير الملون نسجاً جميلا ويبدأ اللعب بها وفق اصول خاصة ليس هذا محل شرحها فكانت من اشهر الالعاب ، وكان للسيد محمود (طوبة) جميلة من هذه الطوب استطعت ان أءخذها منه بدلاً بعدد لا اذكر مقداره من الاقلام الملونة وقد فرح كل منا بمثل هذه المعاوضة وربما حسب كل منا صاحبه المغبون الخاسر واذا لم يكن هو كذلك فقد كنت أنا على هذا الحال اذا لم تخني الذاكرة لأن هذه (الطوبة) المنسوجة ظلت عندي مدة طويلة وحتى الان وأنا أتصور شكلها وشكل حياكتها .

وفي الليل ، وفي الليالي المقمرة خاصة ، وهي الليالي البيض التي يعمد الخارجون من النجف أن يقضوها في مسجد السهلة أو مسجد الكوفة اذا لم يتسن لهم أن يقضوا الشهر كله أو الأسبوع كله كانت تجمع الصبيان الساحة الواقعة بين الباب الخارجي من السور والباب الداخلي من المسجد فيلعبون هناك اللعب المألوفة يومذاك أو يقطعون جانباً من الليل بسرد الحكايات والأساطير وكانت الحكايات والقصص يومئذ أهم ما يشغل الصبيان والنساء في سمرهم فيتحلق الصبيان في الشوارع ويبدأ أحدهم بسرد ما يعرف من تلك القصص عليهم حتى اذا انتهى طلب من غيره أن يحدثهم هو الاخر بما يعرف ، وكناانا ومحمود الحبوبي والسيد باقر ،من أكثر الصبيان حفظا للقصص في تلك الليالي التي جمعنا فيها (مسجد السهلة) فلا يكاد أحدنا ينتهي من سرد قصته حتى يبدأ الثاني .

وكان في خارج سور (السهلة) وعلى مسافة بضع مئات من الأمتار في طريق الكوفة مسجد منسوب لصعصعة بن صوحان فكنا أنا والسيد محمود وغيرنا نقف على باب السور ونصيح بأعلى أصواتنا منادين :

— صعصعة ...

فيردّ الصدى علينا الصوت قائلا : — صعصعة .

ولم نكن يومئذ نعرف شيئاً عن الصدى وأسباب ترجيع الصوت فيأخذنا الخوف . ونجرب مرّة، وثانية، وثالثة في كل ليلة ؛ وقد نهرب من عتبة الباب إلى داخل السور حين نتخيل أن الصوت المنبعث من مسجد صعصعة غير المسكون يتحدانا ، ولم يكن مفهوم التحدي عندنا غير ان نتلقى الصوت ضعيفاً وجائياً من بعيد ، او خشناً قوياً، دون ادراك منا لقاعدة تناسب الصدى مع الأصوات المنطلقة من الأطفال ضعيفاً اذا ما كان الصوت ضعيفا ، وخشنا اذا ما كان الصوت المنادى به خشنا .

والذي أذكره هو أن هذا الصدى كان يخيف الحبّوبي أكثر من غيره ويجعله أسرع منا في اطلاق الساقين للريح والاحتماء بداخل المسجد ، ولكنه كان يلذّه أن يعود كما يلذّنا نحن أن نعود ونقف عند عتبة باب السور والمناداة من جديد :

— يصعصعة

ولنسمع من جديد الصدى يرد علينا : يصعصعة .

هناك ، وفي هذا المسجد اشتدت الألفة بيني وبين محمود الحبوبي والسيد باقر الحبوبي ، وقد عرفا عني أني من طلاب المدرسة العلوية في النجف ، ولربما بهرهما هذا الشيء الضحل من المعلومات الجغرافية التي كنت أتشدق بها ، وأذكر أنهما قد أبديا رغبتهما في الانتماء إلى هذه المدرسة والخروج من مكتبهما عند (الشيخ) . ولكني لا أذكر جيداً ما إذا كانا قد دخلا هذه المدرسة كتلميذين فاذا كان ذلك قد وقع فأحسب أنه كان لمدة قصيرة .

وبيت محمود الحبوبي يقع في أقصى محلة الحويش في النجف، وبيتي أنا يقع في أقصى محلة العمارة، ومع ذلك فقد نلتقي بالمصادفة ونلعب ، وعلى ان مثل هذا الالتقاء كان نادراً فقد ترك في نفسي أثره ، ولا أحسبني وحدي الذي ترك أيام الصبا في نفسه أثرها، وها هوذا محمود الحبوبي يقول بعد أن كاد يشرف على الأربعين عن هذه الطفولة وذكرياتها ولهوها البريء يقول :

رجعت إلى تسع وعشرين حجة   فألفيتني والنشء ألهو وألعب

أغالب أترابي فأغلب تـــارة وأغلب أحيانا فأرضى وأغضب
وربتما حتم الخصـــام فلاطـــم جريءٌ ، وهاوٍ بالدماء مخضّب
ومن لي بأيام الطفولـة انهـــا على ما بها للنفس أشهى وأطيب

ولكن علاقتي الوثيقة به وبابن عمه انما تمّت في (الصحن الشريف) الذي كان يجمع حينذاك أصنافاً كثيرة من الناس وعلى الاخص طلاب العلم من مدنيين وروحانيين . ولم يتفق لي ان كنت أرى السيد محمود ولا أرى معه ابن عمه السيد باقر ، فقد كانا متلازمين يرتادان الصحن معاً ، والمجالس النجفية ، وأي مجتمع آخر حتى ليصليان معاً ويدخلان الحرم بقصد الزيارة سوية ، ولم يفترقا عن هذه الملازمة إلا في السنين الأخيرة .

* * * *

ويدرج محمود الحبوبي وتبدأ قريحته بالتفتح ، وكان ديوان شعر عمه السيد محمد سعيد الحبوبي أول عامل عمل في نفسه فقد كان لهذا الديوان في مطلع شبابنا أثر كبير بحيث لم يوجد شاب نجفي من الأدباء والمتأدبين الا وحفظ الكثير من قصائده ، بل إن كثيراً من هذا الشعر كان ينشد في مجالس العرس ويغنّى به وعلى الاخص القصيدة النونية المشهورة :

طرّز خدّيــك العذاران تطرزة الورد بريحان

وقصيدته الميمية المعروفة :

لح كوكبا وامش غصناً والتفت ريما فان عداك اسمها لم تعدك السيما

ويعترف الحبوبي نفسه بما للديوان ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي من أثر في صقل شاعريته وتنمية مواهبه الأدبية ، فحين أصدر الجزء الاول من ديوانه سنة ١٩٤٨ م أهداه إلى عمّه تحية لذكراه وقال في كلمة الاهداء !

« إلى أول من حبّب إلى نفسي الادب ديوانُ شعره الخالد » .

ثم ختم كلمة الاهداء بما يلي :

« إلى سيدي العم السيد محمد سعيد الحبوبي أهدي ديوان شعري متشرفاً بهذه النسبة وهذا الاهداء » .

ولا حاجة للاشارة إلى أن الموهبة الشعرية كانت كامنة في نفسه وأنه كان مفطوراً عليها ، فالفن لا يمكن أن ينمو ما لم يكن هنالك استعداد فطري يتوقف ظهوره على الصقل والتتبع .

وشأن محمود الحبوبي كشأن الاخرين من أبناء هذا الجيل من الادباء في النجف الإشرف ، تشدّه الرغبة والميول الفطرية أول ما تشد بالمجالس الأدبية ، والمآتم الحسينية التي ينشد فيها خيار المراثي والمدائح الحسينية لأشهر الشعراء المتقدمين أمثال الكميت ودعبل الخزاعي ، ومن المتأخرين أمثال السيد حيدر الحلي والسيد جعفر الحلي ، فقد كان لهذه المجالس في النجف والحلة شأن كبير في التوعية والتوجيه الأدبي ، وقد تم في هذه المجالس صقل الأفكار الأدبية ، وانبعاث المواهب والمدارك الشعرية في النفوس ذات الاستعداد والقابلية الفطرية ، هذا اضافة إلى عراقة بيت الحبوبي وما لهذا البيت من تقاليد وأساليب في النشأة ، فهو بيت من البيوت الحسينية ، يرجع نسبه إلى الامام أبي عبد الله الحسين (ع) وقد كان أحد أجداد الحبوبي القدماء وهو السيد مصطفى يلقب (بالحبّوبي) فتغلّب هذا اللقب عليهم ، وكان حميضة ــ وهو جدهم الخامس ــ عشر من أمراء مكة المكرمة ، وقد هرب إلى النجف حوالي سنة ٧١٨ هـ وأقامت الأسرة منذ ذلك التاريخ في النجف الأشرف أي من نحو سبعة قرون وامتدت جذورها إلى كثير من الجهات ، وقد بقي فرع منهم في المدينة المنورة ، ولهذا الفرع جاه ومكانة مرموقة ، وأنا من الذين يؤمنون بقانون (مندل) في الوراثة لذلك لا أرى من المستبعد أن تكون هذه العراقة والموهبة الفطرية قد تضافرتا وجعلتا من محمود الحبوبي شاعراً من طراز خاص ، فكان شعره عنوان شعوره وأخلاقه الموروثة يستبين القارىء منه دماثة الخلق ، وصدق اللهجة ، وصفاء النفس ، ومرح الطبيعة .

* * * *

والصحن الشريف ، والمجالس الخاصة ، والمآتم الحسينية في النجف هي المحلات التي يلتقي فيها الأصدقاء أصدقاءهم ، والأحباب أحبابهم ، لذلك كان يكثر التقائي بمحمود الحبوبي في هذه الاماكن ولا سيما في الصحن الشريف ، ولا عجب بل ان كثيراً ما يتم التعارف لأول مرة بين شخصين بسبب سؤال وجواب ، أو جوار في صفوف الصلاة ، او اجتماع للدرس في هذا الصحن وتنشأ من هنا صداقات قد يرثها الأبناء عن الاباء .

ولم يكن في النجف يوم أول نشأتنا صحيفة تنشر منتوج البعض ليتعرف بصاحبه القارىء عن طريقها ، وانما كانت مجالس الاعراس بصورة خاصة هي التي تؤدي مهمة الصحافة اذ ينبري الخطيب فيقرأ للشاعر قصيدته ولا يلبث أن ينتشر خبرها فينقل بعض الحاضرين منها بعض الابيات عن ظهر خاطر لمن كان قد فاته حضور المجلس ، وعلى قدر أهمية الشعر وعمقه ، وما احتوى عليه من ابتكار تتوقف شهرة الشاعر في البلد ويأخذ شعره من النفوس مأخذه .

وليس كل شاعر يصلح لقراءة الشعر لان هنالك شروطاً خاصة لاتتوفر لكل احد من الشعراء وهي عذوبة الصوت ، وجودة الالقاء ، واللحن الذي يختاره الشاعر ليغنّي به الشعر سواء في معرض التهنئة أو المديح أو الرثاء .

ولما كان أغلب الشعراء لا تتوفر فيهم هذه الشروط فقد كانوا يعهدون بشعرهم إلى الخطباء الذين يملكون هذه المواهب ، وكان ممن عرفوا بجودة الانشاء وحسن الترتيل من خطباء المنابر الحسينية في أيامنا : الشيخ كاظم السبتي ، والشيخ محمد شريف ، وقد أدركت انا هذين الخطيبين ولكني لا أذكر أني سمعتهما منشدين في غير مأتم الحسين (ع) ولكني كنت أسمع أنهما كانا من خيار من يلحّن الشعر ويرتّله نيابة عن الشاعر في مختلف المناسبات . وكان الناس يخلعون عليهما الخلع من الشال الكشميري ، والمنسوجات الحريرية ، والأعبئة التأبينية ، ويهدون اليهما الساعات ، ويصلونهما بالليرات والنقود الفضية وغير ذلك كلما جوّدا في قراءة بيت من البيوت الرائعة .

وكان هذان الخطيبان من أكبر خطباء المنابر الحسينية ، وكان الشيخ السبتي

يمتاز على غيره بكونه شاعراً بارعاً ، وأديباً فكهاً ، سريع البديهة ، حلو النكتة ، والمنقول عنه انه اكترى ذات يوم حماراً ليحمله إلى كربلا في موسم احدى الزيارات ، وحين جاء بأمتعته ورأى المكاري كثرتها قال للشيخ كاظم :

ـ ان هذا خارج عن الاحتمال فقد جئتنا بخرج ومرج ، ولحاف ومحاف ، وزنبيل ومنبيل .

وهنا أوقفه الشيخ كاظم السبتي وقال له :

ـ لقد كثرتها علي ... فتعال نتقاسم هذه الامتعة لنحلّ المشكلة . تعال اعطني الخرج وخذلك المرج ، واعطني اللحاف وخذ المحاف ، واترك لي الزنبيل وخذ المنبيل .

فضحك المكاري وضحك الحاضرون وركب الشيخ وسافر ، وقد روى البعض هذه الحكاية وبطريقة أخرى ونسبها لغير الشيخ السبتي والله أعلم .

أما الذين رأيتهم يتلون الشعر من الخطباء فقد كان الشيخ حسن السبتي خلف الشيخ كاظم السبتي ،وكان شاعراً هو الاخر . أما الذي بزّ جميع الخطباء في انشاد الشعر فهو السيد خضر القزويني فقد كان عذب الصوت ، يجيد الغناء بالشعر ،ويحسن تلحين كل بحر من بحور الشعر . وكان شاعراً يعرف اين يقف ، وأين يستمر بالقراءة .

وقبل أن تقوم جمعية (الرابطة العلمية الأدبية) في النجف التي كان الحبوبي من مؤسسيها كان شعر الشعراء ينشد على تلك الوتيرة ملحّناً ومنغّماً على ألسنة الخطباء ، ولكن الشعر أصبح منذ هذا اليوم مروياً على ألسنة شعرائه وبدأ تلحين الشعر الذي اختص به شعر النجف يتضاءل لعدم قدرة الشعراء على ترتيل شعرهم ، بانفسهم وكان (الحبوبي) من أوائل الداعين إلى انشاد الشعر انشاداً مرسلاً من قبل شعرائه ، واذا كان الشعر النجفي قد فقد مزية من أكبر المزايا وهي اللحن العذب والغناء الذي يجسّم المعنى ، ويدخله إلى النفس منعشا ، ومسكراً ، فان قيام الشاعر بانشاد شعره بنفسه قد جعل الشعر والشاعر أكثر اتصالاً بالناس لمواجهته لهم وجها لوجه

وهذا ما حمل لواءه جماعة من الشعراء كان الحبوبي في مقدمتهم . ومنذ ذلك اليوم صار الشاعر يظهر في المحافل ويواجه الناس بقصائده ويتلقى النقد والاراء والأفكار برحابة صدر اذا ما أخطأ لفظاً ومعنى .

* * * *

وكما عرف بعض الشعراء عن طريق (جمعية الرابطة) فقد عرف الحبوبي وعرف صالح الجعفري وعرف غيرهما أكثر مما كانوا قد عرفوا به يوم كان الخطباء ينشدون أشعارهم ، على أن شهرة الجعفري كانت قد سبقت قيام جمعية الرابطة فقد كان معروفاً من قبل الجمهور في النجف وغير النجف بصفته شاعراً موهوباً ، وأقول غير النجف لان الجعفري كان ممن عمل معي في جريدة (الفجر الصادق) ونشر فيها طائفة من الشعر الذي كان له صداه في كل الأوساط التي كانت جريدة (الفجر الصادق) تلجها بالاضافة إلى ما كان ينشر في مجلة العرفان ، وانضم إلى جمعية الرابطة العلمية الأدبية – التي يعود الفضل الأكبر في تأسيسها إلى السيد عبد الوهاب الصافي المحامي الشرعي اليوم – عدد من الشباب الذين هووا الأدب ، وعشقوا الشعر بصورة خاصة ، فعرفهم الجمهور عن كثب .

* * * *

وكثرت المناسبات التي تستدعي نظم الشعر في هذه الجمعية ، فصار اسم الحبوبي مرادفاً لاسم الجعفري ، وأصبح الاثنان عماد هذه الجمعية وعنوانها ، وكثر عدد الذين بدأوا يعرفون الحبوبي ، وكثر المعجبون به يوماً بعد يوم ، وكنت من المدعوين في مختلف المناسبات لحضور الاحتفالات التي كانت تقيمها (الرابطة) ، وكان هذا مما يزيد اتصالي بالحبوبي بالاضافة إلى ما كان يجمعني به مكتب جريدة (الراعي) ثم (الهاتف) بين حين وآخر ، واضافة إلى المناسبات الاخرى التي كانت تجمعنا مجالس النجف ، وكنت من الناشطين في استعادة الأبيات المقبولة من الشعر ، واستحسانها ، حتى لقد غالى البعض ومنهم الحبوبي في

وصفي بكوني لا استعيد من أبيات الشعر — وان كان شعر الأصدقاء — اذا لم أجد له طريقاً إلى ذهني وقلبي. وليس من الغرور اذا ما صدقت بعض ما يقوله الحبوبي واضرابه في بعض ما ينسبونه لي. لاني لا أجد مبرراً لشخص يقول لصديقه انك أجدت وأحسنت على حساب الصداقة. فالصداقة عندي شأن آخر. وان عليك أن تضحّي في سبيل الصديق بكل ما أنت قادر عليه لتنقذه من ورطة، أو تعينه على أمر، او تقضي له حاجة. أما أن تقول له: انك شاعر مجيد، وأنت تعرف انه ليس كذلك، فهو ضرب من الخيانة غير المغتفرة، وهذا هو الذي أفسد أسلوب النقد عندنا، وحوّل قواعد النقد كلها إلى قواعد عاطفية تكيل المدح للأصدقاء جزافاً وبغير استحقاق. وتكيل الذم لمن تكره حتى لينتهي النقد إلى التمذف، والسب، والتشهير، بسبب بيت من الشعر أو جملة من مقال أو رأي قد يكون فطيراً وقد لا يكون.

وكنت من المستحسنين والمستعيدين لشعر الجعفري والحبوبي في كثير من المواطن حتى في الفترات التي باعدت بيننا فروض خيالية وأوهام حين قامت (جمعية منتدى النشر) في النجف التي أخذت على عاتقها تطوير الدراسة الدينية والخروج على الطريقة القديمة البالية في دراسة (المقدمات) بصورة خاصة، مثلما فعل محمود الحبوبي وجماعته في تطوير انشاد الشعر والاعتماد على الشاعر نفسه دون إنابة الخطباء في إنشاد شعره، فلقد رحت أؤيد فكرة(جمعية المنتدى)في جريدتي بشيء كثير من الحماس وأدعو لها باخلاص وايمان، وكانت بين الجمعيتين: الرابطة، والمنتدى، منافسة أدّت إلى فتور او شبه فتور سبّب إثارة شيء مما أسميه أنا بعدم الرضا من موقفي في تأييد المنتدي عند أعضاء جمعية الرابطة، وعلى أن هذا الفتور وعدم الرضا قد طال وخلف في النفوس شيئاً أو بعض شيء فانه لم يصل إلى درجة القطيعة الروحية وانما كان سبباً من أسباب نوع خاص من التباعد بيني وبين أعضاء الرابطة لفترة من الزمان، وقد شمل هذا الفتور علاقتي بمحمود الحبوبي وبصالح الجعفري بالرغم مما كان يشدني إلى الجعفري بوشيج من القرابة بالاضافة إلى النسب الأدبي.

وبالرغم من كل ذلك فقد كنت أسعى أن آلبيّ جميع الدعوات ، وأحضر كل المناسبات التي تخص(جمعية الرابطة) وأصعي إلى شعر الحبوبي الذي بدأ يأخذ مكانته من النفوس يوماً بعد يوم وأستعيد منه ما يروقني ويثير اعجابي ، وأهنيه بعد ذلك على براعته وابداعه الذي بدأ ينجلي في كل تصويرة يأتي بها في قصيده .

* * * *

وشُغل بعد ذلك كل عضو من أعضاء الرابطة بدنياه وحالت أشغالهم دون الالتزام بحضور دار الرابطة في غير المناسبات أو مواعيد الاجتماع الرسمي ، وكان الحبوبي الشخص الوحيد الذي اتخذ من دار الرابطة صومعة فلازمها ملازمة الراهب لديره لا يكاد يفارقها الا في الساعات الأخيرة من الليل وعند ساعات النوم، فقد عشق الشعر والأدب لحد فوق التصور ، واتخذ منه عروسة لا تضاهيها عروسة من الغيد والحور ، وقصر عليها كل هواياته وميوله، وكانت (الرابطة) قد عنيت بمكتبتها عناية خاصة فساعد هذا على نضجه الفكري أكثر وأكثر ، واتسعت دائرة معارفه وزادت من التزامه بحضور دار الرابطة يوماً بعد يوم .

والحبوبي محدّث حلو الحديث، يسرد القصة سرداً يجعل لها في نفس سامعه وقعاً يجذب اليه من أتيح له أن يستمع اليه، ولهذا ما لبث أن جمع حوله عدداً من الأدباء والمتأدبين الذين عرفوا فيه هذه المزايا، ثم عرفوا مقامه من الرابطة في كل يوم، وتحلقت حوله منهم حلقات ، وإذابه من حيث يدري أو لا يدري يتولى توجيه عدد كبير من الشباب توجيها أدبياً ويبعث فيهم روحاً جديدة ويشجعهم على ولوج بحور الشعر، وخوضها، فلا يمر بعض زمن الا ويخرج على يديه عدد من شعراء الشباب الذين شغلوا بعد ذلك مقاماً مرموقاً في عالم الشعر والأدب. وحيث توجه اليوم نظرك تجد العشرات من شعراء الشباب الذين أخذوا الشعر عن الحبوبي وتخرجوا عليه أو على الذين تخرجوا عليه .

ونظم الحبوبي في مختلف المواضع ، وحلّق في الكثير مما نظم ، وكان نصيب الجانب الوطني والقومي كبيراً من شعره ، ولا سيما ما يخص فلسطين ،

وكانت النجف أكثر مدن العالم العربي على الاطلاق اهتماماً بفلسطين وقضايا العرب ،وأخصبها شعراً حتى لبالامكان تأليف مئات من الدواوين ــ لا العشرات ــ من الشعر الذي قالته النجف في النصف الأول من القرن الأخير وحتى اليوم، عن العرب والعروبة وعن فلسطين بصورة خاصة .

وكان لجمعية الرابطة الفضل الكبير في تجديد هذه الذكرى ذكرى فلسطين كلما أحست بشيء من الفتور أو الخمول ، وكان لشعر أعضاء الرابطة في هذا المجال الوجه المشرق يمثّل أكثره الشيخ محمد علي اليعقوبي ، وصالح الجعفري ، ومحمود الحبوبي واضرابهم من أبرز أعضاء الرابطة ، وكان هذا مما يخفف شيئاً كثيراً من مآخذي على الرابطة ، فقد كنت آخذ عليهم اندفاعهم الذي كان قد تجاوز الحدود في استقبال زوار النجف من الوجهاء بالشعر ،وتوديعهم بالشعر ، كلما زار دار الرابطة منهم زائر ، واستثنى من ذلك طبعا رجال العلم والأدب الذين استقبلوا بالحفاوة الشعرية أمثال الدكتور العشماوي وكريمته ، وأمثال محمد علي علّوبة ، وعبد الوهاب عزام، وأمثال زكي مبارك ، وبدوي طبانه .

وباختصار فقد أوجد محمود الحبوبي سوقاً رائجة للشعر بدار الرابطة تفوق مزاياها مزايا سوق عكاظ التي لا تقام الا في المواسم المعينة من السنة لأغراض شتى ،أما الرابطة فقد كانت سوقها قائمة في كل يوم الا ما ندر للأدب وحده .

وكثر زوار الرابطة،والصحيح كثر زوار الحبوبي بدار الرابطة الشاعر الذي علّم طائفة كبيرة من الشباب الشعر ، والشاعر الذي اتخذ من الشعر وسيلة لهو وسلوان في ساعات الفراغ . فكان يسمر في كل ليلة بدار الرابطة،وقد ينتقل إلى دار أحد الأعضاء أو الأصدقاء ليسمر هناك مع زمرته من الانداد والتلاميذ ، ويبدأ باستخراج أكلات شهية من الشعر بعضه مبتكر ، وبعضه مألوف كما يعمل الطاهي باللحم والخضار ، فيقترح الحبوبي مثلا أن يبدأ أحد الحاضرين بنظم بيت في موضوع معين على أن يلحقه الجالس إلى يمينه ببيت مناسب ويأتي بعد ذلك كل واحد ببيت مرتجل فلا ينتهي الدور الا وقد تم نظم قصيدة قد تكون ذات بال ، وقد تكون صورة من صور الدعابة أو الهجاء المضحك مما قد لا

يصلح نشره ، وأحسب أن الكثير من هذا الذي يصح نشره،والذي لا يصح ولا يصلح،لما يتضمن من اهاج كان قد جمعه محمد الخليلي أحد مؤسسي جمعية الرابطة المشارك في الكثير من مجالس السمر، وهو من هواة جمع الشارد من النكت الأدبية ونوادر الشعر ، وقد نشر شيئاً مما يستساغ نشره في بعض المجلات قبل وفاته .

وقد اعتاد الحبوبي أن يسهر لوقت طويل لذلك فهو نؤوم الضحى، وكان مسروراً كل السرور لأن شخصا آخر يشبهه في مثل هذا السهر من الليل والتأخر في اليقظة صباحاً وهو أنا ، وكثيراً ما كنت أبدؤه بالسؤال في التلفون قبيل الظهر وأسأله على سبيل الدعابة عما اذا كان لم يزل نائماً وأيقظه جرس التلفون ، فيضحك ويقول : رمتني بدائها وانسلّت ، أو يقول شيئاً يشبه هذا كأن يريد أن يجعلني انا وحدي الذي لا أفيق مبكراً مع أنه كان مسروراً أن يجد له زميلاً مثله يسهر لساعة متأخرة من الليل وينام حتى ساعة متأخرة من النهار .

وكثيراً ما كان يعثر الحبوبي وهو في مثل هذا السمر على بعض الأغبياء المتعالين والبعيدين عن فهم الأدب وفهم الشعر ولكنهم يأبون الا الزج بأنفسهم في زمرة الادباء والشعراء ليعترف لهم الناس بمزايا الأدباء والشعراء ، ولم يكن أمثال هؤلاء المدعين قليلين في عالمنا الحاضر،ليس في عالم الأدب وحده وانما هنالك من يدعي فهم السياسة وهو أبعد ما يكون عن فهمها ، بل هناك من ينصب نفسه زعيماً ووجيهاً ويتظاهر بهذه الزعامة والوجاهة ويأتي بمختلف القصص للبرهنة على دعواه وقيمته في المجتمع وهو لا يملك من مؤهلات الزعامة شيئاً أو بعض شيء ، حتى الفقه وحتى الزعامة الروحية لم تخل من مدعين يحسنون التظاهر بعلو كعبهم في الفقه والشريعة وينطلي أمرهم على المجتمع لكثرة الجهال والغافلين وغير المدركين لواقع هؤلاء، فيضعون ثقتهم فيهم كأدباء أو علماء أو مغنين وهم أبعد ما يكونون عن الادب والقلم والفن .

أقول وكثيراً ما يعثر الحبوبي على بعض هؤلاء المدعين المكابرين فيحسن جرّهم إلى الميدان ليتخذ منهم موضوع فكاهة للشعراء والأدباء في ليالي السمر،

ويروح ينفخ في المجلس من روح دعابته حتّى ليسكر القوم وحتى ينتعشوا على حساب هــذا الذي اكتشفه الحبوبي من ادعيــاء الشعر والادب ، اذ يطلب الحبوبي من الحاضرين المشاركة في نظم قصيدة في الخبازين مثلا : ـ وقد وقع هذا فعلاً مع أحد أدعياء الشعر ـ وكان الخبازون يومها يخلطون أنواعاً من الحبوب الرديئة والمواد غير الصالحة بالقمح ويطحنونها ، وكانت قافية القصيدة المقترح نظمها عن الخبازين ميمية مجرورة على وزن حذام وهيام ، وشرع القوم ينظمون ، كل واحد ينظم بيتا مرتجلاً وحين وصل الدور إلى المدعي المكابر والقى ببيت الشعر الخارج على القافية تغابى الحبوبي وتغابت الحلقة من أولئك الشعراء وتظاهروا بالاعجاب بشاعريته ، وأبدى الحبوبي دهشته ببراعة هذا الرجل حتّى حمله على أن يسهم مرة ثانية وثالثة معهم في النظم فيأتي بما يضحك الثكلى ، وتمر تلك الليلة بأسعد ما تمر الليالي ويسعد القوم على حساب بلاهة هذا الرجل المكابر الجاهل .

ولم يبق في ذهني من تلك الليلة التي وصل إليّ خبرها ، ومن تلك القصيدة الميمية التي أسهم فيها الشاعر الجديد غير العجز الأخير من أحد أبياته وهو العجز الذي لا يزال يحفظه الكثير من أدباء النجف حين يمر حديث استهتار الخبازين وهو قوله :

(وخبّازون أولاد النعال) ولو كان بيننا العبقري الكبير وديع فلسطين قد سمع بهلمافاته الاستشهاد ببيته هذا في سلسلة مقالاته الطريفه عن النعال وقد قيل ان الحبوبي كان قد قال له بعد ان أطراه ونوّه ببراعته قال له : ولكن لِمَ لم تقل : (وخبّازون أولاد الحرام) مجاراة للقافية الميمية ، فردّ عليه الرجل قائلاً : ولكن النعال أبلغ وأمعن في المعنى فايّده الجميع وخطّؤا الحبوبي وضحكوا منه ليتستروا بضحكهم عليه ، وتركوه يخبط في هذره ليأتي بمختلف القوافي ويتنقل من البحر إلى البر وهم يستحسنون ويستعيدون ويستكتبونه أبياته كما لو كان من نوابغ الشعراء ، ويغرقون في بحر من ضحك ليس له ساحل ولا قرار ، والحبوبي الذكي اللبق يعرف كيف يفسّر ضحك القوم ويموّه على الرجل حتّى ليحمله على مشاركتهم في ضحكهم .

وقد يجعل الحبوبي تقفية الشعر موضوعاً لسمر الرفاق ولا سيما في ليالي

رمضان ، والحبوبي هو الشاعر الوحيد الذي بعث هواية تقفيه الشعر من جديد في مجالس النجف الأدبية بعد أن كادت هذه الهواية على وشك الانقراض وهي هواية بعيدة العهد لم يعرف للان متى لجأ اليها أدباء النجف لأول مرة في التاريخ كوسيلة للتسلية ولصقل الملكات الشعرية في نفوس الأدباء في أوقات فراغهم ، وقد أعطاها الحبوبي أهمية كبيرة فأقبل عليها الأدباء في السنين الأخيرة ونقل هذه الهواية معه إلى بغداد يوم انتقل اليها وبدأت تروج هنا وتنتشر .

وكما كان الحبوبي يعثر على بعض المكابرين من البلهاء في نظم الشعر فقد يعثر على كثير من المدعين بفهم الشعر ومعانيه وقوافيه ولم يزل بهم حتى يشركهم مع القوم في تقفية القصيدة وتعيين قافيتها عند وصول منشدها إلى ما قبل القافية ، ويعثر هذا المكابر عثرة مثيرة للضحك فيقيم الحبوبي الدنيا ويقعدها بالاستحسان . ولكي يموّه على الرجل يأخذ بالتشكيك فيما اذا كان هذا المدعي مسبوقاً من قبل بهذه القصيدة فيقسم الرجل ايماناً مغلظة بأنه لم يكن مسبوقاً بها ولكن ملكته الشعرية هي التي تمكنه من معرفة القافية ، فيصدقه القوم ويزيلون الشكوك الكاذبة من ذهن الحبوبي ، ويقضون مع الرجل ليلة من أسعد الليالي وأبهجها .

وأعرف صاحب مجلة معروفة وقع مرة في مثل هذا الفخ ، وكان الحبوبي يمسك بديوان من الشعر ويتظاهر بقراءة قصيدة منه ، أما الحقيقة فهي أنه لا يقرأ من الديوان شيئا وانما يقرأ أشياء من(عندياته) ليس فيها من الشعر الا الوزن والقافية ، ويغري صاحب المجلة ليدخل هذه المعمعة فيدخلها ويأتي بما يضحك العجماوات من الحيوانات ، ويبدي الحبوبي اعجابه ــ كما هي العادة ــ بهذا النبوغ ويعهد بتقفية كل القصيدة اليه .

وحذراً من أن يلتبس الأمر على الذين لم يعرفوا محمد علي البلاغي صاحب مجلة الاعتدال فيظنون أنه هو المقصود أقول ان محمد علي البلاغي أديب وكاتب وله شعر مطبوع وهو أحد أعضاء جمعية الرابطة ولا يمكن أن يكون بين أعضاء هذه الجمعية من لا يكون أديبا وأديباً معروفاً وعلى هذا فلا يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف بأي وجه من الوجوه .

وبيت آل مانع كثيراً ما كان يقضي الحبوبي مجالس أسماره الأدبية فيه ، فقد كان الشيخ مهدي مانع من أعز أصدقاء الحبوبي ،وكان مرحاً ظريفاً متفتح الذهن وكان بيته بمثابة ديوان عامر بأهل الفضل والأدب وهو ابن الشيخ علي مانع ،وكان الشيخ علي من وجوه العلماء الذين أبلوا في الثورة العراقية الكبرى بلاء حسناً وهو جد الدكاترة : حسن ثامر ، وأحمد ثامر ، ومحمود ثامر لأمهم ، وكان الشيخ جعفر مانع هو الأخ الأكبر للشيخ مهدي صديق الحبوبي ، وكان الشيخ جعفر عميد الأسرة ومن أفاضل رجال العلم وكان يقعد للناس بعد أبيه الشيخ علي في ديوانه فإذا انفض المجلس وخلا استقبل الشيخ مهدي اخوانه وأصدقاءه من محمود الحبوبي ومحمد حسين الشبيبي وأمثالهما ، وكان الشبيبي هو الاخر من الشعراء الظرفاء الذي يبحث عن النكتة ويشتريها بالمال على حد تعبير الناس ، ويجيد حبك(المقالب) و (شد القايش) على حد الاصطلاح المألوف ، وطالما التف بحبل الحبوبي والشبيبي جماعة من أصدقائنا كالشيخ مولى الطريحي وغيره من الأصحاب ، ولطالما تبرع الشبيبي بالبحث عن الذين يجوز (شد القايش) عليهم وجاء بهم فرحاً إلى دار الرابطة أو دار آل مانع ليكونوا نقل المجلس وموضوع السمر .

وأستطيع أن أؤكد أن الحبوبي لم يكن يجيز لنفسه اتخاذ شخص مأخذ الهزو والسخرية ما لم يكن هذا من المدعين بما ليس فيهم والمكابرين الذين يطمعون في بلوغ القمة دون أن يكون لهم شيء من المؤهلات ، ومن هؤلاء كان طبيب يعود فضل اكتشافه إلى محمد حسين الشبيبي الذي كان يوجه له أسئلة بدون معنى فيجيب عليها الطبيب ، ولا أنكر أني قد ساهمت غير مرة في هذه الاسمار ولا سيما في قضية هذا الطبيب فكنت أنا الاخر أضع أسئلة من تلك الأسئلة الطويلة التي لا يفهم أحد المقصود منها فكان يجيب عليها هذا الطبيب وكان الحبوبي يطعّمها بشيء من التعليقات والأشعار غير المفهومة تأييداً للطبيب المذكور .

* * * *

وانتقل الحبوبي إلى بغداد ، وكانت شهرته قد سبقته بزمن طويل فلم تكن بغداد تجهل قدره وكان قد أسمعها الشيء الكثير من شعره الرصين في عدة مناسبات . وكانت الصحف البغدادية بالاضافة إلى الصحف النجفية كثيراً ما تقدم قصائده وتشير إلى مواطن الابداع منها خصوصاً في المناسبات الوطنية ، والحبوبي حيث يحل يجعل من محله روضة شعر غناء ، ونادي أدب ينهل منه الاديب والمتأدب ، وتنتعش به النفوس الحزينة بما يدور في مجلسه من نكت ونوادر ودعابة تحوم كلها حول الشعر والأدب وتطرية النفس .

وعرف الجميع مقرّ الحبوبي فقصدوه وتحلقوا حوله ،فاذا بالرابطة كلها تنتقل من النجف إلى بغداد ، وأحسب ان الحبوبي يوم جاء إلى بغداد لم يكن ينوي السكن فيها بادىء الأمر ،فقد سبق اه أن كان يكثر التردد عليها لدواع كثيرة أهمها ما كان يجمع بينه وبين آل الشبيبي وآل رحمة الله خاصة من وشائج الرحم والقربى ، وفي هذه المرة طغى عليه طبعه أكثر من كل مرة فقرر نقل سكنه من النجف إلى بغداد ، والحبوبي مجبول على ثقل الحركة ومن طبعه أن يجعل حركته محدودة فاذا ما أنس بمحل وطابت نفسه فيه لازمه طويلا وثقل عليه انتقاله منه لذلك كانت مجالسه سواء في النجف أو بغداد محدودة ومقتصرة على المجالس التي تألفها روحه .

وأني لأذكر يوم ودعنا الشيخ محمد علي اليعقوبي في سفره الى الحج في البصرة وعدنا الى النجف قال الحبوبي أنه سيمكث هنا – أي في البصرة – يومين أو ثلاثة ثم يلحق بنا ،ومرت أيام وتبعتها أيام .والحبوبي مقيم في بيت السيد سعيد الحكيم وقد أحاطت به شلة من أدباء البصرة وشبابها المتيقظ وفي كل يوم ينوي على الرحيل ثم تفتر همته حسب ما جبل عليه من ثقل الحركة وما زال حتى عاد اليعقوبي من الحج فعاد معه الحبوبي الى النجف .

وما يدرينا فقد يكون الحبوبي قد منّ على اليعقوبي بأنه انما بقي في البصرة فمن أجله لكي يعود حين يعود اليعقوبي الى النجف .

واغتنمت وجود الحبوبي ببغداد فرحت أنتدبه محكّما في المسابقات الشعرية

التي كانت دار التعارف تجريها لبضائع الشركات التجارية،وكانت دار التعارف تتعمد وضع المسابقات الطريفة التي لا تخلو من المرح حتى حين تكون المسابقة مقتصرة على الشعر . وقد اقترحنا مرة أن نضع الحذاء المعروف بحذاء (دجلة) الذي تصنعه مصانع (دجلة) للاحذيــة في مسابقة شعرية عامة باللغة الفصيحــة أو اللغة العامية الدارجة لنجعل لهذه المسابقة افقاً أوسع مما لو قصرناها على لغة القريض وحدها ، وأتينا بنموذج من الشعر المطلوب وطلبنا من الراغبين في دخول المسابقة ان يأتونا من الشعر بما لا يقل عن بيتين وكان النموذج كما يلي :

عندي حذاء من (مصانع دجلة)   تتقطّع الدنيــــا ولا يتقطّع
أمــــا الطراز فحسب موديلاته   ان العيون لحسنها تتطلع

وانتخبنا من المحكمين الحبوبي، والدكتور مصطفى جواد ، والاستاذ فؤاد عباس وغيرهم ممن لا أتذكر أسماءهم ، وقد تعمدت أن استثني نفسي مـــن التحكيم نظراً لوقوفي على أسماء المشاركين في المسابقة بصفتي صاحب (دار التعارف) ومديرها ، فكنت أختار فئة أخرى أنيط بها فرز المسابقات التي تنطبق عليهـــا الشروط المطلوبة عن غيرها ثم يتولى المكتب قراءة كل قطعة شعرية على المحكمين دون ذكر الأسماء .

ولقد رأيت أن أنظم أنا قطعة شعرية باللغة العامية الدارجة باسم (سلمان الفارس)العباسي وهو من سكنة ناحية العباسية ، يحسن قول الشعر الشعبي لحد قد يكون بعيداً وقد فعلت ذلك لسببين الأول لامتحان نفسي فيهذا اللون من الشعر ، والثاني لاحتمال الفوز بأحدى الجوائز العشر المخصصة اذا ما كتب لهذه القطعة أن تنجح فيكون (سلمان الفارس) أحق من غيره بالجائزة لمكانته الشعرية .

ودخلت المسابقة مئات من ناظمي شعر القريض،ومئات من شعراء العامية وراح أحد موظفي (دار التعارف) يقرأ على المحكمين شعر المتسابقين دون أن يذكر أسماءهم فيضع كل محكّم الدرجة التي يرتئيها ثم يؤخذ المعدل وعلى ضوئه يتعين الفائزون العشرة وتتعين درجاتهم ، وقد كتبت أنا(لسلمان الفارس)أعلمه بما فعلت

باسمه واستميحه العفو على مثل هذا التصرف أما القطعة فكانت كما يلي :

أخــوي حسين راچبله قـنـْدَرَه[١] يضحك دومْ والدنيه مجْدرَه[٢]
ماچن قندرةْ چنها منَظْرَه[٣] تزهي الوانهـــا سوده وصفره
خفيفــة منگل اتكولون مُهره[٤] تخلّي بگلب كل الناس حسره
حسين اچبير ــ عمر الدهر عمره لاچن هالقندرةْ اللي تزغْرَه
وتَظْهَرَه بعين كلّ الناس درّه (دجله) هاي يعرفها البقره[٥]
ويعرفها اللبسهـــا برجله مــرّه والما يشري (دجله) شنهو عذره ؟

وتم فرز الشعر الذي تتوفر فيه شروط المسابقة عن غيره وقرأ الشعر المفرز على المحكمين حتى اذا جاء دور هذه القطعة استعادها الحبوبي ثم طلب من قارىء الشعر أن يكتبها له ويعين له شاعرها بعد الفراغ من التحكيم ، وكانت هذه القطعة قد حصلت على شيء كثير من التفوق ، وسألني الحبوبي عما إذا كنت أعرف سلمان الفارس ؟ فقلت له : اني أعرفه وهو يزورنا بين آن وآخر ، قال : أتدري أن هذه القطعة قد شوقتني الى ممارسة الشعر العامي من جديد فقلت له لم يسبق لي أن عرفت أنه نظم شعراً عامّياً. فقال : لقد جرب نظمه ولكنه لم يقرأ: منه الا القليل على القليل من الأصدقاء ، وقال انه كان يصغي الى شعر الحاج زاير الشعبي كما يصغي الى المتنبي ،وبتلك اللذة ،وبذلك الاعجاب ،مع ما بين الاثنين من تفاوت في الأفكار والنبوغ خصوصاً وأن الحاج زاير كان أمّياً على ما يقــال .

وليس بالشيء الغريب أن يكون الحبوبي قد مارس الشعر العامي وأجاد فيه فقد سبق أن رويت عن غيره من فحول الشعراء مثل هذه الرواية ومنهم شاعر

---

(١) ركوب القندرة تعبير شعبي عن احتذاء الحذاء ، والقندرة هي الحذاء
(٢) مجدرة : اي مكدرة ، كثيرة الكدر .
(٣) اي ما كانها حذاء وانما هي كالنظارة صفاء ، ويستعمل القرويون المنظرة (النظارة) للتشبيه لكل شيء شفاف صافي الاديم .
(٤) اي انها خفيفة عند التنقل فكأنها مهر من الخيل
(٥) المقصود بدجلة هو احذية دجلة .

عصره السيد محمد سعيد الحبوبي ، واني لاذكر له قصيدة شعبية نظمها على لسان جار قد أضاع دجاجة هاج ضياعها منه أشجانه ، وقد كنت وأنا طفل صغير أحفظ هذه القصيدة التي يقول في مطلعها :

يـــــا حلال المسنّي راح
يـــــا حلال الـراح مني أيّست وانگطـع ظنـي.
عگب عينچ مـــــاحلتي آه يا وجـــه الفلاح [١]

ويقول من شطر اخير نسيت المقطع الاول منه :

بيضها انسوّي صفيحـــــه [٢] والدهن من عنده فـــاح [٣]

ومن كبار الشعراء العباقرة المعاصرين الذين نظموا القريض والشعر الشعبي الرصين هو الشاعر الكبير الياس فرحات ، والشاعر المبدع أحمد رامي وغيره .

* * *

ويوم انتقل الحبوبي الى بغداد كان الحاج حسين الشعرباف قد انتقل من الشطرة الى بغداد ، وبيت الشعرباف في الغراف كان موطن المارة من الادبـــــاء والشعراء يستضيفه كبار أئمة الادب أمثال الشيخ جواد الشبيبي والشيخ علي الشرقي والشيخ باقر الشبيبي والسيد محمد حسين الكيشوان المعروف بالقزويني ويقضون عنده أياماً يتحول بيته فيها الى ندوة أدبية عامرة وديوان شعر رائع ، والان وقد انتقل الشعرباف الى بغداد ووجدالحبوبي طريقه اليه أصبح هذا البيت هوالمجلس الادبي العام للحبوبي ،ويصادف أن ينتقل الجعفري الى بغداد بعد احالته على التقاعد، وينتقل عدد آخر من أعضاء الرابطة كالشيخ علي الصغير ،فاذا بجمعية الرابطة وجميع المتصلين بها أو المتصلين بالحبوبي من أصدقائه وتلامذته يتخذون من بيت الشعرباف مركزاً آخر لجمعية الرابطة ، ويلازمونه ملازمة الظل، وها هو ذا شاكر

---

(١) العكب هو العقب اي ان بعد غيابك ما حلا لي شيء ، وعينج اي عينك .
(٢) الصفيحة هي العجة المعمولة من البيض .
(٣) والدهن هو السمن كما هو معروف .

الاعسم ، والسيد عبدالله الياسري ، والاستاذ محمد حسين الشبيبي والاستاذ محمد صادق القاموسي ، والمحامي محمود المظفر وغيرهم يتحلقون حول الحبوبي والجعفري ويؤلفون الأكثرية من رواد ديوان الشعرباف كل يوم .

أما جمعية الرابطة في النجف التي كان يخاف عليها البعض أن يغلق بابهـا بسبب انتقال الحبوبي وتشتيت الأعضاء ، فقد منّ الله عليها برئيس نشط هو السيد محمد بحر العلوم وقد بدأ يعيد لها أيام عزّها ويؤلف منها باقة من الورود الشذية تذكّر بعطرها الفواح كل الرائحين والغادين بأيام الصافي ، واليعقوبي ، والجعفري ، والخليلي (محمد) والحبوبي الذي ازدهرت بفضله وفضل أخوانه أيام الشعر والأدب .وقد تولى عمادة الرابطة اليوم الشاعر الكبير مصطفى جمال الدين

وكما كان يجري في سمر الحبوبي وهو بدار الرابطة وبدار آل مانع ، ودار الحاج عبدالله الصراف ، في النجف الأشرف ، ودار السيد سعيد الحكيم في البصرة كان يجري كذلك في بيت الحاج حسين الشعرباف في الكرادة الشرقية من بغداد ، وقد جاءني ذات يوم شخص من معارفي ، ومن أولئك الذين يسهل وقوعهم في شرك الحبوبي الظريف وطلب مني أن أنظم باسمه قصيدة ليتلوها في مجلس الحبوبي والجعفري بدار آل الشعرباف لأنه سبق له أن وعد القوم بأن يقرأ لهم شيئاً من شعره الجديد في يوم حدّدوه له. فقلت له ولكنك لست شاعراً على ما أعلم فما الذي أحوجك الى هذا ؟ فكابر الرجل وزعم أنه كان ينظم الشعر في السابق وأنه قد قرأ ما بقي في ذهنه من شعره على الحبوبي والجعفري فاستحسناه وشجعاه وطالباه بان يأتي لهم بشيء جديد من شعره، ولما قرأ علي بعض ما كان قد قرأه على الحبوبي والجعفري أدركت أن الذي قرأه كان قد نظمه له شخص آخر على لسانه كما يريد اليوم مني أن أفعل ذلك ، لقد أدركت هذا من لحنه في القراءة ومن خروجه على الوزن مما كان قد سقط من الابيات من كلمات ، وعلمت أنه قد وقع في الفخ ، بل هو الذي أوقع نفسه فما ذنب القوم اذا جاءهم مدّعٍ ومكابر يريد أن يتبوأ من الشعر مكانته المرموقة ، والحق أني لم أكن أقل ميلاً من الحبوبي والجعفري في اهتبال مثل هذه الفرص ، فشرعت أنظم أرجوزة على لسانه وهو جالس عندي ينتظر كما يجلس القوم أمام صباغي الاحذية ، وهكذا بدأت :

مشت بي الأقدام ذات يــوم	لمجلس ضــمّ سراة القوم
مــن شــاعر خلّده القصيد	دهراً وظــل الدهر يستعيد
ومــن أديب بــارع مفــنّ	يقول للفن خــذوه عنــي
قــد فاح عطرهم بكل نادي	في النجف الاشرف أو بغداد
ومــن زكــا هنــاك بالطيوب	الجعفري – كــان – والحبوبي
فــأقعداني منهما في (الصدر)	كواحــد مــن أمــراء الشعر
ورحّبــــا وانحنيا أمــــامي	كأنني كنت أبــــا تمــام
هذا يقول جاءنـــــا الملاك	وذا يقول حلّت الابـــراك
فحرت فيما حاطني ومــا جرى	اذ لم أكن أعرف نفسي شــاعرا

وهنا قاطعني الرجل وقال :

ولكني قلت لك انني كنت أنظم الشعر وانني قرأت عليهم نموذجاً مــن شعري ، فلم تقول عني انني لا أعرف الشعر ؟ فقلت له : إن هذا من بــاب التواضع ، وهو تواضع سيلاقي استحساناً كبيراً من القوم ثم شرعت أتم نظم الأرجوزة على لسانه فقلت :

وكيفمــا كان فقد أنســـاني	إغراء ذين الشــاعرين شــاني
فخلت اني شـــاعر وشعري	ذو روعة من حيث لست أدري
وزاد إغراؤهمـــــا لي حتى	لفّقت شعراً من منــاح شتى
مرتجلا شعري كشأن الــدوله	اذ ترتجي بالارتجـــال الصوله
لا وزن فيـــه لا ولا قــوافي	شبّهت شعري بالافندي الحافي

وهنا اعترضني مرة أخرى وأنا أقرأ عليه كل بيت أنظمه قائلاً : أهذا الذي تقوله من التواضع أيضاً ؟ فبدوت جاداً وبان هذا الجد على سحنتي وقلت له : ولِم لا ؟ فأنت في منتهى التواضع حين تشبّه شعرك بالافندي الحافي ، فسكت هو وواصلت أنا النظم على لسانه :

لكنني مــا كدت أتلو شعري ... عليهم حتى عــرفت قــدري
مـــن كثرة التصفيق والتهليـــل ... أحسست أني لست بالقليل
واني كمـــــا يقول الجعفري ... كالمتنبي أو فقل كالبحتري
أو مثل مــا قــال لي الحبوبي : ... ما غير هــذا الشعر بالمحبوب
وقال : لِـم؟ أخفيت عنــا أدبك ... فهو الذي لنــا جميعــاً حببك
وشبهــوا فعلي (بالبــزّ ون) ... مخبئاً سرائـــــر البطـــون
وحمـــدوا لي فطنتي وفكـــري ... وشكروا لي أدبي وشعري
وأخجلوا تواضعي بـــــالشكر ... إذ شبهوا فعلي بفعـــل الهرّ
وقـــد سمت نفسي ووزني ثقلا ... كنت ثقيلا فغدوت أثقلا
ومنذ ذاك اليوم عـــزّ شـــأني ... بين رواة الشعر والخلان
ولم أعـــد أقبر شعري في الثرى ... تواضعـــــاً كما يقول الشعرا

لقد هش الرجل وبش وقال : انها أصبحت قصيدة عامرة ولكني لم أعرف بعد علاقة (البزّون) أي الهر بهذه القضية ؟ قلت له : انها اشارة لمعنى يعرفـــه النجفيون وشعراؤهم وستسمع من الحبوبي خاصة ثناء عاطراً وستلمس ارتياح القوم لذكر البزون (الهر) أضعاف ما كنت تلمسه من قبل وتلمسه من بعد ، وكتب الرجل القصيدة بقلمه وقرأها علي غير مرة حتى حفظها وقد قرأها على الجماعة فقال لي الحبوبي أنها كانت ليلة من ليالي العمر .

* * *

وعرف الكثير من غير العراقيين ومن رجالات مصر فضل الحبوبي وكونـــه الداينمو المحرك للشعر وذلك بسبب زيارة العدد الكبير من الشخصيات البارزة النجف واحتفاء جمعية الرابطة بهم وتكريمهم بالشعر ، فكان الحبوبي من أبرز الأعضاء في تكريم أولئك الزوار الذين كان منهم الاستاذ أحمد أمين ، وعبدالحميد العبادي وعبد الوهاب عزام ، وابراهيم سلامة وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم ، وكل هؤلاء قد استمعوا للحبوبي وأبدوا اعجابهم بشعره .

حقاً انه كان الداينمو المحرّك للشعر فلا يترك اليأس ، أو الانشغال بهموم

الدنيا ومقتضيات الحياة تحول بين الشعراء وقول الشعر في النجف . وكان يلجأ الى الف حيلة وحيلة ليعيد الشاعر الى حظيرة الشعر اذا ما أحس بانصرافه عنه، فمثلا حين أصفى صالح الجعفري وانشغل عن نظم الشعر لم يدع الحبوبي الحبل على الغارب وانما راح يهيج شاعرية الجعفري بقصيدة عامرة يقول فيها .

أبا (رياض) وما أدري ولا الناس ... لِمْ ناب غِرِّيد روض الشعر إخراس
أوحشت أندية قد كنت مونسها ... حينا فهل يعقب الايحاش إينـــاس
أبا (رياض) أعد للروض بهجته ... ولينفح الفل وليعبق بـــه الآس
فكم سكرنا ولا خمر سوى طرف ... تفيض عاطفة منهــــا واحســـاس
وكم سحرنا ولا سحر سوى أدب ... قد أحكمت منه أركـــــان وآساس

الى أن يقول عن مجالس الادب :

كانت أواهل لما كنت شاعرها ... وقد سكت طويلاً فهي أدراس

ثم يقول بعد ذلك :

أبا (رياض) ، رياض الشعر آسفة ... أن راح يعمل فيها بعدك الفـــاس

وجريا على عادته في نظم القصيد راح يجرّ الحديث في قصيدته الى الشعب وآماله وما يعاني من ضغط على حريته واضطهاد لأفكار مفكريه وما تقتضي الأوضاع للشاعر المتحسس بآلام المجتمع وحاجته أن يقوله في كل وقت ، وقد امتلأ الجزء الأول من ديوانه ورباعياته المطبوعة على حدة بالكثير من تلك الاحاسيس الوطنية والخوالج الادبية التي ضمت أشياء غير قليلة من التصويرات العاطفية والصور الفكرية التي استقل بها .

وللحبوبي الى جانب شعره وعمله في بعث الروح الادبية في عدد من الناشئة النجفية أعمال أدبية ثمينة فهو الذي جمع شعر الشيخ جواد الشبيبي وصنّفه وعلّق عليه وأعدّه للطبع ، ويعتبر هذا الديوان من أسمى الدواوين الشعرية ومن أكثرهـــا تأثيراً في النفوس لو كتب له أن يخرج الى حيز الطبع ،والحبوبي هو الذي تولى جمع ديوان محمد رضا الشبيبي وتبويبه والقيام بطبعه من قبل جمعية الرابطة الادبية، وله

بعد ذلك مجاميع تحتوي على قصائد ذات قيمة كبرى لعدد من كبار الشعراء التي لم تزل مخطوطة ولم يطلع القراء عليها بعد .

وظلت تشدّ الحبوبي وهو ببغداد ذكريات النجف ، ومجالسها ، ودار الرابطة فتعمل في نفسه ــ وهو الشاعر المرهف الحس ــ عملها فيحنّ الى تلك الايام حنين الفصيل الى أمه ويبدو هذا الحنين في الكثير مما نظم من الشعر .

وحين كتبت كلمتي : (كيف عرفت الشيخ محمد علي اليعقوبي) [١] ونشرتها في جريدة (البلد) البغدادية وعرضت فيها لجانب من ليالي السمر التي كان يحييها الحبوبي بدار الرابطة مشيراً الى ذكريات النجف وأيامها الحبيبة قال لي الحبوبي انه ما انتهى من قراءتها حتى بكى ، ثم تحولت دموعه هذه الى قصيدة عصماء وجهها اليّ . ونشرتها جريدة البلد في عددها ٤٥٥ المؤرخ بيوم ١٩٦٥/١١/١٧ وقد قدم لها عبد القادر البراك صاحب البلد ورئيس تحريره هذه المقدمة :

الى الخليلي

من وحي مقالات : كيف عرفت اليعقوبي

للشاعر المعروف الاستاذ محمود الحبوبي .

«كان جعفر الخليلي قد نشر في جريدة البلد سلسلة مقالات عنوانها : (كيف عرفت الشيخ محمد علي اليعقوبي) تطرق فيها الى حياة الفقيد الكبير ، والى الكثير مما كان يتحلى به ــ رحمه الله ــ من صفات وأخلاق . كما أنه مرّ بقلمه البليغ على ذكر النجف الأشرف وعلى من كان يضم من فطاحل العلماء وكبار الادباء ، كما أشار الى بعض أندية الشعر وما كان يدور فيها من أدب رفيع ، ونوادر ونكات لها أثرها الفعال في صقل المواهب الادبية ، وانبساط النفوس ، ولقد أوحت تلك المقالات الى الشاعر الكبير الاستاذ السيد محمود الحبوبي القصيدة الرائعة التالية»

البلد

(١) هكذا عرفتهم : الجزء الثاني

وبعد هذه المقدمة التي كتبها الاستاذ البراك نقل القصيدة المهداة الي في جريدته وقد وردت على هذا النحو :

أبا(فريدة)[1] هجت النار في كبدي — لذكريات أخ بالفضل منفرد
أرجعت لي الذكريات الطيبات بما — نشرت في (البلد) الغراء عن بلدي
عن (الغرّي) وعما فيه من أدب — سام ، وعن طرف محبوكة الزرد
عـن الحياة التي كانت تقربنا — من كل عفّ عن الفحشاء مبتعد
عن النوادي التي كنا نلوذ بها — حيناً فننسى عناء الروح والجسد
عـن العباقرة الافذاذ نـرفعهم — وأنت منهم ـ ونعليهم مدى الأبد
عن(ابن يعقوب) عن أزكى أخ عرفت — دنيا الفضيلة والاداب والـرشد
عن الظرافـة في نفس له شغفت — بها النفوس ، وعن أبيـاته الشرد

* * * *

أبـا فريدة ذا يوم الوفاء فلا — تبخل بتجديد ذكراه لنا وجُد
أذكرتنيه ولمـا أنسه ، ومضى — وسوف تمضي ، وان عشنا الى أمد
أنساه ؟ وهو أمـامي مـاثل أبداً — حتى كأني أراه غير مفتقـد
أنساه بعد ثلاثين مضت فمضى — ما كان في العيش من طيب ومن رغد
أنساه ؟ إذ طلب الاصلاح غايتنا — وقد مشيت وإياه يـداً بيد
أنساه ؟ والاذن ملأى من ترنّمه — بالشعر ما استمعت للطائر الغرد
أنساه ؟ وهو كنفح الورد في خلق — سمح وكالطود في دين ومعتقد

* * * *

أبا فريدة ، لاتعجب بحيث يدي — تدمى ، فقدبان عني نائيا عضدي
ولا تسمني سلواناً ولا جلداً — فقد بكيت على السلوان والجلد
أشواق (يعقوب) أشواقي وعاطفتي — نحو (ابن يعقوب) في قرب وفي بعد

---

(١) هي كنيتي بأسم كبرى بناتي ـ المؤلف

إن يمتلىء قلبه نوراً ومعرفة ... فقدخلا ـ الدهر ـ من غلّ ومن حسد
أو لم يكن في قضايا الفقه مجتهداً ... فقد أشار اليه كل (مجتهد)
ولم يكن في حديث الخير مقتصداً ... فحدث الجيل عنه غير مقتصد

* * * *

أبا فريدة قداذكرتني زمناً ... حلواً مذاقته ، خلواً من النكد
أيام كنت واخواناً ذوي ظرف ... مهما أشأ من سرور بينهم أجد
يسعون للعيش في أضواء فلسفة ... تقول : يا نفس بالأفراح فاتحدي
إن يستجد ندي للوقار بهم ... فللدعابة طوراً يستجد ندي
هم هكذا في انبساط غير منقبض ... وهكذا هم ببشر جدّ مطرد
وهكذا وردوا فيض الهنا دفعاً ... لا كالذي احتار لم يصدر ولم يرد
يقول قائلهم ـ والضحك جدّبه ـ ... ما فات من عمر الانسان لم يعد
أليس حتماً علينا أن نعدّ لنا : ... سويعة بابتهاج تنقضي ودد ؟
إنابنو اليوم فلننظر اليه ولا ... ننظر لامس مضى عنا ولا لغد
أول الحياة ابتساماً غير مكترث ... أكنت مضطهداً أم غير مضطهد
ما قيمة العمر إذ نقضيه في سأم ... من الحياة ، وفي هم ، وفي كمد
طوى الردى كابن هاني الف نابغة ... وكالمعرّي نهج عنه لم نحد
فذو التشاؤم أو ذو الفال إنهما ... في الارض ملتحد في جنب ملتحد
ونحن إن ندن أو نبعد لنا أجلا ... ما قدر الله لم ينقص ولم يزد
لا بد أن يتلاشى الكون منتهياً ... فليس يبقى سوى باريه من أحد

* * * *

أبا (فريدة) كم أبدعت في صور ... من الحقائق أعيت كل منتقد
وصاحب القلم الجاري بلا كلل ... على الطروس ، متى نسأله نستفد

مدائح الناس جاءته بلا عـــدد حين استفاضت (أماليه) بلاعدد
إن تحك آلك في خلق وفي خُلق فالشبل مشتمل في لبدتي (أسد)
هذي المسامع قد اصغت لتسمعها سحر البيان، فقل ما شئته وزد

وعلق صاحب جريدة البلد في الحاشية على كلمة (أسد) التي يختم الحبوبي بها قافية القصيدة قائلاً: « وفي هذا البيت اشارة جميلة الى اسم المغفور له الشيخ أسد الخليلي والد جعفر الخليلي »

وعلى أن هذه القصيدة تدل بوضوح على نزعة الحبوبي وايمانه وفلسفته في الحياة كما تدل على سمو خلقه وعفته ووفائه ، فان التعرف بالحبوبي عن كثب يزيد اليقين بما جبل عليه هذا الشاعر من كرم النفس، وطيب المحتد، وما تفيض به نفسه من محبة للناس .

ولقد صور في سيرته سيرة أسرته أحسن تصوير ، وحافظ على نهجهم في اللطف والدماثة وكرم الأخلاق، وبلغ من محافظته أن غالى حتى في ملبوسه وهندامه، فالعادة المتبعة في الاسر العلمية في النجف هي أن يعتمر صبيانهم في الغالب (اليشماغ والعقال) ما داموا صبياناً أو شباباً حتى اذا حان وقت زواجهم ألقوا باليشماغ والعقال جانباً واعتمروا العمامة اذا أرادوا أن ينهجوا نهج آبائهم . وأنا من الذين كانت عمرتي (اليشماغ والعقال) ثم ارتديت البذلة الافرنجية رأساً ، ولكن الحبوبي ظلّ ملازماً لليشماغ والعقال طوال عمره ولم يمل للبذلة الافرنجية الا في السنوات الأخيرة مجاراة لحياة بغداد التي كانت تلزم أبناءها بذلك . كل ذلك كان من تشبعه بروح المحافظة والاعتزاز بما شب عليه من خلق وأخلاق .

ومن القليلين الذين ظلوا متمسكين باليشماغ والعقال الى النهاية كان الشاعر الكبير الشيخ كاظم الأزري ، ولم يكن اليشماغ والعقال وحده الذي ظل الازري محافظاً عليه ، وانما كان (اليمني) الأحمر — على ما وصفه الواصفون — الذي ظل

يحتذيه طوال عمره – أحد الأدلة على شدة تمسكه بما شب عليه، ومن فضلاء اهل العلم اليوم أعرف الشيخ أسد حيدر الذي ظل ملازماً للبس اليشماغ والعقال وهو من الروحانيين المعروفين وقد تجاوز العقد السادس .

قلت ان الحبوبي ما لبث أن عرف ببغداد كما عرف في النجف، وقد طُلب مني في شهر رمضان من السنة الماضية أن استدعيه والجعفري لألقاء بعض قصائدهما في الندوة الرمضانية بجمعية تأسيس جامعة الكوفة ببغداد وكانت الجمعية قد طلبت الى الحبوبي ذلك فاعتذر ، وقد ناطت بي هذه المهمة فأجاب هو والجعفري وأسمعانا في تلك الليلة أروع الشعر وأسماه مبنى ومعنى وتركا في النفوس أثراً جد كبير ، ولم أدر أن صوت الحبوبي هذا سيكون آخر ما أسمعه وهو ينشد شعره .

وانشاد الحبوبي للشعر مما يحبّب الشعر حتى للكثير من المبتعدين عن الإجواء الشعرية ، فهو يتلوه تلاوة المتفنن الذي يصور لك المعنى كما لو كان مرآة ، وبصوت حلو عذب لا يرتفع به الى الحد الممقوت الذي اعتاد الكثير من شعرائنا الارتفاع بأصواتهم ، ولا ينزل به الى الحد المخل برتابة الشعر وموسيقاه فتحس بعذوبة تنساب في موسيقى الشعر انسياباً يأسر قلبك ويخلب لبّك .

* * * *

وقبل سنتين أصيب الحبوبي بنوبة قلبية دخل على أثرها مستشفى ابن سينا ببغداد ، ومنع الأطباء زيارته ، فكان الكثير من أخوانه ومحبيه يزورون المستشفى ويتركون بطاقاتهم الشخصية هناك ، أو يكتفون بتقديم تمنياتهم الطيبة واظهار عواطفهم لاخوان الحبوبي وأرحامه ، وقد شق علي أن أصل الى المستشفى وأفعل ما تفعل الأغلبية ، وأن أعود من حيث أتيت دون أن أحظى برؤيته ، لذلك استأذنت ودخلت عليه في غرفته وقد كان مستلقياً على السرير فحاول أن يرحب بي فوضعت سبابتي على شفتي مشيراً الى وجوب سكوته . وقلت له : انني سأنوب عنه بالترحيب بنفسي لاني أعرف ما الذي يريد أن يقول لي في ترحيبه فضحك وحاول مرة أخرى أن يقول شيئاً بل أنه قد بدأ يقول شيئاً فمنعته من الكلام وقلت له : إنك مفؤود وقد حرم

عليك الطبيب الكلام ، وليس بيننا مما يستوجب استعمال المجاملة ثم تمنيت له الشفاء العاجل وخرجت مسروراً لأنني أيقنت بسلامته وعافيته بما لمحت من بشاشته وتفتح أساريره ، وكان يقيني في محله اذ لم تطل مدة اقامته بعد ذلك في المستشفى وخرج معافى ، ورجع الى حالته الطبيعية ، والى تلك الحلقات التي كانت تتحلق حوله اينما حل حتى في (المسيب) حين يذهب ليستجم الراحة في بستان لهم هناك ، ولم أعرف أنه شكا بعد تلك الشكوى الاولى الا قليلاً وفي فترات بعيدة ، وقد كان الى ما قبل وفاته بقليل في حالة طبيعية بحيث أعدّ قصيدة طويلة لتتلى في مؤتمر الادباء السابع حين دعي الى المشاركة فيه ببغداد ، ولكن النوبة القلبية قد عاودته فجأة قبل أن يحضر المؤتمر ويتلو قصيدته لذلك اضطر لدخول المستشفى من جديد .

وفي الصباح الباكر من أحد أيام أيار ١٩٦٩ دق جرس التلفون في بيتي واذا بالمتكلم ينعى الي السيد محمود الحبوبي .

* * * *

والحبوبي لم يكن حلماً عندي لأنساه ، ولم يكن طارئاً من الطوارىء مهما عظم هذا الطارىء لأستطيع أن أمحوه من ذهني . وانما كان مجموعة من ذكريات العمر الطويل التي هي كل زاد الاديب ومتعته ولذته في دنياه ، وقد صدق يوسف فاخوري حينما قال :

أعطني الماضي وتذكاراته   وخذ الحاضر والمستقبلا

صحيح اننا جميعا للموت ، وصحيح أن هؤلاء الذين مضوا قبلنا كانوا السابقين وسنكون نحن اللاحقين بهم ، ولكن هذا الواقع لا يقوى أن ينسي واحداً مثلي الذكريات العزيزة : ذكريات الطفولة ونحن نلعب ، وذكريات التلمذة ونحن ندرس ، وذكريات الشباب ونحن نجول بأفكارنا وأحلامنا في عالم ليس له حدود أو نهاية .

وحيث أتلفّت اليوم أجد ذهني مشحوناً بذكريات الحبوبي ، وكأني بصوت ينبعث من كل ناحية ويصك اذني فلا أسمع أي صوت غير صوت الحبوبي ، الصوت الذي يقول لي :

هنا كان يجلس الحبوبي ، ومن فوق هذه المنصة كان ينشد شعره ، وهنا كان يسمر ومن حوله تلك النجوم الزاهرة من الشباب الشاعر ، فاطرق برأسي وتتفجر عيناي بالدموع ، ويسقط القلم من بين أصابعي ، وتلفّني سحابة من الهم الذي لا يعرف مداه الا الذي عرف أن مرارة الذكريات أشد وقعاً على النفس من حلاوتها .

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
صحن الكاظمية - العراق

توفيق الفكيكي

كيف عرفت

توفيق الفكيكي

كان اسم توفيق الفكيكي في العقد الثالث من هذا القرن يتردد كثيراً مع عدد من أسماء الكتاب الشباب في بعض الصحف العراقية، وكلما مرّ يوم اتسعت دائرة هذه الهالة التي تحيط باسمه، وزادت وضوحاً يوماً بعد يوم، فقد كان الفكيكي من الكتاب السلسين الذين اتسمت أقلامهم بالوضوح في وقت كان يسود أغلب أقلام الكتاب شيء من التعقيد ، وقد كان هذا التعقيد يومذاك رمزاً من رموز البلاغة ، والملكات الأدبية لذلك كان الاغلب من الكتاب يعنون بالديباجة واستعمال الغريب من اللغة في تركيب الجمل ، وكلما كانت المقالة صعبة الفهم كثيرة الغموض دلّت على عظمة الكاتب واحاطته التامة بقواعد الفن حسب مفهوم أكثر ناسنا يومذاك ، أما الفكيكي وأمثاله فقد كانوا أبعد الكتاب عن هذا التعقيد ، وأقربهم الى السجية الطبيعية ، لذلك كانت النفوس والنفوس المتفتحة طبعاً أكثر ميلا لهؤلاء ، وأكثر فهماً لأغراضهم الادبية وما كانوا ينشدونه في مقالاتهم التي ينشرونها في الصحف ، لأن مثل هذه المواهب المتجلية فيما تخط أقلامهم كانت ضرباً من ضروب السهل الممتنع الذي ليس بامكان كل أديب أن يأتي به في المقالات ، والخطب ، والشعر .

وكنت بناء على ما كانت تتركه آثار الفكيكي القلمية في نفسي من أعجاب أتخيله رجلاً طويل القامة في شبه اكتناز وتناسق في الأعضاء ، وكثيراً ما يتخيل الانسان البلد الذي لم يره والرجل الذي لم يعرفه عن كثب ، والشيء الذي لم تقع

عليه عينه من مسموعاته ومقروءاته . كثيراً ما يتخيله في صور قد تأتي متقاربة مع الواقع في بعض الاحيان ، ومتباعدة كل البعد عن الواقع في أغلب الاحيان .

وأذكر أن الدكتور ياجي أحد سفراء السودان يوم جاء العراق كان في لهفة لا تشبهها لهفة ، وشوق لا يدانيه شوق ليرى بغداد التي كانت موضوع اطروحته في الدكتوراه بجامعة السوربون قد قال لي : انه ندم كل الندم على اختياره العراق حين فوض اليه اختيار المحل الذي يرغب في العمل فيه في السفارات السودانية ، وذلك لأن الصورة التي كانت قد ارتسمت في مخيلته عن بغداد في العهد العباسي وهو يكتب اطروحته وجدها تتنافر والصورة التي وجدها في بغداد الحاضرة لا من حيث السكان والمجتمع البغدادي وانما من حيث الابنية والازقة والابواب وطراز الشبابيك والريازة الجميلة التي كان يطمح أن تكتحل عيناه برؤيتها ،والرواشن التي جاء ذكرها في هندسة البيت ، ولكن كل هذا — يقول الدكتور ياجي — قد انمحى من لوحة الذهن عند أول هبوطه من الطائرة ، وحين مشت به السيارة من المطار الى السفارة كان قد زال من ذهنه آخر خط من خطوط تلك الصور الرائعة لتلك المدينة العظيمة في عصورها المزدهرة . وهكذا كان بالضبط شأن الدكتور زكي مبارك مع بغداد يوم دخلها لأول مرة .

ويرى البعض أن التسمية كثيراً ما تكون دليلاً لمعرفة الشيء وصفاته ، وهو صحيح في الأسماء التي توضع بناء على ما اختصت به من الصفات ، ولكن ليس كل اسم من الاسماء يوضع على هذه القاعدة ، قاعدة الصفة الخاصة بالاسم لينطبق الاسم على المسمى ، ومع ذلك فقد يتخيل المتخيل لكل اسم ، ولكل عمل ، وكل حديث ، صورة من الصور قبل أن يراها ، وهكذا تخيلت توفيق الفكيكي وأنا أستعرض معنى التوفيق ، وأقرأ مقالاته ، وأسمع بعض التعليقات لبعض الكتاب على كتاباته كما تخيلت قاسم العلوي ، وسلمان الشيخ داود ، ورزوق غنام ، ورفائيل بطي ، وسامي خونده ، ورشيد الهاشمي ، وعبد الغفور البدري ، وعبود الكرخي . وخلف شوقي الداوودي ، وابراهيم حلمي العمر وغيرهم فلم يختلف تخيلي لهم قبل أن أراهم مع الواقع الذي كانوا عليه من حيث الصورة

الا قليلاً ، أما الفكيكي فقد كان التباين كبيراً بين ما كنت أتخيل صورته وبين الصورة التي وقعت عيناي عليها ، فهذا هو الفكيكي : رجل قصير القامة ، صغير الحجم مثله مثل عبد القادر المازني اذا لم تكن مسبوقاً بقصر قامته ، وعرجه ، ثم تركت للاسم والأثر وحدهما أن يخطا في ذهنك ما يخطان، ويوحيا لك عن هيكله الجسمي وشكله ما يوحيان .

وأول ما التقيت الفكيكي التقيته في (قهوة البيروتي) ، وقهوة البيروتي هـذه كانت أكبر مقاهي بغداد على الاطلاق ، وكانت تقوم على الجسر من جانب الكرخ ، وتمتد على موازاة النهر ،وخلفها يمتد سوق هو الطريق الوحيد الذي يسلك السالك الى القصور القائمة على دجلة حتى السفارة البريطانية ولم يبق اليوم أثر لقهوة البيروتي ولا للسوق . وانما تقوم عليها اليوم بناية لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية وساحة لوقوف السيارات . وقد قيل ان شهرة هذه المقهى قديمة أبعد من شهرتها يوم كان يشغلها ابراهيم البيروتي الذي قيل عنه انه كان من عمال البيروتي الأصلي ثم انتقلت المقهى اليه بعد أن مات البيروتي ولحقت به نسبته .

ومقهى البيروتي كانت تعتبر بمثابة ناد عام ، وملتقى لجميع التجار والوجوه ، ومضرب موعد لجميع الذين يقدمون من خارج بغداد ومن الجنوب خاصة .

وهنا في المقهى تلتقي بالمحامين ، وبالدلالين ، والتجار ، والشعراء . وهنا في مقهى البيروتي كثيراً ما تتم صفقات البيع والشراء وعقد المقاولات ، وكانت أكثر مدن الفرات لا تزال على عادتها السابقة في اعتماد المسافرين في ايصال المكاتيب والامانات الخفيفة وذلك لما خلف البريد على العهد العثماني من قلة الثقة بسبب تلكؤه وبطئه ،وقد دامت قلة الثقة هذه الى ما بعد انتظام البريد في عهدالاحتلال البريطاني وقيام الحكومة العراقية بسنين طويلة ، وكان الناس في أغلب المدن اذا عرفوا بأقدام شخص على السفر الى بغداد قصدوه ، ودفعوا بمكاتيبهم اليهليوصلهاالى (قهوة البيروتي) التي لا بد وأنه سيمر بها ، فاذا فعل ذلك اطمأن صاحب الرسالةمن وصولها اكثر من اطمينانه من البريد .

ولقد كان البعض من الناس في مدينة النجف يخرج بمكاتيبه الى خارج

المدينة فيدفع بها الى من يرى من المسافرين حتّى وان لم يسبق له أن عرفه من قبل لأن حمل هذه الرسائل قد أصبح بمثابة الفريضة التي تفرض التعاون والمشاركة في تسهيل أمور الناس اذ قد يحتاج حامل الرسالة هو ذات يوم الى مثل هذه المساعدة، وما على المسافر الا أن يحمل هذه الرسائل الى مقهى البيروتي فيتسلمها منه ابراهيم البيروتي ويوزعها على أصحابها الذين قل من لم يرتد مقهاه . أما ما يتبقى من المكاتيب فيضعها البيروتي فوق الرف من (الأجاق) –الموقد – أو فوق صندوق النقد ، ليتسلمها صاحبها حين يمر بمدخل المقهى .

وعلى ذكر البريد والرسائل في تلك الايام أذكر أن (تومان عدوه) وهو من مشاهير هؤلاء الذين يسمّون (بالمشاهدة) في النجف ومن المعروفين بالظرف والفكاهة قد همّ بالسفر الى بغداد ذات يوم وبداعي هذه السنّة: سنّة ايداع الرسائل الى المسافرين حمّله جمع كبير طائفة كبيرة من هذه الرسائل ليسلمها الى (قهوة البيروتي» فكان يتسلم الرسالة ويقول لصاحبها «احسبها واصلة بيومها». ولكنه حين وصل الى بغداد ودخل (قهوة البيروتي) هاجت في نفسه دعابتها، ولا تسل عما اذا كان مثل هذا يدخل ضمن دائرة الدعابة ، وانما عليك أن ترى ماذا فعل (تومان عدوه) بالمكاتيب ، فقد اقتعد احدى الارائك المطلة على دجلة وبدأ يخرج المكاتيب من جيوبه ويمزقها ويلقي بها في النهر .

وليس بالمستغرب أن يفعل تومان مثل هذا باسم الدعابة فان هناك الكثيرين ولم يزل منهم الكثيرون حتّى اليوم يستسيغون هذا اللون ويعتبرونه ضرباً من ضروب المزح والنكتة الحلوة سواء كان داخل هذه المكاتيب صكوك أو وثائق أو أخبار ذات أهمية . فان تمزيقها دعابة حلوة في عرف هذه الطبقة ، وأن على أصحاب هذه الرسائل التي مزقها تومان أن يضحكوا اذا ما سمعوا بمصير رسائلهم ، بل عليهم أن يضحكوا ملء اشداقهم ! ! ..

وجئت أنا من النجف الى بغداد أحمل رسالة من أحد تجار الحبوب في النجف الى أحد تجار الحبوب ببغداد اسمه الحاج توفيق ، ولا أذكر الان لقبه ، وقال لي صاحب الرسالة وأنا أستقل السيارة في النجف : حسبك أن تبلغ مقهى البيروتي –

ولا شك انك بالغها – وتسأل عن الرجل فستجده هناك حتماً ، ثم توسل الي بأن لا أتوانى في ايصالها لأن في الرسالة شيئاً يهمه جداً .

ووصلت بغداد ، وقصدت (قهوة البيروتي) وسألت صاحبها ابراهيم عن الرجل ،فأشار الى الجهة الجنوبية من مقهاه ، وقال لي إنه الرجل الذي يقتعد تلك الاريكة والذي يدخن (النركيلة) ، فرحت الج الممرات الضيقة بين الأرائك ، فأخرج من دروب ضيقة وأدخل في دروب ضيقة من صفوف الكراسي والأرائك وإن المقهى كما يذكرها من يذكر – كبيرة واسعة ، حتى بلغت الرجل ، وكان يجلس على تخت مستقل ورجلاه متدليتان تكادان لا تبلغان منتصف ارتفاع التخت ، وكان صغير الحجم ، قصير القامة ، وكانت بيده جريدة يتلهّى بها ، أقول يتلهّى بها لأني لم أره متعمقاً فيها ، وقلت له : ان تاجراً من تجار حبوب النجف هو الذي حملني هذه الرسالة اليك ، وطلب مني أن أوصلها بكل سرعة اذا أمكن . فتناول الرسالة وما كاد يقرأ العنوان حتى ضحك وتوجه بنظره الى صوب شخص لا يبعد الا قليلاً منا وصاح : حاج توفيق .. حاج توفيق ، فقام الينا الرجل وكان رجلاً فارع الطول ، ضخم الجثة يعتمر لفّة من العقال لم أزل أتصورها جيداً والتي لم يبق اليوم من يعتمر أمثالها الا القليل ، وهناك قال لي صاحبي :

أعتقد أن شيئاً من سوء التفاهم قد حصل بسبب الاسماء فأنا توفيق الفكيكي وصاحب هذه الرسالة انما هو الحاج توفيق ...

وكم كانت دهشتي عظيمة لهذه المصادفة الغريبة التي تم لي فيها التعرف بتوفيق الفكيكي عن كثب ، وهنا طلب الفكيكي مني الجلوس في المقهى ، وكان الوقت صيفاً ، ولم أزل أذكر أنه نادى فطلب لي كأساً من (الأزبري) ولم أكن أعرف يومذاك بعد ما هو (الأزبري) حتى جاء به النادل فاذا هو من المرطبات اللذيذة ذات النكهة الطيبة وكان لونه أخضر زاهيا ، وكان الكأس كبيراً مما لم يبق له مثيل في الحجم اليوم في المقاهي ولم تقع عليه عيني منذ سنوات بعيدة .

صحيح أنني كنت أجيء الى بغداد في العطل المدرسية فقد كنت من معلمي المدرسة الأميرية الوحيدة في النجف ، وكنت أرى في مقهى البيروتي وفي المقهى التي كانت تقوم قبال وزارة المعارف بشارع المأمون والتي تشغلها مديرية الآثار فيما بعد ، وكنت أرى الواناً من هذه المرطبات ولكني لم أدر لِمَ لَمْ يستهوني شربها ، وكان من أكثرها انتشاراً مرطبات غازية كانت تسمى (بالناملیت) ، ولكن رأيي قد تغيّر فيها منذ أن شربت هذا (الأزبري) عند الفكيكي ، حتى لقد بحثت عن محل بيع الأزبري وهذا اللون الاخضر منه واقتنيت منه قنينة وأخرى صفراء كان على القنينة هيكل كمثرى بارزة من الزجاج وجئت بهما معي الى النجف .

ولست أدري كم مكثت الى جانب الفكيكي في (قهوة البيروتي) كما لم أذكر الآن بالتفصيل كل ما دار بيننا من الأحاديث ، وقد قمت من المقهى على أمل أن التقيه كل يوم في هذا المجلس ما دمت في بغداد .

وصرت أمرّ على (قهوة البيروتي) فأجده أحياناً في نفس المكان وعلى التخت نفسه ،فهو من الذين اعتادوا قلة الحركة وقلة تغيير المكان وكنت أراه في بعض الاحيان الى جانب بعض الأصدقاء ، وأحياناً كنت أمر بالمقهى فلا أجده فأجد خبره عند ابراهيم البيروتي .

وأصرّ ذات يوم وقد طال مجلسنا حتى تجاوز أذان الظهر ، لقد أصرّ على أن نتناول الغداء معاً ، وهنالك نادى أحد صغار الندل في المقهى وطلب منه أن يأتي لنا بعدد من سياخ (الكباب) والطماطة المشوية ، وكان غداء فاخراً طالما ذكرّته بهبعد ذلك حين اشتدت أواصر الصداقة بيننا .

ولا أذكركم مرة التقيت الفكيكي عند زيارتي لبغداد ولكني على يقين انني ندر أن زرت بغداد ولم أزره في نفس المكان من هذه المقهى وكان يعجبه أن يورّي بين لقبي ومعناه فينعتني بخليله ويناديني (بخليلي) اضافة الى ياء النسبة، وكان غير صديق واحد يفعل مثل هذا حتى لقد أدخل البعض ذلك بالشعر فورّى بين نسبتي ومعناها ، ولكني أحسب أن الفكيكي كان أسبق من غيره في استعمال هذه التورية ومناداتي بيا خليلي .

وتحولت هذه اللقاءات بعد ذلك الى صداقة متينة . وولاء واخلاص . ومرّت بعد ذلك سنوات أصدرت فيها جريدة الفجر الصادق، ثم جريدة الراعي ، ثم جريدة الهاتف في النجف ، وجرى تعيين الفكيكي حاكماً منفرداً للواء كربلا . وصادف أن غاب حاكم محكمة النجف في اجازة طويلة اسندت فيها حاكمية النجف وكالة اليه بالاضافة الى حاكميته المنفردة في كربلا . فكان يأتي النجف لينظر في دعاوى محكمتها بين آونة وأخرى وكان قبل ذلك قد شغل حاكمية (ابو صخير) القريبة من النجف ، فكانت هذه الاسباب هي التي تجعل صلته بالنجف قوية ومستديمة وتشده الى الأدباء شداً محكماً ، وما لبث أن اتسعت دائرة معارفه . وأصبحت له دالة كبيرة على الأشخاص ، كما وثّقت زياراته هذه صلاته بجمع كبير من العلماء وفي طليعتهم الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء الذي أحبه حبـــاً جماً ، وبالخطيب الكبير الشيخ محمد علي اليعقوبي ، وبالشاعرين البارزين السيد محمود الحبوبي وصالح الجعفري ، وبمحمد علي البلاغي صاحب مجلة الاعتدال ، وبجميع أعضاء جمعية الرابطة الادبية في النجف ، ولم يلبث حتى أصبح من أسرة جريدة الهاتف القلمية وورد اسمه في نهاية احدى سنين (الهاتف) ضمن صفوة كتاب (الهاتف) وأعضاء أسرته القلمية ، وكان ينشر أغلب مقالاته في الهاتف بتوقيع ابي أديب وهي كنيته باسم ابنه الاكبر توقياً من المسؤلية أو الملامة ، فيما اذا بدا منه ما يخالف الرأي العام أو رأي الحكومة بصفته حاكماً تفرض عليـــه المقتضيات أن يتجنب الخوض في الشؤون العامة وإن تكن بعيدة عن السياسة والشؤون الخاصة ، ومع ذلك فقد يخرج على العرف والمقتضيات بعض الأحيان فيعلن عن اسمه الصريح ويذيّل مقالاته باسمه الكامل ولاسيما حين تكون هذه المقالات ذات علاقة بالشؤون الادبية أو الفقهية .

وأعتقد أن الفكيكي منذ هذا التاريخ أي منذ تعيينه حاكماً منفرداً في مركز لواء كربلاء قد بدأ يشغل من ذهن المثقفين والمتتبعين وأهل الادب مركزاً مرموقاً فقد دعته مقتضيات وظيفته كحاكم ذي شأن أن يتتبع الكتب الفقهية والادبية التي تعج بها مكتبات النجف العامة والخاصة مما ليس من السهل الحصول عليها في

غير مدينة النجف ولاسيما المخطوطات المتنوعة منها ، بالاضافة الى حضوره مجالس بحث العلماء وأندية الادباء، وعلى الأخص مجلس الامام كاشف الغطاء ومجلس الشيخ محمد رضا الشيخ هادي ، ومراجعته لمكتبتهما العامرتين اللتين تعتبران من أكثر المكتبات نفاسة وأهمية لاحتوائهما على عدد من الكتب الخطية اليتيمة .

أجل لقد ذاعت شهرة الفكيكي كباحث ومتتبع وأديب ، منذ هذا التاريخ وأصبح هذا التاريخ حداً فاصلاً بين الفكيكي الصحافي الكاتب ، والفكيكي الباحث المحقق ، وقد زاد هذا من قيمته ككاتب سلس العبارة ، مشرق الديباجة حتى أشار الى ملكته هذه غير واحد من الكتاب والشعراء ، وفيه يقول عبد القادر رشيد الناصري وهو يستعرض أحد مؤلفاته ، من قصيدة طويلة ، يقول فيها :

أدب كسلسال الصفا يترقرق ... سحر العقول رواؤه والرونق
نظمت لآلئه يراعة عالم ... يملي عليه فؤاده والمنطق
المبدع الحكم الرقاق كأنها ... من حسنهن عرائس تتألق
فكأنما الفاظه في نسجها ... درّ بأعناق الحسان يعلّق
وكأنما الفاظه زهر الربى ... فمبعثر من جانب ومنسّق ..الخ

وألّف توفيق الفكيكي في مواضيع مختلفة طبع بعضها ، ولا يزال بعضها مخطوطاً، وكان من أشهر كتبه كتاب (المتعة) ، الذي غربل فيه التاريخ باحثا عن أصل المتعة في الاسلام والتشريع الصادر بها من النبي محمد (ص) حتى زمن الخليفة عمر (ص) الذي حرمها فوقع بذلك الاختلاف بين من رأى جواز هذا التحريم ، وبين من لم يجز هذا التحريم بعد تشريع النبي (ص) لها ، ويمشي الفكيكي في تتبعه التاريخي المجرد عن التحيز لأية جهة من الجهتين حتى يورد في بحثه رأي المشرعين في قوانين العصر الحاضر ، وهو كتاب أحدث ضجة كبرى في الاوساط ، وقد ترجم – على ما بلغني الى بعض اللغات كالانكليزية ، والفارسية ، والهندية ، ولكني لم أقف الا على الطبعات العربية ، وحتى اليوم والكتاب المذكور مطلوب مرغوب وهو بحكم النادر وقد يطبع طبعات جديدة أخرى لكثرة ما يلقى من الطلبات .

وعلى أن كتاب (المتعة في الاسلام) يعتبر من أهم الوسائل التي قامت بتعريف الفكيكي كباحث ، وكباحث فقه،وتشريع واسع الاطلاع فان كتاب (الراعي والرعية) كان أوسع تعبيراً عن ملكات الفكيكي العلمية والاجتماعية والقانونية .

و (الراعي والرعية) هو شرح لعهد الامام علي بن ابي طالب (ع) الذي كتبه الى مالك الأشتر حين ولاّه مصر ليتخذ منه دستوراً في كيفية معاملة الرعية وتنظيم أحوالهم ، وادارة شؤونهم ، وقد سبق أن تولى شرح هذا العهد والتعليق عليه عدد من فحول العلماء والمؤرخين في مختلف العهود وبأساليب مختلفة ، ونهج خاص ، ولكن هذا الشرح والتعليق الذي قام به الفكيكي لهذا العهد قد بزّ جميع تلك الشروح والتعليقات السابقة .

وقد أشار السيد هبة الدين الشهرستاني في مقدمته التي كتبها (للراعي والرعية) كما أشار الاستاذ محمد عبد الغني حسن في الطبعة الثانية من الكتاب الى بعض من قام بشرح هذا العهد كالامام الشيخ محمد عبده الذي شرح العهد في كتاب (مقتبس السياسة) الذي طبع في حياته سنة ١٣١٧ ، وكالسيد الماجد البحراني وذلك خلال القرن الحادي عشر الهجري والذي سمى شرحه (بالتحفة السليمانية) وكسلطان محمد المتوفى سنة ١٣٥٤ الذي سمى شرحه (بأساس السياسة في تأسيس الرياسة) وكالحسين الهمداني الذي سمى شرحه للعهد . (بهداية الحكام) وقد ترجمه الوقاري الوصال الشاعر الشيرازي نظماً بالفارسية وهو شاعر مشهور من أبناء القرن الثالث عشر الهجري وقد توفي سنة ١٢٧٤ هـ ، كما ترجمه الشاعر التركي محمد جلال نظما الى التركية على ما ذكر السيد هبة الدين الشهرستاني الحسيني .

والكتاب هذا يصور هدف الاسلام من التشريع وفلسفته وما ترمي اليه الشريعة الاسلامية من تعميم هذا القانون لكي يسود العدل جميع أقطار الدنيا وأنحائها دون تفرقة بين مسلمين وغير مسلمين .

وقد أهدى لي الفكيكي كتابه هذا فلم يتسنّ لي أن أقرأه في وقته حتى مرّ وقت طويل والكتاب كاد ينفد من السوق وأنا مشغول عنه ومستبق اياه وكتبا

أخرى الى ساعة يصفو فيها بالي من أعمال الجريدة وقراءة ما يتعلق بها ، ولقد قال كل من أراد أن يقول قولته في (الراعي والرعية) ولقد قرأت بعض تلك الأقوال والتقاريظ في الصحف كما تقتضيني مهمتي الصحافية ولكن هذا لم يعجل بي إلى قراءة هذا الكتاب وغيره من الكتب المهمة التي كنت أنتظر الفراغ لقرائتها لنفسي وليس لعملي الصحافي ، وكثيراً ما كنت التقي الفكيكي ، فيدور الحديث حول جميع المواضيع الا موضوع (الراعي والرعية) ! !

وذات يوم ونحن في مجلس من هذه المجالس الادبية المشرقة في بيت الشيخ قاسم محي الدين الذي جاء ذكر (الراعي والرعية) فوجه الفكيكي حينذاك عتابه الي وجرى الحديث بهذا المضمون :

قال – كنت اريد أن أسمع نقدك ومآخذك على الكتاب ، ولكنك – ولست أدري لماذا ؟ – بخلت حتى بالنقد ؟ فهل وجدت في الكتاب ما لا يستساغ ذكره ؟

قلت – معاذ الله ... فأنت أدرى برأيي في آثارك ، وكم يخجلني أن يخونني (التوفيق) فيحول بيني وبين قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى ...

فقال لي بشيء من التعنيف بما مضمونه :

– ما كنت أحسب أن كتب الجنس التي شغلت الشباب في هذه الايام بقادرة على أن تشغلك عن (الراعي والرعية) .

فضحكت ... وطالما كان يقول الفكيكي مثل هذا في مناسبات كثيرة وينعي الادب وضياعه ، وعدم قدرته على أن يطرد التافه من أذهان القراء ليحل هو محلها واذا سلمنا أن عنصر الجنس ضرورة من ضرورات الحياة فليس معنى ذلك أن يكون الجنس كل شيء في حياة الانسان بحيث يشغل كل فراغه ، وهذا الخبز وهو العنصر الاساسي في حياتنا نحن العراقيين والذي لولاه لمات من اتخذه وحده دون غيره من عناصر التغذية غذاء ، هذا الخبز لا يستطيع بأي وجه من الوجوه أن يكون الشاغل بحيث يدعونا الى أن نأكل خبزاً من الصباح الى المساء ، وعند أية فرصة حاصلة ، فاذا كان لهذا الخبز والماء وهو العنصر الاساسي في الحياة حدود وأوقات

فكم يكون الاهتمام بالجنس أولى بهذه الحدود عند الشباب .

أقول : ان الفكيكي كان يرى كما كنت أنا أرى ذلك ولعله من قبيل توارد الخاطر أن نقول معاً أن الشباب بدأ يعنى بالترفيه في قراءته أكثر مما يعنى بالجمع بين التهذيب والتوجيه والترفيه معاً ، وأنا أرى أن الترفيه حق ، ولكن هذا الحق لا يجوز له أن يطغى على الكل ويصبح كل شيء في الوجود .

وقد أشار الفكيكي الى مثل هذا في بعض كتبه فقال :

«ان المؤلف لا ينال عندنا الا الاجحاف من الاصدقاء والهضم من الحساد الاغبياء ، أما المجلات الخلاعية ، والروايات الهدامة لروح الفضيلة والأخلاق ، والكتب الضحلة ذات العناوين الخداعة المستوردة فلها سوق نافقة عند شباب هذا البلد وشوابه يتهافتون عليها كالفراش على النار مع الاسف الممض ، أقول هذا وفي النفس حسرات ، وفي الكبد قروح وجمرات » .

وفي ذلك اليوم الذي تلقيت من الفكيكي ذلك التعنيف بدأت أقرأ كتاب الراعي والراعية ، وما كدت أنتهي من قراءته حتى كتبت الكلمة التالية عن كتابه في جريدة الهاتف فنقلها مع ما نقل من كلمات الآخرين عن الكتاب ونشرها في طبعة كتابه الجديدة على سبيل النموذج لاراء الكتّاب في كتابه .

وأنا أنقل هنا كلمتي من المسودة التي اعتدت أن أحتفظ بأمثالها فيما يخص نقد الكتب وتقريظها دون غيرها ، وهي الكلمة التي كان يرغب فيها الفكيكي رغبة ملحة في أن يعرف رأيي الصريح الذي لا تشوبه أية شائبة من المجاملة ، فقد جاء في المسودة ما يلي :

« بين رجال القانون عندنا طبقة امتازت بالمواهب الادبية امتيازها بالمفاهيم التشريعية والقوانين فراحت تعنى بدراسة الادب العربي وتاريخه عنايتها بالقوانين والانظمة ، فكان من نتائج تلك الموهبة أن ظفرت المكتبة العربية بطائفة من الدراسات العلمية المختمرة والبحوث الادبية الممتعة التي كثيراً ما ساعدت على رفع مستوى الثقافة العامة ، ووفرت جهوداً كبيرة للباحثين والمنقبين بما استخرجت لهم

من كنوز التاريخ ، وكشفت من أقنعة الشكوك والريب والاوهام ، ويأتي الاستاذ توفيق الفكيكي بين طليعة هؤلاء المعنيين بالأدب والتشريع ، فقد صدرت له بعض المؤلفات الدالة على ما يمتلك من قابلية مرموقة في عمق البحث والدراسة ، وهو لا يزال يقتل فراغه باخراج طائفة من هذه المؤلفات التي تجمع بين التاريخ والادب والتشريع والاحكام .

وآخر ما وصل الينا منه كان كتاب (الراعي والرعية) وهو شرح ضاف لعهد الامام علي (ع) الذي وجهه الى مالك الاشتر (ض) حين ولاّه ولاية مصر .

وهذا الشرح مصدر بمقدمة ضافية للعلامة الجليل السيد هبة الدين الحسين الشهرستاني ، وبمدخل كتبه له : حجة الاسلام الشيخ هادي آل كاشف الغطاء بصفته من أكثر العلماء تتبعا لآثار الامام علي بن أبي طالب (ع) ومن أكثرهم وقوفاً على خطبه ، فقد صدر له مستدرك على نهج البلاغة حوى الخطب التي تم تحقيقها والتي فات الشريف الرضي جمعها مع ما جمع من خطب نهج البلاغة — كما احتوى كتاب الفكيكي على خلاصة جامعة عن الامام علي (ع) وترجمة اجمالية عن مالك الاشتر (ض) — ولم يكن الاستاذ الفكيكي بأول شارح لهذا العهد، وانما تولاه بالشرح والتعليق جمهور كبير من علماء القرون المتقدمة ممن أشار الى بعضهم العلامة هبة الدين الحسيني في مقدمته .

أما شرح الاستاذ الفكيكي فيمتاز بثلاثة أمور :

١ — شرحه العهد بعقلية العصر الحاضر ، مما جعل الفرق كبيراً بين هذا الشرح والشروح المتقدمة .

٢ — عرضه لآراء الشرّاح واستخلاص رأي أدعى للاطمئنان وأقرب للحقيقة .

٣ — إفراده للكلمات اللغوية تفسيراً مستقلاً دوّنه في هوامش الكتاب مما سهّل توضيح الجمل والكنايات والتشابيه وسائر فنون البلاغة والبديع .

وللميزة الاولى طابعها المشهود في الشرح عند كل مادة وكل موضوع من مواضيع (العهد) يعود اليها الفضل في توجيه الانظار الى ما يتضمن (العهد) من

الاحكام والوصايا التي تنطبق على هذا العصر — كما لو كان المشرّع أحد فلاسفة هذا العصر وكبير أئمته — حتى لكأن القارىء لا يقرأ عهداً يرجع تاريخه الى الف وثلثماية سنة ونيف ، وانما يرى نفسه أمام خلاصة لمجموعة من الشرائع الحديثة في القضاء والادارة ، والسلم ، والحرب ، وكل ما يتعلق بالمجموعة البشرية من نظام يقوم على العدل ويضمن للناس السلام والاطمينان، ورغد العيش والهناء .

نقول : ان ميزة شرح الاستاذ الفكيكي للعهد الذي كتبه الامام علي (ع) لمالك الاشتر (ض) تنحصر في ثلاث نقاط ، والصواب أن نقول في أربع نقاط فالنقطة الرابعة كامنة في أسلوب التأليف وعرض المواضيع ، فأنت لا تنتهي من قراءة أي فصل من فصول الكتاب الا وتجد نفسك أمام خلاصة عامة لمختلف النظريات الحقوقية ، والقوانين المرعية لدى الحكومات المتحضرة ، وبذلك وفّق المؤلف غاية التوفيق في جعل كتابه هذا ملتقى لكبار المفكرين من علماء التشريع ومرجعاً لطائفة من البحوث الادبية ، والاراء الاجتماعية الحديثة ، وهذا وحده لدليل كاف على مدى ما عانى هذا المؤلف في الجمع والبحث والتنقيب من مساع حميدة مذكورة بالشكر والثناء .

والذي يعرف (أبا أديب) ويعرف غزارة علمه لا يستكثر عليه مثل هذا الانتاج الادبي الرائع لاسيما فيما يتعلق بالقضاء والتشريع الذي تؤيده أحكامه التي يصدرها من منصة القضاء ، والتي قلما اعترضتها محكمة التميز وردّتها اليه لاعادة النظر فيها من جديد الخ.. »

وبعد نشر هذه الكلمة في جريدة «الهاتف» تلقيت منه رسالة بحثت اليوم عنها في اضابير الرسائل لأدرجها هنا فلم أعثر عليها ، ولكني أذكر أن مضمونها كان شكراً وكان ضرباً من ضروب الاعتزاز بكلمتي تواضعاً منه ولطفاً .

* * * *

والفكيكي بغدادي أصيل ، ومع ذلك فقد صار نجفياً ذات يوم وأكثر نجفية من النجفيين لكثرة اتصاله ببيوتهم العلمية ، ومعرفته باعلامهم ، وبحثه

المتواصل بين مكتبات البيوت الخاصة ، وتتبع المخطوطات التي تنفرد بعض الخزانات النجفية بها ، وكانت صلته بالشيخ محمد علي اليعقوبي قد سهلت له اشباع رغبته العلمية ومكّنته من الاطلاع على النفائس من المخطوطات النادرة اليتيمة ، ولا سيما ما كان يحتفظ به اليعقوبي نفسه في صندوقه الكبير الذي جمع الشيء الكثير من القصائد والرسائل المفقودة لطائفة كبيرة من شعراء الحلة وأدبائها وشعراء النجف وأدبائها سواء الذين جمع آثارهم أبوه الشيخ يعقوب او الذين جمع آثارهم هو من مختلف المظان والخزانات أمثال بيت السيد حسين القزويني في النجف ، وبيت السيد محمد القزويني وآل عوض في الحلة ، حتى لقد انحصر تاريخ الأدب العراقي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين باليعقوبي وبهذه الخزانة التي أطلق عليها اسم (صندوق اليعقوبي) أو كاد ينحصر اذا طلبنا الدقة الكاملة في التعبير .

ولشدة اتصال الفكيكي باليعقوبي وملازمته له فبالامكان أن يعدّ الفكيكي بمثابة الراوية لليعقوبي ، وكان الفكيكي قد وصف اليعقوبي مرة بمقال نشره في جريدة الهاتف كان من أروع أدب القريض بحيث يصلح وحده أن يكون عنواناً لأدب الفكيكي وعلو كعبه في الانشاء ، وطول باعه في البلاغة ، ولمن يريد الوقوف على هذه الكلمة وديباجتها أن يرجع إلى كتاب : (هكذا عرفتهم) (١)

ولصندوق اليعقوبي حكاية قد مرّ طرف منها في استعراض حياة اليعقوبي في الجزء الثاني من كتاب (هكذا عرفتهم) فقد كان اليعقوبي حريصاً على صندوقه هذا لما عرف به محتواه مما أشرنا اليه من الشوارد الأدبية ، والوثائق التاريخية من تراجم أئمة الادب والعلم مما لا تحويه أية خزانة اخرى ، وكان حرص اليعقوبي قد وصل به إلى أقصى حدود البخل بحيث كان يمتنع من كشف غطاء الصندوق حتى لأعز أصدقائه وأحبابه باستثناء توفيق الفكيكي الذي كان يصول ويجول في هذا الصندوق وحده لما كان بينه وبين اليعقوبي من المحبة والمودة والثقة الخالصة .

---

(١) هكذا عرفتهم ج ٢ ص ١٤٧ .

وكان من رأي الفكيكي وجوب تفرّغ اليعقوبي وتصدّيه لاستخراج هذه الكنوز وغربلتها وتصنيفها ، وسدّ الفراغ الحاصل في تاريخ الأدب بها ، ولكن اليعقوبي كان يشعر بثقل مسؤولياته الكثيرة وهو الخطيب الأكبر للمجالس الحسينية فضلاً عن أن مشروعاً كهذا يتطلب نفقات كثيرة يصعب على اليعقوبي تدبيرها ، ولكن مثل هذه المعاذير لم تخفف من الحاح الفكيكي واصراره على وجوب العمل لاخراج هذه الكنوز .

وكلّمني الفكيكي يومها بشأن هذا الصندوق — صندوق اليعقوبي — في أن يكتب في جريدة الهاتف كلمة عن هذا الصندوق عسى أن تكون سبباً في هياج بعض الكتاب واشعال نار ثورة عارمة في وجه اليعقوبي يكون من نتائجها فتح الصندوق واخراج بعض محتوياته عسى أن يتم نشر بعض البحوث المستقلة من الشعر والنثر مما لم ينشر من قبل فتظفر جريدة الهاتف بشيء من هذا الكنز ويكون لها الفضل في نشره بين الناس ، فرحبت بفكرة الفكيكي وأعددت له المكان اللازم لنشر كلمته ، وما كادت تنشر كلمة الفكيكي عن (صندوق اليعقوبي) حتى انبرى عدد من أرباب الفضل والشعر يعلقون على مقال الفكيكي في جريدة الهاتف ، وظل الهاتف ينشر تلك المقالات والقصائد مدة طويلة ومن هؤلاء الذين هاجهم مقال الفكيكي وحملته على اليعقوبي لبخله وحرصه على الصندوق : كان الشيخ جعفر نقدي ، والشيخ محمد حسن حيدر ، ومحمد الخليل ، وكان الأمر كما توقع الفكيكي اذ اضطرت هذه الحملة الشيخ اليعقوبي إلى فتح باب الصندوق على مصراعيه ، وبدأ منذ ذلك اليوم يخرج المقال تلو المقال وينشره في الهاتف ، واذا بالقراء والقراء الباحثين يقرؤون أشياء جديدة لم يكونوا ليقرؤوها لولا الفكيكي ، وكان من هذه البحوث تراجم لشعراء لم يبق لهم التاريخ ذكراً وقصائد كانت قد كتبت بأقلام أصحابها ، وفي ذلك خاطب الشيخ محمد حسن حيدر توفيق الفكيكي قائلا :

لولاك لم ندر ما يحويه من أدب [1] ومن كمال لأهل الفضل مرغوب

(١) الضمير عائد للصندوق .

شحّت به نفسه بخـــلا ولا عجب فالشح والبخل من طبع (ابن يعقوب)
فهل (أبو الطيب) هذا البخل أورثه ام ابن يعقوب قد أعدى (أبا الطيب)

ثم اضطر اليعقوبي بعد ذلك للاهتمام بتنسيق تلك المواضيع وتأليف الدواوين فخرج من الصندوق عدد من الكتب النفيسة إلى حيز الطبع كان منها : ديوان أبي المحاسن أقدم وزراء المعارف في العراق ، وكان ديوان صالح الكواز ، وكان ديوان ابن القيّم ، وكان (البابليات) وهو كتاب تراجم لطائفة من شعراء الحلة يقع في ثلاثة أجزاء ، وكتب أخرى لولا الفكيكي وجريدة الهاتف لما كتب لها أن ترى النور لا سيما هذا الكتاب أعني (البابليات) الذي قضى اليعقوبي في جمع تراجم شعرائه وأشعارهم وضبطها سنين طويلة .

وللبابليات — قبل أن تطبع — حكاية أتينا على موجزها في كتاب (هكذا عرفتهم) ، وقد نشرت هذه الحكاية في آخر كتاب البابليات ، ورواها اليعقوبي نفسه بشواهدها (١) .

وخلاصة الحكاية هي أن الفكيكي قد استعار من اليعقوبي مسودة البابليات قبل تقديمها للطبع ، وكان الفكيكي لم يزل يومذاك الحاكم المنفرد في مدينة كربلا وقد علم علي الخاقاني بهذه (المسودات) عند الفكيكي فجاء راجياً أن يعيره مسودة البابليات سواد ليلة واحدة لمجرد الاطلاع عليها ، والخاقاني صديق للفكيكي وموضع ثقته على ما يستبان من سهولة حصول الخاقاني على مسودة (البابليات) ومن اعتراف الفكيكي بهذه الصداقة كما ورد ذلك في مقال الفكيكي نفسه .

وفي تلك الليلة التي تمت فيها استعارة البابليات من لدن الخاقاني ، شمّر الخاقاني عن ساعد الجدّ ونقل من البابليات تراجم طائفة من الشعراء ، ثم بدأ ينشرها باسمه كما لو كان هو جامعها ومحققها والعاثر عليها في الخبايا والزوايا من بيوت أهل العلم ولا سيما بيت القزويني وآل عوض ، ثم ألف الخاقاني

---

(١) هكذا عرفتهم ج ٢ ص ١٦٧ .

بعد ذلك من هذا الذي نقله من البابليات ومما كان قد جمعه هو كتاب (شعراء الحلة) .

وحين اطلع اليعقوبي على تراجم تلك الجمهرة التي كان قد حققها بنفسه وكتبها بقلمه ، وترجم لأصحابها حسب تتبعاته ، والتي ليس بمقدور أحد أن يحققها ويترجمها على هذا النسق غيره .

أقول وحين اطلع اليعقوبي على هذه السرقة العلنية جنّ جنونه وجرى بينه وبين الفكيكي عتاب وملام تعرض له كتاب (هكذا عرفتهم) في موضوع : (كيف عرفت اليعقوبي) وحين أشرت أنا إلى هذه القصة باقتضاب في جريدة (البلد) قامت قيامة الخاقاني وأنكر ذلك وعزاه مني إلى الكذب والتلفيق ناسيا أن الشيخ اليعقوبي هو الذي أورد قصة هذه السرقة مطبوعة في آخر كتاب (البابليات) ، وأن الفكيكي نفسه قد أيّد اليعقوبي على ما ورد من حديث السرقة ، واندفع الخاقاني يقول في تعليقه على موجز ما أوردته أنا عنه [(١)] .

« ان الاستاذ الفكيكي المعروف بسلامة قلبه وحبه للعلم والعلماء والأدب والأدباء كان يحرص على دفع الشيخ اليعقوبي لابراز (بابلياته) وما في صندوقه بمختلف الأساليب ، وأنه كتب في جريدة الهاتف وغيرها [(٢)] المقالات المتعددة لهذا السبب ، وأخيراً بعد أن عرف اني عزمت على اخراج موسوعتي (شعراء الحلة) في خمسة أجزاء ذكر لي [(٣)] ان لديه دفتراً صغيراً اشتمل على أربعين ترجمة أو أكثر فأطلعني عليه ، وعندما قرأته رأيته يشبه ما مرّ علي خلال قراءتي ونقلي من الموسوعة الكبرى (الحصون المنيعة) للشيخ علي كاشف الغطاء والد الحجة الأكبر الشيخ محمد الحسين ، فأرجعته له ، وطلبت منه — أي من الفكيكي — أن يكتب مقالاً !! يتهمني فيه !! لأجيب عليه !! وبذلك يجد المرحوم اليعقوبي نفسه تجاه الأمر الواقع فيضطر لاخراج ما عنده ، ويبعث

(١) جريدة البلد ــ بغداد ــ العدد ٤٦١ وبتاريخ ١٩٦٥/١١/٢٥ .
(٢) الصحيح انه لم يكتب عن صندوق اليعقوبي في غير الهاتف .
(٣) اي الفكيكي .

ببابلياته التي ألفها خلال ثلاثين عاماً كما كان يقول ! !

« وفعلاً طلع الفكيكي علي بمقالة نشرها في جريدة الاستقلال – لا في جريدة الأخبار كما قال الخليلي – وفيها يقول بأن الشيخ الخاقاني غار على بابليات اليعقوبي وانتحلها .. ! ! » إلى آخر المقال الذي كتبه الخاقاني في جريدة البلد .

وضحك الكثير ممن كان قد وقف على القضية وممن لم يقف ، لهذا الأسلوب العجيب الغريب من الدفاع بأن يرضى انسان أن يضع نفسه موضع الاتهام بالسرقة ، والاعتداء على حقوق الاخرين ليس لشيء الا ليحمل اليعقوبي على ان ينشر ما هو في صندوقه ؟ ثم ما قيمة هذا الاتهام لكي يحمل اليعقوبي على فتح صندوقه وينشر منه بابلياته ؟

وقال لي البعض : لِمَ لم تكلّم الفكيكي ليبدي رأيه فيما اذا كان الذي يقوله الخاقاني صحيحاً أم غير صحيح ؟ وهل أنه قد جرى بينه وبين الخاقاني مثل هذا الاتفاق العجيب الغريب الذي يرضى أحدنا أن يتهم نفسه بالسرقة لا في سبيل إحقاق حق ، ولا نجدة منكوب ، ولا اغاثة ملهوف ، وانما لكي يظهر اليعقوبي من صندوقه ما يكتنزه من الشعر والأدب اذا جاز أن يكون مثل هذا الاتهام صالحاً لحمل اليعقوبي على فتح الصندوق ؟

فقلت اني لن أفعل ذلك ولن أكلم الفكيكي بهذا الخصوص لأني غير عابىء بما قيل ويقال في هذه المسألة وقيمة قائلها ، ولأني من أعرف الناس بالفكيكي وغيرته على الحق والحقيقة ، وان بامكانه أن يردّ هو ويعلق على مزاعم الخاقاني والاتفاق الذي جرى بينه وبين الخاقاني اذا كان هناك اتفاق كما يقول الخاقاني

فقيل لي : ومن يدريك ان الفكيكي سيطّلع على ما كتب الخاقاني لكي يقول ما يعرف عن هذه المسألة ؟

قلت : اني أعرف ان الفكيكي لا تفوته قراءة أكثر ما يجدّ في عالم الأدب يومياً ليس في العراق وحده وانما في الاقطار العربية الاخرى وعلى الاخص ما تنتجه

المطابع من الكتب والمؤلفات ، وعلى فرض انه لم يقرأ ما كتبه الخاقاني فلست بسائله أن يقرأ ما كتبه ، ولست بساع إلى تنبيهه إلى ذلك .

وقيل لي أن الفكيكي يقضي من كل يوم ساعات طويلة في مكتبة الخاقاني فلم لا تحتمل أنه سيغض طرفه وسيشيح بوجهه عما كتب الخاقاني اكراماً له ؟

قلت : هذا كلام يجوز أن يقوله الناس في غير أمثال الفكيكي ، فوالله ما عرفت في الرجل من الضعف والتخاذل عن نصرة الحق ما يجيز أن يقال فيه مثل هذا القول .

ولم أكن مخطئاً فيما رأيت اذ لم تمر أربعة أيام ، أربعة أيام فقط حتى طلع علينا الفكيكي بتعليق على كلمة الخاقاني ضارباً بالصداقة عرض الحائط في سبيل دعم الحق ونصرة الواقع ، ونشر تعليقه هذا في العدد ٤٦٤ وبتاريخ ٢٩/١١/٩٦٥ من جريدة (البلد) وهذا هو نصه :

حول الوساطة بين

الاستاذ الحليلي والشيخ الخاقاني

« الأستاذ الحليلي من أخلائي ، كما ان الخاقاني من أصدقائي ، وقد قرأت من قريب تعقيب الخاقاني على مقالات (أبي فريدة) الحليلي ، حول قصة صندوق اليعقوبي رحمه الله تعالى ، تلك القصة التي كنت أثرت فيها معركة قلمية بشأن ذخائر ومآثر (أبي موسى) الفقيد الغالي في جريدة الهاتف ، المحجوبة ، وجرى حولها تعليقات أدبية من المنثور والمنظوم ، وليتها تطبع الان ، لما تضمنت من الظرافة والطرافة .

« ولأجل الحق والتاريخ أقول : ان الأستاذ الحليلي لم يغمط الحق والحقيقة فيما كتب عن تلك المعركة (كذا) ولم يتعمد اتهام الصديق الخاقاني (كذا) بسرقة مجموعة (البابليات) الخطية (كذا) ، وكانت — أي البابليات — تقتصر على ترجمة ٦٠ شاعراً من أصل ١٢٠ ، وانما حكى — أي الحليلي — ما وقع من استعارة أبي بيان (الخاقاني) لتلك المجموعة لتكملة ترجمة الشيخ علي عوض

فأخذها ليلاً وأعادها لي صباحاً ، ولا أدري بعد هل قام باستنساخ المجموعة كلها أم اقتصر على حاجته منها ، بيد أن المرحوم اليعقوبي بعد أن أطلع على ما نشره الخاقاني عن حياة الشيخ علي عوض في مجلته (البيان) ثارت ثائرته حيث وجد الترجمة منقولة بنصّها عن مجموعة البابليات دون الاشارة إلى ذلك (كذا) وقد عاتبني رحمه الله بكتاب فأجبته عليه ، وشرحت له حقيقة الحال ، وعلى أثره كتبت مقالا استنكرت فيه عمل الصديق الخاقاني (كذا) .

« ولم يكن ما أقدم عليه (الخاقاني) نتيجة اتفاق ومؤامرة بيني وبينه لتحريك اليعقوبي على نشر ذخائر صندوقه كما ذكر ــ الخاقاني ــ في ردّه على الخليلي ، وهو واهم كل الوهم (كذا) » . إلى آخر المقال الذي تناول موضوعات أخرى غير ذات علاقة بهذا الموضوع .

وعند قراءتي هذا التعليق والردّ من الفكيكي الذي فنّد فيه جميع أقوال صديقه الخاقاني تلفنت للفكيكي لأطري فيه هذا الخلق الرفيع الذي جعل قدر الصداقة عنده يتضاءل ويتضاءل حتى ينمحي وجوده بالمرة حين شخص الحق والعدل والمروءة أمام عينيه حتى نسي أنه كان صديقا للخاقاني ونسي أنه كان يقضي معظم وقته في مكتبته ، لأن الحق عند الفكيكي وأمثاله من المتشبعين بروح العدل : أحق أن يتبع في حياة الانسان الذي يفهم معنى الانسانية .

لقد تلفنت له فقيل لي أنه يشكو وعكة تحول بينه وبين الردّ على التلفون ، وفي مساء ذلك اليوم كنت عند الدكتور ضياء جعفر وكانت تربطه بالفكيكي رابطة محبة ومودة ، وكان الدكتور ضياء جعفر من أهم العناصر التي جاءت بتوفيق الفكيكي نائباً إلى البرلمان يوم كانت السياسة تبحث عن وجوه جديدة فيها شيء من الكياسة واللياقة وحسن السمعة لترشيحه من قبل الكتل والاحزاب في انتخابات المجلس النيابي .

وعلم الدكتور ضياء جعفر بخبر وعكة الفكيكي مني فعرض علي أن نقوم بزيارته وعلى أن الوقت لم يكن مناسباً اذ كانت الساعة في نحو العاشرة مساء فلم أمانع وهكذا ما لبثنا أن طرقنا الباب ودخلنا البيت ونحن لم نطمع بأكثر من أن

ندخل عليه في غرفة منامه فنسأل عنه ونحن وقوف أو شبه وقوف عند سريره فنتمنى له الشفاء ونعود .

وبعد دقائق من انتظارنا في غرفة الجلوس لكي يؤذن لنا بالدخول عليه اذا بالباب يفتح ويدخل علينا هو مرحباً يتهلل وجهه بشراً ، وقد أبدى أسفه لأنه لم يعرف اتصالي ببيته تلفونياً في ذلك اليوم الا بعد انتهاء المكالمة التلفونية ، وهنا باركت له هذه الروح ،وهذه النزعة التي يجب أن يعتزّ بها الحقوقيون من رجال القضاء والادباء الذين يريدون أن ينهج الناس مثل هذا النهج لينسوا كل شيء في سبيل الحق والحقيقة ، وقد ردّ علي ولا تزال فحوى كلماته ترنّ في أذني : بأنه لم يكتب ما كتب انتصاراً لي ولا تنديداً بالخاقاني فهو يعلم- على ما قال وأكد - بأني في غنى عن هذا الانتصار والتأييد ، وانما اندفع بداعي جبلّته الشرعية والقانونية التي تفرض على الحاكم والقاضي أن لا يستجيب لغير الحق عندما يدعوه ضميره لأن يقول شيئاً ، أو يفعل شيئاً ، ولذلك - قال - تراني قد كتبت الكلمة بصيغة الحكم والقرار لا بصيغة التعليق والمقال التي تستلزم أن يصحب الرأي كثير من الرتوش والحواشي والتزويق الذي يستدعيه البديع ، وتقتضيه فنونه .

* * * *

قلت ان صلتي بالفكيكي قد توثقت أكثر في النجف ، وانتقلت هذه الصلة إلى أسرة الهاتف القلمية وصارت له بالكثير منهم معرفة ومحبة ، وقد اتفق لحسين مروة ،- الدكتور مروة اليوم - وكان يومذاك قد جاء من لبنان إلى النجف ليدرس الفقه والاصول ويحصل على درجة الاجتهاد ، وقد كان حسين مروة من أبرز أسرة الهاتف القلمية وأنشطها وذلك لعلو كعبه في الأدب والانشاء .

أقول لقد اتفق لحسين مروة أن ينسى تجديد إقامته ، أو أنه لم يكن يعرف ما كان يترتب على الغرباء عند انتهاء مدة إقامتهم ، وكان قد مرّ على ذلك

زمن قد يكون طويلاً ولم يسع لتجديد سجل (الاقامة) حتى اذا راجع دائرة الشرطة ذات يوم أحالت الشرطة قضيته إلى محكمة النجف التي كانت قد نيطت قضاياها بالفكيكي وكالة لتغيّب حاكمها ، فكان الفكيكي يقدم النجف من كربلا في يوم معين من كل أسبوع للبت في الدعاوى التي تعرض عليه ، وكانت قضية حسين مروة في ضمن القضايا التي عرضت على محكمة النجف في اثناء وكالة الفكيكي لينظر فيها في اليوم التالي ، وخشي حسين مروة أن لا يكون بوسعي مقابلة الفكيكي في اليوم التالي لتوصيته بخصوصه فاقترح علي زيارة الفكيكي بكربلا في هذا اليوم تداركا لما قد تنجم عنه قضيته في المحكمة غداً .

وقضية (الاقامة) قضية لا تستحق بأي وجه من الوجوه أن تسمى قضية لتفاهتها وعدم أهميتها ولكن الذي يعرف حسين مروة يومذاك ويعرف مبلغ حيائه واستنكاره أن يدخل قاعة المحكمة ، وتهيّبه السلطة وأرباب السلطة لا يستغرب منه القلق والجزع في وقوفه أمام الحاكم وهو معتمر بالعمامة ، وقابع بالعباءة ، لذلك راح يلح عليّ بالسفر إلى كربلا لمواجهة الفكيكي في مساء ذلك اليوم مستصبحاً اياه على ان نعود في نفس المساء إلى النجف .

ورأيت من باب الاحتياط والاطمئنان من وجود الفكيكي ان أتصل به تلفونياً لاعلامه بزيارتي له وعودتي في نفس اليوم ، فألحّ الفكيكي أن يكون عشائي عنده في هذه الليلة فقلت له ولكنني غير قادر على اجابة الطلب ، فأبى وظل يلح ويستفسر عن سبب الامتناع ، فقلت له : أن بعض الأصدقاء يحاول ان يزور معي كربلا وأنني مرتبط بهذا البعض والعودة معاً ، فقال : بل ان ذلك ادعى لتناول العشاء عندي ..

وهكذا كان ، فقد قصدنا الفكيكي ونحن أربعة أو خمسة كلهم من أعضاء أسرة (الهاتف) القلمية وكان في مقدمتهم حسين مروة .

وفي بيت الفكيكي امتدت لنا مائدة سخية بالفواكه ظنها البعض أنها العشاء الموعود فراحوا يتهامسون ويتغامزون في غفلة من الفكيكي كلما وجدوا

إلى ذلك سبيلاً ويقولون : أن الفكيكي قدم لهم (المجوّعات) بدلاً من (المشبّعات)

وطال مجلسنا بالحديث وحين مرت الاشارة إلى قضية حسين مروة تلقاها الفكيكي بشيء يشبه الهزء والسخرية وعدم المبالاة ، وقال : ان مثل هذه الأمور توافه لا قيمة لها في عالم الحق والعدل ، فقلت له : ان الشيخ حسين مروة لا يهمه من الأمر الا أن تكون العمامة محترمة فلا يقف صاحبها أمام الحاكم موقف المجرمين المذنبين .

فقال : — انني أقدر هذا الشعور ، وأعطي صاحب هذا الرأي كل الحق وكم والله سعيت ان أجعل لهؤلاء الذين يمثلون أمام القضاء من أرباب الحشمة والعلم والادب حرمة آلت بي إلى أن أنظر في دعاواهم في غير القاعة المخصصة للمحاكمات احترازاً وتجنباً من دخول العـالم والأديب وأمثالهما قفص الاتهام قبل التأكد من أحقية دخوله هذا القفص .

وأنا لم أنس رأي الفكيكي هذا وطالما رأيته يجري محاكمة البعض في غرفته الخاصة بعد ذلك فتذكرت نهجه .

أما أحكامه فلا يدل على صوابها شيء أكثر من شمول الغالب الغالب منها بالتأييد من قبل مجلس التميز ، ولما كان الفكيكي أديباً، وأديباً بارعاً، كان قراره في الحكم يأتي بليغاً ومقنعاً وواضحاً حتى للذين لا يعرفون القانون .

وطال مجلسنا في تلك الليلة وحذراً من عدم حصولنا على وسيلة للرجوع ليلاً إلى النجف قمنا مستأذنين فقال الفكيكي :

— والعشاء ؟ أتريدون أن تذهبوا دون أن تتناولوا العشاء ؟

ومدّ الخوان ، وكان عشاء فاخراً جاء بعد تلك (المجوّعات) ، وهناك فقط كاشفته بما كان يدور في أذهان الأصدقاء من أمر العشاء الذي ظن البعض أنني حين رفضت اجابة طلبه في التلفون اعتاض عنه بالفواكه التي أطلق عليها الأصدقاء اسم (المجوّعات) ، وصرنا نذكر ذلك في مختلف الأوقات والمناسبات.

* * * *

ودخل الفكيكي المجلس النيابي نائباً ، وفتح له مكتب محاماة عند رأس الجسر من شارع المأمون ،وصرت أزوره في مكتبه هذا في بعض الامسيات ، كما كان يزوره عدد من الأدباء وجلهم من النجف وكربلاء . وفي بغداد اشتد اتصالي به لكثرة ما كنا نلتقي في بعض المجالس ،وكثرة زيارتي له وزيارته لي في مكتب الهاتف بشارع الرشيد وشارع الامين فاتيح لي أن أعرفه أكثر من ذي قبل كأديب ، وباحث ، ومحام ، وصديق . وقد لاحظت فيه ما كنت قد لاحظت في بعض الأصدقاء من طهارة النفس والوداعة التي تأبى أن تبطن غير ما تظهر من الأسرار ولذلك قد يمتنع البعض أن يقول شيئاً أمام هذه الزمرة من أرباب النفوس المتفتحة المكشوفة الذين يؤاخذهم البعض على مثل هذا الانطلاق . ويعذرهم البعض الاخر بسبب ما يلمس عندهم من الطيبة وطهارة النفس .

عاتبت مرة الصديق التاجر الحاج علي البهبهاني على اذاعته سراً كنت قد أسررت به اليه ، فقال لي وهو يضحك :

ــ أنت تعرف أنني كالقمع ما تلقي به في فمه ينزل من أسفله ، فعلى من تقع التبعة في ذيوع هذا السر ليت شعري ؟ أعليّ أنا أم عليك أنت ؟ ولكن الفكيكي كان يميّز ما يجوز أن ينشر وما لا يجوز ، وهو لا ينقل خبراً يؤول نقله إلى حدوث مشكلة من المشكلات بل كل ما في الامر أنه كان يترك نفسه على سجيتها ولذلك لا يمتنع من أن يحدث سامعيه بما كان يقع في كواليس المجلس النيابي ، وما كان يدور في الأوساط السياسية يوم كان نائباً .

والفكيكي إلى جانب ملكاته المتعددة ، وسعة باعه في البحث ، حلو النكتة يجيد حبكها ارتجالاً ، ويرسلها عفو الخاطر . واني لأذكر يوماً كنا أنا والشيخ محمد علي اليعقوبي وقد التقيته مصادفة عند باب مكتب الفكيكي بشارع المأمون وهو يهم بالدخول وقد دخلنا معاً ،وكان هناك زميل محام طويل القامة ، فارع الطول ، تولى الفكيكي تعريفه لنا وتعريفنا له ولا أذكر الان اسمه ، ولست أذكر المناسبة التي دعت هذا المحامي أن يصف الفكيكي بالقصير قائلاً :

– تذكّر أنك قصير يا أبا أديب ... قال ذلك وهو يضحك فردّ عليه الفكيكي قائلاً : – وتذكّر انك طويل أيها الصديق .

وضحكنا هنا جميعا ، وسألني اليعقوبي : ما الذي كان يعوز الرجلين أن يقولا بعد هذا ؟

– قلت ليس ثمة شيء غير أن يستثنيا القول ويستدركاه .

قال اليعقوبي – : صحيح ... ثم راح اليعقوبي يستثني هو القول قائلاً :

– كل قصير فتنة الا علي ، وكل طويل أحمق إلا عمر .

* * * *

وشغلتنا الدنيا بمشاغلها فلم نعد نلتقي الا قليلاً وفي فترات قصيرة ونحن على قارعة الطريق أو عند صديق يمرّ كل منا عليه مروراً طارئاً لا سيما وان بيتي في أقصى بغداد من كرادة مريم ، وبيته في أقصى بغداد من الاعظمية ، ومع ذلك فلم يتفق أن التقينا دون لهفة لمعرفة كل منا أخبار الآخر وشؤونه .

وفي صيف سنة ١٩٦٣ كنت أصطاف (بسوق الغرب) وان القادم من سوق الغرب إلى بيروت لا بد وأن يمر (بعين السيدة) اذا سلك طريق عاليه ، وكان المقعد من صدر السيارة ومقدمتها لم يزل فارغاً من الركاب واذا بالفكيكي يصحبه أحد أولاده يوقف السيارة في (عين السيدة) ليشغل من السيارة هو وابنه مقدمها فأشيح بوجهي عنه لئلا يراني ريثما أستطيع دفع أجرة ركوبه وركوب ابنه بالسيارة ، ثم أفاجئه بعد ذاك بوجودي ، وذلك لان الفكيكي لو عرف بوجودي في السيارة لما تركني ان أسبقه في دفع الأجرة عني وعنه بالنظر لما عرف به من السخاء وما جبل عليه من كرم النفس ، وهكذا كان ، فما كدت أدفع الأجرة للسائق في غفلة عنه حتى مددت يدي إلى كتفه من الوراء وهززته قائلاً :

ــ أنها لنعمة غير مترقبة ...

ودهش الفكيكي لهذه المفاجئة وراح يعيد علي نفس الجملة ويقول :

انها والله لنعمة كبيرة أن نلتقي هنا وعلى غير ميعاد .

وقضينا الطريق كله بالحديث عن الأحوال والصحة وراحة النفس ، فشكا لي ما يعاني من انحراف في صحته العامة ، وقال إنه لا يكاد يشعر بشيء من الراحة النسبية يوماً حتّى تنغص الأمراض حياته أياماً ، وهو يقضي اليوم هذه الفترة من الصيف منتجعاً بلبنان عسى أن يستعيد شيئاً من نشاطه الذي ذهبت به الأمراض المختلفة .

ولم يكن يعني بالنشاط غير نشاط البحث والأدب على ما أعلم من شدة انهماكه في البحث والتأليف ، وهو من القلائل الذين يزنون العمر بميزان المنفعة العامة وخدمة المجتمع دون أن يرجو أية منفعة اخرى ، وقد يستبين القارىء مبدأه هذا وهدفه في حياته مما أنهى به مقدمة كتابه الجليل : (شجرة العذراء يصوّرها أدب النخيل) اذ يقول :

« وحسبي ما قمت به من جهد في خدمة أبناء قومي الكرام ، وأملي بأريحية الاحرار الأوفياء أن يذكروني بالدعاء بعد رحيلي إلى جوار من تفرّد بالبقاء وقد قال قبلي أحد الشعراء :

يا ناظراً في الكتاب بعـــدي مجتنيا من ثمـــار جهـــدي
لي افتقـــار إلى دعــــــاء تهديه لي في ظلام لحـــدي

والله تعالى يجزي المحسنين »

* * * *

واستمرت شكواه من استفحال المرض طويلاً ، ومع ذلك فقلما ترك القراءة

والكتابة ، وكان يقول لي : إنه يحس وهو يقرأ ويكتب بأنه يتناول علاجاً أقوى مما كان يتناول من العقاقير التي يعالجه بها الأطباء .

وآخر رؤيتي له كان قبل وفاته بنحو شهرين وأكثر قليلاً من سنة ١٩٦٩ حين كنت أهم بالخروج من مجلس (الفاتحة) الذي أقيم لقبول التعازي بوفاة الشاعر الصديق محمود الحبوبي ، فقد كان الفكيكي يقتعد كرسياً إلى جانب صالح الجعفري عند الباب ،وهو المكان المخصص لأسرة الفقيد وبعض الأصدقاء المقربين ، وحين رآني الفكيكي قام في وجهي منتحباً وعزّاني بالحبوبي كما لو كنت أقرب الأقرباء اليه ، وكنت أنا المعزى دون غيري ، فبكيت أنا الاخر دون اختيار ، وقد ذكرني موقف الفيكيكي مني بموقف الشيخ علي بازي في مجلس (الفاتحة) الذي أقيم للشيخ محمد علي اليعقوبي ، فقد أوقفني البازي وأنا أحاول الخروج من المجلس ، وانتحب في وجهي وعزاني باليعقوبي .

لقد بكيت في وجه الفكيكي ولم أدر أنني سأبكي عليه بعد شهرين أو أكثر قليلاً .

وفي يوم من أوائل شهر آب من سنة ١٩٦٩ خرجت من البيت قاصداً مكتبي بعد انقطاع أسبوع من العمل بسبب ارتفاع ضغط الدم الذي يلازمني منذ عدة سنين ،وفي مكتبي رحت أستعرض الصحف التي لم أقرأها في أثناء وعكتي واذا بخبر وفاة الفكيكي يسمل عينيّ فلم تعودا تريان شيئاً مما حولهما .

هذا هو الفكيكي يموت كما يموت الجميع ، ولكن من لي بمن يمحو هذه الذكريات التي خلفتها أربعون سنة وأكثر في صفحة هذا الذهن ، فها هوذا ماثل أمامي منذ أول ساعة التقيته فيها بقهوة البيروتي إلى آخر ليلة وأنا أخرج من مجلس (فاتحة) الحبوبي ، فبكيت ما شاء الله أن أبكي ، وقد بكيت على

البازي يعلم الله ومرت كل خواطره في ذهني ولم تزل تمر ولم أوفق لتسجيلها فوق الورق .

وما أشقى الذين لا يجدون وسيلة يعبرون بها عن مشاعرهم غير الدموع ، وأنا من هؤلاء الأشقياء في موقفي مع الذين ودعتهم إلى غير عودة وكان من هؤلاء هذا الصديق العزيز : توفيق الفكيكي الذي لن أنساه .

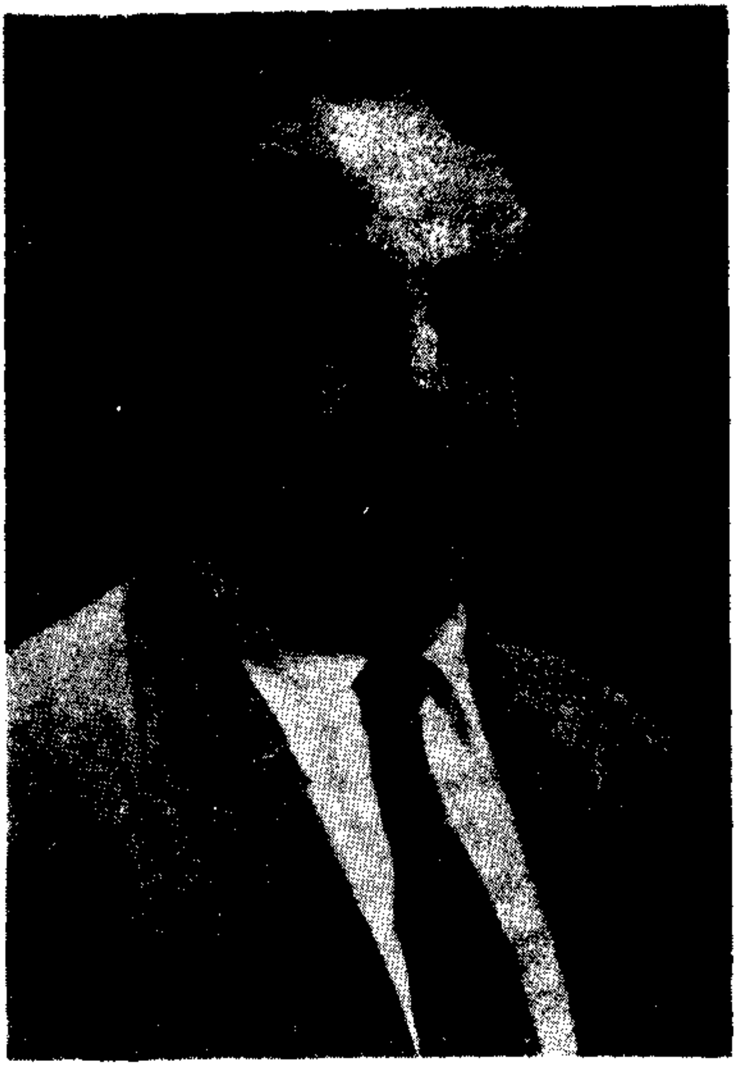

الدكتور مصطفى جواد

كيف عرفت

الدكتور مصطفى جواد

— ١ —

الدكتور مصطفى جواد من مواليد العقد الاول من هذا القرن ، ولم يكن متثبتاً من تاريخ ولادته — على ما أخبرني هو — وانما كان يرى أن ذلك كان في نحو منتصف العقد الأول من هذا القرن وهو ما يخمنه تخميناً ، وان ما ذكر عن ولادته ، وما ذكر في مختلف المصادر بكونه من مواليد سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨ أو ١٩١٠ ما هو الا من ضروب الحدس عنده أو عند الاخرين كما قال .

والدكتور مصطفى تركماني العنصر ، ومن أسرة عريقة وجدت في (قره‌تپّه) منذ تاريخ بعيد ، وهي من الغلاة الذين يؤلهون الامام علي بن أبي طالب (ع) ولكن جده لأبيه المدعو مصطفى أو جد أبيه المدعو ابراهيم هو الذي خرج على عقيدة المغالين وتشيع وصار امامياً ، ثم هاجر من (قره‌تپه) إلى بغداد وسكنها .

وأب الدكتور مصطفى المعروف (باسطه جواد) كان خياط البسة في سوق الخياطين ببغداد ، وكان ثاني اثنين في الشهرة ، فاذا قيل : ان هذه الجبّة قد عملت فيها ابرة أسطة جواد غلا قدرها ، أما الخياط الشهير الاخر فهو اسطه محمد حسين وقد احتكر هذان الخياطان : اسطه جواد ، وأسطه محمد حسين شهرة الجودة بين جميع خياطي العراق وعلى الاخص في خياطة (الجبب) التي كثيراً ما قصد البعض أسطه جواد من خارج بغداد من أجلها ، حتى لقد با هى

البعض : بأنه لا يخيط ملابسه الا عند اسطه جواد أو اسطه محمد حسين ، وكان لدى اسطه جواد عدد من الصناع يعملون في (دكانه) وتحت أشرافه فنبغ غير واحد منهم بعد أن كفّ بصر اسطه جواد وبعد وفاته واشتهروا في عالم الخياطة ، لذلك درّت على اسطه جواد صنعته بوافر من المال فاشترى الدكان الذي كان يعمل فيه ، واشترى البيت الذي ولد فيه الدكتور مصطفى فيما بعد، وهو البيت الواقع في محلة (جامع المصلوب) ، واشترى أملاكاً أخرى ببغداد كانت تدر عليه بعض الأرباح زيادة على ما كانت تأتي به صنعة الخياطة .

ولم يكن لأسطه جواد من البنين الا ابنه (كاظماً) والابن الصغير (مصطفى) وكان لاسطه جواد صديق حميم (بدلتاوة) — الخالص اليوم — هو عباس الحبّابة والد فؤاد عباس الأديب المعروف والمفتش الاختصاصي بوزارة التربية سابقاً ، فحسّن له هذا الصديق أن يشتري في (الخالص) أملاكاً لرخص هذه الاملاك هناك وكثرة منافعها ، ونزولاً على نصيحة صديقه هذا اشترى اسطه جواد اثني عشر بستاناً وقطعة أرض كان أكثر غلّتها التمر ، وبنى له بيتا كانت فيه نخلة انفردت بنوعية خاصة من التمور ، وقد أفاد اسطه جواد من أملاكه هذه بعض الفائدة ، وكان يتردد عليها ، وفي أثناء غيابه كان يتعهدها صديقه (عباس الحبّابه) المذكور .

وحين كفّ بصر اسطه جواد وهو في السبعين انقطع عن مواصلة عمله كخياط وصار كل معوّله في المعيشة على حاصلات هذه البساتين ولازم مدينة (الخالص)، في سكناه والتزم (مصطفى جواد) بقيادته حين يريد الخروج من مكان الى مكان .

وأكثر ما كان يرتاد اسطه جواد ويزور من المحلات كان المآتم الحسينية التي كان يعقدها الناس في شهر المحرم وفي المواسم الاخرى ، وكان بيت الشيخ باقر وبيت الشيخ جعفر في الخالص ــ وهما من العلماء الذين يمثلون المراجع الدينية في الكاظمين ــ من أهم البيوت التي يقصدها الناس في كل يوم بصفتها (دواوين) عامة ، وكان لها شأن كبير في حلّ المشكلات ، وفض النزاع ، والارشاد ،

والحديث ، والسمر بالشعر والأدب . لذلك كان هذان المجلسان مقصد الطبقة المثقفة أو نصف المثقفة من مفهوم ثقافة ذلك العصر التي يقتصر معناها على شيء من معرفة الأدب وحفظ الشعر وفهم بعض النصوص من التشريع والفقه وأصول الدين .

ولقد سمع الدكتور مصطفى وهو صبي في المجالس الحسينية والبيوت التي كان يقود أباه اليها من مراثي كبار الشعراء الأقدمين ومدائحهم لآل البيت أمثال الكميت ، والرضي ، ومهيار ، ودعبل ، وأبي فراس ، والصاحب بن عباد والحسين بن الحجاج ومئات غيرهم ممن رثوا الحسين أو أطالوا المدح في آل البيت ، ومن شعر المتأخرين أمثال الشيخ كاظم الازري ، والسيد حيدر الحلي ، وعبد الباقي العمري ، والكواز ، والسيد جعفر الحلي ، والسيد عبد المطلب ، وعشرات من أمثالهم ، فحفظ مصطفى جواد الشيء الكثير من هذه الأشعار ، وكانت هذه أهمّ عامل من العوامل التي وجهته إلى الأدب وأثارت كوامن نفسه ، وحركت ملكاته الفطرية ، وساعدت على بروز مواهبه حين تقدمت به السن من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا ، ولقد نقل لي الدكتور صفاء خلوصي مرة نقلا عن وحيد الدين بهاء الدين أنه سمع من الدكتور مصطفى جواد : بان ما يستظهره من الشعر لا يقل عن ٢٥ ألف بيت !! وعلى الرغم من استكثاري أنا هذا المقدار فان ذلك لا يغيّر من عقيدتي بأن مساحة ذهنه كانت تفوق مساحة أي ذهن آخر ممن وقفت على سيرته من العلماء المتقدمين والذين نقلت أخبارهم الينا

ولقد كان من تأثير ذلك أن نشأ مصطفى جواد أول ما نشأ شديد التمسك بدينه ، فكان من المصلّين الصائمين الذين لا يغتفرون لأنفسهم التواني والتقصير في أداء الفرائض ، ثم بدأ هذا الالتزام يخف ويتناقص عنده كلما تقدم في العمر حتى اضمحلت آثاره ولم يبق منها شيء ولا بعض شيء .

وكان في صباه يعتمر (اليشماغ) والعقال ، وقد روى لي مرة أحمد زكي الخياط أنه رأى مصطفى جواد بيشماغه هذا وعقاله ، وكان عقاله أحمر اللون داكنا أشبه باللون البني ، كما أيّد لي هو نفسه ذلك يوم سمع مني بأن جل أبناء

النجف حتى الكثير من أبناء العلماء كانوا يعتمرون اليشماغ والعقال في صباهم، وقد يبقون على هذا النحو حتى يحين زواجهم فيبقى من يبقى بهذه البزة إلى النهاية ويخرج من يخرج منهم، وكنت أنا من هؤلاء الذين لبسوا اليشماغ واعتمروا العقال في صباي ثم ارتديت السترة والبنطلون حين شببت. وقد جاء ذكر هذا في كثير مما استعرضت من حياة الاشخاص.

ولما مات اسطه جواد كان مصطفى جواد لم يزل صبياً لا حول له ولا قوة فلم يحصل من أخيه على ما يعينه في الاستمرار في الدراسة وضمان العيش الملائم فكفله صهره الذي كان يقيم هو الاخر في (دلتاوه) واستعمله راعياً لغنمه، ولست أدري كم ظل راعياً يرعى غنم صهره في البساتين ولكني علمت أن أحد أبناء عمومته ببغداد قد بلغه الخبر فهاجت حميته وبعث بمن يأتي به اليه ببغداد، أما هو فيقول: ان الذي استدعاه من (الخالص) كان أخاه كاظماً، وقد أدخله المدرسة الجعفرية ببغداد.

وفي المدرسة الجعفرية استلفت نظر العلامة الشيخ شكر، وكان يشرف على التدريسات العامة في هذه المدرسة تبرعاً، فرأى في مصطفى جواد قابلية مدهشة بالنسبة لسنّه، فقد كان يحفظ الشيء الكثير من شعر المراثي والمدائح. فتولى توجيهه وحمله على حفظ بعض النصوص الأدبية وبعض الألوان من الشعر التي تصقل قابلياته، فكان هذا عاملاً في تنمية مداركه الفطرية وتوسيع نوافذها في نفسه. ولربما كان رؤوف القطّان ــ وهو والد الدكتور عبد الرحمن، وعبد الوهاب، وعبد الكريم القطان ــ هو أول من غرس في نفس مصطفى جواد الميل لتعلم اللغات الأجنبية، ذلك لأن رؤوف القطان كان يتقن الانكليزية والفرنسية وكان من مؤسسي المدرسة الجعفرية وقد شارك في التدريس بهذه المدرسة تبرعاً كما كان يفعل الشيخ شكر، ولقد نقل لي مصطفى جواد عن نفسه أنه كان شديد الميل منذ الصغر لتعلم اللغة الفرنسية لحلاوة النطق بها، وكانت اللغة الفرنسية يومذاك أكثر اللغات الحية انتشاراً في الأوساط الثقافية والمعاهد والجامعات، ولكنه لم تحصل لمصطفى جواد الامكانية لتعلمها الا حين كبر وأقدم على دراسة الدكتوراه في فرنسا.

* * * *

وأهم ما تركت (دلتاوة) في نفسه من الأثر خصوصاً بعد رجوعه اليها من بغداد بعد وفاة أخيه كاظم ونهوضه ببعض أعمال أملاكه بنفسه وعلى قدر ما يناسب عمره وقابلياته هو أنها علمته شيئاً غير قليل من الجلد والصبر على المكاره ، واعداد نفسه ليكون رجل عمل يجابه شظف العيش وكدر الحياة بالقوة التي تلزم كل انسان يفهم واقع الحياة وقساوة الظروف ، فقد برع مصطفى جواد في تسلق النخل ، وقد حدثني مرة قال : أنه كان يتسابق في صعود النخلة مع المهرة من أقرانه فلا يذكر ان أحداً قد سبقه ولا مرة واحدة لا بل حتى المتقدمين عليه في المران من الرجال لم يستطع أن يسبقه إلى قلب النخلة صعوداً .

ونقل لي الصديق فؤاد عباس : ان كثيراً ما كان ينزل مصطفى جواد من النخلة منسرحاً على رأسه كأن يجعل رأسه متدلياً إلى الأسفل ورجليه إلى الأعلى وينزل من على النخلة كما يفعل الثعبان ... ! !

وقد سقط مرة من أعالي نخلة البيت فانكسرت رجله ، ويكون على هذا قد انكسرت رجله ثلاث مرات في حياته ، الاولى من سقطته من النخلة ، والثانية وهو يجرب التزحلق على الثلج مع الملك فيصل الثاني بسويسرة ، والثالثة في حادث اصطدام في طريق (الدورة) وهو خارج من بيته ومعه كريمته إلى الكلية .

ولقد علمته قساوة الحياة ، ومتطلبات العمل في القرى والأرياف اتقان فن الصيد فكان يحسن تدبير صيد الطيور حتى لقد ابتكر نوعاً من الشباك والمصائد كان يعمله بيده ، وكان هذا مضمون النجاح ،اذ قلما استطاع أن يفلت منه الطير – على ما قال – وطالما أعدّ منه لاقرانه وحاك لهم أمثاله ، وحين اشتد ساعده بدأ يتدرب على الرماية بالبندقية حتى برع في اصابة الهدف براعة عجيبة استرعت انتباه جميع الضباط في أثناء ادائه خدمة الاحتياط في الاربعينات .

وبلغ الأمر من ابتكاراته ان عمل من صفائح التنك الخفيف او الكارتون على ما يقول فؤاد عباس مروحتين هوائيتين يحركهما الهواء وقد نصبهما في أعالي النخلة التي تقوم في بيته في جهتين متقابلتين تكفي أن تحركهما النسمة الخفيفة

لتدور كل واحدة على محورها وبذلك تفر العصافير فلا تدنو إلى عذوق التمر وتأكله .

ولم يكن هذا وحده الذي تعلمه وبرع فيه من خشونة الحياة وقساوتها وانما كان سبّاحاً ماهراً يحسن السباحة إلى حدود التفوق . ويكون على هذا ثانياثنين في اتقان هذه الرياضة بين أساتذة جامعة بغداد أولهما هو وثانيهما الدكتور علي الوردي .

لقد آل امتلاك حصته من البساتين إليه بعد وفاة أخيه كاظم ، وصار هو وبمساعدة صهره يعمل في هذه البساتين . ولكن الحاصل لم يكن يسد الحاجة لهبوط أسعار التمر في السنين الأخيرة ، ولم يستطع أن يفيد من هذه الاملاك فائدة ملموسة الا بعد ما يقرب من أربعين سنة حين كاد أن يكون في شبه غنى عن فوائدها فقد استملكت الحكومة بعض هذه الاملاك وأقامت عليها (سرايها) في الخالص . وشادت بعض مؤسساتها الرسمية . وكان ان وصله منها نحو أربعة الاف دينار وقد ضمها إلى بعض ما كانت تمتلكه زوجته العلوية (ام جواد) واشترى لها بالمبلغ كله هذه الدار التي توفي فيها في (المنصور) وسجل الدار باسم زوجته كما أخبرني هو بذلك .

* * * *

وحين تسرب الملل إلى نفسه من كثرة العمل في البساتين وقلة الفائدة دخل المدرسة الابتدائية الرسمية في عهد الحكومة العراقية (بد لتاوة) وقد كان استعداده وميله للدرس ، وحبه للقراءة هو المحفّز الأكبر للعودة إلى المدرسة .

وذات يوم مرّ عرضاً في طريق أحمد زكي الخياط ، وكان أحمد زكي الخياط من المعجبين بمصطفى جواد منذ أن التقاه تلميذاً بالمدرسة الجعفرية اذ كان أحمد زكي من أبرز معلمي هذه المدرسة وكان قد تحسس بقابليات مصطفى وأعجب بما كان يحفظ من الشعر والنصوص فسأله عن حاله وأعماله وحسّن له دخول دار المعلمين ولكن مصطفى جواد قد تهيّب هذا الأمر وأبدى تخوفاً وتلكؤاً

وما زال به أحمد زكي حتّى أقنعه ، وهناك تعاون هو وطالب مشتاق الذي كانت له بعض اليد في مديرية المعارف يومذاك في ترشيحه طالبا ، ومن حسن الحظ ان دخوله جرى بامتحان ظهر تفوقه فيه بسبب تلك المقدمات من العوامل الّتي أشرنا اليها والّتي يسّرت لمصطفى جواد الطفرة ودخوله دار المعلمين بتفوق في اداء امتحان القبول .

وفي دار المعلمين لفت نظر العلامة طه الراوي – وكان من أساتذة هذه الدار – كما لفت من قبل نظر الشيخ شكر في المدرسة الجعفرية بما كان يستظهر من الشعر والرواية والنصوص الأدبية فعني به طه الراوي هو الاخر وشجعه على الاستمرار في الحفظ ومكّنه من الاطلاع على بعض الكتب الّتي تزيد من قابلياته امكاناً فتألفت لديه من كل ما مضى ذخيرة حببت اليه آداب اللغة العربية أكثر وأكثر ، وحببت اليه تتبع التاريخ الاسلامي والتعمق في التاريخ العربي وتاريخ العراق في العصور الاسلامية بصورة خاصة .

وهناك عاملان آخران لهما أهميتهما الكبرى في تنمية مواهب مصطفى جواد وسعة باعه في أصول اللغة ومبانيها وقواعدها والتبحر في التاريخ الاسلامي وجذوره وصقل تلك المواهب حتّى أخرجاه أخيراً عالماً منقطع النظير في دائرة اختصاصه وقدرته الفذة في الاستيعاب وقوة الملاحظة ، فالعامل الأول هو اتصاله بالأب انستاس الكرملي ، والعامل الثاني وجوده في باريس واتصاله بالميرزا محمد القزويني .

ولقد كانت للأب انستاس الكرملي مكتبة عامرة بالكتب المخطوطة ، والمطبوعة النادرة بالاضافة إلى أمهات الكتب والمراجع المعروفة وهي ملك دير الكرمليين الواقع اليوم على الساحة الجديدة الموازية لسوق الشورجه والّتي تربط شارع الجمهورية بشارع الرشيد والمتخذة الان ساحة لوقوف السيارات ببغداد ، وقد أتى على وصف هذه المكتبة گورگيس عواد في كتابه عن (الاب انستاس الكرملي) ، ويرجع الفضل في تكوين هذه المكتبة وجمع كتبها إلى الأب

انستاس نفسه اذ لم تكن قبله ذات وجود وكيان عام فعني الكرملي بها عناية فائقة ولم يزل حتّى جعلها من أكبر مراجع اللغة والتاريخ والعلوم .

وقد نهبت هذه المكتبة في عهد الدولة العثمانية سنة ١٩١٧ ونفي الكرملي إلى (قيصرية) في الانضول ، وقد روى گورگيس عواد في كتابه نقلا عن الأب الكرملي ان الجنود العثمانيين كانوا قد احتلوا دير الاباء الكرمليين فترة من الزمن خلال الحرب ، فكانوا اذا اشتد بهم البرد عمدوا إلى بعض كتب الخزانة فأحرقوها واصطلوا بنارها ، ثم نهب بعد ذلك ما سلم منها .

وحين وضعت الحرب أوزارها عاد الاب الكرملي إلى بغداد وبدأ يجمع الكتب من مظانها بقوة السلطة البريطانية ، وقيل ان وشايات كثيرة قد حصلت بشأن هذه الكتب المنهوبة فقامت السلطات بمصادرة بعض الكتب العائدة للناس إلى جانب كتب الدير التّي عثر عليها هنا وهناك وهذا من الشائعات التّي شاعت في وقتها ولم يحقق فيها المحققون .

وعاد الاب انستاس يجمع من جديد الكتب شراءً أو هدية ، أو مبادلة ، وقد بذل في ذلك جهوداً جبارة ليجعل من هذه المكتبة مرجعاً مهماً حتّى بلغ عدد هذه الكتب نحو ٢٠ ألف كتاب وفيها الكثير من المخطوطات النادرة جمعتها خمس غرف من غرف الدير .

وكان الأب انستاس يقعد للناس في كل يوم جمعة يستقبل فيه جمعاً من أهل الفضل والشعر والادب وكان منهم من يلازم هذا المجلس في أيام الجمع ملازمة الظل مثل الشيخ كاظم الدجيلي حين يكون ببغداد ، ويوسف مسكوني ، وگورگيس عواد وميخائيل عواد ، وعباس العزاوي ، وعلي غالب العزاوي ، ورزوق عيسى ، ومير بصري ، ومهدي مقلد ، والدكتور داود الجلبي ، ويعقوب سركيس ، والدكتور مصطفى جواد .

وكان الدكتور مصطفى جواد من أشد الملازمين لمجلس الاب الكرملي وأكثرهم انكباباً على هذه المكتبة وإفادة من خبرة الكرملي وعلمه وفضله ، ولا

أحسب أن مصطفى جواد كان ينكر فضل الكرمليين وفضل مكتبتهم عليه حتى بلغ من أمره أنه استظهر بعد ذلك على الكرملي وحقق المثل العامي القائل « صانع الاستاد استاد ونص » وبان أثر هذا الظهور من مصطفى جواد على الكرملي في المناقشات اللغوية التي لم تقتصر على المجالس وانما تجاوزت ذلك إلى صفحات المجلات .

وبدأت مجلة (لغة العرب) بنشر مقالات الدكتور مصطفى وآرائه في قواعد اللغة ومنذ ذلك الوقت بان لأول مرة هذا اللون الذي اتصف به الدكتور مصطفى جواد في (قل ولا تقل) ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الأنظار تتافت إلى الدكتور مصطفى جواد فكان للأب انستاس ،ولمكتبته ، ومجلته (لغة العرب) الأثر الكبير في ظهوره كما كان عاملاً من أقوى العوامل في تكوينه .

واشتدت أواصر الألفة بينه وبين الاب انستاس حتى بلغ الأمر أن حدثني الدكتور مصطفى مرة عن بعض(خصوصيات)الكرملي التي كان قد عرفها وذلك حين نشرت أنا مقالا ذات يوم علقت به على بعض مراسلات الكرملي مع الكاتبة الشهيرة (مي زيادة) في مجلة (دنيا المرأة) لصاحبتها السيدة نورا نويهض فقامت قيامة السيدات الفضليات بالاستنكار والاحتجاج على ما أبديت من رأي في ذلك المقال ، وقد أثار مقالي هذا ذكريات دفينة في صدر الدكتور مصطفى جواد فراح يحدثني عن أشياء كثيرة لا أرى داعيا لذكرها هنا .

وحين توفي الأب الكرملي احتفظ دير الكرمليين بالكتب اللاتينية والكتب الدينية وأهدى البقية إلى مكتبة دار الآثار التابعة لوزارة المعارف يومذاك فكان عدد الكتب المطبوعة سبعة الاف كتاب ، أما المخطوطة فكان عددها ١٣٣٥ كتاباً على ما روى گورگيس عواد .

وقد أقام ابن أخ الأب الكرملي المدعو (برتراند ماريني) الدعوى على دير الكرمليين مطالباً بتحويل هذه الكتب اليه بصفته وارثاً لعمه الاب انستاس الكرملي فتوكل المحامي موسى الشماع مدافعاً عن وزارة المعارف ، ومثل گورگيس عواد

المتحف العراقي في المحكمة وكان الحاكم عبد الرحمن البزاز فكانت النتيجة ان ردت الدعوى على أساس ان الاباء والرهبان لا يملكون شيئاً لكي يرثه الاخرون وكل ما هو تحت أيديهم في حياتهم انما يخص الدير والكنيسة .

وكما خلف الاب انستاس ومكتبته ومجلته الأثر الفعال في قابلية مصطفى جواد التاريخية واللغوية ، وكما كان الاب الكرملي نفسه عاملا مهماً في بناء هذه القابلية الفذة فقد كان للأب الكرملي تأثير آخر ومن نوع ثان في نفس مصطفى جواد وأسلوب كتابته ونقده ، فلقد ساد نقد الدكتور مصطفى شيء غير قليل من الخشونة ، وأخذ عن الأب الكرملي ما اتصف به من الخشونة والغلظة في المناظرة ، والمؤاخذة الصارمة لمناظرية فكــان يلذ الاب ان يتسقط عثرات الاخرين اللغوية والبرهنة على ما يرتكب البعض من الاخطاء فيورد نقده في رسائله او مقالاته التي ينشرها في مجلته (لغة العرب) أو غيرها بلهجة لا تخلو من استظهار أو مؤاخذة أو شبه مؤاخذة على الاقل .

روى فؤاد عباس مرة أنه حين كان طالباً في الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩٢٧مرّ الابانستاس الكرمليبالجامعة وزارالقسم العربي الذيكان يتألف من عدد من مشاهير أساتذة اللغة والاداب العربية وكان بينهم أنيس المقدسي فما كان يمرّ اسم كتاب قديم أو حديث الا وقال الكرملي : ان هذا الكتاب قد تناولته بالنقد في مجلة (لغة العرب) حتى ضاق أحدهم بكثرة ما سمع من نقد المجلة للكتب فسأل باللغة اللبنانية الدارجة :

— ولغة العرب فين صفت يا ابونه ؟ (أي واين صار أمر مجلة لغة العرب) فقال الكرملي : لقد أغلقت لعدم وجود نقدٍ في اليد .

فقال له السائل — (ولربما كان المقدسي) — ألم تدر يا أبانا أن (النقد) لا يأتي (بالنقد) .

وليس من بأس في النقد ، اذ ان على النقد يقوم التهذيب والاصلاح وبناء المجتمع قبل بناء اللغة وردّ ما يشذ إلى محجة الصواب . ولكن البأس بعض

البأس انما هو في الصيغة ، وفي النقد العنيف ، والمؤاخذة الشديدة التي ربما دخلت ضمن دائرة العنجهية أو قريباً من ذلك ، واشهد ان هذه العنجهية أو هذه الخشونة التي ظهرت في كتابة الدكتور مصطفى جواد ونقده فترة من الزمان قد ذهبت بذهاب الشباب ، ولم تعد تجد فيما يكتب أثراً للغمز واللمز الذي كنت تراه في أيام شبابه باستثناء هجائه وعلى الأخص الهجاء الماجن .

ولم يصب الاب انستاس والدكتور مصطفى جواد وحدهما بهذه الخشونة في النقد والرد وانما ظهرت آثارها في مقالات كثير من المشاهير المتقدمين والمتأخرين رأينا منهم صادق الرافعي ، ومحمود عباس العقاد وغيرهما .

وعلى ذكر الخشونة فان معروف الرصافي كان على شيء غير قليل منها واذكر على سبيل المثال أن الدكتور مصطفى جواد لفت مرة نظر الرصافي وهما في مجلس من المجالس إلى كلمة كان الرصافي قد استعملها خطأ ، وبدل أن يناقش الرصافي الدكتور مصطفى جواد أو يشكره على تنبيهه له صرخ بوجهه صائحاً :

ـــ إنچب .

وانچب هذه ، كلمة عامية تعني اكثر مما تحتوي عليه كلمة (صه) العربية فلا يقولها شخص الا للنكرات الذين يأتون بما لا يجوز اتيانه من الأقوال التي تخالف الاداب .

واذكر من هذه العنجهية التي تؤاخذ عليها مبادىء الاخلاق مؤاخذة لا هوادة فيها ولا غفران . ما قابل به محمود عباس العقاد وهو ينقد الدكتور مصطفى جواد وقد وجه له الخطاب في مجلة الرسالة ـــ على أغلب الظن ـــ قائلا :

« يا أيها الجواد بلغة العامة لا بلغة الضاد »

وفي هذا الخطاب من النبوّ وقلة الأدب ما فيه ، وقد تعجبت أنا يومذاك من المبادىء التي تسوغ لرجل عظيم كالعقاد أن يقول مثل هذا وأن يرضى لقلمه الرفيع البليغ المعطاء أن يسف مثل هذا الاسفاف ، ولكن مصطفى جواد ظل مصراً على أن العقاد لم يرد المعنى الذي فهمته أنا من العبارة ، وظل كلانا أنا

ومصطفى جواد دون أن يستطيع أحدنا أن يقنع الاخر .

أجل لقد كان مصطفى جواد خشنا في أول أدوار حياته خشونة الأب انستاس الكرملي ولم يكن يمتنع عن غمز مناظريه . واذكر أنه تناول مرة جورج مسرة اللغوي المعروف في البرازيل فأسمعه ما لا يسر فكان كل رد مسرّة على الدكتور مصطفى عتاباً هادئاً يتلخص في أنه لا يرى أي مبرر لاحتقاره لأنه يعيش في البرازيل ويعيش الدكتور مصطفى في الوطن العربي فكأن العلم قد اقتصر على التربة فلا يحق لغير ساكنيها أن يقولوا شيئا وقد نشر هذا الرد الهادىء المتزن في مجلة (العصبة) اذا لم تخني الذاكرة .

* * * *

ويدخل مصطفى جواد دار المعلمين و (يتخرج) منها — على خلاف رأي الدكتور مصطفى جواد في قولك يتخرج منها — ويعمل معلماً في المدارس الابتدائية في الناصرية ، والبصرة ، والكاظمين ، ومدرسة المأمونية ببغداد ، وفي (الخالص) . ولقد زاره طاهر يحيى عائداً في أثناء رياسته للوزارة وقال له أنه زامله كمعلم في مدرسة الكاظمين وهو معتز بهذه الذكرى ، وقد أخبرني مصطفى جواد أنه لا يذكر هذه الزمالة ، وهو يتعجب كيف يغيب عن ذهنه الكثير من الحوادث الخاصة به ولا تغيب عن ذهنه أدق القضايا التاريخية وأصغرها — ومرة اخرى خرجت أنا على رأيه واستعملت كلمة (الدقة) بغير معناها —

وحدثني غير مرة أنه لم يكن سعيداً أيام كان مدرساً في المدارس الابتدائية وذلك لما كان يعاني من وقاحة الطلاب وسوء تربيتهم خصوصاً في المدرسة المأمونية التي نقل اليها في محل مهدي الجواهري الذي كان قد ضاق ذرعاً بوقاحتهم بحيث لم يستطع الاستمرار والمضي حتى نهاية السنة الدراسية على ما قال الدكتور مصطفى جواد . وقال الدكتور مصطفى : انني كنت أضطر إلى استعمال العصا مع الطلاب . وكثيراً ما كنت أوجع بها المعروفين بالوقاحة وقلة الحياء ، وحين زاره عبد القادر القادري بصحبة ابنته سؤدد التي أعدت آخر حديث تلفزيوني له

قبل وفاته ذكـّره القادري بكونه أحد تلامذته في المأمونية . وأنه ليذكر أنه كان قاسيا مع أولئك التلاميذ الذين اعتادوا اثارة الشغب في أيام الجواهري وأرادوا أن يكرّروها مع مصطفى جواد وانه — أي القادري — لم يزل يذكر كيف عامل مصطفى جواد ذات مرة (نزار علي جودة) بالضرب . فقال مصطفى جواد : أنه لا يذكر أنه ضرب نزار ولكنه يذكر جيداً أنه أدّب (وصفي طاهر) بضرب يكاد يكون مبرحاً فلم يعد مرة اخرى لعبته ، ويذكر أنه ضرب (خلدون ساطع الحصري) ضرباً قاسياً وأخرجه من الصف قائلا له :

— اذهب إلى أبيك المربي وأطلب منه أن يحسن تربيتك ثم عد إلى المدرسة . (على ما روى لي عبد القادر القادري) .

* * * *

وفي سنة ١٩٣٤ شجعه بعض أصدقائه في تقديم طلب لشموله بالبعثة من قبل وزارة المعارف فلقي معارضة وعراقيل كادت تصرفه عن متابعة الطلب لولا قيام جعفر الخياط ،وعبد الكريم الازري بمساعدته وتقديمه إلى وزير المعارف ، وكان الوزير يومذاك السيد عبد المهدي المنتفكي فاستقبله — على ما نقل لي مصطفى جواد — استقبالا حسنا وقال له : انني كبير الأمل بأن تعود الينا فلا يقتصر نفعك على العراق وحده وانما سيشمل جميع الاقطار العربية — لقد قال ذلك على سبيل التشجيع .

وحدثني الدكتور مصطفى جواد قال : انني حين اضطرتني وزارة المعارف للرجوع من باريس قبل اتمام رسالتي كان وزير المعارف حينذاك الشيخ محمد رضا الشبيبي ولم تكن رابطتي به من القوة بحيث أستطيع لفت نظره إلى قضيتي بنفسي فكان وسيطي اليه السيد عبد المهدي المنتفكي نفسه ، وحين أكملت رسالة الدكتوراه وعدت إلى بغداد كان علي أن أقصد السيد عبد المهدي وأشكره على صنيعه ولكن الظروف لم تساعدني حتى رأيته ذات يوم في حفلة من الحفلات فتقدمت اليه شاكراً وقلت له اذا كنت لم أستطع أن أحقق آماله فأفيد العراق والاقطار العربية كما توقع لي فلا أنكر أني قد أفدت نفسي ، وبالطبع كان هذا

تواضعاً من الدكتور مصطفى جواد فقد حقق أكثر مما كان ينتظر منه .

هذا مضمون ما حدثني به عن سفره إلى باريس وعودته منها ، وكان قد أرسل إلى القاهرة قبل ذلك ليدرس الفرنسية وليمهّد لنفسه القبول في جامعة (السوربون) وقد حدثني عمن كان معه في القاهرة من الطلاب العراقيين ولا أزال أذكر أحاديثه عن الدكتور سليم النعيمي في القاهرة وفي باريس وهي أحاديث خاصة .

وفي مدينة القاهرة تحققت عنده أو بدأت تتحقق الأمنية التي كانت تراوده منذ الصغر وهي تعلّم اللغة الفرنسية ومنذ أن كان يرى طلاب المدرسة الجعفرية يدرسونها على رؤوف القطان فتأتي على أفواههم حلوة عذبة كان يسيل لعابه لها كما لو كانت أكلة شهية لذيذة . ثم يقصد بعد ذلك باريس .

* * * *

وفي باريس يلتحق طالباً بجامعة السوربون فتتفتح في وجهه آفاق جديدة لم يكن له بها عهد من قبل لا من حيث محاضرات السوربون والدراسة الواسعة العميقة وانما وجد هناك شخصية اخرى كان لها الأثر الكبير في حياته وفي توجيهه فكانت من أهم العوامل التي عملت في تكامل شخصية مصطفى جواد العلمية ، تلك هي شخصية الميرزا محمد القزويني .

فالميرزا محمد القزويني عالم جبار سكن باريس منذ سنوات طويلة والتف حوله جميع المستشرقين الذين عشقوا التوغل في تاريخ الشرق وادابه وفنونه ولا سيما التاريخ الاسلامي منه ، وهو فضلا عن المامه باللغات الشرقية من عربية وفارسية وتركية فهو ملم بمعظم اللغات الاروبية ، وهو بعد ذلك عضو في مؤتمر المستشرقين باكسفورد ، وقد أفاد منه المستشرق الانكليزي الكبير المستر (براون) في تأليف تاريخه المشهور ، كما أفاد من عمله المستشرق الكبير (ماسنيون) على ما روى الدكتور مصطفى جواد ، فما كاد مصطفى جواد يتعرف به حتى اتخذ من بيته ومن مكتبته الكبيرة مجلساً يؤمه في جميع أوقات فراغه مثلما كان يؤم مجلس الأب انستاس ببغداد واهتدى مصطفى عن طريق القزويني إلى جميع المظان للشارد من النصوص والمخطوطات اليتيمة النادرة .

وجاء الحديث مرة عن القزويني فقال لي مصطفى جواد انه لا يستطيع أن ينسى أثر القزويني في نفسه طوال عمره ، ثم بلغ شأنه مع القزويني ما بلغ مع الاب انستاس الكرملي فقد اتسع محيط الدائرة عند مصطفى جواد واشتد ساعده ، وكبرت ذخيرته من العلم فراح يصحح للقزويني ما كان قد تبانى القزويني عليه من آراء تاريخية ولغوية وبالامكان أن يتلمس القارىء ذلك من الرسائل التي كان يكتبها القزويني للدكتور مصطفى جواد يوم كان مصطفى في سويسره وفي انكلترة وفي العراق ، وقد أطلعني الدكتور مصطفى على بعض هذه الرسائل وفيها اعتراف صريح من القزويني واقرار بفضل الدكتور مصطفى عليه لا فضل القزويني على الدكتور مصطفى ... !! ومع كل ذلك فقد كان الدكتور مصطفى جواد يذكر فضل هذا الرجل وكونه عاملاً ومن أهم العوامل التي وسعت دائرة افكاره العلمية ووجهته توجيهاً ملحوظاً .

واشتهر أمر الدكتور مصطفى في پاريس فيما أفاد من القزويني ومكتبته النادرة وردّه الفضل لأستاذه مضاعفاً وفيما كان يعلق به على بحوث المستشرقين ويصحح لهم آراءهم في جامعة السوربون حتى كاد يكون – ان لم يكن – مرجعاً للاستشراق هناك . وحتى لقد كتب المستشرق ماسنيون إلى وزارة المعارف العراقية – على ما نقل لي محمد حسين الشبيبي – كلمة شكر لأنها أرسلت في بعثتها رجلا كمصطفى جواد تتعلم الجامة منه وليس يتعلم هو منها .. ! وقال لي الشبيبي أنه رأى هذه الرسالة في أضبارة الدكتور مصطفى جواد يوم كان الشبيبي في قلم التحرير بوزارة المعارف ، ولا يستبعد وقوع هذا من ماسنيون لان له في مصطفى جواد تصريحات أكثر أهمية من هذا .

وعاد مصطفى جواد من باريس حاملاً شهادة الدكتوراه في (سياسة الحكم في الدولة العباسية) أو على أقرب تعريف (طبيعة الامة والدولة في القرن الخامس الهجري وعهد الناصر لدين الله) ، وإلى جانب شهادة الدكتوراه جاء يحمل خمسة آلاف صفحة من النصوص النادرة التي استنسخها من مخطوطات المكتبة الوطنية ومكتبة القزويني بپاريس ، وعدداً كبيراً من الصور الشمسية للمخطوطات النادرة

التي انفق عليها كل موارده فيما كان يفيض من مصروفه بعد التقتير الشديد على نفسه.

ولما كان خطه الجميل هو الآخر من المواهب الطبيعية أصبح لما استنسخ من النصوص شأن كبير من الفائدة العامة لوضوح الكتابة ، ويسر قراءتها . وأهمية التعليق عليها من لدنه ، وشرح ما غمض من بعض هذه النصوص في حواشيها ، فكان ما جاء به كنزاً ثميناً لا يعادله كنز من الذخائر التاريخية النفيسة ، وعلى أني لم أطلع الا على بعض ما كانت تكتنز به مخطوطاته الخاصة من الشوارد والنوادر والطرف التي تفرض المناسبة عليه أن يطلعني عليها فقد رأيت من هذه المخطوطات التي احتفظ بها وفي ضمنها رسائل لكبار العلماء من المؤرخين واللغويين أشياء تتجاوز حدود أثمانها التقدير . وهذا ما ينبغي استثماره والانتفاع به من لدن مكتبة الآثار ومتحفها .

لقد عاد الدكتور مصطفى جواد من باريس لا ليعمل مدرساً أو استاذاً بدار المعلمين العليا فحسب ذلك لأن مثل هذا العمل الذي عهد به اليه والذي ظل يمارسه منذ أن عاد حتى وفاته لباستطاعة أي شخص يتخصص في الادب العربي واللغة العربية أن يمارسه . ويبرز فيه ، فان عمل التدريس في حد ذاته ليس بالعمل الذي يكشف عن المواهب الكبرى في الجوانب الواسعة الاخرى الا ما ندر ، لذلك فان شهرة الدكتور مصطفى جواد ــ كعالم فذ قلما يأتي الزمان بنظير له في دائرة اختصاصه ــ ما جاء بها التدريس وانما جاءت عن طريق التحقيق والبحث المتواصل الذي بدأه بصورة بارزة ظاهرة قبل سفره إلى پاريس ثم واصله بقوة ونشاط وسعة معرفة بعد عودته ، فقد عاد وهو مزود بعدة العالم المتبحر ومن هنا اشتدت علاقته أكثر بالاب انستاس وكثر نقده له وبدأت تحقيقاته العلمية تحل من نفوس الباحثين والعلماء في الاقطار العربية والاقطار الاسلامية محل الاعجاب وما لبث أن عرفته هذه الاقطار علماً من أعلام القرن العشرين في اللغة وفي التاريخ الاسلامي ، وظل هذا محله من عارفيه حتى توفاه الله عصر يوم ١٩٦٩/١٢/١٧ بعد أن ترك ثروة هائلة من تآليفه الثمينة سأمرّ هنا على ما استحضر منها مروراً سريعاً على أن آتي على تفصيلها في الكتاب الذي أزمع وضعه عنه اذا ما واتتني الفرصة وساعدتني الظروف .

— ٢ —

المؤلفات التي وضعها بمفرده

١ — الجزء الاول من (سيدات البلاط العباسي)

٢ — رسالة أبي جعفر النقيب البصري .

٣ — المباحث اللغوية بالعراق (مجموعة من المحاضرات التي حاضر بها طلاب معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة) .

٤ — التاريخ المظنون سهواً انه (الحوادث الجامعة) في تاريخ العباسيين والتتر .

٥ — الجزء التاسع من تحقيق (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير) لابن الساعي .

٦ — تحقيق المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي .

٧ — تحقيق (تكملة اكمال الاكمال في الانساب والالقاب) لابن الصابوني

٨ — تحقيق (نساء الخلفاء) لابن الساعي .

٩ — تحقيق (تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب) لابن الفوطي .

١٠ — (قل ولا تقل) في اصلاح الأوهام اللغوية العامة .

١١ — (الامير خلف) احدى القصص التي ترجمها من الفرنسية ونشرها تباعاً في مجلة (الهاتف) وهي مجموعة فقد أصلها العربي وبقيت ترجمتها بالفرنسية ويظن انها جزء مفقود من كتاب (ألف ليلة وليلة) .

١٢ — رحلة الأمير (أبو طالب خان) وقد ترجمها من الفرنسية وهي مترجمة إلى غير لغة وتوفي الدكتور مصطفى والرحلة في آخر مراحلها من الطبع وقد أقرأني فصولا منها .

١٣ — دراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة ورسم الخط .

١٤ — مختصر التاريخ لابن الكازروني ، وقد أشرف على طبعه سالم الالوسي

١٥ — رباعيات قدس نخعي (مترجم نظما) .

المؤلفات المشتركة

أما الكتب والرسائل التي تم تأليفها مشاركة مع بعض الكتاب والباحثين فاستحضر منها ما يلي :

١ – شخصيات القدر – تراجم عربية ضمن مجموعة لمؤسسة فرنكلين .

٢ – رسائل في اللغة – بالمساهمة مع يوسف مسكوني .

٣ – بغداد – وهو الكتاب الذي أسهم في تأليفه الدكتور محمد مكية ، واالدكتور أحمد سوسة ، وناجي معروف ، وقد خصصت له مؤسسة كلبنكيان عشرة الاف دينار لتأليفه وطبعه .

٤ – موسوعة العتبات المقدسة – تأليف جعفر الخليلي وقد أسهم في الجزء الأول من قسم النجف ، والجزء الاول من قسم كربلا ، والجزء الاول من قسم الكاظمين ، والجزء الاول من قسم سامراء ، وقد أتم مساهمته في الجزء الثاني من الكاظمين الذي طبع بعد وفاته وهو يتناول تراجم المشاهير من أهل الجاه والامارة والعلم والأدب الذين دفنوا في الكاظمين خلال سبعة قرون .

٥ – دليل خارطة بغداد – وقد شارك في تأليفه الدكتور أحمد سوسة .

٦ – الاساس في تاريخ الادب العربي – ألّفه بمساهمة كمال ابراهيم وبهجة الاثري .

٧ – تاريخ العراق – وهو القسم المنشور في دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ بالمشاركة مع الدكتور احمد سوسة ومحمود فهمي درويش .

٨ – كتاب الفتوة لابن المعمار – بالمشاركة مع الدكتور تقي الدين الهلالي والدكتور أحمد ناجي القيسي .

٩ – الجامع الكبير لابن الأثير نصر الله في فن الشعر والنثر وعلم البيان – بالمشاركة مع الدكتور جميل سعيد .

١٠ – بغداد مدينة السلام – نقله إلى العربية بالمشاركة مع فؤاد جميل .

مؤلفاته المخطوطة

وللدكتور مصطفى جواد عدد غير قليل من المؤلفات لا تزال مخطوطة استحضر منها ما يلي :

١ ـ سياسة الدولة العباسية او عصر الناصر لدين الله ـ وهي اطروحته التي كتبها بالفرنسية ولم تزل مخطوطة .

٢ ـ الضائع من معجم الادباء ـ وقد نشر بعضه في الصحف .

٣ ـ أصول التاريخ والادب (وهو في خمسين جزءً مهماً) جمعه مما عثر عليه من المخطوطات النادرة في المكتبات الخاصة لا سيما مكتبة الكرملي ، والقزويني ، والمكتبة الوطنية بباريس .

٤ ـ المعجم المستدرك على معجمات اللغة العربية .

٥ ـ شعراء العراق في القرن السادس للهجرة (وقد نشر بعضه في الصحف)

٦ ـ معجم خطط بغداد التاريخية .

٧ ـ سيدات البلاط الاموي .

٨ ـ فقه اللغة العربية الحديث .

٩ ـ رياض المعارف العربية الاسلامية (وهو في عدة مجلدات ، وقد سمعت منه أنه قد أنجز تسع مجلدات ضخمة من هذا الكتاب ولكني لم أقف عليها)

١٠ ـ مستدرك أعيان الاكراد في التاريخ الاسلامي .

١١ ــ معجم البلدان العراقية التاريخية .

١٢ ــ مستدرك أعيان الاطباء ، (وقد نشر منه شيئاً في بعض الصحف

١٣ ــ تحقيق (نكت الهميان في نكت العميان) للصفدي .

١٤ ــ مدارس بغداد القديمة (وقد نشر شيء منها في بعض الصحف)

١٥ ــ تحقيق أحد أجزاء (تاج العروس) وهو تتبع لهفوات صاحب تاج العروس قام بتحقيقه بناء على طلب الكويت والذي سنشير اليه .

١٦ ــ رُبّط بغداد القديمة ــ (وقد نشر شيء منه في بعض الصحف)

١٧ ــ المستدرك على أعيان الشيعة .

١٨ ــ أعيان العراق والعالم الاسلامي ــ (وهو مجموعة تراجم يقع في عدة مجلدات) .

١٩ ــ ديوان شعره (وقد نشر معظمه في كثير من الصحف ومن أوائل شعره قطع منشورة في جريدة الفجر الصادق سنة ١٩٣٠) .

٢٠ ــ ترجمة لرحلة قام بها رحالة فرنسي في العراق قبيل الحرب العظمى الاولى .

٢١ ــ ترجمة رباعيات الخيام نظماً .

وليس من شك أن هناك شيئاً ربما كان غير قليل قد فاتني ذكره من مطبوعاته ومخطوطاته التي لم تسجل في مذكراتي يمكن الاعتماد على مؤلف گوركيس عواد عن المؤلفين العراقيين وقد أقعدني تكاسلي عن مراجعته .

— ٣ —

لا أذكر بالضبط كيف تم أول تعرفي بالدكتور مصطفى جواد ولكني أذكر جيداً ان محمد حسين الشبيبي هو الذي كان همزة الوصل في هذا التعرف واحسب أن ذلك يرجع إلى سنة ١٩٢٣ أو سنة ١٩٢٤ حين وافتني رسالة من الشبيبي من بغداد إلى النجف وعليها تعليق يخصني كتبه الدكتور مصطفى جواد ، وهذا كل ما انطبع في ذهني عن أول معرفتي بالدكتور مصطفى جواد ، ولقد بقي اسم مصطفى جواد مقرونا باسم محمد حسين الشبيبي عدة سنين بحيث قلما خلت رسالة كتبها لي الشبيبي من حاشية للدكتور مصطفى أو رسالة كتبها لي مصطفى جواد من حاشية للشبيبي .

حين اصدرت جريدة (الفجر الصادق) في النجف سنة ١٩٣٠ كان الدكتور مصطفى جواد حينذاك شارعاً في نظم رباعيات الخيام ، ولم يكن يعرف اللغة الفارسية وكان تعلمها احدى أمانيه التي لم تتحقق الى ان توفي وانما كان ينظمها بناء على ترجمة نثرية قام بها جميل صدقي الزهاوي على ما ورد في جريدة الفجر الصادق ، فهو على ذلك من أوائل من عالج نظم رباعيات الخيام بالعربية ، أما أول من بدأ بترجمتها نظماً إلى العربية في العالم العربي فهو الشيخ مهدي كبّه على أغلب الظن ، وذلك قبل الحرب العظمى الاولى بعدة سنين .

أقول : وحين أتم نظم قسم من رباعيات الخيام بعث به إلى جريدة (الفجر الصادق) وكنت أقوم حينذاك بنشر ما ترجمه أحمد الصافي النجفي من رباعيات الخيام قبل أن يجمعها الصافي ويطبعها في كتاب مستقل ، ولكي أبعد مجال التناظر بين ترجمة الصافي وترجمة الدكتور مصطفى جواد أخرت مواصلة نشر رباعيات الصافي بعض الوقت ثم بادرت بنشر ترجمة الدكتور مصطفى جواد . ولست أدري أين غاب عني مثل هذا الحزم او الفطنة — اذا جاز لي أن أسميها فطنة — بعد ما يقرب من ربع قرن وحين كنت أصدر جريدة (الهاتف)

ببغداد فلم أمانع – كما مانعت في الفجر الصادق من نشر قسم من ترجمة عبد الحق فاضل للخيام إلى جانب قسم من ترجمة الدكتور مصطفى جواد للخيام ، ولا أذكر الان كيف تم ذلك حتى حمل الدكتور مصطفى جواد على الاعتقاد بأنني دفعت إلى ذلك دفعاً وبتأثير من مقتضيات المجاملة لعبد الحق فاضل حتى وضعت الترجمتين موضع المقارنة وكأني فعلت ذلك متعمداً واعترف هنا أن طريقتي تلك كانت مجافية كل المجافاة للمبادىء التي كنت التزم بها أنا في أثناء عملي الصحافي مدة ثلاثين سنة وأكثر ، وكان الحق كله في جانب الدكتور مصطفى جواد ولكني لست أدري كيف وقع ذلك .

ولقد هاج ما وقع مني غضب الدكتور مصطفى جواد ، وله الحق أن يغضب ولكنه لفرط حيائه المتصف به – هذا الحياء الذي طالما حمله على أن يطرق برأسه ويغمض عينيه وهو يواجه الناس في التلفزيون – اعتاض عن مواجهتي باحتجاجه وعتبه برسالة كتبها لي وجاء يحملها بنفسه إلى مكتبي وسلمها إلى فراش المكتب عند باب الهاتف ليوصلها إلي وكان ذلك بتاريخ ١٩٥١/٣/٧ يقول فيها :

« عزيزي وصديقي ... جعفر الخليلي

« تحية زكية وبعد

« فقد بلغني (هاتفكم) الأخير وفيه خبر رأيت فيه بعض التسرع من حيث النشر وهو نشر ترجمة الرباعيات للأستاذ عبد الحق فاضل مع نظمي للرباعيات من دون استثماري ، وفي الحق أني استغربت الخبر لأنه غريب في بابه جداً ، فما معنى هذا القران في النشر ؟ أهو المباراة ؟ وهي لا تكون الا بعد الاتفاق ، أم المحاباة ؟ وليس هذا سبيل المحاباة ، ولعل الاديب المذكور – يعني به عبد الحق فاضل – محرّض (بفتح الراء) او مستعجل (بكسر الجيم) في نشر الرباعيات ، فان كان محرضاً (بفتح الراء) فان ذلك يدل على ضعف في نفس محرضه ، والضعف أنواع ، منها الحسد ، والبغيضة ، والتعصب ، وان كان

مستعجلا فالجريدة (يعني بها الهاتف) واسعة الصدر له ولأمثاله ، فانا أقطع نشر نظمي وهو يبدأ بالنشر وهو أمر كنت أتمناه لأن النشر لمثل هذا الادب اذا جاوز النماذج استبرده الناس ، واستطالوه ، وملّوا منه ، وخلاصة القول : اني حرت في تعليل عزمكم هذا ولعلكم كنتم مبعوثين عليه (يعنيني أنا) فان الحياة تستدعي كثيراً من المجاملة .

فأحسن حلّ إذن أن تبتدأوا بنشر ترجمة هذا الفاضل وتقطعوا نشر نظمي إلى أن يكتفي ويستوفي ، فحينئذ تستأنفون نشر نظمي ، ولا أود أن ينشر لي شيء معه لأن ذلك سيكون مضحكة من الجميع الناشر،والمنشور له ، ويؤكد ذلك أمران ، أحدهما : أنكم من المؤكد لن تنشروا نظمنا باتحاد المعاني والموازنة بين المعاني ، والاخر : اني لست مترجماً من الأصل الفارسي كهذا الاديب الفاضل حتّى تصح الموازنة في عالم الادب وانما أنا قد نظمت ترجمة الأستاذ أحمد حامد الصراف ، فالاحسان والاساءة يلابسانه في نظمي ، ويتصلان به ، وتقبلوا سيدي فائق التجلة والاحترام » .

المخلص
مصطفى جواد

وتداركت الأمر على ما أذكر،وأبعدت كل شبهة توحي بالمقارنة والمناظرة بين الترجمتين ، وأحسنت الاعتذار إلى الدكتور مصطفى جواد حين مرّ بي بعد يومين وكنت أعلم مما نشر في جريدتي السابقة (الفجر الصادق) ان الترجمة النثرية التي اعتمدها في النظم كانت ترجمة جميل صدقي الزهاوي ، ومن الجائز أن يكون مصطفى جواد قد اعتمد ترجمة الزهاوي النثرية يوم لم يكن متصلا بأحمد حامد الصراف صديقه الحميم ، أو لم يكن قد أطلع على ترجمته النثرية للخيام بعد .

وعلى ذكر الشعر والترجمة والرباعيات فاني أعتقد ان نصيب الدكتور

مصطفى جواد من الشاعرية المرموقة لم يكن قليلا ولكن شعره في الغالب شعر العالم يسوده المنطق والعقل والدليل أكثر مما تسوده السلاسة والانسجام ورقة العاطفة التي تجذب النفوس، ولقد جلّى بشاعريته في كثير من المواطن ودلّ على براعة فائقة ومع ذلك فهذه التدفقات أو الشحنات التي جلى فيها لم تستطع أن تتغلب على الكثرة المصطبغة بصبغة التقليد والمتطبعة بطبيعة العالم اللغوي الذي يعتمد المنطق والمعقول والكلمة المحدودة فيما يقول .

وحين رجا مني السيد قدس نخعي السفير الايراني ببغداد أن أرجو من الدكتور مصطفى جواد بصفتي صديق الطرفين القيام بترجمة رباعيات قدس إلى العربية نظماً قلت في نفسي ربما يجيد الدكتور مصطفى جواد ترجمة بعض هذه الرباعيات كما أجاد في ترجمة بعض رباعيات الخيام وتفوق في ذلك البعض على جميع مترجمي الخيام ولكن من هو الذي سيقوم بترجمة رباعيات قدس ونثرها إلى العربية ؟

والسيد قدس نخعي بالرغم من اشتغاله بالسياسة واشغاله لعدد من المناصب السياسية والدبلوماسية المهمة كسفير لبلاده في لندن ، ووشنطن ، وطوكيو ، وبغداد ، وكوزير للخارجية الايرانية ، ووزير للبلاط الشاهنشاهي ، وأخيراً كسفير لايران في الفاتيكان ، فانه ما مال يوماً إلى شيء ميله إلى الأدب ورجال العلم والفن ، والسبب هو انه نشأ نشأة صحافية قبل أن ينشأ سياسياً وكان يصدر مجلة أدبية فلكلورية عنيت كثيراً بالحياة الاجتماعية فضلاً عن كونه شاعراً وقصاصا وله دواوين شعرية بالفارسية وله قصة مطبوعة باسم (بهشت) .

يقول مير بصري انه رأى ذات يوم وهو في احدى حفلات احدى السفارات ببغداد شخصاً يكلم السفير الانكليزي بانكليزية طلقة رائعة ثم ما لبث أن وقف عنده السفير الفرنسي فراح يكلمه بالفرنسية بلغة غاية في الأدب !! قال : وحين طفت بين المدعوين في الحفلة وأوشكت أن أخرج رأيت الرجل نفسه يكلم السفير التركي بالتركية فتعجبت ولم يكن تعجبي من المام هذا الرجل بجملة من اللغات وانما لان لغته الانكليزية ، والفرنسية كانت لغة أديب بارع ،

فسالت عنه – يقول مير بصري – فقيل لي انه قدس نخعي سفير ايران الجديد .

وبالاضافة الى ذلك كان الرجل يتقن اللغةالعربية الفصيحة الى جانب اتقانه لغته الفارسية ، وقدس بعد ذلك عربي الاصل من قبيلة نخع وكان لا بد لمن كان على هذه الصفات من العلم والادب أن يتصل بأهل العلم والفن والادب عند أول قدومه سفيراً لبغداد، ومنذ ذلك اليوم فتحت أبواب السفارة في وجوه اساتذة الجامعة والشعراء والأدباء أكثر مما فتحت في وجوه الساسة ورجال الدولة والدبلوماسيين ولهذا كان من الطبيعي أن تشده الى الدكتور مصطفى جواد خلال أيام قليلة صلة صداقة محكمة متينة ، ولقد قال لي الدكتور مصطفى جواد ذات يوم .

قال : لقد أخجلني هذا الرجل بكثرة دعواته لي وما اهدى الي من كتب وليس من عادتي أنا أن أدعو أحداً في بيتي لأني لم أعدّ نفسي بل لم أفكر في أن أعدّ نفسي لمثل هذا حتى للاصدقاء المقربين منهم فكيف بامكانك أن تعتذر لي من الرجل ولم يبق أحد من أصدقائه دون أن يدعوه الى بيته ويدعوني أنا معه بصفتي الصديق المقرب اليه . فقلت : أحسب أن ذلك ممكن لي وفعلت .

وبالاجمال فلم تبلغ صداقة أحد من غير العراقيين ما بلغت صداقة قدس للدكتور مصطفى جواد .

وحين عرضت على الدكتور مصطفى جواد رغبة صديقه في أن يقوم بترجمة رباعياته نظماً الى العربية رحّب بالفكرة وعدها من قبيل ردّ الجميل والتعويض عن تكريمه ودعوته ، وتولى أحد موظفي السفارة ترجمة الرباعيات الى العربية نثراً وساعدت أنا الدكتور مصطفى في تفهم بعض ما غمض عليه من الترجمة، ودهشت للسرعة التي أنجز بها الدكتور مصطفى نظم هذه الرباعيات، وقامت شركةهولندية بطبع هذه الرباعيات بالفارسية والعربية طبعاً أنيقاً مزيناً بالصور الجميلة .

وذات يوم قال لي السيد قدس نخعي قال : انه يعرف العربية حقاً ولكنه لا يعرفها بالقدر الذي يستطيع أن يزن بها الشعر بموازينه الفكرية وبما هو زاخر به من الابتكار وبراعة النظم وقد قال لي الشيخ محمد رضا الشبيبي – يقول قدس – ان

الدكتور مصطفى جواد لم يكن مخفقاً في الترجمة فحسب وانما كان شعره من الركة بحيث لا يتناسب وشاعرية قدس نخعي المعروفة ! !

فوجمت أنا وقلت له :

ــ اما أن هناك من هو أجود شعراً من الدكتور مصطفى جواد فلا أناقش فيه ولكنني أخالف كل من يقول بأن هذه الترجمة كانت ركيكة وانها غير متناسبة مع الاصل، وان فيها ما يعاب على مترجمها، ومن الجائز أن تكون فيها بعض المعاني مما تحتاج الى بعض الشرح اما لغموضها بالذات ولسرعة نقلها ولكن مثل هذا لا يدعها تكون ركيكة، ولقد احتفظت أنا بهذا السر ولم أنقله الى الدكتور مصطفى جواد تجنباً (للفتنة) التي قد تنشأ بينهما واتساع شقة الخلاف بين الشبيبي ومصطفى جواد.

ولقد صدرت ترجمتان احداهما لمهدي جاسم والأخرى لصالح الجعفري وطبعتاهما الاخريان بهولندة طبعة متقنة رائعة، وقد عرف الدكتور مصطفى جواد بأن بعض ما جاء في ترجمته لم يكن مطابقاً للاصل ولكنه لم يعرف أن نظمه لم يرق عين الشبيبي، وأن الشبيبي هو الذي نبّه قدس الى ذلك ولم ينقل قدس ذلك لاحد سواي أو أنه نقله فكتمه ذلك كما كتمته أنا .

قلت ان مصطفى جواد وان لم يقف في مصاف الشعراء المجودين بمجموع شعره ولكنَ شعره لم يخل من لمحات قد يتفوق بها على غيره ان لم يكن قد تفوق فعلاً ، ومن هذه اللمحات ما نشرته له جريدة الفجر الصادق من ترجمته لعمر الخيام كقوله :

كان ربّي يدري بمـــا آتيه ... يوم سوّى طيني وقدّر حيني
ليس ذنبي بلا ارادة ربّي ... فلماذا في نـــاره يلقيني ؟

ومن ترجمة لرباعية أخرى يقول مصطفى جواد :

ان ذا القصر الـــذي في التسامي ... زاحمته الافلاك أي زحـــام
وفريق مـــن الملوك العظـــام ... سجدوا عند بـــابه بـــاحترام
سجعت فوقه الفواتخ (كُوكُو) ... فسرّته الورى: باين الملوك؟
خلّفوه وغادروه اضطرارا

وفي ملحق جريدة الجمهورية ببغداد المرقم ٧٦٧ والمؤرخ ٩٦٦/٢/٢٤ أجاب الدكتور مصطفى جواد على سؤال وجهته اليه الجريدة حول ترجمة رباعيات قدس بما يلي :

«... أما رباعيات الاستاذ حسين قدس نخعي فاني نظمت نثيرها برجاء من صديقي الاستاذ الأديب البارع جعفر الخليلي ، فانه اطلع على نظمي لرباعيات الخيام ونشر منها في صحيفته وأنهى إليّ رجاء الاستاذ النخعي للامر نفسه ، واذ كنت أجهل الفارسية أمر النخعي بترجمتها لي نثراً لأجعلها نظماً .

وقد أحسست فيها بأفكار خيّامية فلذلك تاقت نفسي الى الموافقة على نظمها ، وقد أساء المترجم ترجمة قسم منها فلما نظمته وعرض على الناظم استبعده عن مراده ، واستغربه في فؤاده ، وأمر انساناً آخر بترجمته عوداً على بدء ، فأنا اذن قد نظمت النثر الذي قدّم الي ، ولا عهدة بالتزام المعنى علي ، ولكن هل قرأ المصور لهذه الصورة أصل الرباعيات الفارسي ووازن بينه وبين النظم مع معرفته بالموازنة حتى يقول قوله ؟ »

وعلى سبيل النموذج لبعض شعره الذي يأتي عفو الخاطر فيعبر عن شعوره الصادق أذكر أنه دخل المستشفى مرة ثانية ، لاجراء عملية البواسير التي لم تجر وفق الأصول في المرة الأولى فعاده صديقه الوفي القديم بل هو أقدم الاصدقاء محمدحسين الشبيبي بصحبة محمد مهدي الجواهري ، والسيد صادق كمونة ، وعلى أثر هذه الزيارة وجه الدكتور مصطفى الى الشبيبي هذه الابيات :

مدحيك أحسن ما ارى أن أنشدا ... لكنما عجز القريض عن المدى
أمحمد الشهم الكميّ لانت في ... حسن الوفاء الجم أفضل مقتدى
كذّبت من عدّ الصديق خرافةً ... وأريتنا أن الذي قالوا سدى
هذا فعالك لا يجوز لمفكرٍ ... إنكاره ابداً ، جعلت لك الفدا

وهنالك بيتان يخصان الجواهري وكمونه لواردت ان آتي بهما هنا بطل الاستشهاد مني بسلاسة شعره وصدق شعوره .

أما هو فيقول عن نفسه : انه لو تفرغ للشعر ولكتابة القصة لبرع فيهما ، وقد جاء ذلك في أحدى رسائله لي التي قد أشير اليها .

وميزته في قول الشعر التي قلما يبزه فيها الشعراء هو أنه سريع البديهة يطرق كل أبواب الشعر من المديح الى الهجاء الى المجون الى الاعراب عن خواطره ، بسرعة مدهشة قريبة من الارتجال ، وان شهرته في التحقيق والبحث والاستقصاء طغت على شعره فلم يعرف شاعريته الا القليل. وقد نشرت له (الفجر الصادق) و(الراعي) و (الهاتف) وهي الجرائد التي أصدرتها أنا الشيء الكثير من الشعر الى جانب الشيء الكثير من البحوث المختلفة والمواضيع المتنوعة حتى القصة منها .

ومن هذا القبيل المرتجل أو شبه المرتجل من شعره قطعة نظمها في نصف ساعة ان لم يكن أقل من ذلك على أثر فجيعة صديقه الحميم محمد حسين الشبيبي بابنه (نوفل) بسبب حادث مفزع وقد تناول القلم وهو بين زائريه وكتب هذه المقطوعة وأرسلها للشبيبي يقول فيها :

(أبا عليّ) قد دهاك القدرْ ... بما فؤادي من أساه انفطر
لهفي لذاك القلب من موجع ... ومفجع آلامه تستعر
لهفي على نفسك مكروبة ... حاق بها ما ليس منه مفر
إن خلق القلب لهذا البلا ... فكان أولى خلقه من حجر
فاجعة كيف تعزّى بها ؟ ... ولا يطيق الصبر فيها بشر
فكلّ تهوين لها باطل ... وكل ما يوعظ فيها هذر
تعدّت الاقدار أقدارها ... فيها فهدّتنا بكبرى الكبر
فليترك الوعاظ أقوالهم ... وليترك المعتبرون العبر
لقد أتى العيد فلا عادنا ... وابنك قد أخنى عليه الدهر
إن شغل الناس بأفراحهم ... فأنت محزون لغدر القدر
ما كانت الحكمة في موته ... زهرة روض دفنت في المدر
فليفعل الدهر أفاعيله ... لا يبق من أنواعها أو يذر
فلن يرى أعظم ممّا أتى ... من حادث كان فظيع الأثر

ولتذهب الدنيــــا الى شــأنها   بشيعة أهون منهـــــا سقر

* * * *

قلت ان صلاتي با لدكتور مصطفى جواد بدأت قبل منتصف العقد الثالث من هذا القرن ، وليس من المباهاة أن أذكر اني كنت من أوائل من توسموا له القمة في اللغة العربية وأصولها وقواعدها ، اما أن يكون عالماً وأكبر علماء التاريخ والتحقيق في العصور الاسلامية والعصر العباسي خاصة فهذا ما لم أكن أتصوره ولم يتصوره غيري في الثلاثينات بل وحتى في الاربعينات وكانت الثقة تزداد به كباحث لغوي يوماً بعد يوم حتى بلغ الامر أن صار يتهيبه حتى العلماء المتخصصون ، وقد أوردت في الجزء الثاني من كتاب (هكذا عرفتهم) وفي عرضي لحياة الشيخ محمد رضا المظفر كيف جرى النقاش بينه وبين الدكتور مصطفى جواد على صفحات جريدة (الهاتف) يوم كنت أصدر (الهاتف) في النجف حول كلمة (فوضى) التي أجاز الدكتور مصطفى دخول (ال) التعريف عليها وأنكر الشيخ المظفر ذلك عليه ، وعلى رغم أن الحق كان الى جانب (المظفر) للاجماع الحاصل من علماء اللغة بعدم جواز دخول الالف واللام كقولهم في الاستشهاد :(ان الامر فوضى بينهم) دون تعريف ، فقد وجدت المظفر ، متهيباً الخوض في هذا النقاش وشبه خائف من الدكتور مصطفى لئلا يكون الدكتور قد وقف على مصادر تجيز دخول الالف واللام ولم يقف عليها هو ، وحين طالبه المظفر في احدى مقالاته في الهاتف بما يؤيد مدعاه من أقوال العرب أجاب الدكتور بأن ذلك من اجتهاداته وليس من النصوص الواردة وهناك تنفّس المظفر الصعداء وقال : ولم لم تقل لي أن لك اجتهاداً خاصاً لأترك المناقشة منذ الابتداء ؟

أقول لقد كان الكثير يعرفون للدكتور مصطفى هذه المنزلة في عالم اللغة وقواعدها منذ الثلاثينات ، ولقد بلغ من احاطته الواسعة ووقوفه على فاسفة اللغة أن صارت له بعض اجتهادات لا يمكن أن يتقبلها اللغويون ولا يسوغها نحو البصريين الذي تسير على قواعده اللغة العربية منذ القرن الثاني الهجري حتى اليوم ومن ذلك أنه كان يجيز النسبة الى الجموع في كل الاحوال فيجيز لك أن تقول

(جبوري) لمن تريد أن تنسبه للجبور ، و (ملوكي) لمن تريد أن تنسبه للملوك ، ومن اجتهاداته انه كان يجيز اضافة كلمة (كافة) التي تعني الجمع فتقول كافة الناس في حين لا تجيز اللغة مثل هذه الاضافة وانما يجب أن يقال : جاء الناس كافة ، إلى غير ذلك من الاجتهادات وهو كما يخفف بعض قيود اللغة باجتهاده فانه يثقّل هذه القيود ويزيدها ثقلاً بل ولا يتسامح فيها كما يظهر ذلك في الكثير مما جاء من أقواله في : (قل ولا تقل) .

ولقد بلغ من حرصه على تقويم المعوج من اللفظ ان صار البعض يتندر بقصصه وينسب له ما لم يقع ، وقد زعموا انه ركب مرة سيارة أجرة ولم يعرفه السائق وفي عرض الطريق فتح السائق الراديو فاذا بالمذيع يذيع جانباً من برنامج :(قل ولا تقل) الذي التزمت الاذاعة بأذاعته سنين طوالاً كمحاولة لتصحيح لغة الكتاب ومحرري الصحف والذي أخرج الدكتور مصطفى جواد منه كتاباً وطبعه في اخريات حياته ، فغضب السائق وصاح مخاطباً صاحب البرنامج ولم يدر أن صاحب البرنامج هو الذي يستقل سيارته الآن قائلاً بلغته العامية :

أما عجزت يا (گـوّاد) من قل ولا تقل .

فرد عليه الدكتور مصطفى جواد من وسط السيارة قائلا : قل يا قوّاد ولا تقل يا گوّاد ! !

وقد تولى الدكتور مصطفى جواد وهو يومذاك لم يزل معلماً في المدارس الابتدائية وذلك في الثلاثينات ، لقد تولى نقد الكتاب الذي وضعه رفائيل بابو اسحق لقواعد اللغة العربية وأقرّت وزارة المعارف تدريسه في مدارسها الابتدائية وبعد أن وضع النقاط على الحروف قال في خاتمة نقده :

«ان ثلاثين غلطة كافية لقتل لغة القرآن الكريم ، فكيف بكتاب كله أغلاط ؟ »

وأنذرته مرة وزارة المعارف وهو معلم بمدرسة الكاظمية الابتدائية يومذاك وذلك بسبب ما كان ينشر من المقالات في الصحف ، وكانت الحكومة تمنع يومها موظفيها

من كتابة المقالات حتى وان كانت هذه المقالات لغوية وأدبية كمقالات الدكتور مصطفى جواد فعمد الى كتاب الانذار وراح يعلّم على كلماته بالحبر الاحمر فأحصى سبع كلمات مغلوطة وردت في كتاب الوزارة ، وأعاد الانذار الى وزارة المعارف مشفوعاً بالكلمة التالية :

« لتقوّم الوزارة لغة ديوانها أولاً اذا أرادت أن تقوّمني »

وذات مرة نشر الدكتور عبد الرزاق محي الدين مقالاً في مجلة (المعلم الجديد) اذا لم تخني الذاكرة نقد فيه الدكتور مصطفى جواد نقداً لاذعاً من الناحية اللغوية ، فهاج الدكتور مصطفى وماج وطلب تأليف لجنة تحكيم من علماء اللغة تصدر قرارها في صحة ما ذهب اليه محيي الدين أو عدم صحته ، فلم تتألف اللجنة ولم يتقدم من يؤيد محي الدين في نقده .

واذا كان لاجتهاداته في اللغة والنحو والصرف من مبررات علمية فان له اجتهادات في نواحي عامة يثير بعضها الضحك لغرابته فهو مثلا يخاف من شهر شباط – اذا اقترن بشهر جمادى أو ما يشبه ذلك مما سمعته منه ولم أفهمه أو قل لم أكلف نفسي فهمه – ويخاف حين يكون القمر في العقرب وهي منازل يقول بها قدماء الفلكيين ، لأنه يعتقد أن معظم المشاهير من المؤرخين قد ماتوا في هذه التواريخ ، فاذا مرت عليه هذه الاوقات ولم يمت بصفته من الذين اشتهروا بمعرفة الرجال وتراجمهم اطمأن من سلامته طوال السنة الى أن يحين مثل ذلك الحين من حساب الفلك ! ! مع العلم بأنه كان من العقل والادراك الصحيح بحيث لم يؤمن بأي شيء يخرج على حدود العقل والمنطق سواء في العلوم الروحية أو غيرها ، ولقد توفي في غير المواقيت الفلكية التي كان يخافها وقبل حلول الميعاد المخوف بنحو ثلاثة شهور .

ومن اجتهاداته هذه التي كنت أخالفه فيها – كما كنت أخالف صحة الحسابات الفلكية التي تحدد موت المشاهير من كتّاب التراجم – كان هنالك اجتهاد خاص يوحي له بأنه يعرف بموجبه الطوائف من سيمائها ولاسيما اليهود منهم ، ويقول إنه لم

يخطيء ولا مرة واحدة وقد جرب قواعده هذه وهو في فرنسا حتى آمن برأيه هذا بعض الاصدقاء ، أما أنا فكنت أرى أن هناك سمات عامة يمكن أن تساعد المرء على الحدس في أن المتصف بها هذا يهودي أو غير يهودي ، ولكن هذهالسمات لم تكن في يوم ما ولن تكون قاعدة صحيحة يبني عليها المرء رأيه العلمي بأي وجه من الوجوه ، أما هو فكان على خلاف تام معي بهذا الرأي .

ولقد دعينا أنا وهو لالقاء محاضرة بكلية الفلسفة والالهيات من جامعة طهران وكنا ننزل أوتيل سميراميس ــ اذا لم أكن قد نسيت اسمه ــ وكانت السكرتيرة التي تدير شؤون الاوتيل العام في المكتب سيدة جميلة الصورة أنيقة الملبس ما كاد يلقي الدكتور مصطفى جواد نظره عليها ويتعمق فيها حتى قال لي :

ــ مثال ما سلف من مناقشاتنا القديمة أقول لك ان هذه الانسة أو السيدة يهودية دون أي شك وريبة .

فقلت له ــ قد تكون هذه كما تقول ولكن ليس هناك دليل علمي يعتمد عليه في هذه الأقوال .

واشتد الخلاف من جديد بيننا ، فقمت أنا وقصدت مكتب الاوتيل مستفسراً عن هذه الآنسة ، فعلمت أنها ليست مسلمة فحسب ، وانما هي علوية هاشمية ! ! ولم يقتنع هو بما قلت لشدة عقيدته بصحة استنتاجه حتى قام بنفسه واستفسر ، وتحقق ، ومع ذلك فيغلب على الظن أنه بقي كما هو من حيث ايمانه بما يرى وان لم يذكر لي شيئاً عنه بعد ذلك .

لقد كنا أصدقاء قبل أن نلتقي وكنت انشر له ما يبعث به الي في الصحف التي كنت أصدرها ، ولم أكن أعرف انه أوسع افقاً من حيث جبلته وأخلاقه مما كنت اتخيل لانني لم أكن قد التقيته بعد ، وكل ما كنت أتصوره به ــ مع بعض الفارق ــ لم يتجاوز حدود اللغويين المتزمتين الذين قلّ منهم من يعرف للاريحية والدعابة وتطرية النفس معنى ، لأن التعمق في اللغة قد يخرج من المتعمقين أناساً متزمتين أقرب وجها الى الانقباض منهم الى الانبساط حتى تلقيت يوماً مقطوعة

شعرية من ذلك الشعر الذي لا يقدم عليه الا من كانت له نفس غاية في الرقة ، وطبيعة غاية في اللطافة والعذوبة والحلاوة ، وهي ليست قطعة شعرية بالمعنى المفهوم من الشعر الصحيح ، وانما هي منظومة كل ما فيها أنها تدل على أن ناظمها مرح وفي منتهى المرح وفكه في منتهى الفكاهة ، وقد نظمها مشتركاً مع صديقه محمد حسين الشبيبي فلم أعرف أي بيت لهذا وأي بيت لذاك وكل ما عرفت أن النظم كان مشتركاً بينهما بيتاً لهذا وبيتاً لذاك وبعثا بالقصيدة الي فنشرتها في جريدتي تعليقاً على القصة التالية :

كنت أنا من المعلمين منذ أوائل العقد الثالث من هذا القرن وكان قد وقع اختيار وزارة المعارف على السيد عبد الرزاق والسيد طه مكي لايفادهما للتدريب وللاطلاع على سير المدارس في اوروبا واميركا ، وقد عاد طه مكي وهو مفتش للمدارس بعد اطلاع كاف على أنظمة المدارس بلندن ، وحين عاد من لندن بدأ يكثر من ذكر لندن في أثناء قيامه بتفتيش المدارس فيقول مثلاً : « ولما كنت في لندن رأيت كذا وقلت كذا ... » فغالى بعض الخبثاء من المعلمين — ولم لا أقولها صراحة — وكنت أنا في طليعتهم ، فنسبت له بداعي التفكهة والمجون أكثر مما كان يكثر من قوله : « ولما كنت في لندن .. » بل لقد أتيت على لسانه بالكثير من الأقوال المضحكة في مناسبة أو غير مناسبة حتى شاعت هذه الاقوال وحتى ضاع ملفقها الاول وصارت تنسب كلها له . حقاً أم باطلاً ، ولم يعد يعرف أحد أنني أنا الذي هولت الأمر وبالغت فيه ، ولكن من الحق أن أذكر أنه هو الاخر — أعني طه مكي كان يساعد على انتشار هذه الشهرة لكثرة ما كان يردد ويقول «ولما كنت في لندن» وقد شاعت هذه الحكاية وذاعت بين جميع معلمي العراق يومذاك وساعد على انتشارها شيء ذو أهمية كبيرة وهو اني نشرت قصة في جريدة الأستقلال تحت عنوان : «ولما كنت في لندن» لفتت فكاهتها اليها الانظار ، أما وقعها على طه مكي — وان لم يذكر اسمه صراحة — فقد كان سيئاً بحيث حمله هذا على معاتبة عبد الغفور البدري وحمل عبد الغفور البدري على معاتبتي في نشر قصة تخلف مثل هذا الأثر وهو لا يعلم بشيء عن مغزاها ، وقد أخجلني عبد الغفور البدري

صاحب الاستقلال ، بعتابه وندمت على ما فعلت ، وهاجت هذه القصة فيمن هاجت كلا من الدكتور مصطفى جواد ومحمد حسين الشبيبي فنظما مازحين – كما مرّ – قصيدة اقتطع منها هذه الابيات كصورة للخلق الطري والفكاهة المجبولة عليها نفس الدكتور مصطفى الحلوة العذبة :

ولمـــــا كنت في لندن   رأيت النـــــاس أنواعا
فقسم كـــان بيّـــاعـــاً   وقسم كـــان مبتاعـــا
ومنهـــــم كـــان جوعاناً   ومنهم لم يكن جـــــاعا
وقسم كــــــــان فوق   الارض لا خاف ولا ارتاعا
وفي لنـــدن أقســـــام   ترى البطّيخ نعناعـــــا
خـــــراف حـــولهم تمشي   وتثغو قولاً : مـــا عـــــا
على الثلج يسيـــــرون   اذا مـــا كـــــان لماعـــا
فقلدنـــــــا تزحلقهم   ولكن بعضنـــا ضـــاعا

الخ ... الخ

وكان هذا تكهناً عجيباً أن يستبق الدكتور مصطفى جواد الحوادث ويمسك بعد ذلك بعصا التزحلق بعد أكثر من ربع قرن ويقلد المتزحلقين في تزحلقهم بسويسرا ويسقط على الثلج وتنكسر رجله ... ويضيع ! ! ويأخذ طه مكي بثأره منـــــه !

* * * *

وقويت الصلة بيني وبين الدكتور مصطفى جواد وأنا لم أزل في النجف الأشرف وكنت أبحث عنه حين أزور بغداد بين آونة وأخرى فاذا علم ببقائي أياماً زارني في الفندق ، وكل أحاديثنا اما ان تكون شخصية ذات علاقة بشؤوننا وشؤون أصدقائنا الخاصة والعامة واما أن تكون أحاديث أدبية ذات علاقة بالماضي او الحاضر ، وظل هو الى أن توفي قلما كان يعنى بالحاضر من أحوالنا السياسية أو الاجتماعية باستثناء ما يتعلق بالادب واللغة والعلوم العربية التي يتداولها مجتمعنا في

المدارس أو على منصة الخطابة أو على صفحات الجرائد والمجلات ، فقد كان واسع القراءة يقرأ كل شيء قراءة سريعة عميقة ، وكانت الصحف اليومية أقل نصيباً من قراءاته .

ولقد سبق لي أن قلت عنه شيئاً ما لبث أن انتشر حتى ضاع قائله كما ضاع مرسل النكتة الاولى عن طه مكي ، لقد قلت عن مصطفى جواد ومدى اهتمامه بالماضي من التاريخ ورجاله ، وعن اغفاله الحاضر من الناس وشؤونهم ، قلت عنه انه اذا سئل مثلا من هو مدير الشرطة العام اليوم في العراق لعجز عن الاجابة في حين لو سئل عمن كان على رياسة الشرط في البصرة سنة ٢١٨ هجرية مثلا لأجاب : انه عبدالله بن يعقوب بن الوضاح بن الأبـّلة بفتح الهمزة وتشديد اللام وقد سمي بالأبـّلة لأنه كذا ... وكذا ... الى آخر ما لا يحتمل ويظن مـــن التعاريف والشروح التي يعجز عن الاتيان بها أوسع العلماء اطلاعاً . وقد شاعت هذه الحكاية وراح يرويها الكثير من الأصدقاء وغير الاصدقاء بصيغ وتعاريف مختلفة كأن يقولوا لو سئل الدكتور مصطفى عن وزير المالية أو وزير الداخلية ، أو .. أو لعجز عن الجواب ولكنه كان يفيض بالشروح الطويلة في تعريف أية شخصية تاريخية ...

وكثرت بيني وبينه الرسائل قبل أن أنقل مسكني الى بغداد ، ومن المؤسف أن تضيع لي أضبارة وهي من أهم أضابير الرسائل فيها عدا رسائل الدكتور مصطفى رسائل ممن لهم عندي ولاء ومحبة وأعجاب أمثال رشيد سليم الخوري الشاعـــر القروي ، والشيخ أحمد رضا ، وحسين مروة ، والشيخ جواد البلاغي ، والسيد عبد الرؤوف الامين (فتى الجبل) ونعمان ثابت ، وكانت هذه الاضبارة احدى اضبارتين فقدتهمادون الأضابير الاخرى ، ولم أدر هل اختلطتا بين كتب مكتبتي التي بعتها صفقةواحدة على أثر أزمة مالية حلت بي أو أن يداً امتدت اليهما دون بقية الاضابير فسرقتهما ، لذلك لم يبق لدي من مصطفى جواد الا بعض الرسائل التي لا يعبر تاريخها الى أبعد من ثلاثين سنة سلفت قبل هذا اليوم .

* * * *

وحين انتقلت الى بغداد سنة ١٩٤٨ سهل التقاؤنا أكثر ، وكثر تزاورنـــا خصوصاً وأن مكتب جريدتي الواقع بشارع الامين لم يكن بعيداً عن بيته الواقع عند نهاية الشارع الذي يربط اليوم بين ساحة الوثبة وشارع الجمهورية الذي باعه فيما بعد بخمسة آلاف دينار ، وعمّر بالمبلغ الارض الواقعة في (الدورة) واتخذها سكناً بعـــد أن قضيت معه أسابيـــع وأياماً أسعى لأصرفه عن فكرة الانتقال الى (الدورة) لبعدها عن وسط المدينة ومركز عمله الذي يستدعيه كأستاذ في الجامعة ، ومحاضر في كلية الشرطة ، ومحدث في الاذاعة أن يكون قريباً من هذه المراكز فلم أوفق في حمله على تغيير رأيه . وقد بنى أخيراً بيته وانتقل اليه ، ورأى بعينه كم كان رأيه بعيداً عن الصواب وعلى الاخص حين جاء الشتاء ، وأمطرت السماء ، وامتلأ الزقاق النافذ الى بيته بالمياه والوحل الذي حال بينه وبين خروجه من البيت لتعذر خروج سيارته من الوحل .

أقول لقد كان بيته قريباً من مكتب جريدة الهاتف قبل أن يبيعه فكان يقضي معظم فراغه عندي وفي مكتب الجريدة .

وحين كنت في النجف كنت قد خصصت يوماً معيناً في الاسبوع للاصدقاء يسمرون به في مكتب جريدة الهاتف ، وكان يعرف (بيوم الهاتف الادبي) وكانت بناية (الهاتف) ، بناية واسعة كبيرة شيدت خصيصـــاً لتكون داراً للمطبعة التي ظل اسم (الراعي) ملازماً لها منذ صدور جريدة (الراعي) التي اغلقتها الحكومة ، ولتكون داراً (للهاتف) وقد بيعت هذه الدار فيما بعد ، وكان هذا اليوم المعين يوماً مذكوراً لكثرة ما كان يجمع من أهل الشعر والادب . ولما كان يدور فيه مـــن المناظرات ، والمباراة ، والنكت التي كان ينتقل المهم منها الى الجريدة فينشر على القراء ، ولقد تم نقل هذا (اليوم) الى بغداد . بانتقال (الهاتف) . وبدأ الأصدقاء يجتمعون في كل يوم من (الاثنين) في مكتب الجريدة بشارع الامين بالحيدرخانة من شارع الرشيد . وبدأت تنتقل أخبار هذا اليوم من شعر وأدب وأفكار الى الجريدة نفسها وتنتشر في اعدادها الاسبوعية باسم (يوم الهاتف الادبي)ولقد أصبح هذا (اليوم) الذي يمتد من العصر حتى ساعة متأخرة من الليل ذريعة لبعض

الاصدقاء الذين يريدون أن يلهوا في جهات أخرى ويتمتعوا بحرياتهم تخلصا من زوجاتهم أن يقولوا أنهم قضوا وقتهم الكامل بدار الهاتف تمتعاً بيومه الادبي .

ولن أنسى ما وقع مرة لأحد هؤلاء الأصدقاء من مصادفة سيئة قامت لها قيامة الزوجة التي اتصلت بي تسألني عن زوجها في اليوم التالي لمجلس الهاتف ومتى كان حضره زوجها ومتى غادره ؟ ولم يكن هذا الصديق قد حضر يوم الهاتف المذكور ولكنه لم يخبرني وهو محام بارع وكان يجب أن لا يفوته ذلك — لكي اتخذ له التدبير حين يوجه لي سؤال عنه فأخبرتها بأنه لم يحضر .

قالت — ولكنه كان متذرعاً بهذه الحجة في غيابه الطويل ليلة أمس ، حتى لقد قال أن مشادة أدبية عنيفة حدثت بين الدكتور مصطفى جواد وبين بقية الحاضرين .

وهنا أدركت السرّ فرحت أتمتم وأتعثر في الكلام لكي ألفّق لها خبراً ينجي زوجها من هذه الورطة فلم أوفق ، ومن المصادفة الغريبة أن الدكتور مصطفى جواد لم يحضر مكتب الهاتف في هذا اليوم بل لم يحضر أحد آخر غير مير بصري على ما أذكر .

ولازم الدكتور مصطفى جواد يوم (الهاتف) ملازمة شديدة بحيث قلما تخلف عن حضوره . وكان هو المجلي في هذا اليوم والآخذ بأزمة الحديث والمناقشة ، وقد أسهم في تحرير (الهاتف) أكثر وأكثر مما كان يسهم في تحريره قبل أن ينتقل الهاتف الى بغداد حتى كان في طليعة أسرة الهاتف القلمية . ولم يقتصر اسهامه على الشعر والتراجم والبحوث الادبية ، وانما تجاوزها الى القصة التي ظهر أنه لم يخل من ميل لمزاولتها ولاسيما القديم منها منذ أن دعوناه والهاتف لم يزل في النجف الأشرف الى المشاركة في الاعداد القصصية السنوية التي اعتاد (الهاتف) أن يصدرها في مبدأ كل سنة من سنينه العشرين فكتب لي بتاريخ ١٩٤٦/٣/٢٣ يقول :

«.... ومن المعلوم لعلمكم الثاقب اني لم أتفرغ لكتابة القصص على حبي لها حتى لقد تركت ما كنت شرعت في كتبه من قصة (حسناء بغداد في أيدي المغول)

لانشغالي بأمور أخرى ، على أني لم أجد قلبي يطاوعني الى الاجابة السلبية مع وجوب جقكم علي فلفقت لكم قصة تاريخية غرامية نادرة حدثت في أيام سيف الدولة الحمداني ، ولا أعني بالتلفيق الا التوفيق بين الأجزاء ، فان وجدتم لها مكاناً خالياً من كل فائدة فانشروها فيه فانها سواء والعدم ، وانما يعنيني كل العناية أن تقبلوا عذر صديقكم المقصر ... الخ »

أجل لقد خاض كل لون من الوان الثقافة ، وخاض كل فن في جريدة الهاتف حتى كتابة القصة ، وكان أبرز هذه القصص هي السلسلة التي قام بترجمتها من الفرنسية باسم (مـــائة يوم ويوم) وهي سلسلة طويلة نقلت الى الفرنسية من أصل عربي مفقود ولم يبق له ذكر ،وقدكثر – حول الاصل – البحث والنقاش . واختلفت الأقوال فيما اذا كانت (مائـــة يوم ويوم) أو (مائة ليلة وليلـــة) جزءاً آخر من (الف لياة وليلة) أم هي مجموعة مستقلة ؟ أما ما تبانت عايه الاكثرية فهو قلمها مع قرب الاحتمال بأنها الجزء الضايع من (الف ليلة وليلة) وذلكلعدم ورود ذكر لاسم(مائة يوم ويوم)، أو ما يشبهذلكفيالمصادر التاريخية، وقد استمر الهاتف في نشر هذه السلسلة تباعاً الى أن أغلق الهاتف مع ما أغلق من الصحف بالمرسوم الذي صدر سنة ١٩٥٤ على ما أذكر ، وانقطعت هذه السلسلة بموت الهاتف . وقام بعد ذلك الدكتور مصطفى جواد باستلال احدى قصصها من جريدة الهاتف وطبعها في نسخة مستقلة باسم قصة (الأمير خلف)

* * * *

كان الدكتور مصطفى جواد يغالي في محبته للهاتف وصاحبه ، ويغالي في اضفاء النعوت الطيبة عليهما مع أنه كان من أشد المتصلين بالهاتف وصاحبه محبة ولم يكن هناك والمحبة والمودة على هذا النحو ما يستدعي المبالغة في المجاملة والتجلة والتكريم ولربما فاتحته أنا بذلك ولمته فيما يكيل من المديح لي وفيما يبدو من معاملته لي خصوصاً حين نكون في زيارة أحد أو دخول مجلس ، فيمضي محاولاً بكل طاقته أن يقدمني على نفسه في الدخول فأمانع ، ولربما أحس غيري بما كان يغدق علي الدكتور مصطفى جواد من الاهتمام ولاسيما حين يحضي

بالكلام دون عدد كبير من الحاضرين من أفاضل الاصدقاء ثم هو يغالي في هذه المحبة حتى في رسائله وهو يعلم أن مثل هذا لا يبعث السرور في نفسي مثال ذلك ما جاء في رسالته المؤرخة ١٩٤٤/١/٢٩ التي يقول فيها :

« الى حضرة الاستاذ الجليل النبيل الكاتب المبدع المفنّ الالمعي جعفر الخليلي قدوة الكرامة والصداقة .

« بعد تأكيد الاحترام . نزف اليكم عقيلة من عقائل هذه القريحة الطليحه ، فان حرمت منصة الطبع فاني لا أظنكم تحرمونها أريكة الطبع في مجلتكم بـــل صحيفتكم الهاتف بما تشتاق الى سماعه القلوب . وتهوى الى اجتلائه الافئدة ... الخ »

ومثاله ما جاء في رسالته المؤرخة ١٥ آذار ١٩٤٥ في قوله :

« الى حضرة الاستاذ الجليل الكاتب البارع المفتن الاديب الكريم جعفر الخليلي تحية وتعظيما وبعد :

فيجد سيدي الأجل مع كتابي هذا موضوعاً بعنوان (التمثيل عند العرب وضئآلة القصص عندهم) فلعل له فسحة من الهاتف الذي يهتف بالادب مرئياً شخصه ، واضحة سماته .».

وحين يشرف على ختام هذه الرسالة يقول :

« هذا ويتقبل سيدي ومولاي في الختام خالص اخلاصي ، وبالغ اجلالي وأنا أدعو الله تعالى أن يمتعه بالصحة الوافرة ، والهناءة الدائمة ، والرفاهة الكاملة ...»

هذا مضافاً الى النعوت التي يغدقها علي ويتجاوز بها الحدود المألوفة عند الأصدقاء مما كان يسجلها في صدر مؤلفاته التي يتفضل باهدائها الي ، ولم تكن هذه الاشارة الى محبة الدكتور لي هنا بداعي المباهاة مني — وان لم يكن أي بأس في المباهاة لو كان القصد منها المباهاة دون غيرها — ولكنني أوردتها هنا كصورة

يستشف منها القارىء شديد تعلقه بالهاتف وصاحبه حتى بلغ من أمره بعد ذلك أن يلازم مجلس الهاتف وحضور اليوم المعين ملازمة ربما كانت أشد من ملازمة مكتبته في بعض الاحيان، وصار يقصد دار الهاتف كلما وجد لهمتسعاً من الوقت أو فراغاً حتى في الايام الاعتيادية بل صار مجلسه هذا بدار الهاتف موضع التقاء من يبحث عنه ويريد التقاءه أو يريد أن يترك له رسالة أو كتاباً ممن يعسر عليه الذهاب الى محل عمله بكلية التربية .

وقد يدعونا بعض الاصدقاء لقضاء وقت ممتع في أحد الملاهي الليلية بعد الهاتف فنمضي اليه،أما هو فلا يشرب من المشروبات الروحية الا بمقدار معين لا يتجاوزه، وأفضل المشروبات عنده هو (الويسكي) وأما أنا فلم أعتد الشرب ولكن هذا لا يمنع من أن أتطاول على النقل وآتي على أكل (المزّة) لذلك فـان أصدقاءنا كانوا يزيدون من (المزّة) والنقل وتنويعه من أجلي ، وقد نتعشى في الملهى بما هو ميسور هناك من اللحوم ، وقد تجلس الى مائدتنا احدى المطربات أو الراقصات معتزة بأن تجالس شخصاً كالدكتور مصطفى جواد . وكانت السيدة عفيفة اسكندر من أكثر المطربات التي طالما قصدتنا وعنيت بنا بتفضيلها مجلسنا على مجالس من كان يدعوها الى مائدته من حضار الملهى .

وكثيراً ما كان مصطفى جواد يرتجل البيت والبيتين وأكثر من الشعر في وصف احدى المغنيات والراقصات فلم يحصل من يعنى بذلك وسرعان ما تمحى هذه الابيات من الذهن .

وأذكر مرة دعانا محمود شوكة صاحب مجلة الزهراء ــ وكثيراً ما كان محمود شوكة يفعل مثل هذا ــ لقد دعانا لكي يرى الدكتور مصطفى جواد كيف ترقص (تسواهن) على أثر صدور مطبوعة لي عن الرقص والغناء والجمال العراقي سميتها باسم الراقصة الرمزي (تسواهن) وفي هذه الرسالة رحت أتلاعب بمعنى البيت القائل :

كأننـــا والمـــاء مـــن حولنا　　قوم جلوس حولهم مـــاء

وكثر النقاش حول هذا التلاعب فاستحسنه البعض ولم يستحسنه الاخرون وأذكر أن الدكتور مصطفى جواد ممن لم يستحسن هذا التلاعب مني بمعنى هذا البيت وعدّ ردّ العجز على الصدر في المعنى من قبيل العجز من الشاعر لا الاجادة كما كنت أرى أنا .

ورقصت (تسواهن) في تلك الليلة رقصة خاصة إكراماً للدكتور مصطفى جواد وحين أتمت الرقصة قصدتنا لترى ما اذا كانت قد أدت الواجب ، ونحن جلوس في زاوية من الملهى كثيراً ما اتخذنا أمثال هذه الزوايا مقتعداً لنا ابتغاء الابتعاد عن عيون الناس ، فقال الدكتور مصطفى (لتسواهن) بهذا المعنى اذا غاب عن ذهني النص :

«أشهد انك (تسواهنّ) بكل معنى الكلمة» وشدد على نون التوكيد وأعطاها صيغة الكلمة الفصيحة من فعل المضارع .

وكانت مجلة (محمود شوكة) تعنى بأخبار (الفنانات والفنانين) أو المفنات والمفنين على الوجه الصحيح والذي يحب الدكتور مصطفى استعماله ما دام (الفنان) يعني الحمار لغة ، وتعنى مجلة محمود شوكة بأخبار المطربات والراقصات لذلك كان لمحمود شوكة شوكة وشأن في أوساط (الكباريهات) كثيراً ما كان يأمر وينهي ، وقد يتجاوز بعض الاحيان حدود الامر والنهي فيستبد في طلباته استبداداً يثير الدهشة خصوصاً عندما تأخذ منه الخمرة مأخذها في آخر الليل ولكن من يستطيع أن يعارض أوامره ونواهيه وهو في مثل هذه الحال ؟

هذا الصديق أعني محمود شوكة يعود له الفضل في الكثير من تطرية ارواحنا وطرد السأم من نفوسنا ، وأحسب أن الدكتور مصطفى جواد كان يرى له مثل ما كنت أرى أنا .

ولم تكن الدعوات مقتصرة على الملاهي في أوقات السأم والملل وانما كانت هناك دعوات من بعض أصحاب السينما فقد كان لبعض هذه الدور —دور السينما— ارتباط بجريدة الهاتف بسبب نشر اعلاناتها فيها فكنا نؤم بعض هذه الدور أنا

والدكتور مصطفى جواد فنجد منهم اهتماماً خاصاً بنا وامتيازاً في مجلسنا من المقصورات والالواج دون استيفاء أجور السينما منا ، ثم صارت للدكتور مصطفى نفسه علاقات خاصة بأصحاب دور أخرى من دور السينما فراح يقضي أغلب أوقات سأمه وحده تارة ومع رواد مجلس الهاتف من الاصدقاء تارة أخرى وما لبث أن عدّ ضيفاً دائميا على أرباب السينما .

وكان يحب السينما كثيراً ، وله نقدات للقصص السينمائية طالما اسمعنيها بصفتي قصاصاً أو محسوباً على القصاصين فكنت أعجب ببعضها وأخالفه في رأيه ببعضها الاخر ، وقد ترك في نفسي أثراً قد يكون عميقاً بعض العمق أحياناً بأنه ناقد قصة جيد .

ودعانا مرة مدير احدى دور السينما لمشاهدة أفلام خاصة جيء بها من باريس ليعرضها لنا بقصد التسلية على الشاشة الصغيرة التي تجري عروض الافلام عليها من قبل المراقبة ، وكانت هذه الافلام من الافلام الممنوع عرضها – والتي تصور حالات لا تسمح جميع دور السينما في العالم – أو جلها على الاقل – بعرضها على الانظار . وقد حال بيني وبين الحضور حائل اضطراري فحضر عدد من رواد مجلس الهاتف هذا العرض ، وحدثني الدكتور مصطفى في اليوم التالي أنها كانت أفلاماً رائعة ولكنها دون الكثير من الحقائق التي يعرفها والتي تجري بباريس في عالم الحقيقة الواقعة .. ! !

* * * *

وكثرت مشاركتنا في شؤون ثقافية أخرى غير شؤون الجريدة ، اذ كثيراً ما استجبنا في وقت واحد لتسجيل الاحاديث للاذاعة العراقية ولغيرها من المحطات ومن ذلك كان تسجيلنا معاً لمحطة (دلهي) الهندية وقد دعينا معاً لتسجيل بعض الاحاديث لمحطة الشرق الادنى التي قام بتسجيلها نجاتي صدقي ، ورشاد بيبي ، ثم تمر أبو شهاب الذي يعمل الان في جريدة الأوبزرفر ببغداد ، ولم نزل في شبه رفقة كأننا شركاء كلما دعي هو دعيت أنا ولو كنا منفردين وعلى غير سابقة اتفاق ، وحتى بعض الصحف كانت تشير الى مثل هذه المشاركة العفوية ،

كما لو كان أحدنا مرتبطاً بالاخر فهذه مجلة قرندل تقول في عددها المؤرخ ٢٩ أيار ٩٥٨ باختصار : «ان من المتحدثين الذين طلب اليهم وهم في بيوتهم أن يجيبوهم على أسئلة التلفزيون ثم يذكرون ما يحبون أن يسمعوا من الاغاني كان مصطفى جواد ، وجعفر الخليلي . وقد طلب مصطفى جواد بعد الاجابة على الاسئلة أغنية : (والله لاكسر المجرشة والعن ابو السوّاها) من نظم الكرخي وتلحين القبانجي ، وغناء ناظم الغزالي ، وطلب جعفر الخليلي بعد الاجابة على أسئلة التلفزيون الاستماع الى أغنية : (يا عاقد الحاجبين – على الجبين اللجيني) شعر بشاره الخوري وتلحين علاء كامل وغناء عفيفة اسكندر .. ؟»

وأذكر انني حين كففت عن تسجيل الاحاديث في الاذاعة والظهور في التلفزيون واعتذرت عن الاستجابة كلما دعيت للعودة ولا سيما في الندوة الثقافية في التلفزيون كلمني الدكتور حسين أمين بخصوص العودة فاعتذرت ، وجاءني فؤاد عباس وقال لي انه مرسل ليكلمني وموصى بأن يتوسط لاجابتي الدعوة ولست أدري لم كان كل هذا الاصرار من مديرية الاذاعة والتلفزيون على عودتي للظهور في الندوات التلفزيونية ، أما أنا فقد كانت لي أسباب خاصة هي التي تحملني على الاعتذار ، ولم البث حتى فوجئت بالدكتور مصطفى جواد وهو يقول لي انه مرسل اليّ ليكلمني في الامر فبسطت له الاسباب ولكنه لم يقنع بوجاهتها وقال لي ان ليس من طبيعته الالحاح ولكنه لا يرى مبرراً لأن أبقى بعيداً عن زمرة تجمعني واياهم جوامع كثيرة خصوصاً وأنه هو نفسه قد عاد ، وأن الدكتور صفاء خلوصي قد عاد ، قلت ، ولكن هنالك من لم يعد بعد كالدكتور علي الوردي مثلا ، وأصرّ هو – على خلاف عادته – وأصررت أنا – وفق عادتي – وكثير أولئك الذين يذهبون وهم غاضبون حين تخيب وساطتهم ولكن الدكتور مصطفى جواد لا يغضب في مثل هذه الاحوال ، ولكنه قد يغضب في أمور أخرى ، وقد تكون نار غضبه سريعة الاتقاد والاشتعال ولكن ما أسرع خفوتها وانطفاءها .

ولم أره غاضباً بشكل يتجاوز المألوف أو قل لا أتذكر له غضبة تتجاوز حدوده وفي مثل طبيعته الهادئة المتزنة وفي مثل صدره الواسع الامرتين .

الاولى – حين ظهر كتاب ابن الفوطي للشيخ محمد رضا الشبيبي وقد رأى فيه الدكتور مصطفى جواد فصولاً ذهبت به الى أن الشبيبي قد نقلها من مؤلفه المخطوط (مؤلف الدكتور مصطفى) عن ابن الفوطي الذي اطلع عليه الشبيبي حين عرض مصطفى جواد مؤلفه هذا على المجمع العلمي ليقرأه ويقرر طبعه على نفقته، وقد جاءني مصطفى جواد بمكتب الهاتف وكان في ثورة نفسية لم أعهدها فيه من قبل ودفع الي بمقالة تعبر عن غضبه وفيها الشيء الكثير من غلظة القول وخشونة اللفظ الذي لا يناسب وقوعه من شخص كالدكتور مصطفى جواد في شخص الشيخ محمد رضا الشبيبي، وطلب مني نشر المقال في الهاتف، وكانت بيني وبين الشبيبي يومذاك ما يسمى بالبرودة تقتضيني أن أمتنع عن نشر المقال لئلا أحمل على محمل تلك البرودة أو التشفي. ومع ذلك فلم أمانع في نشر المقال لهذا السبب وانما رأيت أن وقوع مثل هذا الغضب منصباً على هذه الصورة غير لائق بالناقد وغير لائق بالمنقود. ولكن الدكتور مصطفى لم يقتنع برأيي وظل مصراً على نشر مقاله في الهاتف فأخذت المقال منه وأبديت استعدادي لنشره. وقلت له اني تارك نقده هذا في الدرج لثلاثة أيام حتى يراجع رأيه فاذا ما هدأت سورة غضبه ووجد نفسه لا يزال بمثل هذا الاصرار والالحاح بادرت الى نشر مقاله حالاً ودون تأنٍّ فقبل وانصرف. ولكنه عاد في اليوم الثاني وسحب المقال معترفاً بأن الخير فيما وقع ثم اتجه إلى نقد كتاب الشبيبي المذكور نقداً لغوياً ونحوياً وتاريخيا لم تشبه أية شائبة من الشوائب التي آخذته عليها في مقاله السابق ونشر هذا النقد في العدد الخامس أو السادس على ما أظن من مجلة المجمع العلمي ببغداد وبلغ نحو مائتي صفحة بالحجم الكبير من المجلة!! ولم يردّ عليه الشبيبي ...

والغضبة الثانية من غضباته التي رأيته فيها هي أني وجدته ذات يوم في انزعاج أكثر من المعتاد، وأن الغضب المعتاد عنده لا يتجاوز انفعالة خفيفة تمر مر السحاب أو أقل من ذلك ثم تعود الانطلاقة والانشراح الذي لم يفارقه حتى في أشد حالات مرضه إلى نفسه.

لقد رأيته في حالة غير طبيعية من الانزعاج وهو يردّد كلمة (التعدي)

عدة مرات ويقول بما مضمونه : انه والله التعدي ، وماذا ترى يكون التعدي ؟

فسألته عما حدث ؟ فقال :

– لقد أخبرني قبل أيام أحد الأساتذة المصريين – وسمّاه لي ولكني نسيت اسمه – الذين يعملون هنا في العراق بأنه تلقى رسالة من أحد أعضاء مجمع اللغة

في بيت ناجي جواد ببغداد في ١–٦–٩٦٥

الصف الامامي – من اليسار : الدكتـور علي الوردي – مـنير بصري – الدكتور مصطفى جواد • المؤلف : فؤاد عباس – مجيد جمد النجـار – أكـرم الوتري – عبد الرزاق الهلالي – فخري جواد •

الصف الثاني : عدنان حبه – خضر عباس الصالحي – الدكتور حسين أمين – ناجي جواد – حارث الراوي – وحيد الدين بهاء الدين – أنور شاؤول •

الصف الثالث – عبد المنعم الجادر – عبد الحميد المحاري – سلمان شكر – مشكور الاسدي – صادق القاموسي – عبد الغني الخليلي •

في القاهرة يطلب منه مرسلها أن يخبرني بان المجمع قد انتخبني بالاجماع عضواً في سد الشاغر الذي حصل بوفاة الشيخ محمد رضا الشبيبي – على ما أظن – وقد طلب مني هذا العضو ، أن يزف لي تهانيه .

وقال الدكتور مصطفى : وقد بلغني اليوم أن هذا المجمع قد نزل على رغبة السلطات السياسية والغى هذا الانتخاب وبدلني بالدكتور عبد الرزاق محي الدين ، وليس ذلك بالمهم عندي ولست بطالب جاه وانما يغضب الانسان لأن تتصرف السياسة في شؤون العلم والادب في حين كان يجب أن يتصرف العلمَ بالسياسة ، ألا ترى معي ان هذا ضرب من ضروب التعدي ؟

وما عدا هاتين الحالتين لم أجد ما ينم على خروج الدكتور مصطفى على حالته الطبيعية وحتى في هاتين الحالتين لم تكن غضبته فيهما بالغضبة التي يجوز أن نسميها غضبة فيما ألفناه وتسالمنا عليه .

وعلى ذكر الدكتور عبد الرزاق محي الدين لقد قيل بأنه قدم ذات يوم إلى المجمع العلمي يوم كان الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيسا للمجمع كتاباً له ليتولى المجمع طبعه على حسابه فأحال الشبيبي الكتاب إلى الدكتور مصطفى جواد لابداء رأيه فيه باعتباره خبيراً فلم يكن رأي الدكتور الجواد حسنا في الكتاب ولذلك رفض طلب الدكتور محي الدين على ما قيل ، فاعترض الدكتور محي الدين وناقش المجمع في رفضه هذا فأحيل الاعتراض مرة اخرى إلى الدكتور مصطفى جواد لابداء رأيه فكتب الدكتور الجواد سبعين صفحة ضمنها ما ورد في كتاب الدكتور محي الدين من أغلاط لغوية ونحوية واشتباهات تاريخية وأوهام كانت هي التي ساقته إلى رفض كتاب الدكتور محي الدين .

* * * *

ولم تقف مشاركتنا عند حدود هذه النواحي بل كثيراً ما تأتي الصحف

باسمين مترادفين حتى في التوافه من الأمور فهذه جريدة الزمان لا تذكر في عددها المرقم ٧٣٨٤ والمؤرخ ٩٦٢/١/١٨ من أسماء الادباء الذين تركوا التدخين الا اسم مصطفى جواد واسمي أنا واسم موسى كاظم نورس كما لو كان اسمانا أنا ومصطفى جواد اسمين مترادفين، هذا فضلاً عن ذكر اسمينا معاً في شؤون كثيرة ، وأنا أذهب إلى أن هذه المشاركة التي كثيراً ما كان يظهر خبرها في الصحف وتأتي باسمينا مترادفين لم تكن ولن تكون بداعي التجانس والزمالة العلمية والأدبية وما شاكل فلقد سبق لي أن ذكرت ان الدكتور مصطفى جواد نسيج وحده ولم يأت الزمان بمثله حتى اليوم ولربما لن يأتي بمثله في المستقبل ، وانما كان الباعث لذكر اسمينا معاً في كثير من الشؤون والاحوال هو الصداقة وعمقها لا غير ، فأنا صديقه ومن أوائل أصدقائه ، وان مجلسي في (الهاتف) و(بدار التعارف) كان من أكثر المجالس التي يؤمها ويلازمها ويأنس بها حتى صار هذا المجلس من أهم الطرق أو الوسائل لمن يريد الوصول اليه ومقابلته وتوجيه الاسئلة العلمية له وترك هداياهم من الكتب فيه ، وحتى لقد تعين موضع جلوسه منه وتعين كرسيه فيه .

وحين أرادت ايران أن تحتفل بمرور ألف سنة على وفاة ابن سينا في همدان كان المدعوون إلى الحفلة من العراق ، والذين وردت أسماؤهم إلى السفارة الايرانية ببغداد من ايران هم :

منير القاضي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، وناجي الاصيل ، وملحق بالوفد وهو مشكور الاسدي ، وكنت أنا ضمن المدعوين ، ولا أذكر الان ما اذا كان واحد آخر ضمن أعضاء الوفد المدعوين ، فسألت السفير قدس نخعي عن أسباب عدم ترشيحه للدكتور مصطفى جواد وهو صديقه الحميم ؟ فقال : ان هذه الأسماء قد وردت من وزارة المعارف بطهران دون أن يكون لوزارة الخارجية الايرانية أو السفارة الايرانية ببغداد شأن فيها ، فقلت له : ولماذا لا تقترح على وزارة المعارف دعوة الدكتور مصطفى جواد ؟ قال لم يعد في

لوقت متسع وأنا لا أستطيع أن أضيف إلى هذه القائمة اسماً الا اذا اعتذر أحد المدعوين عن السفر فيكون بوسعي هناك دعوة الدكتور مصطفى واطلاعي وزارة المعارف بما فعلت فضولاً ، مع العلم بأني قد اقترحت تخويلي لدعوة شخصين أو أكثر برقياً فلم يردوا علي .

قلت ـ اذا كان الأمر كذلك فأنا مستعد للتنازل عن السفر .

ودارت مناقشة هادئة بيني وبينه فيما اذا كان اعتذاري هذا عن اجابة الدعوة سيكون مناسباً أو غير مناسب وانتهت بأن أقرّر رأيي . وجئت الى الدكتور مصطفى وأخبرته بما تم فسرّ ولكنه قال لي : انه غير راض بايثاري اياه على نفسي فقلت له : اننا صديقان وليس من فرق أن أكون أنا أو يكون هو ضمن أعضاء الوفد فضلاً عن أنه أجدر مني في تمثيل العراق في هذا المهرجان ، وقلت : وانما يهمني من أمر هذه الرحلة أن أجلب لنفسي صندوقاً صغيراً من الخزف الذي عرفت به (همدان) فهل هو فاعل هذا؟ وعلى الرغم من أن ثمن هذا الصندوق لا يتجاوز ديناراً واحداً فقد أبديت له استعدادي بدفع الثمن ...

وسافر الدكتور مصطفى جواد مع الوفد وعاد ولم يأتني بالاواني الخزفية ولم يعتذر وأنا نفسي لم أسأله حين وجدته لم يتطرق الى الموضوع ولم يعتذر ...؟

* * * * *

وحين انتقلت من النجف الاشرف الى بغداد انتقلت معي ـ بصفتي نجفيا ـ الاكلة الشعبية التي خصت بالنجف وعرفت بها هذه المدينة دون جميع المدن وهي أكلة (الماش) ، والماش كما يعرف الجميع فصيلة من البقول هي (الكشري) عند المصريين ، وهي (المجدّرة) عند اللبنانيين ، ولكل طريقته في طهوها ، والنجفيون يحسنون طهو (الماش) مع الرز ويدعونه (بطبيخ الماش) ، أما الأدام فيكون امـا دبساً ، أو بصلاً ، أو لبنا ، أو فجلا ، ولكثرة ما ملّ النجفيون هذا الأدام وتكراره بسبب ما اتصفت به النجف من القحط في تاريخها القديم أطلق على هذا الأدام اسم (مذهب الكلب) فلا يكاد أحد يأتي باسم الماش ويقول ان عشاءنا

في الحلة في الطريق الى النجف ـ من اليمين مير بصري ـ وصادق القاموس والى جانبه الدكتور مصطفى جواد ، والواقف عبد القادر البراك والجالس من اليسار (المؤلف)

في هذه الليلة ماش الا ويردف معه اسم مذهب الكلب فيقول ماش ومذهب الكلب وهو يعني به واحداً من الاربعة ...

ومن حسن الاتفاق أن يستسيغ الاصدقاء هذه الأكلة . ويغالون في الاقبال عليها في بيتنا وفي مقدمتهم الدكتور مصطفى جواد الذي كان يؤمن بالمثل الشعبي القائل : (قطع الخشوم ولا قطع الرسوم) ويذكرنا اذا ما طال الوقت ولم يحضر مائدة الماش في بيتنا مع العلم أن ليس من طبيعة الدكتور مصطفى أن يطلب مثل هذا ويذكّر أحداً بشيء من هذا القبيل غيرنا .

ودعوة الماش هذه لم تقتصر على دعوة واحدة وثانية وثالثة وانما هي بين مدّ وجزر . ومدّها أكثر من جزرها ، فهي تمد بمقدار ما تقتضيه المناسبة ، والمناسبة هذه حاصلة في مرور صديق ببغداد أو زائر قادم من خارج العراق فندعوه الى أكلة من الماش اسماً ، أقول اسماً لأن الماش هنا مجرد حجة نأتي بها للتواضع والا

فالوليمة كسائر ولائم الناس – اذا لم يكن في قولنا: كسائر ولائم الناس شيء من التبجح –

وتحصل المناسبة حين يظهر لنا أحد الاصدقاء التشوّق الى أكلة الماش. وكثيراً ما تظهر هذه الرغبة على ملامح الدكتور مصطفى لأكلة الماش فتعدّ الاكلة لان الدكتور مصطفى من عشاقها ومن الذين يموتون فيها على حد التعبير المصري العامي.

وكان أغلب من يحضر هذه الولائم التي نقيمها في بيتنا هم حضار مجلس الهاتف وحضار مجلس دار التعارف الذي أعقب مجلس (الهاتف)، أمثال الدكتور علي الوردي، وفؤاد عباس، والدكتور حسين أمين، وأنور شاؤول، والدكتور صفاء خلوصي، وكمال عثمان، ومير بصري، وعبد المجيد لطفي، ورشيد سلبي والدكتور اسماعيل ناجي، وصبيح الغافقي وغيرهم.

وبلغ من شهرة حب الدكتور مصطفى جواد لأكلة الماش أن تعطلت ذات ليلة سيارته في وسط الطريق فلم يحضر الوليمة وكان أن نشرت احدى الصحف الخبر وقالت انه بسبب هذا العطل الذي حصل لسيارة الدكتور مصطفى فقد حرم من اكلته المفضلة، وربما ستعوض عليه الخسارة.

وشاع عشق الدكتور مصطفى للماش حتى رحت أهيء له ذات يوم دعوة ماش فخمة في النجف الاشرف، وقد وجهت له الدعوة، ولعدد من جماعة دار التعارف وحضار الندوة الذين كانوا يؤلفون كتلة واحدة. وقد دعتهم جمعية (منتدى النشر) بطلب مني، فاستقبلنا هناك بدار السيد هادي فياض (عميد المنتدى اليوم) استبقالاً حافلا شارك فيه بعض أعضاء (جمعية الرابطة الادبية) الذين دعوا هم الاخرون من قبل منتدى النشر، وقد الفيتها انا مناسبة حلوة لو مُلّحت هذه الوليمة بالشعر، فاقترحت على الخطيب الشيخ أحمد الوائلي وعلى ابن عمي محمد الخليلي أن يقولا شيئاً من الشعر ولو على سبيل العجلة، أو شبه الارتجال، وفي أقل من ساعة ونحن على المائدة كانت هناك قصيدتان احداهما للخطيب الوائلي وليس لدي نسخة منها والاخرى لمحمد الخليلي وقد نشرتها جريدة الأيام بعددها المرقم ١٦١ والمؤرخ

٩٦٢/١٠/٢٣ وفيها تعليق على مجموعة الدكتور مصطفى المعروفة بـ (قل ولا تقل) وتعليق على كتب الدكتور الوردي ، وتعريض بجمعية منتدى النشر ، وجمعية الرابطة الادبية بداعي الدعابة ، وهي كما يلي :

ايها (المنتدى) و (رابطة الآداب) … هيّـا فهـا هم الادبـاء
هـا هم صفوة البلاد كمـالاً … من بهم قد تباهت الزوراء
بل بهم يفخر العـراق فهذا … النشء أبنـاؤهم وهـم آباء
بتعاليمهم يربّى شباب الجيل … كي يستقيم فيهم بنـاء
كم لنا أوضحوا الفصيح من القول … فسدّوا مـا أهمل الفصحاء
حفظوا في بيانهـم لغة الضاد … فسـارت بهديـها البـلغاء

* * * * *

نخبـة زارت (الغريّ) وكم كنتم … تمنّونهـا وهـا هم جـاؤوا
فاسألوهم عن كل مشكلة نظماً … ونثراً يـا أيهـا الشعراء
فلديهم مـن الجواب صواب … مقنع فيـه تصلح الاخطـاء

* * * *

ويشير الشاعر هنا الى الدكتور مصطفى جواد والى أقواله في مجموعته (قل ولا تقل) فيقول :

فاذا قيل :(لا تقل) فامتنع عنه … واذ قيل :(قل) فقل كيف شاؤا
حيث أن التعليم من (مصطفى) … القول به النظم صحّ والانشاء
واليك المثـال مـن ذلك … التعليم لكن أسـاسه الاصغاء
فـاستمع ما أقول وارو مقالي … لا تقل كربلا وقل : كربلاء
هكذا نطقها الصحيح كقولي … لا تقل حلّةٌ وقل : فيحـاء
حيث فاحت عطراً وندّاً وطابت … بشذاهـا رياضهـا الغناء
وكذا لا تقل (هوى) للذي استنشقـ … ـت ، بل قل بأن هذا هـواء
فـالهوى قـاتل وهذا حيـاة … ليس تبقى بدونـه الاحياء

ثم يلتفت الشاعر الى الدكتور علي الوردي مستعرضاً أسماء بعض كتبه التي أحدثت الضجة ويقول :

وقل الحق لا تغرك (وعـاظ السلاطين) فالكلام هبـاء
لم تحقق (أحلامهم) فهم (مهزلةالعقل) عافهـا العقلاء

ويداعب جمعية ، منتدى النشر ، وجمعية الرابطة الادبية ناسباً لهم الشحّ بحيث لم يعرفوا معنى لكلمة هاك مثلما يعرفون معنى كلمة (هات) فيقول :

وكذا لا تقل اذا كنت شهماً (هاك)قل : (هات)فهو منك ذكاء
وبه قد تواصت الصحب طرّاً منتمونا (الاعضاء) و(العمداء)

* * * *

وختـاما أرجوكم العفو إن زلّ يراعي فمنكم الأعفـاء
واعذروني اذا أطلت مقـالي واقبلوه فانكم كرمـاء

وهنا يلتفت للمؤلف ويقول :

أنا لولا اشـارة مـن (خليلي) ما تجاسرت فهي لي إيحـاء
مذهبي (جعفر) ولست أطيق الخلف مهما عليّ جار البلاء

ثم يختم قصيده فيقول :

قد وردتم أهلا لكم ووطـأتم سهل أرض أنتم لهـا أبناء
فمن (المنتدى) و (رابطة الاداب) قـد رحّبت بكم أعضاء
تعلن الشكر وهي ترجوكم العودة أيضـا فلا يخيب رجـاء
واقبلوهـا خريدة غمرتها هيبة الحفل فاعتراها الحيـاء

وكم من الماش اتخذ ناجحة فسمرنا الى ما بعد منتصف الليل في نكت وشعر ونوادر ، ومناقشات ، ومناظرات ، أما الليالي التي يبكّر فيها ميعاد منع التجوّل فكنّا نضطر الى التبكير في العشاء والتبكير في ارفضاض مجلسنا ، ومن تلك الليالي أذكر ليلة كان منع التجول فيها يبدأ من منتصف الليل ، وقد بكّر مصطفى جواد تلك

الليلة في الخروج من بيتنا وقال ان ابنه (فائقاً) ينتظره في محطة الاذاعة عند الساعة الحادية عشرة ليحمله بسيارته الى منزله في (الدورة) الذي كانوا قد انتقلوا اليه منذ وقت قصير ... وعند الفجر ،والمدينة لا تزال راكدة في سباتها دق جرس الباب عندنا دقاً متواصلاً واذا بالطارق ابنه (فائق) وهو يسأل عن أبيه ؟

قلت — ولكنك يا فائق .. ألم تكن على ميعاد مع أبيك في الساعة الحادية عشرة عند محطة الاذاعة ؟

قال — بلى ... وقد جئت ولم أجده .

قلت — اني سأقوم من جانبي بكل الخطوات للبحث عنه ولكن عليك أن تخبرنا تلفونياً اذا ما عرفت شيئاً عن أبيك ، ولم تكن خطوط التلفون قد اتصلت حينذاك ببيت الدكتور مصطفى جواد بعد لكي أبدأ أنا السؤال عنه ، ولم يكن أحد يعرف أين يقع بيته من (الدورة) .

ولجأت الى استعمال كل الوسائل التي تمكنني من البحث في ذلك الوقت غير المناسب وقد أيقظت مدير الاذاعة والمراقب ولكني لم أصل الى نتيجة ، وكان اليوم يوم جمعة وكان البحث عن الدكتور مصطفى عند الجهات الرسمية غير سهل ، ومع ذلك فقد اتصلت بكل مراكز الشرطة . واستعنت بكل الاصدقاء الذين جمعهم الماش في تلك الليلة والذين لم يجمعهم ، وكان أن طلعت الشمس وبدأت تقرب من وسط السماء ثم مالت الى الأفق وليس من فائدة في البحث ولم نتلق من ابنه (فائق) خبراً ، وقد سادت بيوت الاصدقاء والمعارف بلبلة وقلق شغلت حتى أفكار الاطفال وما من خبر ولا نتيجة .

وأكثر ما كنا نحتمل هو أنه حين استبطأ الدكتور مصطفى جواد حضور ابنه فائق عند الاذاعة خشي أن يدركه وقت منع التجول وخجل ، أن يعود الى بيتنا ليبيت فيه فاستقل سيارة من سيارات (التاكسي) وفي الطريق حدث ما لا يستطيع الذهن أن يحدده من الحوادث مما قد يكون وقع له وللسيارة فآل امره الى الشرطة اوالى مستشفى الطوارىء فرحنا نبحث عنه في مستشفى الطوارىء وفي المستشفيات الأخرى

واما أن يكون السائق قد أحسن الظن بجيب الدكتور مصطفى الذي كان يشكو خلوه منذ أن عرفته فطمع بهالسائق واعتدى عليه وهو في هذا الطريق الطويل الخالي في مثل ذلك الوقت من المارة بسبب الظروف الاستثنائية، واما أن يكون الجند المكلفون بمراقبة الطرق والشوارع للقبض على الذين يخالفون الاوامر فيتحدون نظام منع التجول قد عثروا بالدكتور مصطفى وضبطوه مخالفاً للتعاليم فرحنا نحفّز الشرطة ونستعين بآمرية الجيش للبحث عن الدكتور الضايع ولكن دون طائل ، ومرّ هذا اليوم وأعقبته ليلة ثانية ساد القلق فيها جميع مؤسسات الحكومة وبيوت الاصدقاء وغير الاصدقاء ممن سمع بخبر ضياع الدكتور مصطفى جواد .

وفي اليوم التالي اتصلت أنا بكلية التربية تلفونياً لأرى ماذا ستفعل الكلية بهذا الخصوص واذا بداع يدعوه لي ليكلمني من الكلية ويقول ان هذه البلبلة لم تكن لتحدث لو أن (فائقاً) ابنه قد اتصل بكم تلفونيا وأخبركم بخبري ، وخلاصة الخبر هو اني — كما يقول الدكتور مصطفى — حين يئست من حضور ابني في الميعاد عند محطة الاذاعة خشيت أن تحين ساعة منع التجول وبيني وبين بيتي الجديد في الدورة أكثر من عشرة كيلومترات وكان بيتي القديم الذي لم أسلمه للمشتري بعد قريباً مني وأنا أحمل مفتاحه معي فلجأت اليه ونمت دون فراش وغطاء .

وعند الفجر — قال الدكتور مصطفى — وعيت على طرق عال بالباب فاذا بابني فائق جاء يبحث عني بعد أن قضى أهل بيتي ليلة ليلاء من شدة القلق ، ثم اني كنت على ميعاد في أن نبكّر أنا والدكتور حسين امين الى سامراء لنلتقي هناك بالجموع التي ترغب في زيارة آثار سامراء والتعرف اليها عن كثب ، وهكذا فعلنا ولم نعد الا مساء . أفلم يخبركم فائق بذلك ؟

قلت — كلا ... فسكت !!

وظل حديث ضياع الدكتور مصطفى جواد حديث مجالس الاصدقاء والجيش والشرطة وبيوت الحكومة أياماً وكل يسأل كيف ضاع ؟ وكيف انوجد ؟

* * * *

وحين أغلقت جريدة الهاتف بالمرسوم الذي أشرت اليه من قبل قمت أنا بتأسيس دار للنشر والاعلان التجاري والطبع باسم (دار التعارف) والتي لم تزل قائمة بالاسم بالرغم من تقلص أعمالها ، أما اليوم المعين للاجتماع كندوة التزم بها (الهاتف) فلم يتبدل وانما تحول الى يوم الاحد من كل اسبوع ، واتسعت حلقة حضاره وبدأ يحضر الندوة عدد آخر كالشيخ كاظم الدجيلي ، وحافظ جميل ، والدكتور عبد اللطيف حمزة طوال الايام التي قضاها في العراق بالاضافة الى أصدقاء الندوة والى الدكتور مصطفى جواد الذي لم يتخلف ولا يوماً واحداً عن حضور الندوة باستثناء أيام مرضه أو حصول دواع اضطرارية .

ولقد أشار الدكتور عبد اللطيف حمزة رئيس قسم الصحافة بجامعة القاهرة والذي كان يلازم حضور هذا المجلس ، لقد أشار الى مجلس (دار التعارف) ومجلس (الهاتف) قبله في مقال نشره في العدد ٨٣٦ وتاريخ ١٠/٥/٩٦٦ من جريدة الجمهورية عن صالونات بغداد اقتطف منه فقرات مختصرة فيما يلي :

«... والحق أن لجريدة الهاتف ، ولمجلس الهاتف الفضل كل الفضل في تصوير الحياة الادبية في النجف أولاً وفي بغداد بعد ذلك . ومن أراد من الباحثين أن يكتب شيئاً عن النقد والادب العراقي في الفترة ما بين ١٩٣٥ — ١٩٥٥ فأنه يخطىء كثيراً إذا لم يرجع الى هذه الجريدة الادبية المهمة .. الخ »

ثم تناول الدكتور عبد اللطيف حمزة (مجلس دار التعارف) فقال في بعض ما قال :

«... وتقع دار التعارف بشارع السعدون ، وصاحبها جعفر الخليلي ، وان من دواعي سروري حقاً أن يذكر هذا الاستاذ الكبير في حديثي هذا مرتين الى الآن ، مرة من أجل مجلس الهاتف ، وأخرى من أجل دار التعارف ، وليس هذا الحديث الذي أنقله الى القراء في موضوع (الصالونات البغدادية في القرن العشرين) الا ثمرة من ثمرات ترددي على (دار المعارف) وقد اعتادت هذه الدار أن تستقبل زائريها في مساء الأحد من كل اسبوع . وفي احدى هذه الأمسيات التي لن أنساها ما

حييت أو قل في عدد من هذه المآدب الفكرية التي كنا نجلس فيها الى صاحب الدار كنت أستمع الى هذه الاحاديث ، وأشعر بلذة لا تعدلها لذة من هذا الاستماع ، حتى اذا عدت الى غرفتي التي تقع قريباً من هذه الدار جلست أكتب خير ما سمعت بها ، وأسجل أحسن ما أعجبت به من الأشعار والأخبار والملح والنوادر والمواقف التي لبعض الادباء في الميدان الاجتماعي ، والمآزق التي يقع فيها الشعراء والكتاب وطرق الخروج منها ، وكنت أغادر الدار بحصيلة كبيرة من كل ذلك ... الخ »

وقد جرت العادة أن يعرض كل من يرتاد هذا المجلس– مجلس دار التعارف – ما يقع في طريقه من جديد عثر عليه في دنيا الادب من مخطوط ، ومطبوع ، ومسموع ، فيتلقاه الحاضرون بالاصغاء والاستمتاع أو النقد والتعليق على قدر ما يستدعي الموضوع ويسمح به الوقت ، أما الفضول من الكلام فيتبخر في الحال ، وأما النافع فلا يلبث أن يثبت في الذهن وقد ينتقل الى الصحف وينشر في اليوم التالي أو بعد ذلك بأيام متسربا اليها عن طريق صبيح الغافقي ، الصحافي العريق الذي يتشمم الاخبار ويحسن انتزاعها من أصحابها .

ومثلا لبعض ما كان يجري من مناقشات أذكر أن الدكتور مصطفى جواد دخل المجلس ذات مساء وهو يتأبط تحفة أدبية رائعة هي ترجمة كتاب (گلستان) نظماً بالعربية وقد قام بترجمته الشاعر محمد الفراتي ، وتناول الحاضرون الكتاب وقرأوا منه ما قرأوا ، ودار نقاش حول الترجمة كأي ترجمة وشروطها وما ينبغي أن تكون عليه وما لا ينبغي ، وما أصاب منها (الفراتي) في ترجمته هذه .

واستعرضت أنا فيما استعرضت من الترجمة بعض الابيات حتى وصلت الى هذا البيت :

ان لم أكن راكب المواشي   اسعى لكم حامل الغواشي

وكنت أحفظ هذا البيت منذ أن كنت طالباً في المدرسة على هذا النحو :

إن لم أكُ راكب المواشي   أسعى لك حامل الغواشي

وكان هذا البيت قد رسخ في ذهني رسوخاً ثابتاً بسبب قصة كان قد أوردها الشيخ سعدي الشيرازي صاحب (گلستان) ولم يدع لي هذا الرسوخ أي مجال للتأمل فيما أورد محمد الفراتي . وكان مجرد اختلاف البيتين في الصيغة يكفي ليكون باعثا لدى المستعجل من أمثالي للوهم بأن ما يحفظ هو الموزون وما يقرأ هنا غير موزون ، ويبدو أن ما ركبني من الوهم قد ركب الدكتور مصطفى جواد الذي ردّ علي قائلاً :

– بل ان البيت الذي تحفظه أنت هو الخارج على الوزن .

وطال النقاش في أي الصيغتين الموزونة في النظم؟ أهي البيت الذي أحفظه أنا أم البيت الذي أورده محمد الفراتي في ترجمته ؟ وكنت وحدي في رأيي ، أما الدكتور مصطفى جواد فتبعه من كان حاضراً وأيدوه في قوله : ان الذي أتيت به أنا ليس فيه من الوزن شيء وانما الموزون هو البيت الوارد في ترجمة (گلستان)

ولكي نجعل للنقاش نهاية رحت استكتب الدكتور مصطفى جواد رأيه على الورق، وكتبت أنا الاخر رأيي، ووقع كل منا ما كتب لنرى بعد ذلك من يحكم بيننا .

ومن عادة الدكتور مصطفى جواد حين نكون آخر من يخرج من ندوة دار دار التعارف أن يقلني بسيارته التي يسوقها هو الى بيتي ويتركني . وفي بعض الاحيان كان ينزل فيتناول العشاء حينما أكون مطمئنا من ملائمة عشائنا لصديق مثله وحين وقفت السيارة أمام بيتي في هذه الليلة وهممت بالنزول قال وهو يضحك :

« ان لم أكن راكب المواشي » فـــــاني في الطريق ماشي

فأجزت له قوله مداعباً وقلت :

« ادعوك – فانزل – لصحن ماش »

فضحك وقال : أرأيت كيف خالفت رأيك ولم تمر بعد الا دقائق معدودات

وأنت تزعم أن هذا البيت خارج على الوزن فاذا بك تنظم على نسقه ! !

وفي البيت وأنا مستلق على فراشي ثاب اليّ رشدي ، وتبخرت الواهمة التي كان ذهني بها مشحوناً وذكرت اني لم أكن واهماً فحسب وانما كنت ذاهلاً فقد نظمت قبل أكثر من ثلاثين سنة بيتين بهذا الوزن طبعـا لي فوق غلاف رسالة باسم (حبوب الاستقلال) التي كنت قد ألّفت تركيبها من مبادىء خاصة لنيل الشعوب المستعمرة استقلالها فكان البيتان كما يلي :

أهـــدي حبوبي لكـــل شعب　　قـــد بلغت روحه التراقي
يـــــرسف في قيـــده ذليلا　　مستعمراً ضيّق الخنـــــاق

وسألت نفسي أين كنت عن هذا حين زعمت أن ذلك البيت الذي أورده (الفراتي) غير موزون ؟ وكما سامحت نفسي وغفرت لها مثل هذا الوهم فقد سامحت الدكتور مصطفى وغفرت له الوهم الذي لا يمكن أن يخلو منه الانسان الذي قيل عن اسمه أنه مشتق من النسيان ـ وما زلت لم أعرف كيف اشتق ذلك ـ وجئت في يوم الأحد التالي بالشواهد التي تؤيد وهم الدكتور مصطفى وغفلته وأثبت له أن ما ظنه غير موزون مما كنت أحفظ من أيام الصغر هو الاخر موزون ، وسردت له أبيات البهاء زهير :

يـــا من لعبت بـــه شمول　　ما الطف هـــذه الشمائل

فهو من نفس الوزن الذي أوردته والذي ظنه الدكتور مصطفى غير موزون وهـــو :

إن لم أكُ راكب المـــــواشي　　أسعى لك حـــامل الغواشي

وهنا دارت مناقشة أخرى حول البحرين والوزنين ولا أذكر كيف انتهى أمرها .

وفي ندوة (دار التعارف) تولدت موسوعة العتبات المقدسة ، وهي الموسوعة التي صدر منها حتى الان ثلاثة عشر مجلداً شارك في تأليفها عدد من أساتذة جامعة بغداد وبعض أرباب الفضل وعلى رأسهم الدكتور مصطفى جواد ومن أشهرهم

الدكتور حسين أمين وجعفر الخياط والدكتور حسين علي محفوظ . وفؤاد عباس والدكتور صفاء خلوصي والدكتور أحمد سوسه، وغيرهم من وجوه أهل الثقافة والمعرفة ، وهي موسوعة تتناول تاريخ أمهات المدن الاسلامية الكبرى كمكة المكرمة والمدينة المنورة ، والنجف الأشرف ، وسائر العتبات المقدسة في بحوث اكاديمية بعيدة كل البعد عن الاساطير والروايات المدسوسة ، والاخبار المختلقة .

والفكرة التي نشأت بدار التعارف كان مبعثها رواية جاء بها أحد رواد ندوةدار التعارف كان قد سمعها من أحد خطباء المنابر يرويها عن كيفية اتخاذ كربلا مدفنا للامام الحسين (ع) مما تتنافى كل التنافي مع الواقع المعقول ، فدارت في هذهالندوة أحاديث انتهت الى أنه ما دام ليس هناك مصدر تاريخي صحيح يرجع اليه فان الخطباء وغير الخطباء يخبطون خبط عشواء فيسيئون الى التاريخ والى الدين الاسلامي والى العقل إساءات غير مغتفرة ، ولقد كان الواجب على المؤرخين والمتتبعين الالتفات الى هذا الموضوع الخطير قبل عدة قرون فيعالجونه في كتابة الحقائق التاريخية مجردة من الاساطير والاوهام ، بعيدة عن التحيز وعن أي شيء لا يؤمن به العقل والواقع ، ثم قال بعضهم : لماذا لا نقوم نحن بهذه المهمة؟ فاستجاب الجميع لهذا الاقتراح الذي كان رائدهم فيه خدمة التاريخ الاسلامي والتراث العربي لا غير واقترحوا على الدكتور مصطفى جواد بأن يقوم هو بتخطيط كل جزء من هذه الاجزاء وتحديد كل موضوع تناط كتابته بالمتخصصين ، ولكن الدكتور مصطفى الحّ بأن يكون القائم بهذه المهمة هو أنا . وقد اعتذرت أنا لما في مثل هذا الأمر من مشقة يصعب علي اداؤها ، ولكن الدكتور مصطفى أصرّ على رأيه وأيّـده الباقون ، وهكذا كان واذا بالموسوعة المذكورة تصبح احدى ثمرات هذه الندوة ، وقد كان لها من بحوث الدكتور مصطفى ومشاركته فيها حصة الأسد ، وقد كتب الجزء الثاني من (الكاظمين) كله وهو على فراش المرض ، وهو جزء مهم جداً لم يسبق لسابق بحثه وجمعه وتحقيقه وقد تناول فيه الدكتور مصطفى تراجم المشاهير من الرجالات الذين كان لهم شأن في التاريخ فماتوا ودفنوا في الكاظمين مبتدئاً من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، ويعتبر هذا الكتاب آخر ما

انتج الدكتور مصطفى جواد من البحوث التاريخية المهمة ، ولهذا الجزء من قسم الكاظمين أهمية أكبر لاحتوائه عدداً غير قليل من الحقائق التي كانت ضائعة وغير معروفة قبل أن يبحثها ويحققها الدكتور مصطفى جواد .

* * * *

وفي هذا المكتب – مكتب دار التعارف – تطورت أساليب الاعلانات التجارية فدخل الادب أسواق التجارة . وبدأنا نستخدم الشعر قريضه وعاميه في الاعلانات ونخرج منها أبواباً جديدة مطلية بالدعابة الجذابة والهزل الذي تطيب له النفوس فنقيم مسابقات للشعر المرح بين الشعراء . ونختار من بين أصدقاء دار التعارف حكماً لتعيين الفائزين في تلك المسابقات ، وكان الدكتور مصطفى جواد يشغل كرسي الرياسة في التحكيم .

وأذكر مرة أنني وضعت بيتين من الشعر عن مصانع دجلة للاحذية قد مر ذكرهما من قبل .

وقد اقترحنا مرة نظم أرجوزة عن ساعة (فلكا) على ذلك النمط المرح من الشعر وكنت أنا أتعمد استثناء نفسي من بين المحكمين لئلا يكون لي شأن في الحكم وأنا صاحب هذا المكتب ومديره ولكي أفسح لنفسي المجال على غير دراية من أحد من المحكمين وغير المحكمين في دخول المسابقة باسم صديق أرجو له الانتفاع باحدى الجوائز اذا ما كتب لي أن أنجح ، وقد نجحت غير مرة وتسلم الصديق الجائزة ولم يزل هذا السر مكتوماً حتى كشفت عنه للصديق العبقري الاديب . وديع فلسطين من عهد قريب .

ولقد دخلت مسابقة ساعة (فلكا) التي كان قد خصص للفائزين بها اثنتا عشرة ساعة من ساعات (فلكا) الممتازة ومائة وسبعة عشر كتاباً مفيداً . ثم أتيت في أرجوزتي على وصف كل محكّم من المحكمين باسم ذلك الصديق فقلت عن لجنة التحكيم بعد أن وصفت الساعة كما هو مطلوب ما يأتي :

لجنة التحكيم

أرفعهـــا للجنـــة التحكيم زينة أهـل الفضل والتعليم
أعني بهم أولئك الأســاتذه الضاربين في النهى الجهابذة

الدكتور مصطفى جواد

كمصطفى الجواد فخر العلمــا صياغة التبر يصوغ الكلمــا
علامة الزمــان ديوان العربْ زكت أصول علمه أمّاً وأب
أخاف منه خيفـــة الفيران عند نزول القط للميــدان
يقول : قل هذا ، وذا لا تقــل فاحذر بأن تقــول ما لم يقل
أدامـــــه الله دوام الضمّ والفتح والكسر وبــاقي العلم

وكثرت أمثال هذه الاساليب في الاعلانات التجارية لدار التعارف حتى استلفتت أنظار الصحف وقد جاء في جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٦٠/٥/٢١ بعد أن نشرت طوائف من شعر الفائزين ومنها الارجوزة المتقدمة قولها :

«... وكانت هذه المسابقات عبارة عن لون من أجمل الوان (سير التجارة في ركاب الادب) وصورة من تفنن الادب في عرض الافكار وان كانت أفكاراً تجارية هي والادب على طرفي نقيض » .

وكان للدكتور مصطفى جواد كلمة الفصل في هذه الامور لأنه هو الذي كان يترأس لجنة التحكيم ، وميزته انه كان ينظر الى المسابقات من جميع نواحيها : لغتها، وصياغتها، وجدّها، وهزلها ، والشروط التي يجب أن تتوفر فيها نظرة أعمق بكثير مما كان ينظر بها أمثالنا .

* * * *

والدكتور مصطفى جواد ، خفيف الروح ، حلو النكتة ، سريع البديهة ، كما قد أشرت اليه من قبل ، وهو من الظرف واللطف بحيث لا يجاريه ظريف في ضحكه وانشراحه . وسرد ما يحفظ من النوادر وحتى النكات العادية من ثياب

الحشمة ، وكثيراً ما يأتي بجملة أو بيت من الشعر الهازل تعليقاً على حديث أو رواية تروى في أثناء السمر وفي الندوات الخاصة فيغرق القوم في الضحك ويضحك هو معهم ، ولا أحسب أحدا كان يستطيع أن يضاهيه من أصدقائنا اللبقين في سرعة البداهة ، وحلاوة النكتة ، والارتجال . وقد سجلت له جريدة الزمان في عددها المؤرخ ١٣/٥/٩٦٢ وما بعده من الأعداد نبذاً عن فكاهاته الادبية المرتجلة اقتطف منها ما يلي :

« كانت كلية المعقول والمنقول بطهران قد دعت الدكتور مصطفى جواد وجعفر الخليلي لالقاء بعض المحاضرات هناك . وقد عادا قبل أيام ، ولقد حدثت طائفة من الامور المهمة خلال هذه الرحلة ومنها هذه الطرف التي يقول عنها الخليلي انها كانت ذات وجهين ، وجه أدبي جاد ، ووجه هزلي ضاحك ، فالدكتور مصطفى جواد من حيث وجهه الضاحك على جانب كبير من المرح ، وسلاسة الطبع ، وحب النكتة ، فاذا أتيح لأحد أن يعرفه عن كثب عرف فيه شخصاً جذاباً لطيفاً يحفظ آلاف النوادر المضحكة بمختلف أصنافها الى جانب آلاف النوادر التاريخية ، والبحوث اللغوية التي انفرد في الاختصاص بها .

فحين استقلا الطائرة استقلّها معهما مصادفة أعضاء غرفة تجارة بغداد ، وكانت غرفة تجارة طهران قد دعتهم لزيارة طهران فاجتمع الادب والتجارة اللذان ما اجتمعا طوال عمرهما في غير (دار التعارف) اجتمعا مرة أخرى في الطائرة وهي في طريقها الى طهران ، قال الدكتور مصطفى جواد للخليلي :

— هذه سفرة جدّية بحتة ، والجد البحت مما ينهك النفس ، ويحرق الاعصاب فهل لك أن نؤدمها بشيء من الملح — بكسر الميم وسكون اللام — أو الملح — بضم الميم وفتح اللام .

قال الخليلي — على أن .. ماذا ؟

قال — على أن نجعل أيامنا كأيام النعمان بن المنذر متباينة فنجعل يوماً للشعر ، ويوماً للنثر ونزيد فنجعل يوماً آخر من خليط الشعر والنثر ، الذي لا يعرف له أصل

ولا فصل . فلا يدرى أهو شعر أم نثر بحيث نستطيع أن نسميه لغة بالخلط الملط — بكسر الخاء وسكون اللام في الخلط ، وكسر الميم وسكون اللام في الملط .

— ولكن مثل أي شيء يكون هذا الخلط الملط ؟

قال الدكتور — لو رأيتني كما هو الحال مثلا — وكان يومها يتوكأ على عصا بسبب قرب عهده بشفاء رجله من الكسر الذي أصابه في اصطدام سيارته بطريق (الدورة) .

قال — فلو رأيتني كما هو الحال مثلا وأنا حامل عصاي هذه متوكؤ عليها في مشيي ، وسألتني بشطر واحد من الشعر قائلا :

« ما عهدنا عصاك تصبح رِجْلاً »بكسر الراء وسكون اللام .

« فلو سألتني مثل هذا السؤال باللغة الفصيحة مثلا وأجبتك أنا باللغة العامية ، قائلا :

« مو انكسرت رجلي »

لحصل من قولك الفصيح وجوابي العامي شيء سيكون الخلط الملط بعينه وعيانه مما لا يعرف له أصل وفصل ولون ...

ويقول الخليلي : فقلت له : توكل على الله ولكن بماذا يجب أن نبدأ ؟

فقال الدكتور مصطفى :

باسمك يا رب ركبنـــا الطائرة وباسمك اللهم تغدو ســـائره

. ويستميح الخليلي صديقه الدكتور مصطفى جواد العفو — كما هو مذكور في جريدة الزمان — اذا كان قد نسي شيئاً أو زاد أو نقص شيئاً على ما وقع ، لأن البون — كما يقول الخليلي — شاسع بين صفحة ذهنه الضيقة وصفحة ذهن صديقه الدكتور مصطفى الواسعة الذي أوتي حافظة يغبط عليها من لدن انبغ الحفاظ والمستظهرين .

ويقول الخليلي — وهنا التفت الدكتور مصطفى فرأى الى جوارنا في الطائرة

أعضاء غرفة تجارة بغداد فقال :

وان في جوارنا اخوانـــــــا ميمّمين مثلنـــــا طهرانـــا

لقد رآهم وقد التف حولهم باعة السكاير والمشروبات والعطور في الطائرة فأردف قائلاً :

حتّى هنا التجار ان شئت ترى لا يتركون بيعهم والمشترى
يحدوهم البحث عـــن الجديد كأنهم في (شارع الرشيد)

وحين قدم الطعام في الطائرة وكان منوعاً وأكل الدكتور مصطفى وصديقه الخليلي ما أكلا التفت الدكتور مصطفى وقال :

« ولست أدري ما الذي أكلنا »

وحين لم تؤاته القريحة بعجز لهذا البيت خلافاً لعادته قال بالعامية :

ـ اقصد ما أفتهت هذا الاكل شنو هوّه ؟

فسأل الخليلي ـ وفي أي قسم يدخل صدر هذا البيت من الفصحى ويدخل التعليق منك بالعامية عليه ؟ قال :

ـ هذا هو الخلط الملط من الكلام الذي ضربت لك به المثل من قبل .

ثم اقترح الدكتور مصطفى أن يترك الامر على سجيته فلا يخص هذا بيوم وذاك بيوم ، والاصح هذا بوقت وذاك بوقت وقال :

« دعنـــا متى شئنا نقول شعـــرا أو إن تشأ دعنا نقول نثرا »

وغير هذا كان الكثير مما يجب أن يعلق بالذهن ولكنه لم يعلق شيء منه بذهن الخليلي حتى هبطت الطائرة في مطار طهران . فسئلا عن الجدري وما اذا كانا ملقّحين بالجدري فقال الدكتور مصطفى للموظف الصحي : لا تقل (الجِدري) بكسر الجيم وسكون الدال وقل (الجُدُري) بضم الجيم وضم الدال ، فهز المأمور رأسه ولم يفهم ماذا قال الدكتور مصطفى .

وفي المطار استقبلت غرفة تجارة طهران غرفة تجارة بغداد كما استقبلت جامعة طهران الضيفين الجواد والخليلي فوجه الدكتور مصطفى لأعضاء غرفة تجارة بغداد تمنياته النثرية من قبيل : حفظكم الله ورعاكم ، وحرسكم وبيّاكم الى غير ذلك ثم قال :

« وأنتم ، وما أنتم بغرفتكم سوى كرام وقد صرتم ضيوف كرام»

ودخل الضيفان طهران ثم دخلا الجامعة وتركا الدعابة والمزح لوقت آخر ولفّهما الجد وشرعا يحاضران »

* * * *

وكان الدكتور مصطفى رضي الخلق سموحاً يقبل على من يعرف ومن لا يعرف بوجه بشوش . ونفس مفتوحة حتى لقد يصعب أن يراه أحد ولا يمنحه حبه واحترامه ، ولعله يحاول بكل جهده أن لا يضير أحداً ، ويحاول أن يترك في نفس عارفه كل ما يحب هذا أن يتركه عالم مثل الدكتور مصطفى في نفسه . وقد بدا هذا على سيمائه فأحبه كل الذين كانوا يشاهدونه في التلفزيون ، حتى العوام من الرجال والنساء كانوا يحبونه وان لم يكونوا يعرفون ماذا يقول .

ولقد شكا لي مرة شيخنا الشيخ كاظم الدجيلي عن موقف الدكتور مصطفى في التلفزيون وقد فسره الدجيلي بالغمز منه فأنكرت أنا ذلك وقلت له ان كان هناك شيء من هذا عند الدكتور مصطفى فقد كان ذلك في أيام الشباب الذي قل من ينجو من غروره وقد نضج الدكتور مصطفى اليوم فلم يبق فيه ما يؤاخذ عليه من غلظة القول والخشونة والغمز واللمز الا في معرض الهجاء من الشعر الماجن .واستأذنته في أن أنقل ما علق بخاطره الى الدكتور مصطفى فقبل ، وجرى هذا العتاب بندوة (دار التعارف) فأقسم الدكتور مصطفى بأنه لم يذهب في قوله المذهب الذي تصوره الدجيلي واعتذر اليه اعتذار التلميذ لاستاذه حتى خجل الدجيلي .

ولا يمانع الدكتور مصطفى جواد أن يجيب طلب أي شخص فينسب له من بحوثه ما ينسب ويسجل باسمه من المقالات ما يطلب منه ، وأعرف أنا وغير احد

من الذين وضع الدكتور مصطفى الرسائل والكتب ، والمقالات بأسمائهم وليس لهم فيها ــ اذا كان لهــم ــ غير شيء قليل من البحث والكلام والصورة ، ثم انه لا يهمه ــ اذا ما طلب منه أحد أن يقول فيه شيئاً ــ أن يقول هذا ما يريد منه !! ولكنه لم يسخ بجاهه ولا يتوسط في أمر الا نادراً واذا ما فعل ذلك مرغما فلا تزيد وساطته على أن يقصد الجهة المطلوب توسطه لديها وينقل لها الحكاية دون التماس ودون رجاء كما لو كان مخبراً جاء بخبر وهو غير مسؤول عما يحدث هذا الخبر من تأثير ، ومع ذلك فقد يشذ بعض الاحيان ويخرج على عادته ويلتمس نجاح وساطته جاداً وهذا من النادر .

التقاه ذات ليلة الشاعر عبد القادر رشيد الناصري وذلك عقب صدور (دليل الجمهورية العراقية) الذي أسهم في تحريره وتأليفه الدكتور مصطفى والدكتور أحمد سوسه ومحمود فهمي درويش . وكان الناصري في تلك الساعة التي التقى بها الدكتور مصطفى في أوج عربدته من السكر الذي يجعل من مثل ابن آوى أسداً . وأسداً هصوراً فقال له :

ــ أريد أن أعرف كيف تخطّيتني ولم تذكر اسمي ضمن أسماء الشعراء والادباء الذين أوردت أسماءهم كأعلام في دليل الجمهورية العراقية ؟

قال الدكتور مصطفى جواد ــ انني لم أكتب هذا الفصل ولا غيره من فصول الدليل باستثناء الفصل التاريخي كما لم يفعل ذلك الدكتور أحمد سوسه وانما كتبه شخص آخر .

قال الناصري ــ وهذا لا يكون

قال ــ لقد كان فماذا تريد مني الان ؟

قال ــ أن تجلس هنا على قارعة الطريق وتكتب لي شهادة بقيمة شعري ومكانتي بين هذه الزمرة من الشعراء ــ قال ذلك وقد جحظت عيناه وقدح الشرر منهما ــ قال الجــواد ــ اذا كان هذا مطلوبك فما أيسر تلبيتي له وأنت في ساعة صحو رائقة فكيف بي وأنا كما ترى مؤتمر بأمرك خاضع لسلطانك .

قال هذا وهو يضحك وجلس في قارعة الطريق يكتب ما يمليه عليه الناصري عن شعره ومكانته الادبية . ووقّع له بعد ذلك تلك الوثيقة ، وقيل أن الناصري قد نشرها في احدى الصحف ولم أرها أنا ولكن مصطفى جواد لم يردّ عليها ولم يقل انها وثيقة كتبت تحت سيطرة من القوة ، ذلك لأن الدكتور مصطفى لا يبخل بمثل هذه الاشياء على الذين يرجونها منه ويفيدون منها ، أما لو ترك الامر له وحده بلا رجاء ولا التماس لكان خير من يضع الامور في مواضعها من حيث منح الصفات ونسبة العمل الادبي ، ولعامل الاحياء معاملته للاموات في تاريخهم ، تلك المعاملة التي لم تعرف الاستجابة لشيء غير الواقع ، ولا تعرف للرجاء والتوسل سبيلاً الى نفسه .

ومن دماثة أخلاقه ومجاملاته الطبيعية : أن سيدة كبيرة السن قد اتصلت به مرة بالتلفون فخاطبها قائلاً :

ــ يا بنتي .

فقيل له كيف؟ أتخاطب سيدة وتقول يا بنتي وهي أكبر منك سنا بعشر أو أكثر؟ فقال ــ ألا توافقوني على أننا كلما قللنا من عمر المرأة أدخلنا على نفسها سروراً أكبر ؟ واذا كان ذلك كذلك فلماذا لا نريد للناس السرور ونعطيهم من أنفسنا ما يحبون بالقدر النافع لهم وغير الضار للمجتمع .

والدكتور مصطفى جواد كسائر مرتادي (دار التعارف) وملازمي ندوتها الاسبوعية لا يحب السياسة ولا يميل اليها ، وقد حضر مرة الندوة وهو يتأفف ويتبرم لنشر اسمه ضمن أعضاء جمعية (اتحاد الادباء) فسألته عما يهمه من ذلك ؟

قال ــ اني أعتقد أن الرابطة التي تربط بين بعض هؤلاء ليست رابطة الأدب بمقدار ما هي رابطة السياسة ، وأنا رجل مثلكم بعيد عن عالم السياسة كاره لها .

فقلت له ــ اذا كان الامر كما تقول فليس هنالك من مانع يحول دون المخرج بتقديم استقالتك من الجمعية مع الاعتذار .

قال ــ ولكن ألا ترى في اقدامي على الاستقالة من جمعية تختارني وتتبرع

بدفع الرسوم عني وتظهر بمظهر المكرمة لي . ألا ترى في ذلك ما يخرجني على قواعد المجاملة والاداب ؟

قلت – انني لم أر في ذلك أي بأس مما تقول ، ولكنك وقد اعتدت أن تبالغ في مجاملة الناس لا ترى الذي أراه أنا .

قال – فاكتب لي اذن صورة الاستقالة .. ؟!

يا للعجب . ان الرجل الذي يكتب للناس ما يريدون ، ويستعينون في استكتابه هو الذي يطلب مني أن أضع له صورة الاستقالة ..؟ ولكن ليس ثمة من عجب فالسبب هو أن الدكتور لفرط خجله لا يقوى أن يكتب استقالة ربما كانت نابية في عرفه ، فكتبت له صيغة الاستقالة وعلى الرغم من خطه الجميل فقد قام بتبييض مسودتها كمال عثمان وحمله كمال عثمان وأنا معه في نفس تلك الليلة الى مقر جمعية اتحاد الادباء بشارع مستشفى دار السلام وسلمنا هذه الاستقالة لأحد الحاضرين هناك وعدنا .

* * * *

وهو بعد هذا احدى عجائب الدنيا في قوة الحافظة واتساع رقعة الذهن كما ذكرت ذلك من قبل ، حتى ليثير الدهشة في نفوس الذين يرون شيئاً من آثار هذه الحافظة العجيبة .

لقد رنّ جرس التلفون مرة في قسم التلفزيون والدكتور مصطفى جواد يتحدث في الندوة التلفزيونية في موضوع قيام الدولة العباسية حينذاك فاذا بالسائل يوجه السؤال الى الدكتور مصطفى – ترى كم هم عدد خلفاء العباسيين ومن هم ؟

وجاء ساع يحمل هذا السؤال من تلفون القسم الى قاعة الندوة حيث يجلس الدكتور ودفع بالسؤال اليه ، فقرأ الدكتور مصطفى السؤال على المشاهدين وضحك ثم قال :

– لا أدري هل يريد السائل أن يمتحنني ويعرف مدى اقتدار حافظتي على الاستيعاب ومدى معرفتي لسؤاله ؟ فاذا كان ذلك هو المقصود فان جهلي وجهل

غيري وعدم القدرة الآنية على ذكر هذه الأسماء لا يعتبر أبداً وبأي وجه دليلاً على الجهل وعدم المعرفة ، واذا كان مراد السائل هو مجرد الاطلاع فاليه بما احتفظت الذاكرة من الاجابة على سؤاله ولا فخر .

وهنا سرد بالترتيب أسماء جميع الخلفاء العباسيين وهم ٣٧ خليفة مع تاريخ ولادة كل واحد وتاريخ خلافته ومدة هذه الخلافة وسنة قتله أو موته وعواصم الدولة العباسية الكوفة والانبار وبغداد وخراسان وسامراء . وقد أثار هذا دهشة المشاهدين وظل حديث الناس أياماً طويلة .

ونقل لي هو مرة لا من باب التبجج ، لأنه كان أبعد الناس عن التبجج — وانما نقل لي ذلك كدليل على أن الاهتمام بالشيء هو الذي يرسخ الشيء في الذهن ويجعله ثابتاً فقال :

— ان الميرزا محمد القزويني العلامة المشهور بباريس قد قال لي انه بحث عن ترجمة (فلان) — وأنا نسيت الاسم الذي ذكره الدكتور مصطفى — فلم يعثر له على ذكر في جميع كتب التراجم ، فقلت له — يقول الدكتور مصطفى — لقد أورده صاحب وفيات الاعيان في الجزء الفلاني وفي الصفحة الفلانية عرَضاً فاطلبه هناك ، وكان العلامة القزويني مشهوراً بقوة الحافظة شهرة الدكتور مصطفى جواد في الاوساط العلمية .

وقال لي الدكتور مصطفى جواد : ان القزويني أنكر قولي هذا وقال انه يكاد يحفظ (وفيات الاعيان) عن ظهر قلب فلا يعرف غير اني واهم فيما قلت . وقام الى (وفيات الاعيان) وفي الصفحة نفسها من المجلد الذي عينه — يقول الدكتور مصطفى — وجد ما كان يطلب ...

ويعلل الدكتور مصطفى ذلك بأنه كان يهمه هذا المترجم له فاختزنه في ذاكرته في حين أنه لم يهمه غيره فلم يختزنه .

وحين كانت جريدة الهاتف تصدر في النجف الاشرف قامت لجنة بتجديد أضرحة الامام الحسين (ع) والشهداء (ع) وذلك بعمل عدد من الصناديق المطعمة

بالعاج والمعادن النفيسة تبرعاً من كبار التجار ، وحين كشف عن ضريح (الشهداء) بكربلا وجدت هناك صخرة من المرمر حفر عليها نص الوقف الذي أجراه الشيخ أمين الدين مما يملك في كربلا وأطرافها من بساتين وعمارات وذلك بتاريخ ٩٠٧ هجرية وقد نقلت جريدة الهاتف نص الوقفية وصارت هي المصدر لهذه الوثيقة .

وحين قمنا بتأليف (موسوعة العتبات المقدسة) وجاء دور القسم الاول من مدينة كربلاء احتجت أنا لنقل النص المذكور تعليقاً على الممتلكات التي تحوط الصحن الشريف من الموقوفات والتي أصبحت جميعها اليوم أملاكاً خاصة للناس ! ! ولكني لم أذكر بالضبط في أية سنة نشرت أنا هذه الوقفية في الهاتف ؟ فضلا عن تاريخ العدد الذي نشرت فيه الوثيقة ، فحامت ظنوني حول بعض السنوات فرحت أقلّب مجاميع (الهاتف) في هذه التواريخ فلم أعثر على العدد المطلوب ، وبعد أن فتشت الهاتف يومين أو ثلاثة أيام وأحسست بالعجز رأيت أن أتصل بالدكتور مصطفى جواد وأسأله في حين كان يجب أن أسئل أنا بصفتي المرجع الوحيد لهذه الوثيقة وهكذا كان فسألته عما اذا كان يذكر وثيقة قد نشرت في الهاتف بهذا المضمون بصفته مؤرخاً لا يفوته شيء مهم كهذا . وشد ما دهشت حين ردّ علي بأن ذلك منشور في سنة ١٩٤٧ وقال : واذا أردت أن تعرف في أي عدد نشر ذلك فانتظرني على التلفون دقيقة واحدة لا أكثر ، ثم ترك السماعة ولربما لم يغب أكثر من دقيقة حتى عاد وقال لي —

— كان ذلك في العدد ٤٥٦ من الهاتف ... ! !

ولم تدهشني قوة حافظته فحسب وانما دهشت لتنظيمه مذكراته ووثائقه ومراجعه بحيث لم يفت منه شيء من الوثائق التاريخية في حين فتشت أنا نفس هذا العدد قبل ان أستنجد به فعميت أن أرى هذه الوثيقة وهي مثبتة فيه .. ! !

ومر بي الصديق كمال عثمان قبل وفاة الدكتور مصطفى بأسبوعين ، لقد مرّ بي (بدار التعارف) وقال : انه قد حصل جدل عن مدفن (رابعة العدويّة) وكونها مدفونة (بالاعظمية) ببغداد . فهل بوسعك أن تسأل الدكتور مصطفى جواد تلفونياً عن مدفنها ؟

فقلت له وأنا أضحك : — ولكن (رابعة العدوية) قد توفيت قبل أن تبنى بغداد وقبل أن يموت أبو حنيفة بسنين فكيف تريد مني أن أسأل الدكتور مصطفى جواد عن هذا ؟

فقال — ولكن هكذا كان الجدل فما الضائر لو سألته ؟

وأمسكت بالتلفون وكمال عثمان جالس عندي وطلبت الدكتور وقلت له :

— انني أعلم أن رابعة العدوية قد توفيت قبل أن تبنى بغداد وقبل أن توجد الاعظمية ولكن كمال عثمان يريد أن ينهي جدلاً حاصلاً في مدفن رابعة العدوية. وما اذا كانت قد دفنت في الأعظمية . فما هي أخبارك ؟

قال — أما رابعة العدوية فلا يعرف بالضبط قبرها أهو فلسطين أم الحجاز أم .... (وكأنه أراد أن يقول أن حكايتها حكاية مجنون ليلى المشكوك في أمرهما وهذا ما لاح لي أن أفهم من لهجته اذا لم يقل ذلك صراحة) .

وقال — وأما هذه المدفونة في الاعظمية فهي (رابعة) بنت الخليفة العباسي في القرن الخامس الهجري — وقد سماه لي ونسيته — وقد زوجها أبوها من شريف الدين الجلايري كما أنت تعلم ...

قلت — ولكني لا أعلم والله بذلك .

ومن عجيب ذاكرته أنه رأى ذات مرة المحامي عبد الهادي باقر وكيل الاخراج الگمرگي في مكتبي وجرى بينهما التعارف فقال : انه كان قد رأى عبد الهادي قبل ما يقرب من خمس وعشرين سنة وهو في خدمة الاحتياط ثم خرج هو — أي مصطفى جواد — من الجيش لاعفائه من بقية الخدمة ولم ير الرجل الا هذا اليوم ؟!

* * * *

ولعل الذين أفادوا من علم الدكتور مصطفى كانوا أكبر وأكثر عدداً ممن أفاد من علم أي عالم آخر في مثل صفته واختصاصه من علماء اللغة والتاريخ

الاسلامي في جميع أدواره الماضية فهو فضلاً عن مؤلفاته الواسعة والغزيرة المادة . ومحاضراته في مختلف قاعات الدرس وقاعات المحاضرات وما كان يتحدث به الى المستمعين من راديو بغداد ، ويجيب على أسئلة الناس فقد ترك عن طريق التلفزيون في نفوس المشاهدين أثراً كبيراً لا أحسبه سيمحى بسهولة وعن هذا الطريق — طريق التلفزيون ارتفع مستوى الثقافة من حيث التراث والتاريخ حتى عند سواد الناس ، وأصبح البعض يعرف الكثير من مواقع بغداد وآثارها التي انفرد بمعرفتها الدكتور مصطفى جواد وحده .

وقبل ظهور الدكتور مصطفى جواد على مسرح البحث والتنقيب في آثار العباسيين ببغداد وسامراء لم يكن الكثير من معالم بغداد ومحلاتها التاريخية وقبور الكثير من المشاهير والقصور ، والمساجد ، والمدارس معروفاً للمؤرخين وانما تعين معظمها بواسطة بحث الدكتور مصطفى وتنقيبه واستقصائه لبقية الآثار ، وتتبع أوصافها التاريخية وتشخيصها تشخيصاً علمياً .

ويرجع الفضل الاكبر في نشر هذه الثقافة أو السعي لنشرها وتعميمها بين الناس عن طريق الندوات التلفزيونية الى صديق الدكتور مصطفى جواد وهو الدكتور حسين أمين الذي كان أول من ابتكر برنامج الندوة الثقافية في التلفزيون وحمل الدكتور مصطفى جواد على المشاركة فيها والتحدث الى المشاهدين عما يجب أن يعرفوا عن تاريخ الاسلام وعواصم دوله وتاريخ بغداد وخلفائها بصورة واضحة جلية ، ولقد بلغ من تأثير هذه الندوة التلفزيونية أن صار هذا البرنامج الذي يديره الدكتور حسين أمين ويشارك فيه الدكتور مصطفى جواد يضرب للناس موعداً في كل يوم جمعة لزيارة جهة من الجهات الاثرية تحت ارشاد الدكتور مصطفى جواد فتمضي عشرات السيارات ناقلة المئات من المعجبين والراغبين في الاستزادة من ثقافتهم التاريخية ومعهم عدة من الزاد والطعام لقضاء يوم كامل خارج بغداد ولا يعودون الا مساء بعد أن يكونوا قد شاهدوا تلك الآثار واستمعوا الى محاضرة الدكتور العملية ، أقول العملية لأن محاضرته بين الآثار ستكون تطبيقية وجدانية يسمع فيها الحاضرون ويرون .

وأذكر مرة أننا ذهبنا معاً الى قلعة (الاخيضر) على بعد ما يزيد على مائتي كيلومتر ، وتتألف هذه القلعة من ثلاث قلاع متداخلة بعضها في بطن بعض ومن دهاليز عميقة تكتنف كل قلعة من قلاعها ، وأسوار فخمة عالية ذات رواشن يكمن وراءها الرماة والنبالون ، وهي واقعة في كبد الصحراء ليس فيها ما يصلح للحياة اليوم ، وكان المتخصصون في مديرية الآثار العامة ببغداد ، يميلون الى اعتبارها قلعة اسلامية لوجود محراب هناك ويختلفون في تعليل اسمها (بالاخيضر) كل الاختلاف ، أما الدكتور مصطفى فهو يخطىء اعتقادهم هذا ويرجع تاريخ هذه القلعة الى ما قبل ظهور الاسلام لأسباب كثيرة أهمها : طراز البناء ، ووقوع القلعة في الصحراء غير المسكونة في جميع أدوارها التاريخية ، وعند الحدود بين منطقة نفوذ الرومان من الشمال ونفوذ الفرس من الجنوب . أما المحراب فيعتقد بأنه حديث عهد ولا يصلح أن يكون دليلاً وأن مثله مثــل المحراب في جامع ايا صوفيا باسطنبول والجامع الاموي بدمشق .

وهنالك في بيت (متصرف لواء كربلا) جرت مناقشة حادة بعد الرجوع من الاخيضر بين الدكتور مصطفى جواد والدكتور طه باقر مدير الاثار العامة يومذاك ولم تخل المناقشة من مظاهر الغضب والغلظة عند الدكتور طه باقر على ما رووا .

وكان الجمع الذي حضر زيارة قلعة (الاخيضر) يتألف من بضع مئات من الاشخاص بين رجال ونساء . فراح الدكتور مصطفى يحاضرهم بادئاً من أول قلعة ويشير وهو واقف تارة وحوله هذه الجموع ، وماش تارة بين هذا الحشد المائج ، فلا يقف في مكان حتى يفيض في الشرح بأصل هذا البناء وصفته في الحرب والمؤن التي كان يستمد منها المحاصرون فيها ونوع السلاح وتاريخه وكيف تجري الحرب بكل صنف منه الى غير ذلك .

وكان هناك جمع آخر ينتظر ـ داخل القلعة الثالثة ـ وصول الدكتور مصطفى جواد ليشرح لهم معالم هذه القلعة بعد أن وقفوا على معالم القلعتين المتقدمتين واذا بدعلج يخرج من بين الصخور فيجفل الجمع ويفر من القلعة الصغيرة وينكفىء

ناكضاً حتى تتصل موجة الفرار بالجمع الذي يحيط بالدكتور مصطفى في وسط القلعة الثانية ، فقلت لرفاقي ونحن بمعزل عن هذه الجموع ولكن على كثب نطل عليها من فوق احدى الصخور ، قلت لهم :

— انني أراهن على أن الدكتور مصطفى جواد ستخونه الشجاعة فلا يخطو خطوة واحدة نحو القلعة التي انهزم منها الناس بسبب (الدعلج).

فقال لي البعض — وعلى أي مستند تبني رأيك هذا ؟

قلت — ان الدكتور مصطفى جواد صديق قديم وأنا أعرف عنه ما لا يعرف الا القليل وعهدي به من أكثر الناس خوفاً ولنجرب الآن .

وكان كما تنبّأت فلم يخط الى القلعة الصغيرة بضع خطوات حتى وقف وكان قد عرف بسر انهزام الناس وفرارهم من القلعة طبعا — وقال :

أما القلعة الصغيرة فأغلب ما يقول العلم عنها .. كذا وكذا ولا حاجة لدخولها الآن ، وهناك انفجرنا نحن الاصدقاء ضحكاً ، وقد جاء هو ووقف عندنا وألفانا في ضحكات متتابعة عالية وقد قصصنا عليه القصة ومثلنا له ما قد قلناه فيه فضحك معنا وأيدني فيما ذهبت اليه عنه وعن شجاعته .

أقول لقد انتفع الناس بالدكتور مصطفى جواد عن طريق التأليف والمحاضرات والراديو والتلفزيون ايما انتفاع ، ولولا الدكتور حسين أمين وبرنامجه لحرم الناس عن طريق التلفزيون من ثقافة واسعة شملت أكثر المشاهدين وجعلت منهم أناساً يفهمون جانباً من تاريخهم بعض الفهم .

وحين سافر الدكتور حسين أمين الى مصر لمناقشة اطروحته خلفه في ادارة الندوة سالم الالوسي سائراً على نهجه في البرنامج وقد أخبرني الدكتور مصطفى جواد أن الالوسي رفض أن يستمر في ادارة الندوة التلفزيونية عندما عاد الدكتور حسين أمين من مصر ولكن السياسة يومذاك كانت لا تحبذ عودة الدكتور حسين أمين ولا الدكتور علي الوردي وغيرهما ممن انتفع بهم المشاهدون كثيراً الى التلفزيون ، وظل الالوسي يصرّ على رأيه وفاء منه للدكتور حسين أمين على ما ذكر الدكتور مصطفى

جواد فلم تستجب له مديرية الاذاعة والتلفزيون ، وظلت الندوة الثقافية يديرها سالم الالوسي في التلفزيون حتى اليوم .

ولم يقف الدكتور مصطفى جواد عند هذا الحد من نفعه للناس وانما كان سخياً بالاجابة على الاسئلة التي كانت توجه اليه من جميع الجهات حتى لا يمر اسبوع واحد دون أن يكون هنالك عدد من الاسئلة التي تنتظر منـــه الجواب .

وميزة الدكتور مصطفى جواد هو الدأب على العمل والانكباب العجيب على البحث والتأليف ، فلا يعوقه أي عائق عن مواصلة بحوثه حتى المرض ، بل انه ليتسلى في مرضه بالقراءة والكتابة فيتناسى ما يعاني من العلل بالانصراف بكله الى البحث والاستقصاء وتفلية الكتب وتقليبها بطناً لوجه .

وكنا قد وصلنا الى قسم سامراء من تأليف (موسوعة العتبات المقدسة) وكان المنتظر أن يتولى الدكتور مصطفى جواد كتابة (سامراء قديما) أي قبل أن تتمصّر وتكون مدينة ، ولكن مصطفى جواد كان طريح الفراش في ذلك الوقت وقد اشتد به المرض ومنعه الطبيب عن القيام بأي عمل فكري ، ولم يكن بوسعه حتى النزول من السرير الا مرة أو مرتين في اليوم لذلك رأيت أنا أن أعهد الى گورگيس عواد بهذه المهمة ليقوم هو بكتابة هذا الفصل من الكتاب . فأجاب الى ذلك وشرع يكتب ، وكنت أزور الدكتور مصطفى جواد في أغلب أيام الجمع متفقداً منذأن كان في المستشفى ومنذ أن انتقل الى بيته ثم رجع الى المستشفى فلم أذكر له قيام گورگيس عواد بهذه المهمة ، وفي أحد تلك الأيام وقد وجدته أقل شكوى مما مضى كاشفته بما فعلت . وقلت له انني رأيت أن أعفيه من هذا الالتزام بناء على ما يعانيه ، فاغتمّ كمن ركبه حزن وقال :

ــ ومن قال لك اني لم أشرع بالعمل ولم أتمّه ... !!؟

قلت ــ ولكنك مريض وأنت غير قادر على العمل .

قال ــ اما انني مريض فهو صحيح ــ ولكنني لست غير قادر على العمل بل اني كثيراً ما أتغلب على المرض بالعمل .

ونزل من سريره ودخل مكتبته وجاءني بالبحث الذي كتبه عن سامراء كاملا..!

واتصلت بكوركيس عواد وقلت له : انني سأدفع لك بما كتب الدكتور مصطفى لتحذف ما ورد عندك مما يشبهه وتبعث لي بما يخلص لديك مما لم يتطرق اليه الدكتور مصطفى جواد ، وسأبادر أنا بنشر البحثين.

فضحك كوركيس عواد وقال :

- يبدو لي انك لا تعرف الدكتور مصطفى جواد على وجهه الاكمل فالدكتور مصطفى جواد اذا تناول موضوعاً طرقه من جميع أطرافه فلا يترك صبابة في الكأس، ولن يقتصر بحثه على ناحية واحدة وانما يحيط به احاطة السوار بالمعصم لغةً وأصلاً وتاريخاً في أقوال جميع المؤرخين والباحثين وفي جميع المصادر من مطبوع ومخطوط حتى لا يبقي قولة لقائل .

وطلب مني مرة عبد الا مد تركي الملحق الصحافي لامارة الكويت ببغداد أن أرجو من الدكتور مصطفى جواد القيام بتحقيق أحد أجزاء (تاج العروس) الذي تقوم الكويت منذ سنوات بطبع أجزائه تباعاً بعد أن عهدت لكل عالم بتحقيق جزء منه ، وكان الدكتور مصطفى قد اعتذر بسبب قلة الاجور المفروضة لكل جزء وهي مائتا دينار ، فكلمته أنا بهذا الخصوص فقبل ، وحين أراد السفر الى لندن للمعالجة قال لي:

انه قد أوصى أهله أن يسلموا الي هذا الجزء من تاج العروس ان قدّر عليه أن يفد على ربه في هذه السفرة لكي أقوم أنا بتسليمه للملحق الصحافي بسفارة الكويت وقال انه قد عمل فيه بعض العمل ولكنه لم يتمه .

وعندما عاد من لندن وجد أن الالحاح متصل بوجوب الاسراع في انجاز هذا الجزء فأتمه ودفع به الي ، وكان تحقيقاً فريداً في بابه لأنه أثبت فيه هفوات كثيرة للامام اللغوي محمد مرتضى الحسيني الزبيدي صاحب هذا القاموس . وقام في هذا الجزء بتصحيح ما عثر عليه من الأغلاط اللغوية والاشتباهات الواردة في مواقع البلدان وأسماء الرجال ، وهو عمل جد خطير ، وتحفة نادرة ولكن المشرف على

اخراج هذا القاموس في الكويت لم يعترف بأهمية هذا العمل وعدّ الدكتور مصطفى جواد هو الواقع في السهو والخطأ لا صاحب تاج العروس على ما أخبرني به عبد الصمد تركي .

وظللت أنا أطالب عبد الصمد تركي بدفع أجور الدكتور مصطفى وظل عبد الصمد يبذل مسعاه مع الجهات الرسمية الكويتية حتى انتقل من بغداد ولم يتسع لي أن أسأل الدكتور مصطفى جواد عما اذا كان قد تسلم الاجر المفروض أم لا ؟ ولم أخبره بما علّق به عليه المشرف على طبع تاج العروس واخراجه ، ولا حاجة للاشارة الى أن المشرف على تحقيق التاج في الكويت هو الواقع في الاشتباه لأن قصة اللغة ليست قصة اجتهادية في مبانيها العامة لنعزو الخطأ دون دليل الى أحد اللغويين وانما هي دراسة مبنية على أساس من القواعد والاستعمال وكان الدكتور مصطفى ابن بجدتها في هذا المضمار .

* * * *

وقبل بضع سنوات شكا الدكتور مصطفى جواد من وجع في ظهره فوصف له الطبيب حبوب (البيتوزولودين) فتناولها وشفي من وجع ظهره تماماً . وقد أحس بسبب هذه الحبوب بنشاط غير عادي شمل كل وجوده الامر الذي حبّب اليه الاسترسال في تناول هذه الحبوب فراح يشتري منها (الدوزينة) بعد (الدوزينة) ولم يدر أن الادمان عليها مما يعبث بجهاز القلب ويخل بعمله حتى وقع له هـــذا العارض ، عارض القلب الذي انغلقت فيه احدى صماماته فلم تعد تضخ الدم ضخاً طبيعياً، وراح يحس بما يشبه السكاكين تقطع نياط قلبه تقطيعاً ومع ذلك فلم يتخل عن حضور ندوة (دار التعارف) بالرغم من نصيحتي له بالكف عن حضور الندوة لارتفاع سلالم هذا المكتب وكثرة عددها .

وكانت العوارض القلبية تأتيه على شكل موجة بين مد وجزر فيلزم الفراش أو يدخل المستشفى حين يدهمه المدّ ويخرج الى الناس ويزور الجامعة حين يواجهه الجزر ،ولقد سألت عنه الدكتور كاظم شبّر حين دخل الدكتور مصطفى لأول مرة مستشفاه، فقال لي ان حالته غير طبيعية واذاما التزم بوصايا الطبيب فقد تمتد

سنينه ويطول عمره لأنه ذو قابلية جسدية ممتازة ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يلزمه بالتمسك بنصيحة الاطباء فهو لا يكاد يستجيب لرأي الطبيب ويدخل المستشفى من هذا الباب الا ويخرج من الباب الثاني بدون اذن الطبيب ، وكثيراً ما ترك وصفة الطبيب في استعمال الدواء وراح يستعمل بعض العقاقير بحجة أن هؤلاء الاطباء فاشلون في تطبيبهم .

ثم تواصلت موجة المدّ . وطال أمد النوبة القلبية ، وبدأ وزنه بالانخفاض حتى لم يعد يعرفه أحد لما اعتراه من هزال ، واشتد قلق الاصدقاء عليه كما اشتد قلقه هو على نفسه وعهدي به أنه كثير الخوف من الموت فلم أدر كيف أوفق بين علمه، وفلسفته، وهذا الخوف الذي يستحوذ عليه كلما ذكر الموت؟ وكلما انتهى اليه خبر وفاة أحد من الاصدقاء والمعارف ، ولكن ما لقي من الألم والعذاب جعله يتمنى هذا الموت الذي كان يخاف منه — وكان يقول ان في الموت الفرج لو يعلم الناس بذلك .

ولقد دخلت عليه ذات ليلة ومعي الدكتور حسين أمين فالفيته في حالة يرثى لها وهو مصرّ على البقاء في البيت وعدم دخول المستشفى ، واستعان بنا من كان في البيت على اقناعه بالانتقال الى المستشفى وكان ان أرغمناه على ذلك وخرجنا لندبر له أمر الانتقال . وكان أن اتصل الدكتور حسين أمين برئيس الجامعة واتصل هذا بمستشفى ابن سينا ونقلوه ولكنه لم يلبث الا ليلة واحدة ثم ترك المستشفى دون اذن الطبيب وعاد الى بيته . ! !

وهيأت له الدولة السفر الى لندن للمعالجة ، ولكنه لم يمكث هناك الا أياماً ثم عاد دون اذن الطبيب الى بغداد بحجة انه قضى أياماً في المستشفى ولم يفد شيئاً ، ثم هيأت له الحكومة السفر الى تشكوسلوفاكية فسافر اليها ثم عاد بالاسلوب الذي عاد به من لندن، وأعدّت له الحكومة من جديد وسائل السفر الى برلين الشرقية فعاد من حيث ذهب برماً سائماً، وقد عبّر عن مرضه ومعاناته الالام ورأيه في طب المدن التي قصدها بقصيدة قصصية كان قد قرأ عليّ من قبل قسماً منها ثم قرأها كاملة علي بعد رجوعه من برلين بأيام وكان فيها بيتان أو ثلاثة أبيات تخص (براغ) وهي

تخالف سنة الوقار الذي لا ينبغي اهماله من قبل الدكتور مصطفى جواد فاقترحت عليه حذف هذه الابيات من القصيدة ، فقال لي :

– ولكن هذه حقيقة واقعة ..

فقلت له – ولكن الا تؤمن بأن ليس كل ما يعرف يقال ؟

فتناول القلم حينذاك وخط على الابيات وحذفها ولم يقل شيئاً .

وكان قد أطلعني ذات يوم على قصيدة بعث بها الى عباس مسعودي صاحب جريدة اطلاعات، وكتاب وجهه الى نذير فنصه رئيس تحرير مجلة الاخاء يبدي فيهما رغبته في الاستشفاء بأحد المستشفيات هناك فلم أتفق معه في الرأي، وقلت له انك لم تجد علاجك في مثل مدينة لندن التي يقصدها الناس للعلاج من مختلف الجهات فكيف تتوقع وجوده هنا ؟ فلم كل هذه الجعجعة التي تجعجع بها نفسك؟ فقال – لقد سبق السيف العذل وقد بعثت بالكتاب والقصيدة قبل أيام .

ثم نشرت القصيدة بعد ذلك في مجلة الاخاء .

أما القصيدة التي يحكي فيها قصة مرضه وتطبيبه وخيبته وكل ما ينشده المعجبون به وما يتطلبه التاريخ من الوقوف عليه فهي على ركتها تستحق النشر :

قصة مفؤود بالاخفاق

يعود

مضى يطبُّ القلب في لندنــا   فلم يجدْ في النأي الا العنا
كان بــــه من قوةٍ بعضها   فعرّضوها للردى والفنـــا
فهم أحـــــالوه على جـــاهلٍ   وأملّوه بلقـــــــاه المنى
دلّ عليـــه جـــاهلٌ مثله   وعادةُ الاشباهِ أن تقرنـــا

فلم يجد (كبسن) الا امرءاً لا عرف الطب ولا أحسنا
منمّساً يدلي بسماعه رميّ غبيّ عدُّ مُستفطنا
له دواءٌ واحدٌ باطلٌ أبطله الطبُ وقد أنتنا
جرّعنّيه بعد يومين من كوني بمستشفاه مستوطِنا
وقال لا تترك سرير الجوى الا اضطراراً ومضى وانثنى
كأنني اليومَ مصابٌ بما حلٌ بقلبي وهو لقماننا
فأوهن القلب على ضعفه وحلّ بي الاغماء مستعلنا
وبعد زرقٍ في وريدي بما ينبّه القلبَ صحا موهنا
قام به الأعوانُ لا (كبسنٌ) (فكبسنٌ) فوق الورى والدُنا
فلا يُرى الا على ندرةٍ فالمرء مشغولٌ ولن يأذنا
وشهرةُ الدكتور أعطته ما رام من المنصب حتّى الغنى
تَجسّسُ الأخبار أغناه عن دراسة الطب فما اتقنا
وهو يهوديٌ بلا شبهةٍ يخدم صهيونَ ولن يذعنا
وهو من الشعب الذي اختاره إلَهُ إسرائيل لا ربّنا
أفئدة الناس له لعبةٌ يلعبُ ما شاء بها ممعنا
له دعاةٌ مثله خُدّعٌ يجتذبون الناس شطرَ الفنا
وقد خشيتُ الموتَ من طبه فَعُدّ مستشفاه دار العنا
والحمد لله على نجوتي من موت هذا الجاهل ابن الزنا

* * * *

وعن شكوسلافاكيا قيل لي طبٌ بها أبدعُ من لندنا
فيها مصحّاتٌ تُزيل العنا ودورُ تمريضٍ تُزيل الفنا
طرت اليها فرحاً آملاً وفي (براغ) قد أملت المُنى

وقـادني بعض الألى أحسنوا   الى مصحٍّ في القرى أمكنـا
ثم أحـالوني على آلـــة   تُظهر ما قد كان مُستبطنـا
فصوّرت قلبي ومـــا حوله   من رئتين ماؤهـــا أجنّـا
وجاءتِ الدكتورةُ العـــانسُ   الرقحاءُ ترجو نقلتي موهنـا
فأنزلـوني في (براغٍ) لـــدى   دار شفـاءٍ خِلتُهـا مأمنا
وجاء (فالنتينُ) دكتورُهـــا   كأنـه المعتوهُ مستعلنـا
قـــال انقلبْ ثم تنفّسْ ولا   تبدِ حراكاً بعدها من هنـا
وجسَّ بطني عـاصراً حـاصراً   فقلت يا كتور دع ذا العنـا
فالرئتـــان امتلتـا مـائعـاً   كالماءِ لم يجر ولكن ونـى
فقال : لا . لا . أنت ذو علّة   في الكبد الحرّى فكنْ موقنـا
فقلت يا دكتور يـــا غافل   تنكر مني مرضـــاً مزمنـا
وتدعي لي مرضـــاً لم يكن   إن دماغاً فيك قد أنتنـــا
ومـــرّ أسبوعـــان من غيرأنْ   أقنعَ ذاك الاحمقَ الارعنـا
وكلمـــا زاد احتقـــانيعلا   صوتي : أغيثوني لكي أسكنـا
فلا دواءٌ مسكنٌ عندهـــم   ولا أفاد الزرقُ بل أو هنا
وأطعموني كـلَّ مـــا يهدم   القلب بلا شك ويوهي البنـا
وأجبروني أتعـــاطى لهـــم   دواءهم لكنني قلت : (نا)
لولا دواءٌ كنتُ أصحبتُــه   لكان مستشفاهُمُ مدفنـــا
فعدتُ للاوطـــان مُستيئساً   من نفعهم ارجو زوال العنـا
أعـــالجُ القلب كمـــا أبتغي   ان الذي جرّبت ينفي الفنـا

* * * *

وقيل لي (برلينُ) موصوفـــة بطب قلبٍ فائقٍ في الدُنــا
فكيف تجفوهـــا وتنحـــو الى ما دونها فاذهبْ إذن موقنـــا
فطرتُ لا ألـوي على عاذلٍ وقلت في برلينَ نيلُ المنـــى
وفي (كِرَنكِنْ) يمت مستشفياً أجمل مستشفى وسيع البنـــا
فيه أطبـاءٌ شبـــابٌ ولم يلقوا تجاريب ولا ممعنـــا
فأوسعوني رأفـــةً كلّهم واللطفُ بالمرضى سبيلُ الهنا
وانمـــا ابغي شفـــاءً لما حلّ بقلبي فغدا موهنـــا
ولم أجـدْ عندهـم حبـــةً تلغي احتقاناً قد بـدا مزمنا
وأطعموني سمكـــاً مغرقاً في الزيت يُردي القلب مستمكنا
وكلما ذقتُ أطـــاعيمَهُم ألفيتُ قلبي مُنهكـاً مُثخنا
فقلتُ خيرٌ لي إذن عـودتي الى بلادي مخفقاً محزنـــا

* * * *

فـانظر تجدني شــاكياً علّتي الى الذي أنشأ هذي الدنـــا
أنشـــأ قلبي واهنـاً واهيـاً لذاك قاسيتُ الشقـا والعنـا
يا ايهـا النـاسُ فؤادي بــه من التباريح كطعن القنـــا
قـد عيلَ صبري وهوتْ قوتي فارثوا لحيٍّ بـالردى كُفّنـا

ومع كل ما سبق فقد كانت شهوره الأخيرة تبشر بتحسن شامل على رغم يأس الأطباء ، وعاد يتسلى بعد عودته من برلين بالندوة الثقافية ، وراح الدكتور حسين أمين يعنى باخراجه من البيت الى الندوة ويعيده بعناية فائقة .

والحق انه لقي من البرّ والرعاية من لدن الدولة ومن أصدقائه المقربين ما لم يلق

المؤلف والدكتور مصطفى جواد في ايام مرضه

أحد آخر ، وفي طليعة أصدقائه الذين كانوا يعنون به أشد العناية كان الدكتور حسين أمين ، وكان سالم الالوسي الذي لم يقل مجهوده في ادخال السرور على نفس الدكتور مصطفى عن مجهود أقرب الارحام اليه ، وكان محمد حسين الشبيبي الذي تعود صلاته به الى أيام التلمذة بدار المعلمين هو الاخر قد وفاه حقه من المحبة والمودة التي لا تثمن بثمن وبكاه مرّ البكاء وهو يودعه الى جانب توديع الصديق الوفي الحميم حسين أمين وسالم الالوسي وفؤاد عباس .

وهناك أسرة احتضنته بجميع أفرادها منذ زمن جد بعيد فأنس بها وأنست بـــه ورأى فيها أهلاً آخرين له غير أهل بيته ، تلك هي أسرة آل مسكوني ، فقد منحه يوسف مسكوني والسيدة زوجته وأولادهما صنوف المحبة وكان كثيراً ما يخرج من ندوة دار التعارف فيعرج عليهم وقد يتناول العشاء عندهم ويسمر هناك في بعض الاحيان حتى ساعة متأخرة من الليل ، وقد بكته هذه الأسرة مر البكاء أيضاً .

وكثرت في مرضه زياراتي له في أيام الجمع ، ولما لم أكن أملك سيارة توصلني الى بيته البعيد في (الدورة) الذي لا يصل اليه أحد بسهولة لوعورة الطريق المفضية اليه فكنت أستعين بسيارات بعض الاصدقاء الذين كانوا يأنسون هم الاخرون بدعوتي لمصاحبتهم في هذه الزيارة أمثال الدكتور حسين أمين ، والدكتور محمد صالح عبد المنعم ، وكمال عثمان، والدكتور صفاء خلوصي، ومير بصري وغيرهم ممن كان لهم الفضل طوال السنوات التي أفدت من مصاحبتهم في هذه الزيارات .

وكنت أقضي عنده وقتاً ممتعاً يوم يكون بمقدوره التبسط والتحدث ، وما مرة زرته وهممت بالقيام من عنده الا استزادني البقاء عنده أكثر

ولم يستطع المرض أن يغير من طبعه شيئاً فقد كان في مرضه كأيام عافيته يتحدث ، ويناقش، ويقرأ علي شيئاً كثيراً من خصوصياته وما علق بذهنه من الماضي والحاضر ، ويروي لي الشيء الكثير مما لا يجوز أن يروى لغير الاصدقاء الخلص ، ويسمعني رأيه الخاص في بعض من يعرف هو وأعرف أنا ، وكان قد اشترى في أيامه الاخيرة بيتا في (المنصور) وانتقل اليه بعد أن عاد من استشفائه ببرلين ، وفي عودته هذه حالت بيني وبين زيارته وعكة أقعدتني في البيت أياماً ، أما هو فقد ظنني أقضي هذه الايام ببيروت وفي الاشراف على طبع الجزء التاسع والعاشر من الموسوعة كما هو المنتظر. لذلك لم يسأل عني ،وحين علم بعد ذلك بأني لم أزل ببغداد كتب لي هذه الرسالة وأرسلها بالبريد وفيها يشعرني بعودته وانتقاله الى بيته الجديد بالمنصور وهذا نص الرسالة :

« عزيزي الاستاذ الاديب الكبير المحقق البارع أبا فريدة المحترم

تحية مشتاق ، ملتهب الاشتياق ، أقدمها اليكم وبعد :

فقد انتهى الى سمعي انكم لم تسافروا الى لبنان في هذه السنة مع أنكم انقطعتم

عن زيارتي أياماً طويلة كنت أعزو طولها الى غيبتكم في الاصطياف، ونحن قد قرب مزارنا والحمد لله منكم ، وهذا القرب نسبي وذلكم أننا سكنا بين مدينة (المنصور) وحيّ (دراغ) في الشارع المقابل للبنك التجاري كما قال ابني (فؤاد) فان تتهيأ لكم فرصة فزورونا تسرونا غاية السرور وتقبلوا من أخيكم العليل وافر الاكبار والاحترام المستدام »

١٢ / ١٠ / ١٩٦٩ ــ الدار المرقمة ٣٥ / ١ / ١٣ مصطفى جواد

وعدت الى بيته أكثر من زياراتي له وأتمتع بأحاديثه ، وأفيد منها ، وأسمع منه نكاته فأسر لها ، وأرى صبره وجلده على ما يتحمل وما يعاني فأعجب به ، وقبل وفاته بأيام كانت ابنتي (ابتسام) قد وصلت بغداد من انكلتره بعد حصولها على درجة الماجستير في الكيمياء ولما كانت قد طوت دراسة السنتين بسنة واحدة فقد عدّ ذلك تفوقاً نشرت خبره احدى الصحف فنظم الدكتور مصطفى جواد بيتين وكتبهما بخطه الجميل مهنئاً اياها فكانا آخر ما نظم من الشعر وهما :

اذا ابتسم الزمان الى (ابتساما) فذاك لانه عرف الأنـــامـــا
بعلم الكيميـــــاء لها اختصاص سمت قدراً به وعلت مقامـــا

ولم يكن هذان البيتان هما الذكرى الوحيدة التي خلفتها صداقة يمتد عمرها الى أكثر من ٤٥ سنة وانما لدي منه الشيء الكثير الذي يذكرني به .

هذه رسائله . وهذه مقالاته في جرائدي ، وهذه صوره التي تصابحني وتماسيني ، وهذا الكرسي الذي كان يقتعده دون سواه من مكتبي ، وهذا الذهن المشحون بذكريات أيامه الحلوة في عهد الشباب والكهولة والشيخوخة فما أمر تلك الساعة التي تلقيت فيها الخبر المنتظر . أقول المنتظر لأنني كنت واثقاً من قول الطبيب الذي قال لي بأن عينك لن تقع غداً أو بعد غد على هذا الصديق ، وكنت واثقاً بأن قدميّ

لن تطأ بعد اليوم حي (الدورة) ولا (مدينة المنصور) ومن أجل من ارتاد هذا الحي ومصطفى جواد قد مات ؟!

وكما كنت ألجأ الى البكاء وسيلة النساء والاطفال الذين لا يتمالكون أنفسهم وذلك حين يمحو القدر اسم واحد من أصدقائي الاعزاء لجأت الى عيني أستعين بدمعهما في اطفاء شعلة اللوعة وبكيت ما شاء الله أن أبكي .

الشيخ كاظم الدجيلي

كيف عرفت

الشيخ كاظم الدجيلي

في الثورة النجفية الاولى التي ثارت مدينة النجف في وجه الاحتلال الانكليزي في سنة ١٩١٨ كان اخي عباس الخليلي أحد أقطاب تلك الثورة وهو الوحيد الذي سلم من حبل المشنقة التي نصبت في الكوفة فقد فرّ بطريقة عجيبة وفي سلسلة من المغامرات والمطاردات التي تشبه القصص الخيالية ، ولجأ الى ايران ولم يزل هناك حتى توفي .

وكان قد ترك في بيتنا بعض المجلات والصحف التي عزف عن تسلمها أحمد الصافي النجفي بعـــد أن تسلم كل كتب مكتبـــة أخي في مدرسة آل الخليـــلي والكتب التي كانت في بيتنا وغير الكتب مما ترك أخي لأسباب ليس هذا محل ذكرهـــا .

وكنت أقلّب هذه الصحف والمجلات حتى بدأت أشعر بزيادة اللذة الروحية التي كنت أشعر بها من قبل وأنا أقرأ من كتب أبي ما كنت أفهم وما لا أفهم ، وعرفت من هذا الطريق طريق تقليب الصفحات من الجرائد والمجلات التي كانت تصل الى أخي عباس من بيروت ومن القاهرة ومن بغداد أشخاصاً من مشاهير رجال العلم والادب والشعر ممن ماتوا وكانوا قريبي عهد بالحياة أو ممن لم يزالوا أحياء ، ومن هؤلاء الذين عرفت لأول مرة عن طريق تقليب الصحف ، وقراءة ما خف

من الشعر والنثر وما كان ينسجم مع أفكار فتى لايزال في مقتبل العمر—وفي الرابعة عشرة—عرفت السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والبارودي واسماعيل صبري ، وشوقي وحافظ وغيرهم من مصر ، وآل اليازجي وآل البستاني ، والياس فياض ونقولا فياض ، وبشاره الخوري وغيرهم من لبنان ، وجبران ، وميخائيل نعيمة وايليا أبو ماضي وغيرهم من المهجر ، ومحمود شكري الالوسي والاب انستاس الكرملي ، والزهاوي والرصافي وغيرهم من العراق ، وكان الشيخ كاظم الدجيلي هو الآخر قد عرفته لأول مرة بواسطة هذه الصحف وبواسطة مجلة (لغة العرب) بصورة خاصة .

وكانت امي كثيراً ما تستعين بهذه الصحف على اشعال الحطب تحت القدور اولف بعض الحاجات ومسح زجاج النوافذ. ومنذ أحسست بالمتعة وأنا أستعرض هذه الصحف أو منذ ان شعرت بأن هذه الصحف قد أصبحت ملكي مانعت في أن تمتد اليها أية يد حتى يد أمي .

وكنت قد اعتدت اللجوء الى أبي في كل أمر يستعصى علي من اللغة والادب والتاريخ الاسلامي اضافةالى ما كنت افيد من أساتذتي ولكن أبي لم يكن يعرف عن هؤلاءالذين كانت تمر أسماؤهم من فوق صفحات هذه الجرائدوالمجلات باستثناءالقلة من أمثال جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده والشيخ عبد المحسن الكاظمي والالوسي وما عدا هؤلاء واضرابهم فلم يكن أبي يعرف أحداً بالرغم من احاطته الواسعة بالمشاهير من رجال العلم والادب من العرب والمسلمين في العصور السابقة والقديمة . ولعله عرف بعض هؤلاء كشوقي وجبران مني أنا ، ولعله طلب مني أن أقرأه شيئاً من آثارهم ففعلت ، لذلك كنت أستزيد معلوماتي عن هؤلاء من أقراني ومن بعض أساتذتي ومن هنا وهناك .

وأول ما لفت نظري الى الشيخ كاظم الدجيلي هو ما قرأت له من الصفحات عن بعض نواحي مدينة النجف ومكتباتها فكان أول من جسم لي روعة هذه المكتبات في (مجلة لغة العرب) ذلك لأن الشيخ كاظم كان قد درس علومه العربية في النجف ونشأ نشأة علمية كما ينشأ طلاب العلم يومذاك ولقد حدثني مرة

أحمد زكي الخياط فقال انه قد زار النجف مرة وهو صبي بمعية أهله ورأى بعينه الشيخ كاظم الدجيلي وكان معتمراً العمامة البيضاء ومطلقاً لحيته على سجية طلاب الفقه والعلم ، وهذا هو السبب في إطلاق صفة (الشيخ) عليه ، وفي النجف جرى تبحّره في اللغة ،وفي النجف تعلم أول ما تعلم اللغة الانكليزية على بعض الطلاب الذين كانوا يفدون الى النجف لدراسة الفقه من ايران والهند وزنكبار وغيرها ، وقد ساعدته دراسة الفقه والشريعة في تفوقه بمدرسة الحقوق وتخرجه محامياً منها .

وأنا أستطلع أخباره في تلك السنين مما كان قد مرّ على ذهني من أشعاره وآثاره علمت انه ضابط شرطة في حكومة الاحتلال البريطاني ببغداد ، واذا لم تخني الذاكرة فقد رأيت صورته في احدى الجرائد المصورة التي كان الانكليز يصدرونها وقد نسيت اسمها ولعلها (الحقيقة) أو (الحقائق المصورة) فكانت هذه الجريدة تنقل الاخبار المصورة وفيها صور للحكام العسكريين من الانكليز ورؤساء القبائل، وصور بعض الحوادث في العراق وفي الأقطار العربية الأخرى كمصر والسودان ، على الأخص ، وقد رأيت الشيخ كاظم الدجيلي ببذلة عسكرية معتمراً طربوشاً أحمر مما يسمى عند عامتنا(بالفينة)نسبة الى فينا عاصمة النمسا. في ضمن مارأيت من صور البارزين،ولم أعرف ما هي العلاقة بين هذه المواهب التي اختص بها الشيخ كاظم الدجيلي من بحث وشعر وهذا المسلك الذي اختاره الا بعد زمن جاءتني بأخباره المناسبات ، فقد علمت أن الشيخ كاظم كان كغيره ممن ساقتهم الحكومة التركية الى الحروب كضباط احتياط وكان ممن دخل المعركة قبال الانكليز في جبهة البصرة في الحرب العظمى الاولى وحين احتل الانكليز مدينة البصرة كان الشيخ كاظم من الذين تخلفوا في البصرة ، فخلع بذلته العسكرية وارتدى ثوباً من أثواب الفلاحين وأبناء الشعب وهو ما يسمى عندنا (بالدشداشة) ولفّ على رأسه منديلاً وراح يفكر في طريقة تمكنه من الهروب والالتحاق بالجيش العثماني ولكنه لم يوفق،وقد فرغ جيبه مما كان لديه من نقود وحار فيما يعمل وكان لآل (باش أعيان) في البصرة مقام مشهود ، وكان بيتهم بمثابة النادي العامر بالشخصيات الادبية وكانت لهم ولا تزال مكتبة نفيسة بما تجمع من نوادر الكتب ، ولقد كان هذا

البيت ضمن بعض البيوت التي أقام لها الانكليز وزنها واحترامها ، فاضطر الشيخ كاظم للجوء اليها ، وكم دهش حين رأى جميع أفراد هذا البيت يعرفونه كشاعر وأديب ، وباحث ، لذلك لقي منهم رعاية وعناية فائقتين وأخفوه في بيتهم أياماً .

ورأى آل باش أعيان بعد ذلك أن يقوموا بالوساطة له عند الانكليز ليخلوا سبيله اذا ما خرج من مخبأه . فلا يأسرونه ولا يبعثون به الى الهنديكما كانوا يفعلون مع غيره . وقد سرّ آل باش اعيان بنجـــاح وساطتهم لدى الانكليز ووجـــدوا له وظيفة في حكومة الاحتلال هي العمل في سلك الشرطة ليقوم مع الضباط الانكليز في التحقيق عن هويات من يقبض عليهم من الضباط العثمانيين والاطمينان من سلوكهم . وما زال آل باش اعيان به ، حتى حملوه على قبول هذه الوظيفة . ولقد احتفظ له الكثير من الضباط العثمانيين والعرب الذين كانوا يعملون في الجيش التركي والذين قبض عليهم كأسراء أو الذين كانوا يحاولون الفرار فقبض عليهم . لقد احتفظ له الكثير من هؤلاء بالفضل والشكر على ما رأوا من سعيه المبذول في الافراج عنهم .

وفي بغداد صار من أقرب الموظفين الى المس (بل)وقد كبر في عينها حين رأته يتوسط للجمع بينها وبين السيد حسن الصدر الذي كان قد رفض محاولاتها المتكررة لمقابلته . فينجح بسهولة نظراً لما كان له في الاوساط العلمية والادبية من مكانة في النفوس . ولا سيما عند السيد حسن الصدر نفسه .

ولقد حدث بعد ذلك ما سبب زلزلة الثقة به في نفس المس بل ، والضباط الانكليز ، اذ لم يمر كثير وقت حتى قبض عليه وسجن أياماً ثم أخرج ، وطرد ، وعمم طرده في كتاب على جميع مراكز الألوية .

وكانت الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ في دور المذاكرات والمناقشات بين رؤساء القبائل ووجوه المدنيين والروحانيين في النجف وكربلاء ، فرأى الشيخ كاظم أن يضع خبرته وما كان يعرف من أمر الانكليز في خدمة الثوار لذلك قصد مدينة النجف ونزل في بيت الحاج محسن شلاش فرحب به الحاج محسن

شلاش وتناول الغداء في بيته .

وقال لي الشيخ كاظم، لقد قال لي : علمت من الحاج محسن شلاش أن اجتماعاً سرياً سيعقد في بيته في تلك الليلة للمذاكرة في بعض شؤون الثورة وانه من الخير أن يشارك الدجيلي في هذا الاجتماع ، قال وخرجت عصراً الى الحرم الشريف وصليت في الحرم صلاة المغرب والعشاء وعدت الى بيت الحاج محسن شلاش ، هذا والبيت مفتوح الباب على مصراعيه للزوار والضيوف على الدوام ولكني وجدته مقفلاً فطرقت الباب ففتح لي الحاج رؤوف شلاش الاخ الاصغر للحاج محسن لقد فتح الباب نصف فتحة وسألني ما الذي تريد ؟

ــ قلت أنا ضيفكم وأنا على موعد مع أخيك الحاج محسن ؟

قال ــ ليس لأخي موعد مع أحد واننا لن نقبلك ضيفاً .. ! !

قلت ــ ولكنك على علم بذلك ولقد كنت حاضراً ما جرى بيني وبين اخيك عصر هذا اليوم وقبيل خروجي الى الحرم .

قال ــ لنكن صريحين يا شيخ كاظم ... ان الجماعة يتهمونك بالتجسس لحساب الانكليز فليس لك بعد هذا عندنا مقام .

قلت ــ ومن هم هؤلاء الجماعة ؟

قال ــ يكفي أن يكون الشيخ باقر الشبيبي واحداً منهم .

قلت ــ دعني أراه وأرى أخاك الحاج محسن !

وهنا أغلق الحاج رؤوف الباب في وجهي وطردني .

يقول الشيخ كاظم: وحرت في اين أقضي سواد هذه الليلة؟ ثم أين يجب أن أتوجه ، أما بغداد فليس من مصلحتي الرجوع اليها بعد أن خرجت منها خائفاً وملتجأ الى مؤتمرات الثورة ، ورحت ــ يقول الدجيلي ــ أجر أذيال الخيبة ، ولكني ما كدت أخرج من شارع آل شلاش حتى قبض علي (الشبانات) وهم جلاوزة السلطة وأودعت السجن ، وفي اليوم التالي ساروا بي مخفوراً الى بغداد وأنا أضحك

من سخرية القدر التي تصورني جاسوساً وطنياً على الانكليز وجاسوساً انكليزياً على الوطنيين في نظر الانكليز .

أما (المس بل) فتقول في مذكرة قدمتها الى الجهة المختصة عن (الحكم الذاتي في العراق في شباط ١٩١٩) ويوجد نصها في ملحقات الجزء الثاني من كتاب ويلسن تقول : « ... ان أحد الشبان الشيعة في بغداد زار النجف بعد يومين بحجة الاشغال الخاصة ، وشرع بتنفيذ خطة موضوعة لاقناع أهالي النجف والشامية بالعدول عن التوقيع على (المضبطة) المتفق عليها ، وكان مثير هذه الفتنة رجلاً ذا شهرة غير قليلة ككاتب وأديب كما كان مستخدماً عندنا في دائرة الشرطة (وهي تقصد الشيخ كاظم الدجيلي) فأخرج منها بسبب خشونته قبل ما يقرب السنة ، ولما كان هو نفسه قد وقّع بعد ذلك على احدى (مضابط) بغداد التي تفضل استمرار السيطرة البريطانية فان توقيعه مع الجهات المقابلة لا قيمة له ، وعند وصوله الى النجف ادعى بأنه (وكيل سري) من وكلاء الحكومة فحكم عليه حاكم الشامية السياسي من أجل هذا بالحبس لمدة أسبوعين أعيد بعدهما الى بغداد ، ونتيجة للذي أبداه لم ترسل (المضبطة) الاصلية من النجف والشامية وانما أرسلت بدلاً عنها سلسلة من (المضابط) تختلف عملياً عن المضبطة الاولى»

وكانت موسوعة العتبات المقدسة (قسم النجف ج ١ ص ٢٧٥) قد نفت صحة هذه الرواية من أصلها ، لأن الواقع هو أن الانكليز كانوا يبحثون عن جماعة يؤيدون بقاءهم في العراق كمنتدبين فوفقوا للعثور على بعضهم في بغداد ولم يوفقوا لايجاد أمثالهم في النجف والشامية ، ولا دخل للشيخ كاظم الدجيلي بهذا.

* * * *

وتقدمت بي السن بعض الشيء ودخلت مسلك التعليم وصرت أتردد على بغداد في ايام العطل المدرسية وأقضي فيها جانباً لا بأس به ، وعن طريق مكاتباتي لجريدة العراق والاستقلال ، والرافدان ، وأنا في النجف ، صار لي كثير من التردد على مكاتب هذه الصحف عند زيارتي لبغداد ، وصرت أكثر معرفة بأدباء بغداد وشخصياتها

اللامعة في حقل الادب والمعرفة، وكان من هؤلاء الشيخ كاظم الدجيلي الذي كان من القلائل الذين لم أكن قد رأيتهم بعد عن كثب، في حين رأيت أخاه الشيخ جواد الدجيلي وتعرفت اليه وكان محامياً حقوقياً كأخيه الشيخ كاظم وكان يتردد في أغلب الاحيان على المكتبات فلا يملّ من شراء الكتب . فقد كان في طليعة المتصدين لاقتناء الكتب التي كانت ترد بوفرة بعد الحرب الى بغداد ، ومن معرفتي للشيخ جواد عرفت الكثير من أخبار أخيه الشيخ كاظم وهذان الاخوان من قرية الدجيل الواقعة في المنطقة المتوسطة بين بغداد وسامراء ، حفزهما طلب العلم الى مغادرة الدجيل والسكن في بغداد وقد عرف الشيخ جواد الدجيلي برحابة الصدر والسذاجة وحرية الفكر ، وكان قليل الايمان بالأديان وفلسفة الوجود وقد اقسم مرة قائلاً : والله ليس لله أصل في الوجود ! فقلت له وكيف تقسم بالله اذا لم تعترف بوجوده فقال : ذلك بحكم العادة، وأخذ يكررها : بحكم العادة ، بحكم العادة .

واستغل زملاؤه المحامون وأصدقاؤه المقربون طيبته وتبسطه فراحوا يداعبونه بما يلذهم وينسبون له على سبيل الفكاهة ما لم يقله ويفعله ومن ذلك حكاية ليس لها أصل من الواقع تتلخص في أن الشيخ جواد الدجيلي وقف مرة أمام المحكمة كمحام يدافع عن شخص متهم بقتل شخص آخر ومن شواهد الجريمة كانت البندقية التي اطلق منها الرصاص ، فرد الشيخ جواد الدجيلي بأن هذه البندقية التي يقدمها الادعاء العام كشاهد للجريمة ما هي الا بندقية في الشكل فهي أشبه ما تكون بخشبة ، وهـــل للرصاصة قدرة الانطلاق من الخشبة ؟

قال الحاكم — أتريد أن تقول لي ان هذه البندقية لا يمكن أن يصوب منها أحد هدفاً ..

قال الدجيلي — هو بالضبط .. ليس في هذه البندقية من الامكانية التي تجعل منها بندقية تنطلق منها الرصاصة .

فدافع الادعاء العام ورد دعوى الدجيلي بأن تقوم المحكمة بتجربة البندقية هنا وفي ساحة المحكمة ..

فسأل الحاكم الدجيلي – أأنت متأكد مما تقول ؟

قال الدجيلي – كل التأكيد ولكم أن تجربوا فعل هذه البندقية لتطمئنوا .

وأمر الحاكم – على ما يقول أولئك المداعبون المتفكهون الذين يروون مختلف الحكايات عن الدجيلي فيضحكون ويضحك هو معهم – بأن تحشى البندقية بالرصاصة فحشيت ثم ضغط على الزناد فانطلقت الرصاصة وثبتت في سقف المحكمة ! !

فقيل للدجيلي – والان ماذا تقول ؟

فقال الدجيلي : كنت أحسب أن هذه البندقية عاطلة فاذا بها غير عاطلة .

وكثيرة تلك القصص التي كانت تروى على لسان الشيخ جواد الدجيلي على سبيل الفكاهة ، كما تروى عنه قصص مشرفة على سبيل الجد ، ومنها أنه ذات مرة وهو واقف أمام المحكمة يدافع عن موكله اعتراه ما يشبه الدهشة حين وجه الحاكم سؤالاً الى موكله وأجاب عليه الموكل بما أوقع الدجيلي المحامي في الشك من أمر موكله ، ثم تقدم للحاكم طالبا قبول انسحابه من المحكمة واستقالته من صفة المحاماة والدفاع عن الموكل لأنه بدا له ما يبعث الشك في صحة دعوى موكله.

وكان من نتيجة هذا الموقف أن وجهت وزارة العدلية والمحكمة كتاب شكر وثناء للمحامي الشيخ جواد الدجيلي على هذا الموقف المشرف وتناقل الناس هذه الحكاية وزادوا الثناء عليه حين علموا بأنه قد أعاد الأجور الى موكله وكانت أجوراً ذات قيمة ، وقد توفي الشيخ جواد بعد ثورة ١٩٥٨ بقليل فرثاه أخوه الشيخ كاظم بقصيدة عامرة نشرتها بعض الصحف .

* * *

الى هنا وأنا لم أتعرف الى الشيخ كاظم الدجيلي عن كثب على رغم كثرة زياراتي لبغداد وكثرة التقائي بأخيه الشيخ جواد الدجيلي ، ولكني ازددت معرفة به عن طريق قراءاتي المختلفة لاثاره ولاسيما الشعر منها ، حتى كانت سنة ١٩٤٨ التي تم فيها انتقالي وانتقال جريدتي (الهاتف) من النجف الى بغداد ، ولا يخطر

ببالي الان اللقاء الاول وكل ما أذكره هو اني التقيت به اما في أحد المجالس التي كنت أرتادها واما بدار الهاتف في يومه الادبي أو في أحد أيامه الاعتيادية ، وفي بحر أيام قليلة الفيتني صديقاً لهذا الاديب الشاعر الكبير ،

ولقد أحببت من الرجل صدقه ، وجرأته ، وعفة لسانه ، وتفانيه في العدل ، فهو صادق اللهجة لحد يثير العجب وهو جريء بحيث لا يتوانى عن مجابهته أقوى السلطان بما يخالف رأيها اذا ما رأى في ذلك تحقيق الحق ، وطالما احتوت (تقاريره) التي يرفعها الى وزارة الخارجية بصفته قنصلاً عاماً ، أو قائماً بالأعمال أو وزيراً مفوضاً فادت تلك (التقارير) الى حدوث شيء من سوء التفاهم بينه وبين بعض وزراء الخارجية ، وهو شجاع اذا كانت الشجاعة ضرباً من ضروب الجرأة أو كانت الجرأة ضرباً من ضروب الشجاعة ، فقد كان يتحدث عن الموت كما يتحدث عن أي شيء من العوارض الطبيعية ، وكان يرى الموت بمثابة الستارة التي تنزل في آخر فصل الرواية التي تنزل لتعلن نهاية المسرحية لا أكثر ولا أقل ، وهي فلسفة تمكنت من نفسه وحملته الجرأة على أن يتقبلها قبولاً حسناً .

وهو عف اللسان ، مهذب الكلم بحيث لا تسمع منه ما يخدش السمع من قذف وشتم ، ودعاء بالويل والثبور مما اعتدنا أن نسمعه من الكثير عند الغضب .

وهو متفان في حب العدل والانصاف حتى لا ترى أجدر منه برياسة المحكمة وتولي القضاء بين الناس .

ولقد جاءت مرة سيرة الحاج أمين الحسيني مفتي القدس بمحضر الشيخ الدجيلي ونحن في ندوة (دار التعارف) من يوم الأحد ، فتناول البعض المفتي بما يجوز وما لا يجوز من التنديد ، وتجاوز بعضهم الحدود فنسبوا له : الخيانة . والعمالة . والتجسس لحساب الاستعمار ، فبدا على الشيخ الدجيلي الانزعاج وكمن يتململ أسفاً قال :

ان مثل هذه التهم أساليب يستعملها البعض بدون روية ، ودون انصاف وهي من جنايات السياسة وقلة التهذيب التي لقنت الناس أن يرسلوا أقوالهم حسب عواطفهم وأن يكيلوا لمن لا يحبون بالكيل الذي يشفي غل الصدور وأحقادها ، فالخيانـــة

والعمالة والتجسس لا يمكن أن تلصق بالشخص من دون بينة ودليل، ودون صدور حكم بذلك من أرباب الاختصاص يقوم على مستند لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ، فمن منكم يملك هذا الاختصاص ؟ فقال له البعض — انك اذن توافق الحاج امين الحسيني على نهجه وتصرفه في القضية الفلسطينية ؟

قال — أبداً وانما اراه مخطئاً ، والمخطيء كما تعلمون غير الخائن والعميل والجاسوس ، ولو لم أشهد بنفسي موطن بعض أخطائه لما سوغت لنفسي توجيه الخطأ اليه فلماذا لا نضع الامور في موازينها والى متى نظل نطلق الشتائم والتهم والاباطيل على الناس ؟ أما وجه الخطأ الذي لمسه الدجلي عند الحاج أمين الحسيني فقد قصه علينا كما يلي :

قال كنت قنصلاً عاماً للعراق في القدس في نحو سنة ١٩٣٥ و١٩٣٦ وقد تلقيت برقية سرية مستعجلة من رئيس الوزراء وكان يومها ياسين الهاشمي يطلب مني الحضور حالاً الى بغداد ، لذلك تركت القدس فجأة مساء ذلك اليوم .

وفي بغداد قابلت وزير الخارجية وذهبنا معاً لمقابلة ياسين الهاشمي ، وفي مكتب الرياسة قال لي الهاشمي بلهجة الظافر :

— هل أخبرك وزير الخارجية ؟

قلت — كلا

قال — انه ظفر سياسي كبير للعراق ، واذا استطعت أن تقوم بقسطك من هذه المهمة خير قيام فسيكون لك قسط في هذا الظفر .

وهنا — يقول الدجيلي — قص علي قصة المفاوضة السرية التي جرت بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية بشأن فلسطين ، وقال لقد توصلنا الى نتيجة ما كنا نحلم بها من قبل وهي أن تقوم حكومة عربية في فلسطين تكون نسبة التمثيل فيها من اليهود في البرلمان وفي الحكومة ٣٠٪ وتكون نسبة العرب ٧٠٪ من النواب ومن الادارة ، وتحدد الهجرة فلا يسمح لليهود بعدها بدخول فلسطين ويراعى في حكم الادارة والوظائف كثافة السكان جهد الامكان ، الى غير ذلك مما شرحه لنا الشيخ

كاظم الدجيلي ونسيت منه الكثير .

ثم قال ياسين الهاشمي ــ وعليك أن تواجه الحاج أمين الحسيني وتبلغه بهذه النتيجة وتقول له : ان الحكومة العراقية مسرورة جداً من هذه النتيجة وهي تؤيد هذا الحل وتوصي بالعمل به ، وان أي تأخير في قبول تنفيذه فلن يكون ذلك في مصلحة العرب ومصلحة فلسطين على ما ترى الحكومة العراقية .

ومضيت ــ قال الدجيلي ــ الى الحاج أمين الحسيني وأطلعته على كل صغيرة وكبيرة مما حمّلني به ياسين الهاشمي اليه، ورأي الحكومة العراقية في هذا الحل الذي انتهت به المفاوضة بين العراق وبريطانيا .

فقال المفتي : ولكن مثل هذا الحل غير مضمون ما دام آل النشاشيبي يتعاونون مع اليهود .

قلت ــ وما شأن آل النشاشيبي وما هي قدرتهم اذا استطعنا أن نقيم أساس الدولة الفلسطينية على هذه القواعد ، فهل بامكان آل النشاشيبي أن يزيدوا نسبة اليهود أو أن يوسعوا الهجرة فيسمحوا بدخول اليهود اذا فرضنا انهم يتعاونون مع اليهود حقاً ؟

قال : ــ أنت لا تعرف آل النشاشيبي ولا يعرفهم ياسين الهاشمي وحكومته كما نعرفهم نحن الفلسطينيين .

وبقيت ــ يقول الدجيلي ــ عدة أيام وأنا في مناقشة طويلة عريضة لم تنته الى نتيجة ، وكان آل النشاشيبي محور كل تلك المناقشات حتى اذا يئست عدت من القدس الى بغداد وأطلعت وزارة الخارجية أولاً ثم رياسة الوزارة بخيبتي فيما أوفدت اليـــــه .

ورؤي هنا ــ أن أقوم مرة أخرى بهذه المحاولة فلا أقصر الأمر على المفتي وحده وانما يجب عرض الأمر على الجهات الأخرى من رجالات السياسة في فلسطين وتداولنا في أمر تلك الجهات وحصرنا الأمر ببضعة أشخاص ارتؤي اطلاعهم على المفاوضات السرية التي تمت بين العراق وبريطانيا ورأي الحكومة العراقية في هذا

الحل ، وفضلت وزارة الخارجية العراقية اعادة عرض الأمر على المفتي واطلاعه على تصميم الحكومة العراقية بعرض القضية على الجهات الوطنية الأخرى في فلسطين.

قال الدجيلي: وجئت القدس فعلمت أن المفتي قد غادرها الى جونيه بلبنان ، فقصدته الى هناك ، وعرضت عليه مرة أخرى اصرار الحكومة العراقية وترجيحها الاخذ بهذه النتيجة خشية أن تتعقد الأمور أكثر فتكون الخسارة كبيرة وغير قابلة للتلافي ! !

فقال المفتي ــ : وهل فاوضت أحداً قبلي من الفلسطينيين بهذا الرأي ؟

قلت ــ أبداً .

قال : ــ أرجح أن لا تقابل أحداً ولا تكاشفهم بشيء :

قلت ــ اني موظف ولا أملك مثل هذا الحق بعد أن نيطت بي مهمة مقابلة عدة أشخاص وعرض الأمر عليهم ، فبأي حق أستطيع أن أقصر الأمر عليك وحدك ؟

وبعد حديث طويل قال المفتي : أما أنا فلا أزال غير موافق على هــذا الحل .

ثم تعقدت بعد ذلك الامور وتطورت ، وكانت النتيجة كما توقعها ياسين الهاشمي فهل معنى هذا أن المفتي كان خائناً أو كان عميلاً ؟

إنني لا أستطيع أن أكيل ما اعتاد الناس أن يكيلوا لمخالفيهم في الرأي أو لخصومهم من الصفات الشائنة ، فكل ما هو عالق بذهني عن المفتي هو أنه كان مخطئاً ، والفرق كبير جداً بين المخطيء والجاسوس ، والعميل ، والخائن ، هذه الصفات التي ليس من حق واحد أن يطلقها على أحد غير المحكمة العادلة التي لا تتأثر بأي تأثير خارجي سياسياً كان أو غير سياسي .

لقد عملتُ في روسيا مدة طويلة ممثلاً دبلوماسياً للعراق واذا سألني أحد أن أقول شيئاً عن المجتمع الروسي أحجمت لأني لا أستطيع أن أقول شيئاً يصلح أن يكون رأياً علمياً ثابتاً في حين يخول بعضنا لنفسه أن يقول أشياء كثيرة بمجرد زيارته لاحد

البلدان ومكثه هناك بضعة أيام ، أو مروره استطراقاً بالبلد واختلافه مثلا مع أحد الباعة أو المارة أو مشاهدته شجاراً ناشباً بين شخصين ، أو انجذابه بمنظر خلاب ، وقضائه ليلة نابغية أو ليلة سعيدة كل هذا مما لا يجوز أن يتخذ دليلاً لإعطاء فكرة صحيحة عن البلد ولكن الكثير منا يتخذ منه داعياً لانشاء مقال بل كتاب مفعم بوصف السكان وطبيعة البلد ونزعته واتجاهاته العامة في العلم والادب والاجتماع والسلوك والأخلاق .

وقال : ركبت مرة قطاراً من موسكو قاصداً احدى المدن الواقعة على محجة القطار (وقد ذكر اسم المدينة ونسيتها أنا) وصدف ان كان بجانبي روسي ما لبثنا أن تآلفنا ، وكم سررت حين علمت أنه من سكان البلد الذي أقصده أنا وقد تعهد بأن يأخذ بيدي هناك ويدلني على كل مكان يستحق الزيارة ، وقضينا مسافة طويلة اجتزنا فيها أكثر من بضع محطات في المدن والقرى التي يمر بها القطار وأنا مأنوس بصحبة هذا الرجل ، ولست أدري كيف جرنا الحديث الى الجنسية والاصل فعلم مني انني دبلوماسي ، وأنني أمثل في روسيا العراق ، ولم التفت الى ما بدا على الرجل من القلق وعدم الاستقرار الا حين وقف القطار عند محطة من محطات الطريق فاستأذنني لينزل ويتمشى قليلا في رصيف المحطة حتى اذا صفر القطار وأذن بالرحيل عاد واستقل القطار ، فكان هذا آخر عهدي به .

انني اميل ميلاً يقارب الجزم بأن الرجل قد هرب لينجو بنفسه من عقاب كان يمكن أن يحل به لو عرفت السلطة أنه كان يصحب دبلوماسياً ويفيض معه في الحديث وان يكن الحديث هذا بعيداً كل البعد عن الساسة والسياسيين ، ولكن هذا الجزم لا يخولني بأي وجه من الوجوه أن أحكم بأن الوضع كان كما ظننت وأن الرجل لم ينزل في المحطة الا ليهرب مني ، ولو خولت ذلك لما صلحت هذه القصة أن تكون دليلاً على الحالة العامة ما دمت لم أر غير هذا الرجل ولم أشهد حكاية أخرى تشابهها ولكني في عين الوقت لا أستطيع أن أنفي وجود حالة خوف السكان والضغط على حرياتهم لمجرد عدم رؤيتي حكايات أخرى مشابهة لحكاية راكب القطار .

قلت إن الدجيلي ما كان يصلح لشيء كما كان يصلح ليكون رئيس محكمة ،

خصوصاً وقد أوتي بعد صفة العدل موهبة أدبية جعلت منه شاعراً في مصاف كبار الشعراء، فان الشعر والأدب والقانون اذا اجتمع في نفس متشبعة بالعدل والانصاف عمل المستحيل مما لا يخطر على بال .

وفي كل مكان عمل فيه الدجيلي كدبلوماسي وممثل للعراق ترك له أصدقاء ومحبين من سراة القوم ومن أهل المعرفة بصورة خاصة ، وقد نقل لي مرة عبد الرزاق الظاهر أن الدجيلي حين كان قنصلا عاما في بمبي بالهند قويت الصلات بينه وبين اغا خان الكبير حتى لقد كان يدعوه في مجلسه الخاص ويتبادلان الانخاب وذات مرة قام الدجيلي لينصرف فمال اغا خان الى اليسار وطالما كان يخرج من هذا الباب عندما يفرغ من مجلسه الخاص فتبعه الدجيلي ليخرج معه من هذا الباب فأوقفه اغا خان وقال له : ان لك باباً آخر للخروج هو الباب الواقع الى يمينك والذي اعتدت أن تخرج منه أما هذا الباب فهو الباب الذي ينتهي الى الاتباع والذين جلسوا ينتظرونني هناك ، قال الدجيلي – على ما قال عبد الرزاق الظاهر – فالتفت فاذا عشرات من شيعته وأتباعه يهبون في وجهه ويستقبلونه كما يستقبل الانبياء فعلمت ان اغاخان يلبس لكل حال لبوسها .

* * * *

وزادت علاقة الدجيلي شدة بي وبدأ ينشر مقاطيع بليغة من شعره في الهاتف ، وأنست به غاية الأنس ، وصار الناس يسألون عنه بكثرة بعد أن انقطعت أخباره كشاعر يجول ويصول في مختلف الميادين .

وسألته غير مرة عما اذا كانت لديه مذكرات أو بحوث كتبها ولم تنشر بعد؟ فقال ان له شيئاً غير قليل من هذا ولكنه محبوس في مكتبته التي لا يستبعد أن تكون قد عاثت فيها الفيران الان لأن يده قاصرة عن امتدادها الى مكتبته المكدسة في سرداب البيت رفوفاً فوق رفوف وذلك لما حدث بينه وبين زوجته وأولاده من اختلاف بسبب اقدامه على الزواج من سيدة المانية ، خرج على أثرها من البيت حانقاً وحيل بينه وبين الوصول الى هذه المكتبة ، وظلت العلاقات بينه وبين أهل

بيته متوترة . فلا هم يزورونه ولا هو يزورهم حتى اصيب مرة بما يسمى (بالجلطة القلبية) نقل على أثرها الى المستشفى وهو في أشد حالات الخطر فخف حينذاك أهل بيته جميعاً لعيادته ولازموه في المستشفى حتى إذا تشافى وخرج من المستشفى أحس ببعض التحسن في العلاقات بينه وبين أهل بيته حمله على التردد عليهم ثم النزول عندهم بعد ذلك كلما عاد من الخارج ، أما زوجته الالمانية فقد أقامت هناك في المانيا وكان يقضي فصل الصيف عندها بعد أن أحيل على التقاعد ويقضي جانباً من الشتاء هنا ببغداد .

وكان يؤكد لي ان مكتبته قد بلغ امرها من الاهمال وهي في سرداب البيت بحيث لم يبق منها الا النصف. اذا كان قد بقي شيء ، لان ابنه نبيل الدجيلي وان كان على جانب من الثقافة العالية بحيث شغل وظيفة معاون مدير البريد والبرق والتلفون العامة سنين طويلة فان انشغاله في النواحي الاخرى لم يترك له مجالاً للعناية بهذه المكتبة الكبيرة والنفيسة التي جمعت كل كتب الشيخ كاظم وكتب اخيه الشيخ جواد الذي عرض مكتبته ذات يوم للبيع فطلب منه اخوه الشيخ كاظم ان ينقل مكتبته اليه ويتقاضى منه المبلغ الذي يريد كثمن لتلك الكتب ففعل وبهذا انضمت تلك المكتبة إلى هذه المكتبة .

وقد اعلمني الشيخ كاظم في اواخر ايامه ان كريمته وهي الاخرى قد نالت نصيباً وافراً من الثقافة قد بدأت تفكر في الايام الاخيرة بهذه المكتبة وتحاول ان تعنى بها .

ولا ادري ما اذا كانت المكتبة العربية ستظفر بشيء من هذه المدخرات النفيسة من بحوث الدجيلي ذات يوم ام لا ؟ فقد شغل البحث كل ايام الدجيلي وهو صحافي يصدر مجلة (لغة العرب) قبل الحرب العظمى بالمشاركة مع الاب انستاس الكرملي ويملأها تحقيقاً في التاريخ العربي واللغة العربية وقد شغل فيها الدجيلي جانباً كبيراً من تحقيقاته وبحوثه ، ثم وهو شاعر من فحول الشعراء تطرق في شعره إلى جوانب متعددة برّز فيها ولفت بشعره اليه الانظار حتى اشارت إلى

شاعريته المجلات وكتب التراجم المهمة ، ومن ذلك كان (الادب العصري) لرفائيل بطي الذي عني فيه بجمع مجموعة لاكابر الشعراء ، ثم وهو حقوقي علق على كثير من القوانين والشرائع تعليقات ذات قيمة كما اخبرني هو بذلك يوم مر الحديث عن (الاحوال الشخصية) وقد كان الشيخ كاظم الدجيلي حرّ التفكير لم يقيد نفسه بتقليد من تقاليد الوراثة ، ثم وهو يحسن اللغة الانجليزية والالمانية والروسية دبلوماسي سجل الكثير من خواطره ومذكراته مما ينتظر ان تسد فراغاً كبيراً في عالم السياسة اذا ما سلمت من الفيران وكتب لها ان تخرج إلى عالم الوجود .

والشيء الذي امكن ان ينجو هو ديوان شعره الذي جمعه بنفسه وكان ينوي في الايام الاخيرة ان يطبعه ولقد بالغ في حسن ظنه بي حتى طلب مني ان القي نظرة في ديوانه هذا فكان يأتي به إلى ندوة دار التعارف من يوم الاحد ويبدأ بقراءته علي قبل مجيء الاخوان ويذكر لي مناسبة كل قصيدة والدواعي التي دعته للنظم وكثيراً ما يحضر الاخوان ونحن نقرأ فيشاركوننا في الاصغاء والاستمتاع ، ويروح الدجيلي يحكي لنا صفحات من الجيل الماضي الذي واكبه ويصحح الكثير من الخطأ الشايع ويستشهد بذلك بشعره وشعر الاخرين ممن ادركهم وعرفهم .

ولقد قرأ علي مرة قطعة جميلة في سيدة انكليزية قال انه تعرف بها في المصح واعجب بها اديبة واسعة الافق واعجبت به هي كشاعر عميق التفكير وتبادلا الرسائل على ما قال واشتدت الألفة حتى نظم فيها المقطوعة الشعرية الجميلة المعروفة ، وقال انها اقترحت عليه ان يترجمها لها إلى الانكليزية بالشعر فلم يجد في نفسه استجابة وكان مير بصري حاضراً في ندوة الهاتف فاقترح عليه ان يقوم بترجمتها إلى الانكليزية شعراً ففعل مير بصري وفي الندوة الثانية من الاسبوع الثاني كانت الترجمة الشعرية قد كملت واحسب انه بعث بها إلى السيدة ، والقصيدة هذه مثبتة في ديوانه المخطوط .

وفي ضمن ما مرّت علي وانا اصغي إلى قصائد ديوانه مقطوعته في مي

زيادة ، ولقد شرحهــا لي في وقته وقص علي قصتها ، وتطرق اليها ذات مرة مير بصري في مقال كتبه بجريدة الايام البغدادية لصاحبها عبد القادر البراك في عرض حديثه عن الآنسة مي وغرامها المزعوم .

واصل الحكاية هو ان مي زيادة قد كتبت في مجلة المقتطف مقالاً سنة ١٩١٩ نفت فيه معرفة العرب بالشعر القصصي الحماسي ، فرد عليها كاظم الدجيلي من بغداد ، وردت عليه هي فكان من المناسب ان يترضاها فارسل لها يقول :

قلبي بكلّ هواي لاسمك ذاكــر
هل أنت شاعرة ؟ فاني شاعــر
يرتاح للذكرى ويطــرب كلمّـــا
وافــاهُ طيف مــن خيالك زائر
يا من تحدّثت الرجـــال بفضلهـــا
وبها النســاء النابغات تفاخــر
لكِ في سويداء الفؤاد وفكرتـــي
وبمقلتي وفميّ محــلّ عامــــر
انيّ امرؤ بالنابغــات متيـــــمّ
وإلى النوابــغ شوقــه متكاثــر
الحــبّ أضنــاه وبرّح قلبــــه
وأمضّ آلامــاً محبّ صابــــر
لم يبــق منــه الشوق الا صورة
يأسى لها لمّا يراهــا الناظــر
واهــاً لذي أدبْ يعيش وحظّه
قطع بــلا وصل وجــدّ عاثــر
ساءت معيشتــه فكــل حياتــه
نفس معذّبــة وطــرف ساهــر

ما عنـــده إلاّ عـــدوّ كاشـــح
او صاحب يخفي العداوة غــادر
دَنِيـان في إضـراره او ثلبـه
هذا يروّحــه وذاك يباكـــر
ما ســرّه منهم عـدو غائــب
الا وأجزنــه صديق حاضـر
لم يــدر أيّهما اشــد نكايـة
وكلاهمـا في الشرّ كلب عـاقر
في كل قلب يا أميمـة نبعـــة
للحب زاهرة وغصـن ناضـر
والحبّ منتجـع الحياة وكلّ ما
أحيا النفوس فذاك حبّ طاهر
والحبّ سلطـان تملّك أهلـــه
خضعت سلاطين لــه وجبـــابر
والحب فلسفــة تعـذّر وصفها
وعن الحقيقة كلّ فهم قاصــر
والحبّ معنى الله او هو ذاتـــه
(طمحت اليـه خواطـر ونواظر)
إني لأحـوي في الفـؤاد محبّـة
لــم تحوهـا للعاشقين ضمائـر
ليتيمـة الشرق المضيّـع حقـــه
دول له تقضي وفيـه تناظـر
في عدلها جور ، وإن حكمت له ،
ومن الغريب يقال : عـدل جائر !

وشكته مي إلى الاب انستاس الكرملي فكتب اليها الدجيلي رسالة مطولة سنة ١٩٢٢ .

وارسلت مي إلى الدجيلي بعد ذلك ببعض كتبها على سبيل الهدية وخطت كلمة الاهداء كما يلي :

« إلى اعدل الظالمين من الشعراء »

واختير الشيخ كاظم الدجيلي استاذاً للعربية بجامعة لندن فمرّ في طريقه بالقاهرة في اول سنة ١٩٢٤ ومكث فيها اياماً ، والتقى هناك بعدد كبير من الادباء ولكنه لم يقابل مي زيادة ، وقد غادر القاهرة دون ان تتسنى له فرصة مقابلتها ، وعاد في هذه السنة ١٩٢٤ إلى إثارة النقاش من جديد حول موضوع الشعر القصصي الذي بدأ مناقشته مع مي سنة ١٩١٩ فكتبت مي تقول :

« لقد عاد الشيخ كاظم الدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى موضوع الشعر القصصي الحماسي ... ناقشني وصمت خمسة اعوام درس خلالها الحقوق — وكان تخرجه من كلية الحقوق سنة ١٩٢٢ على ما اظن — ونفحني بقصيدة نشرها في (الهلال) ودعاني فيها ببعض الاسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة (العناد) عند امرىء بوجه من الوجوه ، وعلى ان يسترضوه بالاوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل ... »

وختمت ردها تقول :

« قيل لي ، يا سيدي الاستاذ : انك رحلت اخيراً إلى انجلترا لتدرس اللغة العربية في جامعة لندن ، وسواء كنت الان في انجلترا ام في العراق فهات يدك اصافحها ..[1] »

* * *

(١) وقد أشار الى ذلك مير بصري في البرج العاجي من جريدة الايام البغدادية

إلى هنا والدجيلي لم يتعرف بعد إلى مي عن كثب ولم يكتب له ان يراها بالرغم من تشوقه الظاهري في شعره وفي رسائله التي لم يحتفظ الدجيلي باصلها ولا يعلم شيء عن مصيرها ومصير المئات من رسائل الادباء اليها وقد عامت منه ان عدد هذه الرسائل التي كتبها الدجيلي إلى مي لم يكن قليلاً .

وفي سنة ١٩٣٠ تم نقل الدجيلي إلى القنصلية العراقية في القاهرة ، وقد لقيتُ – يقول الدجيلي – الشيء الكثير من احتفاف الادباء بي ورعايتهم لي حتى كدت اصبح واحداً منهم لكثرة ما ارتدت من بيوتهم ومجالسهم ، وفي ذات ليلة ونحن في دعوة (استقبال) لاحدى السفارات والبهو غاص بمختلف الطبقات من الدبلوماسيين ورجال العلم والأدب ووجهاء البلد والوزراء أخذ بيدي الدكتور امين معلوف وكان على علم بما كان بيني وبين مي زيادة وعدم رؤية احدنا الآخر وقدمني إلى سيدة حلوة التقاطيع بشوشة الوجه في عينيها الكثير من بريق الذكاء وفي صورتها الكثير من الجاذبية وقال لي :

– أتعرف الآنسة ؟

– قلت كلا

والتفت الدكتور امين بعد ذلك اليها وقال :

– وانت يا سيدتي أسبق لك ان عرفت هذا الرجل ؟

قالت – كلا

فقال لها – كيف لا تعرفينه وهو صديقك وفي عين الوقت خصمك في حكاية الشعر القصصي عند العرب . انه الشيخ كاظم الدجيلي ،

فقالت وهي تبتسم : اذن انت ذلك البغدادي الذي ناظرني وقارعني الحجة وترضاني منذ سنين .

يقول الدجيلي : لقد لقيت من ترحيبها اكثر مما كنت اتوقع وقد دعتني لزيارتها وقالت ان بيتها مفتوح امام امثاله ، (وكان عمر الدجيلي يومذاك ٤٦ سنة وكانت مي تصغره بسنين) .

وقال الدجيلي ــ: واكدت صداقتنا الزيارات المتواصلة التي كنت اقوم بها في مساء كل خميس لبيتها وبحضور والدتها ، ولقد احببت من مي تبسطها وابتعادها عن اي تكلف اعتادت الآنسات والسيدات الالتزام به ليعرف الناس عن طريقه شخصية الآنسة او السيدة، اما مي زيادة فان شخصيتها يفرضها الواقع والادب ، واستطيع ان اقول ــ يقول الدجيلي ــ انها كانت من القلائل الذين يميزون بين النقــد والقذع فهي ناقدة بارعة دون ان يخدش نقدها احداً ، وهي مجاملة للحد الذي تفرضه الانسانية وتدعو اليه الاخلاق دون ان يشوب ذلك شيء من المداهنة .

وقضى الدجيلي نحو سنة في القاهرة ثم انتقل بعد ذلك إلى لندن في سنة ١٩٣١ ليعمل في الممثلية العراقية ، وقد عمل فيها مدة طويلة .

ويقول الدجيلي : وذات يوم دخل علي ــ وانا في الممثلية العراقية بلندن ــ احد الموظفين يستأذن لسيــدة انكليزية طلبت مواجهتي ، فطلبت منه ان يدخلها علي ، وما ان كادت تدخل حتى قمت في وجهها مرحباً لانها لم تكن سيدة انكليزية وانما كانت مي زيادة ، وكانت مفاجأة مدهشة ان اجدها في لندن والاكثر دهشة ان اعرف انها قد قدمت في نفس هذا اليوم وما كادت تضع حقيبتها في النزل الذي اقامت به حتى خرجت تطلبني من مكتبي . !!

وبعد ان شغلنا وقتاً طويلاً بالحديث قالت لي : اعذرني اذا قلت لك اني سائمة ومتعبة وكل رجائي منك ان تأخذني في هذه الليلة إلى مسرح ينفّس كربي او اذا شئت فالى ناد فيه شيء من الهوايات التي تبعث في النفس المتعة ، فقلت

لها سمعاً وطاعة، ولم تدر اني وانا الخبير بكل شيء في لندن لطول اقامتي فيها لم اعرف للان طريق المسرح او الاندية المسلية . لان اغلب وقت فراغي كنت اقضيه مع عدد من اساتذة الجامعات والمستشرقين او في زيارة بعض الشعراء والوزراء المفوضين ، او القيام ببعض الجولات في اطراف لندن وضواحيها .

وخرجنا من الممثلية إلى مطعم رائق كنت اعرفه وتناولنا غداءنا فيه واستعدنا في احاديثنا ذكريات مصر وشخصياتها وما جدّ في عالم الادب بعد خروجي من مصر مما لم اطلع عليه فقد كنت اعرف ان الانسة مي من اكثر المحيطين علماً بالثقافة الحديثة ومـــن اكثر الواقفين على مـــا كان يجدّ في العالم العربي من احداث ذات صلة بالعلم والادب فضلاً عن اتصالها الوثيق بالعالم الخارجي عن طريق الصحف الاجنبية التي كانت تصل اليها من كثير من الاقطار وكثيراً ما كان الادباء يحصلون عليها منها .

وانطلقت بها بعد الغداء إلى نزلها وضربت لها موعداً معيناً من مساء ذلك اليوم لأمر عليها وأصحبها إلى بعض المسارح ، .

وكنت كلما اقتضتني حاجة في لندن الجأ بها إلى شرطة المرور ، وكثيراً ما حلت لي شرطة المرور مشكلات، وازالت من نفسي الحيرة وهدتني إلى ما يجب ان آخذ به من الامور ، لذلك رأيت ان ارجع إلى أحد هؤلاء فاستعين به في معرفة المسرح الذي يجب ان اقصده في هذه الليلة وموقعه في لندن ، وهكذا فعلت ، وكم سرني حين وجدت هذا الشرطي يعدّد لي بعض المسارح ويسمي لي ما يعرف من اسماء الروايات ، ويهديني إلى المسرح الذي يلائمني حين علم قصدي ، وقد خففت في الوقت المعين وابتعت تذكرتين في موقع مناسب من القاعة ثم قصدت الانسة مي فالفيتها بانتظاري فعرضت عليها القيام بتناولي

العشاء قبل الذهاب إلى المسرح فاعتذرت وقالت انها لا تجد ميلاً للطعام في هذه الليلة ،

وكانت ليلة من ابهى الليالي فقد كانت الرواية رائعة تخللتها مواقف مضحكة لحد لا يوصف ، وفي يومها تحسست بلذة لا تعادلها لذة في ارتياد المسارح الانكليزية حتى اصبحت من روادها كلما وسعني ذلك .

ولا اذكر كم كان مكوث الانسة مي بلندن فقد افاض الدجيلي في اخبارها ونحن في ندوة (دار التعارف) من احدى الامسيات ونسيت الشيء الكثير من احاديثه ، وكلما اذكره هو انها لم تمكث طويلاً بلندن وكانت تظللها سحابة من الهم على ما وصف الشيخ كاظم الدجيلي ولعل ذلك كان نتيجة فقدها لامها . وبفقدها فقدت كل شيء في الوجود اذ لم يكن لها اخ ولا اخت ولا من يواسيها غير اقرباء بعيدين عنها اتصالاً وفهماً :

وعند عودة الآنسة مي من لندن كتبت إلى الشيخ كاظم الدجيلي رسالة شكرته فيها على حفاوته بها وختمت رسالتها بقولها :

« اسأل الله ان يوحي إلى شاعرنا الف قصيدة وقصيدة » واجابها الدجيلي بقصيدة منها :

سلام على مي ، سلام على مصر   سلام على صحبي بها ابد الدهر
واني وتهيا مي بمية ، عاجـــز   عن النظم حتى في محاسنها الغر
تطالبني بالشعر مي وتبتغـــي   لشاعرها وحياً من الله بالشعر
ولم تدر اني في حيـــاة بعيـــدة   عن الشعر إذ اني تقدمت في عمري

وكان ذلك آخر العهد بالمناظرات الادبية بين الشاعر العراقي والاديبة

المصرية [1] ، فقد تغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى ببيروت وقد زارها امين الريحاني وكتب عنها فصلاً كان فصل الخطاب فيما وقع من اختلاف بشأن مرضها العصبي ، ولم تعد مي إلى موطنها بمصر حتى استأثرت رحمة الله بروحها وانتهت حياتها على ذلك النحو من الغربة والنهاية المحزنة التي يعرفها الجميع .

* * *

وظللت متعلقاً بالشيخ كاظم في سنينه الاخيرة وظل هو متعلقاً (بدار التعارف) حتى صار لا يكتفي بزيارة الندوة في مساء كل يوم أحد وانما يتصل بي في كثير من اوقات النهار ويسألني عما اذا كان يستطيع ان يجيء لأن الدبلوماسية قد علمته الشيء الكثير من الأتكيت حتى الاتكيت الذي لا لزوم له فأرد عليه قائلاً :

— على الرحب والسعة يا سيدي :

ويجيء عندي ساعة واكثر يلهو بقراءة كتاب اذا وجدني منشغلا والا فالحديث بيننا لا ينقطع ، وقد صار يستصحب في ايامه الاخيرة ديوان شعره في النهار ايضاً ليقرأ علي من قصائده ما فاته ان يقرأ مساء الاحد وليرى ما ينبغي ان يحذف من الديوان وما يثبت من القصائد والأبيات وما يستوجب المناقشة مما ورد في شعره وهي ثقة لا اعرف كيف يستسيغ استاذ لغوي جليل وشاعر كبير ان يضعها في تلميذ مثلي اذا ما قورن بامثاله ؟

وكان الدجيلي مفؤداً وقــد اشتدت عليه ازمات قلبه في السنين الاخيرة حتى لقد كان يسبح في العرق حين يتسلق سلالم (دار التعارف) ولكنه كان يتغلب على ذلك بما عرف به من عزم ، وقد بلغ من العمر ٨٦ سنة ومع ذلك فان

---

(١) وقد تطرق الى ذلك مقال لمير بصري فيجريدة الايام لصاحبها عبد القادر البراك

صافحتك يده احسست بشيء من النشاط الذي لم تحس به في الكهول بل وحتى في الشبان ، وعلى انه لم ينقطع عن مراجعة الاطباء فانه لم يعر الموت شيئاً من الأهمية ولطالما تحدث عن الموت كما نتحدث نحن عن الامور الطبيعية المألوفة ،

وفي سنة ١٩٦٩ كتب له طبيبه من اوروبا بعد اطلاعه على فحوصه الاخيرة بان يعجل في السفراليه، ولكن (الروتين) في تلك الايام ومراجعة المسؤولين وتقدم التقارير الطبية والحصول على التحويل الخارجي قد ضاعف شكواه وزاد من علته حتى قال لي انه ليودّ ان يموت من اعماق قلبه ففي ذلك راحة اكبر مما سيجدها عند طبيبه لو بقي سالماً .

وسافر ولم تنقطع عنا اخباره ، وكم سررت حين علمت بان صحته قد تحسنت بالرغم من وقوع حادثة دعس له بالسيارة لزم على اثرها المستشفى اياماً .

وعند سفري إلى لبنان في شتاء سنة ١٩٧٠ للاشراف على طبع بعض اجزاء موسوعة العتبات المقدسة كانت اخباره قد انقطعت عني وكلما علمته هو انه في انكلترة .

وفي يوم من آذار ٩٧٠ فاجأني الصديق المجاهد محمد علي الطاهر بخبر وفاته ، وكانت اذاعة لندن قد نعته متوفياً في احد المستشفيات في يوم ٢٣ آذار فنقل من هناك إلى العراق ثم إلى النجف ليدفن في التربة التي بدأ حياته العلمية فيهـــا .

صحيح ان للموت رهبة ، وان الرهبة في موت الاصدقاء عندي لنوع من الشلل يصيب الجسم كله . وهزات عنيفة تنتاب القلب حتى تكاد تقلعه من موضعه قلعاً ، ودموع تنصب بدون ارادة ، ونشيج يقطع الانفاس حتى

يتعذر الزفير ، هكذا والله شعرت حين بلغني خبر وفاة هذا الرجل الطيب ، والعالم المتبحر . والشاعر الكبير ، والصديق الوفي الكريم ولم ادر إلى متى ظللت على هذه الحال ولكن ذكراه تعاودني كما تعاودني ذكرى الاصدقاء الاخرين فتلفني موجة من الحزن وانطلق معها إلى حيث لا ادري بسبب تشتت الفكر واضطراب البال .

الدكتور عبد اللطيف حمزه

كيف عرفت

الدكتور عبد اللطيف حمزة

في اواخر العقد الرابع وانا بمكتب جريدة الهاتف في النجف دخل علي شاب في مقتبل العمر : نحيف البنية ، رقيق الحاشية ، ناعم الصوت ، وقدم نفسه لي قائلاً : انه : مشكور الأسدي ، وانه طالب يسعى للالتحاق بجامعة فؤاد الاول التي سميت بعد ذلك بجامعة القاهرة ، وأبدى استعداده لمراسلة جريدة الهاتف بالاخبار الادبية ، فرحّبت بالفكرة ورجوت له التوفيق في حياته الجامعية ، وفي مهمته كمراسل أدبي لجريدتي التي كانت تعنى بالادب والادباء واخبارهم في كل صقع ، واغلب الظن انني كنت في شك من ان يكون طالب في مثل سنه قادراً على ان ينجز مهمة تتطلب منه توغلاً في الاوساط الادبية واحاطة باحوال الادباء ومناهجهم في حياتهم وما هو تحت ايديهم من مشاريع ادبية وافكار ، ولكني – كما انا في كل شيء – اعتمد التجربة قبل البتّ في الامور فقد وكلت الأمر إلى التجربة ، وغادرني (مشكور الاسدي) مسروراً .

ولم ادر كم مرّ على هذه المقابلة حتى أتيح لمشكور الاسدي ان يلتحق بالجامعة طالباً ، ولا كم مرّ من الوقت حتى تلقيت منه اول رسالة ، وكل ما اذكر هو اني فرحت غاية الفرح حين رأيت اشياء كثيرة تدل على ملكة ادبية تبشر بالخير عند هذا الطالب .

ولم يمرّ بعض الوقت حتّى تجاوزت هذه الرسائل حدود الاخبار الادبية إلى ما يسمى (بالريبورتاج) ، واذا بمشكور — هذا يدخل بيوت كبار الادباء ، ويلج مكاتبهم ، فيؤلف (للهاتف) حكاية عن كل اديب ومتفنن ويصور لنا حياته ، وآراءه ، وطبيعة ادبه ، وفنّه ، فننشره في الهاتف ونعلق احياناً على المهم من تلك الصور ، ونستلفت اليها انظار قراء جريدة الهاتف ، وزادت عقيدتنا بمقدرة مشكور الاسدي وملكاته حين رأيناه يحسن الاتصال برجال القمة ، وأئمة الأدب كالدكتور طه حسين ، ومحمود عباس العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وحتّى الكبار من شيوخ الازهر والنابغين من اساتذة الجامعة وطلابها .

وهنالك عنصر آخر دخل حقل الصحافة التي بدأ (مشكور) ممارستها في الهاتف وهو حمل الكتاب المصريين والادباء على ان يخصوا الهاتف بمقالاتهم ويتجاوبوا مع كتاب الهاتف واعضاء اسرته العلمية ، ويسهموا حتّى في الاعداد القصصية الممتازة التي اعتاد الهاتف ان يفتتح بها كل سنة من سنينه الجديدة .

وفي ضمن هذه المقالات التي كان يوافينا بها مشكور من مصر كانت مقالات للدكتو ر عبد اللطيف حمزة فكنا نقرأ فيها شيئاً غير قليل من النضج العلمي والبحث والاستقصاء مكتوباً بلغة غاية في السلاسة مما يفتقر اليها الكثير من الباحثين والعلماء ، وهي ميزة اختص بها الدكتور حمزة في كل ما ألّف وصنف من تواليفه التي تجاوزت اربعين كتاباً ورسالة .

وكانت اولى وسيلة فتحت باب المراسلة بيني وبين الدكتور حمزة بعد مقالاته التي كان يوافي بها الهاتف هي كتابة (ابن المقفع) . هذا الكتاب الذي برهن به على سعة اطلاعه وتجرده عن اية نزعة من نزعات العواطف ونزواتها ، وقد وافته سعة اطلاعه هذه من اجادته خمس لغات كانت الانكليزية والفرنسية في طليعتها ، وقد اخبرني فيما بعد انه يفهم خمس لغات اخرى غير التي كان يجيدها فهماً يبلغ منه البعض حد المطالعة في كتبها ، ثم واتته سعة الاطلاع من كثرة قرائته الكتب وتتبعه البحوث حتّى لقد ضعف بصره وصار يلتجىء إلى

اطباء العيون بين آونة وأخرى لتبديل نظاراته ولمعالجة ما كان يشكو من ضعف ، وكان هؤلاء الاطباء يلزمونه بترك القراءة ولكنه ما كان ليلتزم بذلك ولا مرة واحدة ، والذي اعرفه انا هو ان بيته بمصر الجديدة يتألف من طابقين بالاضافة إلى الطابق الارضي الذي تنحصر فيه غرفة الطعام والمطبخ وسائر المرافق وبهو صغير لمجلس العائلة ، اما الطابق الاول فيتألف من غرفة الاستقبال وصالون البيت وغرف المنام ، واما الطابق الثاني فيكاد ينحصر به وبمكتبته الواسعة التي يقضي كل حياته المنزلية فيها ، اما اذا احتاج إلى المزيد من الكتب والمراجع التي لا يملكها للبحث والتتبع فيكفي ان يتصل (بدار الكتب) ويعلمها بما يحتاج اليه فترسلها هذه إلى بيته محمولة مع موظفي المكتبة بالايدي او بعربة خاصة او بسيارة ثم تستعيدها منه بهذه الطريقة عند الفراغ منها على ما علمت ! !

وبيت الدكتور عبد اللطيف حمزة هذا هو احد البيوت التي بنتها الشركة البلجيكية بمصر الجديدة ثم ملكتها لمستأجريها باقساط حين الغي امتيازها ولولا ذلك لما تم للدكتور حمزة ان يملك غرفة فضلاً عن ان يملك بيتاً وفي موقع كهذا من مصر الجديدة .

اما تجرده عن العاطفة عند البحث والتحقيق فاني اجزم انه وليد نشأة خاصة بدأها في بيت ابويه فتعلم فيها معنى الانسانية وقيمة الخلق الرصين الذي لا يؤمن بشيء غير الحق ، والعدل ، والانصاف ، وكان لهذه النشأة اثرها العميق في جميع مرافق حياته وقد صاغت منه انساناً دمث الاخلاق ، كثير التواضع ، بعيداً عن الغرور والتبجج كما سيبين ذلك من استعراضي لبعض نواحي حياته في هذه الكلمة .

وكتاب (ابن المقفع) الذي وصل الي على سبيل الهدية يعتبر اهم دراسة صدرت حتى الآن عن ابن المقفع حتى اصبح أهم مرجع في العربية عن كليلة ودمنة ونسخها الأثرية القديمة واستعراض ما ترجم منها إلى جميع لغات العالم وأحد الادلة على تجرده من العواطف حين يبحث وحين يكتب . وقد بلغ من اهمية هذا الكتاب الذي كتبه الدكتور حمزة ان اعتبرته الجامعة بمثابة رسالة ماجستير

وان لم يقم بتأليفه بهذه النية ، وانما كان تأليفه هذا بداعي شعوره بالنقص الذي تعانيه المكتبة العربية بسبب فقدان رسالة شاملة عن ابن المقفع وعن كتاب كلية ودمنة ، واذا بالجامعة تقرر عفواً وبدون انتظار منه اعتبار هذا الكتاب بمثابة رسالة ماجستير وتطلب منه ان يعد نفسه رأساً إلى مرحلة الدكتوراه دونما حاجة لاعداد رسالة خاصة للماجستير ، ولو كان قد حصل على الماجستير قبل تأليف هذا الكتاب لما تأخرت الجامعة عن مناقشة (ابن المقفع) ومنحه عليه شهادة الدكتوراه من الدرجة الممتازة التي حصل عليها فيما بعد عن طريق رسالة اخرى .

واستقبلت انا هديته هذه على قدر ما احسست به يومها من التقدير لا سيما وانا اعرف ابن المقفع واعرف كليلة ودمنه معرفة ربمـا لم تكن قليلة ، ولم اكتف بالتعليق على هذا الكتاب في جريدة الهاتف بل كتبت له رسالة ضمنّتها رأيي واعجابي وباركت له هذا النجاح الباهر في عالم البحث والتأليف فكانت هذه الرسالة بمثابة القطر الذي يسبق الغيث المنهمر ، واصبحت هذه الرسالة فاتحة عهد جديد ، وكثر بعدها تبادل الرسائل بيننا ، واذا برسائله تكشف لي عن جوانب تشبه المعجزات في عالم الاخلاق وسمو النفس ، وعلو الكعب في العلم والادب .

ويستشف القارىء هذا الخلق الكريم ، ورفعة النفس التي لم يتحلّ بها الا العلماء الطيبون من احدى رسائله التي يردّ بها عليّ حين كتبت له برأيي في سلسلة كتابه (ادب المقالة الصحفية في مصر) وقد اصبحت سلسلته هذه مرجعاً للصحافة وتاريخها في جميع الجامعات والكليات العربية ، ولا سيما كليات الاداب وقسم الصحافة منها على الاخص وقد تم صدور ثمانية اجزاء منها وينتظر ان يصدر الجزء التاسع قريباً وهو الذي يتناول جريدة (السياسة) ومحمد حسين هيكل وما كان لهذه الجريدة من اتصال بتاريخ مصر والتاريخ العربي كما فعل في الجزء الذي اصدره عن جريدة (البلاغ) وعبد القادر حمزة ومحمود عباس العقاد .

لقد كتب لي عما يتعلق بالجزء الخاص بعبد القادر حمزة والذي كنت قد قصرت رسالتي عليه تقريباً — وحمزة عبد القادر هذا غير حمزة عبد اللطيف اذ لا يمتّ احدهما للاخر بنسب ولا بشيء آخر غير الصحافة والادب — لقد كتب لي يقول :

« خطابك الرقيق وصلني منذ اسبوعين ، واريد ان اصارحك القول بانني لم اسعد بخطاب مثله طول عمري ، ان الناس بخلاء بالثناء او التقدير كما تعلم ، ولكن الله اصطفى من عباده فئة قليلة تجد السعادة كل السعادة في إسعاد الاخرين وتجد من أهون الأمور عليها ان تقول كلمة الحق والتقدير ، وتعمل بقوله تعالى : « ولا تبخسوا الناس اشياءهم » وانت يا سيدي من هذه الفئة ، وليس معنى ذلك انني كنت موفقاً كل التوفيق في كتابي من الجزء الخاص بالمرحوم عبد القادر حمزة ، وليس معنى ذلك انني مستحق لعبارات المدح والتقدير التي تفضلت علي بها ، كلاّ ، ثم كلاّ يا سيدي ولكن معناه شيء واحد هو انني بذلت في ذلك اقصى جهدي ، وكتبت في هذا الكتاب ذوب عقلي وقلبي ، وكنت مع هذا وذاك أزهد الناس في كلمة طيبة تقال عني ، لا لشيء الا لأنني بلوت الناس في هذه الناحية ، وعرفت كثيراً عن الطبيعة البشرية في هذا الباب .

فاذا جاء اديب كبير ، وعالم مدقق ، وصحافي موهوب مثلك وقدم لي هذه الكلمة فان ذلك من نعم الله علي ، وانه ليدلّ على كرم معدنك ، وسماحة نفسك ، وطيب عنصرك ، ورجاحة عقلك ، وكبر قلبك ، وذلك ما ترك في نفسي من الاثر ما يعجز قلمي عن وصفه في هذه اللحظة .

ولولا ان اتهم بالزهو او الغرور او الرغبة في الاعلان عن الكتاب (ادب المقالة الصحفية) لهان علي ان انشر هذا الخطاب الذي تفضلت به عليّ في احد اجزاء هذه السلسلة . وكان من دواعي الفخر الحقيقي ان أجسر على مثل هذا العمل » .

* * *

واستمر يكتب للهاتف بين آونة واجرى مقالات شائقة كثيراً ما كانت مدار تعليقات ونقاش عند اسرة الهاتف القلمية وعند حضار (يوم الهاتف الادبي) الذي كان يعقد في الاسبوع مرة بدار الهاتف منذ اول صدور الهاتف في النجف كذلك استمرت مواصلته برسائله العذبة حتّى لقد اصبح من أعذب أمانيّ ان اراه لأسعد برؤيته ، وصرت أمنيّ نفسي بلقياه تمنّي الواثق من تحقيق هذه الأمنية ذات يوم لا سيما وقد وقع مثل هذا التمني وتحقق مع اصدقاء عرفتهم وهم في الطرف الاخر من الدنيا فكتب لي ان احظى بلقياهم وامتع عيني برؤيتهم وكان من اولئك البعيدين ميخائيل نعيمة ونظير زيتون ، ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) ، ومن القريبين : جورج صيدح ،ووديع فلسطين ، ومحمد علي الطاهر ، وسامي الكيالي وغيرهم ، واحسب انه اي الدكتور حمزة هو الاخر كان في مثل شوقي لمثل هذه اللقيا كما يستبان مما جاء في احدى رسائله اذ يقول :

« ... ثم تحياتي الخاصة للاستاذ مشكور الاسدي فانه – ولن انسى له هذا الجميل – كان ولم يزل همزة الوصل بيننا ، وان جاز لي ان أغار من هذا الصديق فانني اغار منه لانه يسعد برؤيتك دائماً ولم تسعدني الايام برؤيتك إلى الآن ، وعسى ان تمنحني هذه السعادة باذن الله في اقرب الاوقات .. »

* * *

وانتقلت من النجف إلى بغداد ومرّت السنين ونحن على اتصال تام لم يحرم (الهاتف) من ادبه ، ولم يحرمني من عطفه ، وقد تسنّى لي ان اعرفه اكثر من ذي قبل عن طريق الاساتذة المصريين الذين عملوا في العراق ومنهم الدكتور مصطفى حسنين الذي كان يفتخر بانه نال شرف التلمذة على يديه ، ولم يكن الدكتور مصطفى حسنين وحده من تلامذة الدكتور حمزة فقد علمت بان الكثير من هؤلاء الذين استعيرت خدماتهم للتدريس في الكليات العراقية كانوا من تلامذته في الجامعة ومن رواة فضله ، وشاهدي مكانته العلمية التي رشّح بسببها غير مرة لعمادة كلية الاداب فاعتذر مكتفياً برياسة القسم خشية

ان تشغله ادارة الكلية وشؤونها عن التتبع والدراسة والتوجيه .

وجاء صيف سنة ١٩٦٤ وحان الوقت الذي اكتحلت فيه عيني برؤية القاهرة ، واتصلت ببيت الدكتور حمزة في اول يوم وصولي واذابه نفسه على التلفون ، وكانت مفاجأة سرور متبادل . وبعد ساعة ليس اكثر كان الدكتور حمزة عندي في الاوتيل ، فكان هذا اول ملتقانا عن كثب .

وهنا بدأ يلحّ لينقلني من الاوتيل إلى بيته فأمانع انا ويصرّ هو . ويحبّب لي النزول في بيته قائلاً : انني سأظفر عنده بحرية لن اظفر بمثلها في اي فندق من فنادق القاهرة ، ولم اتخلصّ من الحاحه الا بشق الانفس كما يقولون .

وجاءني في اليوم الثاني بنفس النغمة وباصرار أشد وأشدّ ، ولم يتركني الا بعد ان يئس وبعد ان أخذ علي عهداً بان لا اترك فرصة تمر دون ان اعرّج فيها على بيته واتناول عنده الغداء أو العشاء ، وهكذا كان ، وهناك تعرفت با بنته الاديبة القصاصة جيلان حمزة التي طبعت لها عدة قصص ناجحة اما السيدة حرمه فلم تكن يومذاك في القاهرة وانما كانت تقضي الصيف مع ابنتيها الاخريين : كريمان ووجدان في احد المصايف على البحر الاحمر .

واستضافتني محطة اذاعـــة القاهرة واعتبرتني متفضّلة ضيف شرف فكان الدكتور حمزة ، والدكتور بدوي طبانه ، والدكتور مصطفى حسنين من المشاركين في هذه الندوة لتعريفي إلى جمهور المستمعين ، وقد أسمعني هو والدكتور طبانة من الاطراء عن طريق المذياع ما لا استحقه .

ولقد أسَرَني الدكتور حمزة بكرمه ولطفه وعواطفه كما أسرني من قبل بعلمه وادبه وسعة اطلاعه ، ثم لم يقتصر كرمه على عدد الدعوات التي تفضل بها علي بل صار همزة وصل بيني وبين طائفة من الادباء الذين لم يسبق لي الشرف بلقائهم من قبل كالاستاذ عزيز اباظة والاستاذ علي الجندي ، والاستاذ محمود غنيم والاستاذ عامر محمد البحيري وغيرهم .

وحار الرجل فيما يعمل بعد ذلك لتكريمي حتى جاءني ذات يوم بسلسلة

ساعة للمعصم، وقنينة عطر فاخر، ومجموعة ثمينة مما صدر له من المؤلفات التي يعتمدها اليوم طلاب الجامعات العربية كمصادر لدراساتهم في الصحافة والإعلام والتاريخ وقدمها لي على سبيل الهدية وهو يعتذر !!

وفي تلك الليلة وانا على مائدة العشاء عنده قرأت عليه ابياتاً متواضعة مرّت بخاطري عن السلسلة والعطر الذي تفضل به عليّ، وقد تسرب خبر الابيات إلى بغداد فنشرت جريدة (كل شي) البغدادية بتاريخ ١٩٦٤/٧/٢٧ هذه الابيات وانا لم ازل بعد في القاهرة وعلقت عليها بما يلي :

« الدكتور عبد اللطيف حمزة من كبار اساتذة جامعة القاهرة وهو الرئيس المشرف على دراسة الصحافة ، ويعتبر من العلماء الذين نذروا أنفسهم للبحث والتأليف والعلم المثمر ، وقد صدرت له عدة كتب هي أهم مرجع عربي على الاطلاق في مواضيعها ، وان تصديه لاصدار سلسلة من الكتب التي تخص الصحافة — ولا سيما ادب المقالة الصحفية بمصر — ليعتبر فتحاً كبيراً في عالم البحث والتأليف لم يسبقه احد من العلماء إلى وضع امثاله ، وفوق هذا كله فان الدكتور حمزة مثل من أعلى الأمثلة للاخلاق الكريمة ، والسخاء العربي ، والطيبة التي لا حدود لها .

« وكانت له بجعفر الخليلي اتصالات وثيقة من ايام جريدة (الهاتف) بل ان له على الخليلي افضالاً ادبية روحية — على ما يقول الخليلي وينوّه به في كل مناسبة — ومع ذلك فان الدكتور حمزة لم يكتف بهذا ولم يكتف بما قام به من مآدب ودعوات متكررة لصديقه الخليلي في القاهرة بل قام باهداء سلسلة ساعة ثمينة وزجاجة عطر فاخر له على سبيل التذكار ، فاوحى ذلك للخليلي هذه الابيات — والتي ظفرت بها جريدة (كل شيء) شاكرة للوسيط الفاضل الذي اوصل خبر هذا الفضل للجريدة » اما الابيات فهذه هي :

انت قد طوّقتنـــي بالفضل في
ما مضى ، قل لي : فما ذي السلسلة ؟

انت قـــد عطّرت انفـــاسي فما
بعد ؟ ذا العطر ؟ وألوان الدّلّه ؟
يا (لطيفاً) عمّ لطفاً كـــلّ مـــن
لم يَسَلْهُ حاجةً أم سألـــــه
وصديقـــاً فضلـــه يخجلنـــــي
من معيني أن أردّ الفضل لـــــه
يا أبا (جيلان) كم حمّلتنـــــي
من جميل ضقت عـــن ان احملـــه
زادك الله عُلاً في منـــــــزل
كلّت الأنجـــم عن ان تصلـــه

* * *

وفي القاهرة علمت ان الرجل يعاني ضيقاً مادّياً لا يجوز لعالم مثله وفي مثل هذا العصر ان يعانيه ، فاقترحت عليه ان يتقدم بطلب للالتحاق بجامعة بغداد على سبيل الاستعارة ولو لمدة محدودة وبذلك يستطيع ان يتلافى هذا الجانب ويوفر له مبلغاً يستعين به على الايام فقال لي : انه اقتراح وجيه ولكن هناك وفي جامعة بغداد يتولى الدكتور عبد القادر حسنين الاشراف على قسم الصحافة بكلية الاداب وهو من تلاميذي وممن بتتُّ انا في منحه الدكتوراه، ثم اني انا الذي رشحته للانتداب لجامعة بغداد حين طلبت جامعة بغداد من جامعة القاهرة ترشيح من يقع عليه الاختيار لتدريس الإعلام والصحافة، وانا إن تقدمت بطلب العمل بجامعة بغداد فاني اخشى ان لا يتجدد العقد في السنة المقبلة مع الدكتور عبد القادر حسنين واكون انا السبب في ذلك ، ولهذا صرف النظر بالكلية عن مثل هذه الرغبة ! !

وكان المستشار الثقافي العراقي في القاهرة يومذاك الدكتور عبد الجبار المطلبي فعرضتُ أنا الفكرة عليه ووقفته على رأي الدكتور حمزه فقال : ان انتداب الدكتور حمزة يعد كسباً كبيراً لجامعة بغداد ، وان انتدابه لا يعارض

بأي وجه وجود الدكتور عبد القادر حسنين بالنظر لحاجة هذا القسم من الكلية لغير واحد من اهل الخبرة والاختصاص على ما يعلم ، وقال انما المشكلة كامنة في جامعة القاهرة التي ستعارض حتماً هذا الانتداب فقد سبق لي مثل هذا الطلب للدكتور حمزة على غير علم منه فمانع رئيس جامعة القاهرة وعميد كلية الأداب ولم تفد معهما وساطة وزير التربية المصرية الذي كان من رأيه وجوب تلبية طلبنا ، والا – قال الدكتور المطلبي – فليس هنالك ما يعارض عمل الدكتور عبد القادر حسنين في جامعة بغداد لو تم انتداب الدكتور حمزة .

وأبلغت الدكتور حمزة بهذا الرأي ولكي يطمئن صحبته إلى مكتب الدكتور المطلبي في السفارة العراقية وسمع هنالك بنفسه كلام المستشار وقال :

أحسب ان أمر الجامعة هنا هيّن لأن الذي يهم جامعة القاهرة هو إشرافي على منح درجات الماجستير والدكتوراه وانا استطيع ان اضمن لجامعة القاهرة مثل هذا الاشراف وانا ببغداد فيكون بمستطاعي الجمع بين المهمتين : القيام بالقاء المحاضرات ببغداد ، والقيام بالاشراف وحضور المناقشة لطلاب الماجستير والدكتوراه في القاهرة ، والمهم عندي هو الاطمئنان من انّي لن اكون السبب في الاخلال بعقد الدكتور حسنين وانتدابي بدلاً عنه .

وتعجبنا أنا ومن كان معي من هذا الخلق الرفيع الذي جبل عليه هذا الرجل ، فقد كان رجلا تقياً ، مؤمناً ، صادق اللهجة ، محباً للخير ، ونموذجاً من النماذج التي عز وجود أمثالها في هذا اليوم .

واستمهلنا أياماً ريثما يعرض رأيه على عميد كلية الاداب وعلى رئيس الجامعة واستطاع أن يكسب موافقة الجامعة بعد أن عرض عليها ما هو فيه من حاجة مادية ماسة وتعهده للجامعة بأن يؤدي المهتمين دون خلل ، وتوليت أنا كتابة الطلب وقد راعيت في صيغته مزاج الدكتور حمزة وإباءه وغيرته على كرامته فلم أكتب فيه ما يزيد على أنه يرى في نفسه الاستعداد لخدمة الثقافة بجامعة بغداد اذا كانت هذه الجامعة ترى من المفيد لها انتدابه فيها .

وأذكر أنه أخذ القلم مني وغيّر وبدّل بعض الكلمات ليجعل هذا الطلب أكثر ملائمة لكرامته وأكثر بعداً عن اظهار الاحتياج الى العمل ، وكنت أنا قد احتطت لذلك كما لو كنت أنا المتقدم بالطلب ولكنه راح يشدد في ذلك أكثر ، وعلق الدكتور المطلبي بكل ما يعرف عن الدكتور حمزة على الطلب وحوّله الى جامعة بغداد .

وعندما عدت الى بغداد لاحقت هذا الطلب لدى عميد كلية الاداب ولدى رئيس الجامعة حتّى صدرت الموافقة بانتدابه رئيساً لقسم الصحافة والاعلام بكلية الآداب .

وهنا تعرض لنا تجربة اخلاقية من صنف آخر هي والتجربة التي حصلنا عليها — من اقتناع الدكتور حمزة عن قبول الانتداب بجامعة بغداد الا بعد حصول الاطمئنان من أن هذا القبول لن يعارض وجود عبد القادر حسنين ببغداد — على طرفي نقيض ، فقد ثقل على عبد القادر حسنين أن يتسلم الدكتور حمزة رياسة القسم ويصبح هو مجرد استاذ محاضر بعد أن كان رئيس قسم في هذا الفرع من الكلية ، فالتجأ الى الاساليب التي يلتجيء اليها الادنياء والسفلة ، ونسي أنه كان يوماً من تلامذة الدكتور حمزة، ونسي انه قد حصل على درجة الدكتوراه على يديه وبمساعدته ، ونسي أن الدكتور حمزة هو الذي رشّحه للعمل بجامعة بغداد ، لقد نسي حسنين كل ذلك وراح يلفّق تقريراً سريّاً ضمّنه الكثير من الافتراءات والتهم السياسية التي ألصقها بالدكتور حمزة وبعث بهذا التقرير الى (المباحث العامة) بالقاهرة لتتخذ المباحث التدابير التي من شأنها ليس الحيلولة دون انتداب الدكتور حمزة لجامعة بغداد فحسب وانما القيام بالتنكيل به ، والضغط على حريته ! ! والدكتور حمزة كما يعرفه الجميع أبعد الناس عن السياسة والسياسيين فلا يعرف شيئاً في حياته غير العلم والبحث وغير تاريخ السياسة اذا كان لا بد لنا أن نلصق به شيئاً من اسم السياسة ، لذلك تلقت المباحث هذا التقرير السري من حسنين بشيء كثير من الدهشة ، وقد شاع يومها أن الدكتور حسنين كان يعمل في المباحث منذ زمن والافباي حتّى يتقدم بتقرير كهذا الى المباحث العامة ؟

وكيفما كان الأمر فلم يحسّ الدكتور حمزة الا والمباحث تستدعيه للتحقيق معه وهنالك تطلعه على ما جاء في تقرير الدكتور حسنين ليجيب على ما ورد فيه من التهم ، وكان هناك الف دليل ودليل لتزكية الدكتور حمزة فكذب التقرير من قبل المباحث بشيء كثير من المرارة والأسف ، وتقدم المحقق السري بالاعتذار الى الدكتور حمزة ، وصدرت أوامر المباحث باستدعاء الدكتور حسنين من بغداد ومناقشته فيما كتب ولم يعد بعد ذلك الى العراق ولم أعرف عن مصيره شيئاً .

ونستطيع أن نلم بعض الالمام بخلق الدكتور حمزة وما جبلت عليه نفسه من الطيبة من بعض ما ورد في احدى رسائله عن الدكتور عبد القادر حسنين اذ كتب لي يقول :

«... بلغني في هذا الاسبوع أن الدكتور حسانين عبد القادر كتب مذكرتين احداهما الى عميد كلية الاداب بجامعة القاهرة ، والاخرى الى رياسة الجمهورية العربية المتحدة وفيها ما يسيء الى شخصي من نواح عدة .

« أما المذكرة التي وصلت الى العميد فقد سألته عنها فقال : انه قرأها ، واستاء استياءً شديداً منها ولم يجد خيراً من أن يمزقها فور الفراغ من قراءتها ، ولست أدري هل قال السيد العميد ذلك حتى لا أطالبه بالاطلاع عليها أم قال ذلك لسبب آخـــر .

« وأما المذكرة الثانية فقد نتج عنها : أن رياسة الجمهورية بعثت برجل من رجال المخابرات الى قسم الصحافة عندنا بكلية الاداب ، وقابلني هذا الشخص وسألني عن الدكتور حسانين فقلت له : انه وبقية زملائه الاساتذة في القسم جميعاً أبنائي ! ! ولا أقول فيهم الا خيراً (كذا) ولا أفرّط في أحد منهم الا مضطراً بسبب وزير أو نائب رئيس جمهورية بطلبه مني لفائدة قريبة (كذا) ثم سأل المخبر بقية الزملاء في قسم الصحافة واحداً بعد واحد وبطريقة سرية ، وكلهم أجابوه اجابات سيئة في حق زميلهم ، وشهدوا شهادات خطيرة فيما يتصل بعمله وخلقه ، وحين علمت من جانبي بذلك لم أدخر وسعاً في لومهم على ما أجمعوا

عليه ، فكان جوابهم جميعاً : سترى في المستقبل القريب اننا على حق في هذا الذي لمتنا فيه .

« وحرت في أمري كثيراً منذ علمت بهذه الاخبار . وقلت في نفسي : اذا كانت سمعتي ستتعرض لهذا التلف العظيم بسبب رغبة هذا المسكين في البقـــاء بالعراق فلأنصرف أنا عن الذهاب الى العراق ، على رغم أن صحتي وحالتي الاجتماعية تلحّان علي الى اليوم في تنفيذ ما اتفقت عليه معكم في هذا الشأن اذا كان في العمر بقية تسمح بتحقيق هذه الرغبة لصالحي وصالح العراق الشقيق في نفس الوقت .

« ربما لا تعلم كيف ضحيت في سبيل زملائي وأبنائي في قسم الصحافة ، وكيف آثرتهم على نفسي دائماً في سبيل غاية واحدة هي المحافظة على قسم الصحافة ، وربما لا تعلم كيف اصطلحت ظروف كثيرة بعضها يتصل بالجامعة ، وبعضها يتصل بالسياسة ، وبعضها يتصل بالصحف القائمة في ذلك الوقت — على الحيلولة دون قيام هذا القسم لولا أن الله تعالى شأنه شاء له الوجود ، وأبى الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

« وأنا أذكر جيداً كيف تألّفني الدكتور حسنين هذا حتى تخرّج من معهد الصحافة وحتى نال على يدي (وآسف جداً لاستخدام لفظة يدي) درجة الدكتوراه في الصحافة ، وحتى حصل على وظيفة مدرس بقسم الصحافة ، وحتى حصل على وظيفة استاذ مساعد ، وحتى ظفر بانتدابه للعراق في نهاية الأمر ، ولم أكن أتوقع مطلقاً أن أقابل منه بهذه النتيجة التي صدمتني ، وآذتني ، وهالتني ، واظلمت الدنيا في وجهي ، وان كنت أول من يثق في صدق الحديث « إتق شر من أحسنت اليه »

« ومهما يكن من أمر فإن ما خفّف عني وقع هذا القدر أن مذكرات (الزميل الكريم) — يعني به الدكتور حسنين — كان لها أسوأ الأثر في كليته أولاً ، وفي الرياسة ثانياً — يعني رياسة الجمهورية — حتى لقد أصبحت أنا وأصبح هو

حديث الناس الذين يعرفون هذا الزميل معرفة جيدة ، أما أنا فقد أصبحت موضعاً لرثائهم وما أحب لنفسي مطلقاً أن أكون موضعاً لرثاء المجتمع على هذا النحو ...»

* * * *

وفي اليوم التالي من استجوابه من لدن رجال المباحث خفّ الدكتور عبد اللطيف الى السفارة العراقية واعتذر الى المستشار الثقافي عن السفر الى العراق ، ولكن الدكتور المطلبي أقنعه بوجوب التريث بعد أن اطلع على السبب ولم يقبل له اعتذاراً ومع ذلك فقد تأخر التحاقه بجامعة بغداد شهوراً ، وحين قدم بغداد كانت قد سبقته قصته مع الدكتور عبد القادر حسنين حتى صارت حديث المجالس .

وقام أنور شاؤول بثبت موجز لترجمة الدكتور عبد اللطيف هذا نصهـــا :

« ولد بقرية من قرى بني سويف احدى محافظات الجمهورية العربية المتحدة وذلك في ١٩٠٧/٧/٧ وأمضى مرحلة التعليم الابتدائي بمدينة بور سعيد ، ومنها انتقل الى القاهرة حيث قضى مرحلة التعليم الثانوي ثم التحق بمدرسة المعلمين ومنها انتقل فجأة الى كلية الاداب من (جامعة القاهرة) وحصل منها على درجة الليسانس من قسم اللغة العربية ، وكان ترتيبه الاول ، ثم التحق بمعهد التربية العالي بالقاهرة وحصل منه على شهادة الدبلوم ، وبها عيّن بمدرسة نموذجية الحقت بمعهد التربية ، وكان ذلك في فبراير (شباط) سنة ١٩٣٤ ثم أوفده المعهد في بعثة علمية قصيرة الى انكلترة ولكنه لم يعد من البعثة ليعمل بمعهد التربية وانما عاد منها ليشغل وظيفة معيد بقسم اللغة العربية بدعوة من الدكتور طه حسين رئيس هذا القسم في ذلك الوقت وكان ذلك عام ١٩٣٦ .

ومنذ سنة ١٩٤٠ — وهي السنة التي بدأت فيها الدراسة بمعهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة القاهرة — كان يقوم بالتدريس في كل قسم من قسم اللغـــة العربية ومعهد الصحافة .

ثم أعلنت جامعة القاهرة عن كرسي (الفن الصحفي) حوالي سنة ١٩٥٢ فتقدم لشغل هذا الكرسي سبعة عشر عالماً من علماء الصحافة في كل من دول اوروبا

وأميركا ، وفاز عليهم الدكتور حمزة جميعاً بعد معركة دامت أكثر من عامين، ومن أجل ذلك انقسمت مؤلفات الدكتور عبد اللطيف حمزة وبحوثه قسمين .

أولهما ــ قسم البحوث الادبية وتبلغ عشرين بحثاً ، ومن أشهرها لدى القراء كتاب (ابن المقفع) وكتاب (الحركة الفكرية في مصر) وكتاب (أدب الحروب الصليبية) وكتاب (الفاشوش في حكم قراقوش) والأخير بحث علمي في تاريخ السخرية في الادب العربي والصحافة المصرية .

وثانيهما ــ قسم البحوث الصحفية ــ وتبلغ هي الأخرى عشرين بحثاً ــ ومن أشهرها كذلك لدى القراء كتاب (المدخل في فن التحرير الصحفي) وكتاب (مستقبل الصحافة) وكتاب (أزمة الضمير الصحفي) وكتاب (أدب المقالة الصحفية في مصر) والأخير يتألف من ثماني مجلدات الى الان وتاسعتها لم تزل رهن الطبع ــ وفي مكتبة جعفر الخليلي رف خاص بمؤلفات الدكتور حمزة ــ

والدكتور عبد اللطيف حمزة رئيس (لجنة الجامعيين لنشر العلم) منذ تأسست بالقاهرة في عام ١٩٣٦ وهي اللجنة التي قامت بترجمة بعض الكتب المهمة ، ومن أشهرها كتاب : (تراث الاسلام) وضعته صفوة من المستشرقين من بينهم الاستاذ (جب) وهو صاحب الفصل القيّم عن (الادب) وهو الفصل الذي قام بترجمته الى العربية الدكتور حمزة ترجمة دقيقة ومزودة بالشروح الكثيرة النافعة .

والدكتور عبد اللطيف حمزة كذلك هو رئيس (هيئة خريجي الصحافة من جامعة القاهرة) منذ تأسست في الخمسينات من هذا القرن ، ولهذه الهيئة نشاط في متابعة النشاط العلمي والفني في عالم الصحافة ، ولها الفضل في تشجيع الخريجين على القيام بالنهضة الصحفية التي تتطلبها البلاد العربية في الوقت الحاضر .

والدكتور حمزة مدير معهد التحرير والترجمة والصحافة بالقاهرة خلفاً للدكتور محمود عزمي المندوب السابق لمصر في الامم المتحدة، وعندما تم انشاء قسم الصحافة ليكون بديلاً عن معهد الصحافة أصبح الدكتور حمزة رئيساً لهذا

القسم وما زال رئيساً له الى اليوم ، وفي هذا العام الجامعي ١٩٦٥ – ١٩٦٦ انتدب للعمل بجامعة بغداد وهو الان يشغل وظيفة رئيس قسم الصحافة في كلية الآداب ».

وما كاد يتولى رياسة قسم الصحافة ببغداد حتى أحدث انقلاباً أشعر طلابه بالتغيير الكبير الطارىء على مفاهيم الصحافة والاعلام و (الدعاية) في نفوسهم ، وحين رأى أن الروتين والبطء في البتّ بالأمور مما يعرقل الوصول الى الهدف قام بنفسه يذلل هذه الصعاب ويجنّب كلية الاداب والجامعة مشقة مراجعة الجهات المسؤولة ولقد قابل وزير الثقافة والارشاد غير مرّة ورفع اليه تقريراً مفصلاً يطلب فيه توجيه عناية خاصة بهذا القسم بالنظر لاحتياج البلد الى خريجيه في جهات واسعة كالملحقيات الصحافية في السفارات العراقية وكالعمل في وكالة الانباء ، والاشتغال بالصحافة ، والعمل بالراديو والتلفزيون وسائر مهمات الاذاعة ، وحتى في نفس مكاتب وزارة الارشاد والثقافة ، ولم يزل يلح حتى استطاع أن يوجه أنظار المسؤولين الى هذا القسم ، ثم اتفق بعد ذلك مع جريدة (الجمهورية) وتقرر أن تقبل هذه الجريدة عشرة طلاب من الصف المنتهي للتدريب على العمل الصحافي لمدة معينة يحل بعدهم عشرة طلاب آخرين فلا تنتهي السنة الا ويكون هؤلاء الطلاب قد اجتازوا مرحلة عملية في الصحافة ، وهكذا تم اتفاقه مع (وكالة الانباء) وبعض أقسام الاذاعة ، على هذا النحو .

ثم قام بالقاء المحاضرات العامة عن الصحافة والاعلام ، وحضر ندوات خاصة أقيمت له في التلفزيون شارحاً مهمة الاعلان والخبر في مختلف صوره ، واقتصرت احدى ندواته ذات ليلة على الاعلام العربي والاعلام الاسرائيلي مشيراً إلى ما تلتزم به اسرائيل من قواعده العلمية وما يغفله الاعلام العربي من هذه القواعد ، وكم كان يدعو الى علم الاحصاء ويدخل موضوعه في كل موضوع حاضر به وكتبه للصحف ، فقد كتب للصحف عدة مقالات كان يهدف بها الى تعميم فكرة الاعلام وتنسيق الصحافة وتوجيهها ، وهو يرى – والحق أن ذلك هو الصحيح – أن الاعتماد في النهضة بجميع وجوهها الشاملة للصحة والاقتصاد والتعليم انما يجب أن تكون ركيزته الاحصاء ، فعن طريق الاحصاء نعرف ما ينقصنا وما يجب أن

نتلافاه ، وكان يقول ان الاهتمام بالاحصاء في العراق لم يأخذ نصيبه ولا بعض نصيبه ، وبشر بالكثير من الأمور ، ونبّه الى الكثير من الوسائل التي كان يجب أن يأخذ العراق بها ليضمن لنفسه النجاح المطلوب .

ولم تقتصر خدماته على ما مر وانما سعى لاخراج عدة كتب ألّفها في العراق ووضعها كسلالم يصعد طالب الصحافة عن طريقها الى القمة ، وقد ساعدت جامعة بغداد في طبعها ككتاب (الاعلام والدعاية) وكتاب (الاعلام له تاريخه ومذاهبه) و (كقصة الصحافة العربية) و (أزمة الضمير الصحفي) و (المدخل في التحرير الصحفي) الى عشرات من الكتب الأخرى التي كان قد ألفها بمصر وأعاد طبع بعضها في العراق ، ومن أهم تاليفه في موضوع الصحافة سلسلة (أدب المقالة الصحفية بمصر) والذي أنهى منها طبع ثماني مجلدات وأتم تأليف جزئين آخرين هما الآن في طريقهما الى المطبعة ، وقد خص الجزء التاسع بجريدة (السياسة) وكتابها وتاريخها وأهدافها وعلى رأسها رئيس تحريرها الدكتور محمد حسنين هيكل ، وتعتبر هذه السلسلة أهم مرجع عربي في تاريخ الصحافة العربية عامة والمصرية خاصة ، وقد وضع كل تلك الكتب — الخاصة بالصحافة سواء التي ألّفها بمصر أو التي ألّفها في العراق والتي قامت جامعة بغداد بطبعها — تحت متناول جميع طلاب الصحافة ، فازدهر قسم الصحافة من كلية الآداب وانتعش بالدم الجديد الذي دخل عروقه ، وصار المؤمل أن تعنى الحكومة بطلابه في جميع مؤسساتها المتجانسة مع مواهب الخريجين من هذا القسم .

* * * *

ونزل الدكتور حمزة في بيت أم جورج ببغداد ، وهو بيت يقع بالقرب من مكتبي (دار التعارف) وكان من أحب الأشياء اليه أن يكون قريباً مني ، وكنت أراه في أغلب الايام ، بل كنت أنتظره لنذهب الى تناول الغداء أو العشاء معاً في بيتنا حتى لقد كان يسألني أهل بيتي في كثير من الاحيان عن الاسباب التي جعلتنا لم نر الدكتور حمزة منذ أسبوع اذا ما تغيب اسبوعاً أو أقل من ذلك ، على أننا كنا نزوره عند أم جورج اذا استبطأناه حتى لقد صار واحداً منا .

ولقد أشار مرة في مقال نشره بجريدة (كل شيء) بتاريخ ٩٦٦/١/٣ الى مثل هذه العلاقة فقال في صدر المقال ما يلي :

« منذ أيام قليلة شعرت باشتياق عجيب لرؤية صديقي الشاعر الاديب الاستاذ جعفر الخليلي ، ومن عادتي اني اذا انتابني مثل هذا الشعور فأما ذهبت الى الصديق الذي حرّك في قلبي مثل هذا الشوق على غير موعد، واما أدرت بصري فيما حولي من الكتب ، فاذا وجدت من بينها كتاباً لهذا الصديق خطفته بلهفة شديدة ثم جلست أقرأ فيه على مهل ، وأحسست في أثناء ذلك بأنني انما قضيت كل هذا الوقت في رحاب صديقي هذا وحسن ضيافته وصدق الشاعر الذي يقول :

أعزّ مكان في الدني ظهر سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

وصدق الشاعر الاخر الذي يقول ايضا :

ومـــا بقيت من اللذات الا ... محادثة الرجـــال ذوي العقول

نعم اشتقت الى رؤية الاستاذ الخليلي ومكتبه بدار التعارف وهو على بعد خطوات من المنزل الذي أسكنه ... الخ »

ولقد ساعد هذا القرب في السكن في كثرة التقائنا واتصالاتنا فزاد فهمي له كإنسان من أكثر من رأيت بين من عرفت من العلماء إنسانية ، وطيباً ، ومحبة للناس ، وعلى اني عرفت عدداً غير قليل من الحريصين كل الحرص على تأديـــة الواجب ولكنني قلما رأيت نظير الدكتور حمزة التزاماً بتأدية الواجب ، والفناء في عمله ، وتقديس الانظمة والقوانين ومراعاة حقوق الناس .

قص علينا ذات ليلة الدكتور مصطفى محمد حسنين ونحن جمع من الاصدقاء سامرين في بيتنا وقد عرضت سيرة الدكتور حمزة فكان الدكتور حمزة يذوب خجلاً لسماع مديحه مرويّا على ألسنة الاصدقاء ، لقد قص علينا الدكتور

حسنين مثلا من أمثلة تقديس الأنظمة والقوانين لدى الدكتور حمزة قال: كنت طالباً ضمن الطلاب الذين زاروا لبنان في فرقة من الكشافة المصرية تحت اشراف استاذنا الدكتور عبد اللطيف حمزة فلم يدعنا نخيّم في الارض الا بعد أن آمن بان هذه البقعة التي نخيّم بها من (صوفر) لا تخص احداً واذا كانت تخص أحداً فيجب أن يكون نزولنا فيها برضى ورغبة من صاحبها ، ثم الاطمينان الكامل بأننا في مكان لا تسبب أصواتنا ازعاجاً للمارين أو القريبين من مخيمنا الى غير ذلك من الامور التي قد لا يلاحظها الاخرون حتّى أطيب الطيبين من الناس .

وحين أتممنا المدة – يقول الدكتور حسنين – وحاولنا النزول الى بيروت للابتضاع جمعنا أمام مخيمه والقى علينا نصيحة مضمونها وجوب مراعاة الصدق عند مرورنا بكمرك الاسكندرية في أثناء عودتنا لمصر وعدم اخفاء أي شيء خاضع للرسوم الكمركية عن رجال الكمرك وموظفيه ! !

يقول الدكتور حسنين : وكنا شباناً يومذاك، والشبان أكثر من يركبون رؤوسهم على حد تعبير الناس من الطبقات ، وكان رجال الكمرك لا يخلون من الصرامة والشدة ، وكنت أنا – ويغفر لي شبابي – من أكثر الزملاء جرأة ، فجمعت الرفاق وقلت لهم : ليشتر كل واحد منكم ما يريد دون الاهتمام بموعظة الدكتور حمزة ولنلفّ هذه المشتريات والبضائع في خيمنا ونطويها فاذا وصلنا الكمرك القينا بحقائبنا في بهو الكمرك بعد أن نكون قد أخليناها من كل شيء غير البستنا وأمتعتنا الخاصة التي لا تخضع للرسوم الكمركية وحملنا كل خيمة مطوية على أكتاف أربعة من الكشافة اثنين منهم في المقدمة واثنين في المؤخرة كما هي العادة وتركنا الحقائب للتفتيش وخرجنا في صفوف كأننا لم نحمل الا الخيم والا أدوات الكشافة ، وعلي أنا – يقول الدكتور حسنين – أن أقودكم هناك .

وفي الكمرك ، كان كل شي قد تم وفق الخطة وقد تقدمت أنا ومن خلفي

هذه الصفوف من الكشافة وهم يحملون الخيم وقد لفّت على البضائع لفاً محكماً وأنا أصرخ بهم : يمين شمال ، شمال يمين ، يمين شمال ، شمال يمين ، وهكذا حتّى اذا خرجنا من الكمرك وفتش الموظفون حقائبنا الّتي تركناها عندهم وتقدم منا الدكتور حمزة شاكراً لنا التزامنا بالنظام وتمسكنا بالقانون وبارك لنا ودعا لكل منا بالخير ... ! !

* * * *

في بيت ناجي جواد ـ من اليمين : علي الفراتي ، مجيد حمد ، عبد القادر البراك ، الدكتور عبد اللطيف حمـزة ، (المؤلف) نزار الزين ، الدكتـور عبد الهادي التازي سفير المغرب ، عبد المنعم الجادر ، ناجي جواد ، فخـري جواد ، عبد الرزاق الحسني ، وحيد الدين بهاء الدين ٠

وتعلق الدكتور حمزة بندوة (دار التعارف) ومن طريق (دار التعارف) تم اتصاله بجميع أصدقاء الدار ومعارفها من الادباء ، وحملة الاقلام ، والعلماء ، فضلاً عن اتصالاته الواسعة الشخصية بأساتذة الجامعة ، وأعضاء المجمع العلمي ببغدا وصار يدعى مع هؤلاء ومع أصدقائنا من حضار ندوة دار التعارف الى بيوتهم ويحيي معهم ومعنا ليـالي الشتاء متناظرين ، ومتبارين بالشعر ومتفاكهين بالنكت والنوادر ، وحكايات التجارب التي مرت بكل واحد منهم أو مرت بالآخرين وقد لذّت لنا مشاركة الدكتور حمزة في ندواتنا وولائمنا كما لذّت له هـذه المشاركة وانطبعت في ذهنه صور عن ندوة (دار التعارف) ومجالس بغداد قاطبة عبّر عنها في عدد من المقالات التي كتبها في امهات الصحف البغدادية ، ولم تجر معه مقابلة صحافية من قبل مندوبي الصحف – وكثيراً ما كانت تجري هذه المقابلات – الا وكان يشير الى ما كان يستلفت نظره من الامور التي تخص أشياء أكثر من حياة الجامعة والمحاضرات مما يكمن في حياة بغداد العامة وطبيعتها ومما لم يلتفت اليه غيره من المنتدبين الخبراء من أمثاله الا القليل . ومن المقالات الكثيرة التي نشرتها له جريدة (الجمهورية) وهي أوسع الجرائد انتشاراً وأهمية مقالة تفيض بالعواطف بتاريخ ١٤/٤/٩٦٦ بعنوان (ذكريات من بغداد) جاء فيها ما يلي :

« لبغداد في أذهاننا نحن المصريين صورة ساحرة لها وجوه متعددة فمنها الوجه الذي يتمثل في قصص (الف ليلة وليلة) ومنها الوجه الذي يتمثل في أيام ازدهار الخلافة العباسية على عهد الرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمتصلين بهم من الكتاب ، والشعراء ، والعلماء ، والمفكرين ، والفلاسفة . ولها الوجه الذي يتمثل لنا في بغداد وهي تحنو بكل طاقاتها على رجال العلم والادب وتبالغ في اكرامهم ، وتحتضن أعلام الثقافة الاسلامية وتبادلهم الدفء والحرارة والعناية ، وكل واحد من هذه الوجوه يثير في نفوسنا نحن المصريين ذكريات عزيزة يدعو بعضها بعضا ، ويتألف منها شريط سينمائي طويل يلذ لنا أن نراه ، وأن نستمتع بمناظره ، ونصغي الى الحانه ونبراته المؤثرة ، تلك هي الصورة التي كانت في ذهني يوم دعيت الى السفر الى بغداد لكي أشارك في إنشاء قسم جديد من أقسام كلية الاداب هو قسم الصحافة ،

فوجدت بغداد على وجه من هذه الوجوه التي ذكرتها الان .

« الحق لقد وجدت بغداد تحيا حياتين ، حياة قديمة ، وأخرى حديثة في الحياة الحديثة ، ورأيت الناس يعيشون فيها كما يعيش غيرهم من الناس في القرن العشرين معيشة بها شيء من اللهو ، وفيها شيء من الجد ، وفيها ميل الى الأخذ من كل جديد بكل ما تسمح به الظروف .

وفي الحياة القديمة — وهي الحياة التي تعنيني في هذا الحديث — رأيت للقوم عناية بالغة بمجالس الادب ، ورأيتهم ينتهزون لذلك كل الفرص ، فاذا أولم أحدهم وليمة اجتمع فيها عدد لا بأس به من رجال الصحافة والشعر ، وأخذوا يتطارحون القصائد ، ويتنافسون في الذكريات ، ويقضون في كل ذلك أوقاتاً طويلة قد تبلغ سبع ساعات في ليالي رمضان .

— « الحق — لقد ذكرتني هذه الليالي وكثيراً ما دعيت اليها — بمدينة بغداد القديمة حين كانت تحتفل بمجالس الادب والغناء ، وحين كان يغشى هذه المجالس صفوة الكتاب والشعراء وحين كانت تبدو بغداد في هذه المجالس بصورة المدينة الضاحكة الباسمة التي لم تعرف الألم ، ولا عرفت قسوة الحياة .

« كما ذكرتني هذه الليالي بمدينة القاهرة في عهودها الاسلامية القديمة — وخاصة منها عهود الفاطميين ، والايوبيين ، والمماليك — حين كانت ، تحتفل هذه المدينة القديمة ايضاً بمجالس الادب ، وتستقبل فيها أمثال البهاء زهير ، وجمال الدين بن مطروح ، وابن سناء الملك ، والقاضي الفاضل .

« بل ذكرتني هذه الليالي بمدينة القاهرة أيضاً في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حين كانت تهتم هذه المدينة بالاعراس ، واقامة الليالي الملاح ، يدعى فيها كثير من أرباب الشعر والخطابة ، من أمثال عبد النديم ، وهو الرجل الذي لم تعرف مصر مثله الى الان قدرة على الخطابة ، ومهارة في السمر ، ونبوغاً في نظم الشعر ، وعظمة في الموهبة الصحفية .

« واني لأذكر من هذه الليالي السعيدة التي قضيتها في بغداد — لا على سبيل

الدكتور عبد اللطيف حمزة يصافح الدكتور عبد الهادي التازي سفير المغرب ويبدو المؤلف خلفه

الحصر ولكن على سبيل المثال — الامسيات التي أقضيها يوم الأحد من كل أسبوع في نادي جعفر الخليلي — وسأفرد لها حديثاً خاصاً — والليالي التي قضيناها في في منزل الاستاذ ناجي جواد ، والليلة التي قضيتها في منزل الدكتور محمد صالح في المنصور ، والليلة التي قضيتها في منزل العميد عبد الرحمن التكريتي . والأمسية التي اشتركت بها في تكريم الدكتورة سهير القلماوي في منزل الدكتور عبد اللطيف البدري وزير الصحة بدعوة منه ومن السيدة حرمه الدكتورة لميعة البدري .

« وفي تلك المجالس كلها التقيت بصفوة بغداد . وأساتذتها ، وشعرائها ، وأدبائها ، وكتابها الصحفيين ، ورجالها القانونيين ، ومن هؤلاء جميعاً ممن فاتني ذكره من قبل — لا على سبيل الحصر — ولكن على سبيل المثال السادة :

« الاستاذ سلمان الصفواني ، والاستاذ الشاعر حافظ جميل ، والدكتور مصطفى جواد ، والاستاذ فؤاد عباس ، والدكتور صفاء خلوصي ، والدكتور

حسين أمين ، والدكتور علي الوردي والعميد عبد الرحمن التكريتي ، والاستاذ مصطفى علي – والاستاذ مشكور الاسدي ، والاستاذ أنور شاؤول ، والدكتور ابراهيم الحيالي ، والاستاذ عبد الحميد المحاري ، والدكتور الجراح محمد صالح عبد المنعم ، والاستاذ مير بصري ، والدكتور سالم خطاب ، والاستاذ ناجي جواد ، والاستاذ وحيد الدين بهاء الدين ، والاستاذ عبد الرزاق الحسني ، والاستاذ مالك الهنداوي رئيس المحكمة الكبرى بكربلاء ، وهو نجل الشاعر الكبير خيري الهنداوي [(١)]

« وفي عنقي دين كبير لكل واحد من هؤلاء الفضلاء الذين تعرفت اليهم في هذه المجالس البغدادية ، وبالغوا في اكرامي ، والحفاوة بي باعتبار أنني ضيفهم المصري الذي انتقل من وطنه الاول مصر الى وطنه الثاني العراق .

« وفي عنقي دين اكبر لصديقي وأخي الاستاذ جعفر الخليلي الذي له الفضل كل الفضل في تعريفي بهؤلاء الأماثل الذين تزدان بهم بغداد وتفخر بهم على سائر العواصم العربية في الوقت الحاضر .

« وبودي لو أتيحت لي الفرصة لكي أقدم كل واحد من هؤلاء الرجـــال وأذكر انطباعاتي عنهم واحداً واحداً كذلك ، ومن يدري فلعل هذه الفرصة السعيدة ستسنح لي في القريب العاجل ان شاء الله ...»

ولم يكن هذا المقال الوحيد الذي سجل فيه الدكتور حمزة بعض انطباعاته وعواطفه عن العراق وأدبائه وأساتذته فقد نشرت له جريدة الجمهورية الى جانب مقالاته العلمية والأعلامية عدة مقالات كان منها مقال عن الصالونات البغدادية في القرن العشرين واتى في هذا المقال على ذكر صالون جريدة (الهاتف) الذي تحول بعد احتجاب جريدة الهاتف الى ندوة (دار التعارف) الذي مرت الاشارة اليه في استعراض حياة الدكتور مصطفى جواد وكيفية معرفتي به .

* * * *

(١) ومعظم هؤلاء ممن تعرف اليهم الدكتور حمزة بدار التعارف التي سمساها بنادي جعفر الخليلي ، أما الاساتذة الاخرون وغيرهم فقد سبق له ذكرهـم عند مروره بأحاديث الجامعة ومسؤولي الدولة .

وهنا كان الدكتور حمزة قد بذل في إقامة أسس قسم الصحافة وتوجيه طلاب هذا القسم والاهتمام بمستقبلهم جهداً فوق كل جهد مشهود ، وقد ظهر انـــه يملك طاقات ليس بوسع كل استاذ عالم أن يملكها ، ولما كان لكل طاقة حدود معينة فقد أحس بأنه بدأ يكلف نفسه أكثر مما أعدته الطبيعة لذلك فشكا من ارتفاع ضغط الدم ، وذات ليلة ونحن نقطع جسر الجمهورية مشياً على الاقدام في طريقنا الى بيتنا بكرادة مريم مررنا عفواً بمستشفى الدكتور محمد صالح عبد المنعم راجين أن يصحبنا لتناول العشاء معاً ، ومستشفى الدكتور المعروف (بمستشفى صالح) واقع عند مدخل شارعنا وعلى بعد عشرات الخطى من بيتنا .

وفي مستشفى صالح عرض الدكتور حمزة نفسه على الدكتور محمـــد صالح ليقيس له ضغط الدم ، وكم كانت دهشـــة الدكتور محمد صالح حين وجد ارتفاع الضغط عند الدكتور حمزة مما يستوجب الاسراع بأخذ العلاج وملازمة الراحة التامة والتوقي في الاكل وتجنب تناول الملح بصورة خاصة ، ولا أذكر الان كم كانت درجة ضغط الدم عنده في تلك الليلة ، وكل ما عرفت انها كانت تستدعي الاهتمام ، واعتذر الدكتور محمد صالح من مصاحبتنا لتناول العشاء ، وحين خرجنا من المستشفى قال الدكتور حمزة : إنني بدأت أحس بالانهيار واني لست على حال استطيع معه تناول شيء من الطعـــام ، والأصوب أن أعود الى البيت ، وهناك أوقفت له سيارة اجرة وصحبته الى منزله عند أمّ جورج ، وطلبت منها أن تغيّر منذ اليوم نظام أكله وتركيب الوجبة دون استعمال السمن ، والملح ، والتوابل ، وما شاكل ، وكنا كثيراً ما نمزح مع ام جورج ونتهمها لكثرة استعمالها الثوم في الطعام بأنها لا تترك وجبة دون أن تجعل الثوم فيها عنصراً أساسياً وكنـــا نقول عنها أنها تدوف الثوم حتى مع الحلوى وحتى مع الحليب والشاي وتقدمه للدكتور حمزة فيأكله دون اعتراض بالنظر لما عرف به من روح المسالمة ، والاستسلام ، والزهد ، والتصوف .

وهنا قلت لأم جورج — والان فلا اعتراض لنا أبداً اذا ما أدخلت الثوم في كل شيء من المأكول والمشروب ، بل عليك أن تتخذي منه عنصراً أساسياً في

طعام الدكتور حمزة وفي جميع وجباته .

قالت مازحة مجاراة لمزحنا : — وحتى في القهوه ؟

فقلت لها وأنا أضحك — حتى في الماء أيضاً .

وفي صباح اليوم التالي اتصلت بكلية الاداب تلفونياً لأطمئن على صحة الدكتور حمزة ولأرى أثر الحبوب التي أوجب الدكتور محمد صالح تناولها فقيل لي انه لم يحضر الكلية اليوم فاتصلت به في بيت ام جورج . وكم أسفت حين علمت أنه قد شعر بانهيار نفسي منذ أن أخبره الطبيب بارتفاع درجة الضغط عنده على أنه لم يكن وهو يقطع الطريق مشياً الى بيتنا على قدميه يشعر بشيء غير اعتيادي في الليلة الماضية ، ولكن شعوره هذا قد تغير منذ أن سمع تحذير الطبيب له وايصاءه بملازمة العلاج والركون الى الراحة ، وأخبرته بالتلفون بأني جاءٍ اليه مساء وسأصحبه الى الدكتور محمد صالح بمستشفاه .

وما كدت ألقي بسماعة التلفون حتى طلبت الدكتور محمد صالح ولمته هناك على الصراحة التي قابل بها الدكتور عبد اللطيف حمزة تلك الصراحة التي الزمت الرجل الفراش بعد أن كان في حال من هدو النفس والشعور بالراحة بحيث كان يرغب أن يقطع الطريق بين مكتبي وبيتي مشياً على القدمين ولكننا ما كدنا نخرج من المستشفى حتى وجدته عاجزاً عن الوصول الى بيتي الذي لم يبعد عن المستشفى الا بضع خطوات .

قال الدكتور محمد صالح — أنا على خلاف مع أولئك الذين يخفون الحقيقة عن مرضاهم المضمون شفاؤهم — ذلك لأنك لو طمئنت مريضك المرجو شفاؤه بعدم وجود ما يستدعي الاهتمام بصحته لاستهتر هذا المريض في تناول العلاج ، وتهاون في الالتزام (بالرجيم) ولأسرف في الاكل ، والشرب ، والعمل ، فيقع بسبب ذلك في المحظور غداً أو بعد غد حتماً ، أما اذا صارحته بالواقع فلا أكثر من أن يعمل الخوف والاوهام به بعض العمل ليوم أو يومين ثم يزول ذلك بعد أن يكون قد تمسك كل التمسك بمراعاة العلاج ، وهذا بعكس الذين لا يرجى لهم الشفاء من

المرض فاني أرى من الواجب ادخال الثقة الى نفوسهم وتطمينهم بالشفاء والتأكيد لهم بأن ما يشكون منه ليس الا عارضاً من العوارض التي ستزول حتماً بعد مـــدة قليلة .

وفي المساء مررت بالدكتور حمزة في بيت أم جورج فرأيته أحسن حالاً مما تركته من قبل ، وأطلعته على رأي الدكتور محمد صالح في مصارحة المرضى ، فاطمأن أكثر وصحبته الى المستشفى وأجري الفحص عليه من جديد فكان هناك شيء من التحسن قد بدأ يظهر عليه . وفي نحو أسبوع كانت درجة الضغط قد هبطت الى المستوى الذي لا يخشى عليه منه شيء . ولكن الدكتور محمد صالح كان يلح على وجوب مراعاة النصائح الطبية والاستمرار في أخذ العلاج والالتزام بالراحة ، والذي يعرف الدكتور حمزة ويعرف تفانيه في العمل لا يصدق بأنه سيستطيع الالتزام بوسائل الراحة بأي وجه من الوجوه فهو لا يزال يتنقل من عمل الى عمل ومن محاضرة الى أخرى ، ومن مقابلات مع المسؤولين بشأن تحقيق برامج قسم الصحافة واخراجها الى حيز العمل الى ما لا يجري على بال من الاعمال التي لا تترك له فراغاً فكان يعطيها من نفسه وعلى حساب صحته أكثر مما يعطي الكثير من المخلصين العارفين بمفهوم الواجب في خدمة المجتمع من نفوسهم .

ولما كنت أنا نفسي أعاني من ارتفاع ضغط الدم الشيء الكثير منذ سنوات كنت مقيداً بنوع خاص من الطعام ، لذلك كان هذا سبباً آخر يدعونا الى تناول الغداء أو العشاء في بيتنا أكثر من السابق كلما وسعه ذلك ، حتى لقد شاركني في كميات الملح التي كان يجلبها لي بعض الاصدقاء من لندن ، وهو ملح خاص انتزعت منه مادة الصوديوم وأصبح ملائماً للمبتلين بارتفاع ضغط الدم ، وكيفما كان فقد كثرت الاسباب والدواعي التي

الدكتور عبد اللطيف حمزة والمؤلف ووحيد الدين بهاء الدين في جلسة منسجمة

جعلته واحداً منا حتى تعلق به أولادنا وحتى غدا الحاج حسن الذي يلازم بيتنا منذ الثلاثينات يسرع ليبشرنا بقدومه متى قدم . ولقد وضعت مكتبتي تحت تصرفه فكان ينقل منها ما يحتاجه الى بيته أو الى الجامعة ويعيده بعد الفراغ منه .

* * * *

وقلما افترقنا حتى في عاداتنا وطباعنا وكان يقول لي انه يحب ما أحب أنا ولم يقل ذلك على سبيل المجاملة ، فقد سقطت الكلفة والمحاباة بيننا ، وأذكر انني يوم عرّفته بحلاّقي (ابي مازن) لأول مرة وحلق عنده رأسه على نسق حلاقة رأسي ، وقرأ هناك أبياتي التي نظمتها في حلاّقي ، والتي كتبها الشاعر الطيار كمال عثمان بخطه الجميل ، وعلّقها الحلاق في جبهة صالونه بعد أن أطّرها بأطار فني جذاب ، تناول الدكتور حمزة القلم وكتب هذه الابيات ، وقال اني سأقرؤها لحلاّقي بمصر الذي يشبه (أبا مازن) لحد كبير والذي بدأت الحلاقة عنده منذ زمن طويل فكأنّ هذه الأبيات قد قيلت فيه ، ثم ما لبث أن حفظها عن ظهر قلب ، وصار يقرؤها على (أبي مازن) كلما مرّ به وحلق عنده ، والابيات مكتوبة على هذه الصورة :

الى صديقي وحلاقي منذ أكثر من أربعين سنة الى (ابي مازن) السيد عبدالأمير محمد :

قيـل لي أنتُ عند مَـن ... من ذوي الفن تحلُق ؟
فلقد نـم عـن شبابك ... فـودٌ ومفرقٌ
وروى عـن فتـوةٍ ... لك وجـه ورونق
يـا (أبـا مازن) أجبْ ... انت انت المصدّق
انمـا الفنّ رايـة ... بين كفّيك تخفـق

ولم تكن طباعنا وحدها الجامعة بيننا ولا الصداقة وحدها ، ولا الحلاق الذي يشبه حلاقه في نسق الحلاقة والتاريخ ، وانما كنا متقاربين في الاعمار بعض التقارب وكانت له ثلاث بنات فقط ، ولي أنا مثله ثلاث بنات ، وكان اسم

حرمه كاسم قرينتي وغير ذلك من أوجه التشابه الغريبة .

* * * *

وظهرت عليه علامات الاعياء في آخر السنة لكثرة ما حمـّل نفسه من العمل فوق طاقتها بالرغم مما لقي من عناية خاصة من لدن الدكتور محمد صالح عبد المنعم ، وحين حلـّت العطلة الصيفية للجامعة توقّعنا له الراحة المطلوبة في رعاية حرمه وأهل بيته في القاهرة وكان كما توقعنا .

ومن هناك ـــ من القاهرة ـــ كتب لي يقول :

«... أخي ... أودّ أن أنتهز هذه الفرصة لأسجل لك شكري وشكر زوجتي ، وبناتي ، وأخوتي ، وأحفادي ، لهذه العناية التي بذلتها من أجلي ، كما أودّ أن أنتهز هذه الفرصة لأعبـّر عن تقديري للرعاية البالغة التي رعاني بها اخوانك وخلصاؤك وأصفياؤك ، وجميع من رأيتهم في (دار التعارف) بارك الله لنا جميعاً بهذه الدار ، وجعلها كعبة القصـّاد ، ومنتدى أهل الفضل والادب والمروءة ، وأتاح الله أسعد الفرص لكي أسجل بعض ما لهذه الدار من فضل على العلم والادب ومكارم الاخلاق ... الخ »

* * * *

وجاء في السنة الدراسية الثانية من انتدابه للعراق في سنة ١٩٦٦ ـــ ١٩٦٧ وهو موفور النشاط ، يفيض حيوية وايمانا برسالته التي ينوي أن يجعلها راسخة البنيان ، شديدة الفعالية ، ونزل عند أم جورج مرة أخرى ، وعاد مندمجاً مع زمرتنا وبدأ يحضر مآدبنا ، وفي هذه السنة تضاعفت جلساتنا في بيوت الاصدقاء بالاضافة الى ندوة دار التعارف الاسبوعية التي لم نكن نفرط فيها حتى في ليالي الرعود والبروق ، والعواصف ، والامطار ، فقد كان الكثير ينتظر هذا اليوم بشوق بالغ ، واهتبلنا الفرص فرحنا نقضي أوقاتاً طيبة خارج بغداد من ضواحيها وفي

بعض المدن القريبة كالسدّة ، والحلة ، والمسيّب ، ولست بناس يوماً دعينا فيه لحضور المهرجان السنوي الذي اعتادت مدينة كربلاء أن تقيمه بمناسبة مولد الامام علي بن أبي طالب (ع) في كل سنة ، وكنا خمسة في سيارة على غرار الخمسة الذين تحدث عنهم سامي جريديني ، والذي نسيت حديثه وكتابه (خمسة في سيارة) لبعد السنين .

لقد كنا خمسة : الدكتور حمزة ، والاستاذ روكس بن زائد العزيزي الاديب الاردني الكبير ، والاستاذ سليمان كتاني الاديب اللبناني ، وعقيلته ، وأنا ، وفي ذلك اليوم كنت قد أضعت قلمي . فقال الدكتور حمزة ان لديه قلمين من (الپاركر) في البيت وليس من بأس أن آخذ قلمه هذا . فأقسمت له أن لدي قلماً آخر أحسن من قلمي الضائع ،ولكنه ظل يلحّ ويلحّ حتى خشيت أن يظن رفضي لهذه الهدية الكريمة ضرباً من ضروب الشفقة به فأخذته شاكراً .

وكنا قبل أن نستقل السيارة في بيتنا الى كربلاءقد استعرنا من الجيران عباءة لقرينة الاستاذ كتاني لكي يجوز لها أن تدخل حرم الامام الحسين (ع) في كربلا كما تقتضيه مراسيم الاحترام .

وفي السيارة ، ونحن في الطريق ، كنا كما نحن في مجالسنا تحدثاً ، وتعليقاً على الاحاديث ، وتندّراً بما يخطر على بالنا ، فكان الدكتور حمزة يطلب مني قلمه الذي أهداه لي ليسجّل به ما يعنّ له من تعليق أو خاطرة لما كان يدور في السيارة من نكت شعرية أو نثرية ، فكنت أناوله القلم ثم أستعيده ، وقد كثر هذا الأخذ والاستعادة حتى عرضت عليه ، على سبيل الدعابة ، أن يسترجع هديته ولا يعيدهاإليّ وعلى أنني كنت مازحاً فقد وجدته يحاول أن يؤكد بأنه لن يطلب هذا القلم مرة أخرى ، وفي هذه الاثناء أورد الاستاذ روكس العزيزي نصّ كناية أدبية رائعة دعت الدكتور حمزة أن يخرج مذكرته من جديد ويسأل العزيزي :

– وأنت هل معك قلم أسجّل به هذه الرائعة ؟

قال العزيزي – لقد سألتني عن ذلك من قبل وأجبتك بالسلب .

وهنا قال الدكتور حمزة – اذن فكرر عليّ نص الكناية لكي تثبت في ذهني حتّى نصل الى محل نجد فيه قلماً ! ! فضحكنا جميعاً وناولته القلم من جديد ، ورأيت أن أحوّل المزاح الى عقيلة الاستاذ سليمان كتاني ، فقلت لها : وأنت يا سيدتي أرجو أن تحافظي على عباءة الجيران محافظتك على أعز شيء عندك .

قالت – وهو كذلك

ورحت بين آونة وأخرى أعيد عليها الوصية بالمحافظة على العباءة على سبيل المزح طبعاً وأوصيها بها خيراً لئلا تجلس عليها أو ترمي بها جانباً من السيارة يخل بكيّها وصفائها ، وهنا التفتت مدام كتاني الى الدكتور حمزة تحدثه وقالت :

استعار عريس فقير حذاء صديق ليحتذيه في ليلة عرسه ، فقال له هذا الصديق : سأعيرك حذائي هذا على شريطة أن تحافظ على أناقته فلا تعرضه للدعس الشديد في أثناء الزفاف فسمع ذلك صديق آخر ولم يهن عليه مثل هذا الشرط المهين ، فقال للعريس ردّ هذا الحذاء للرجل وسأعيرك أنا حذائي دون منّة وشرط ، فامتثل العريس وردّ حذاء الصديق الاول واحتذى حذاء الصديق الثاني .

وما كاد الزفاف يجري حتّى صار صاحب الحذاء يمرّ بالعريس بين آونـــة وأخرى ويصيح بأعلى صوته صيحة المتباهي : أن ادعس الحذاء بكل قوة ولا تبال فأنا لست كصديقك الذي كان يحاذر على إناقة حذائه ، ويكرر هذه الصيحة قائلاً : ادعس ولا تبال ، ادعس كما تحب أن تدعس ، وما زال به حتّى وقف العريس وخلع حذاءه، ورمى به الى صديقه ، وقال : قبحك الله لقد كنت أشد خسّة من الصديق الاول .

قالت السيدة هذا ووضعت العباءة بيد الدكتور حمزة وقالت له : سلّمهـا للخليلي فما أنا بزائرة ضريح الامام الحسين (ع) اليوم بكربلاء ، ولا لابسة هذه العباءة المنحوسة ، ولتكن واحدة بواحدة ، ردّها اليه كما حاول أن يردّ قلمك اليك .

وقضينا الوقت ونحن في السيارة في هذا وأمثاله حتى بلغنا مدينة كربلاء ،وقضينا فيها ليلة من أجمل لياليها، وأكثرها بهجة، ونحن ضيوف عند السيدسعيدزيني .

* * * *

وظهر الاعياء من جراء شدة العمل على الدكتور حمزة من جديد ، وفي ذات ليلة ، حدثني بالتلفون قائلا : انه ليس على ما يرام ، وقد بدأ يحسّ بضعف عام شمل كل وجوده ، وقال انه حضر الكاية وحاضر وهو في مثل هذه الحالة ثم عاد الى البيت ولم تتحسن حاله ، فقلت له : ستجدني عندك بعد دقائق محدودة ،وهكذا كان ، ولم تمر ربع ساعة حتى كنت هناك ، ومن هناك ركبنا السيارة ويمّمنا مستشفى الدكتور محمد صالح عبد المنعم ، وبعد اجراء الفحوص الطبية ، قال الدكتور محمد صالح ان الأمر يحتاج الى إجراء الفحص من قبل الدكتور ابراهيم الحيالي الطبيب الاختصاصي بأمراض القلب ، ولكن الوصول الى الدكتور الحيالي بسبب كثرة مراجعيه والتزامه بمراعاة الترتيب في قبول مرضاه لايخلو من صعوبة ولذلك قام الدكتور محمد صالح بمخابرة الدكتور الحيالي ورجا منه أن يفسح لنا المجال ساعة وصولنا الى عيادته وهكذا كان .

وأجري في عيادة الدكتور الحيالي تخطيط القلب ، وقياس الضغط والوزن ومعرفة العمر ، وطلب الدكتور أن يجرى له بعد ذلك كشف بالاشعة ، وتحليل للدم ، ورجح أن تتولى أمره لجنة طبية ثم قال لي الطبيب على انفراد : ان حالته الصحية غير مرضية ، وأن دخوله المستشفى حالاً أمر لا بد منه ، لذلك عدت به

الى مستشفى صالح وخصص له الطبيب أحسن الغرف ، وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة كانت اللجنة الطبية تتألف من الدكتور محمد صالح والدكتور ابراهيم الحيالي والدكتور سالم خطاب عمر وطبيب آخر نسيت اسمه ، وأجمع الاطباء على أن الحالة خطرة ولا يستطيعون أن يقرروا شيئاً بخصوص تحسن صحته أو تردّيها الا بعد ٤٨ ساعة ، وبالطبع فاننا لم نخبره بشيء من ذلك بل بالعكس فقد طمّنه الطبيب : بأن ما يشكو منه ليس غير تعب ، واجهاد ، سيزول أثره خلال أيام قليلة اذا التزم بالراحة في المستشفى .

واتخذت له كل الاجراءات اللازمة من الأبر ، والادوية ، والقطرات ، اضافه الى جهاز الاكسجين ، ولم أفارقه الا في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

وفي اليوم الثاني بكّرت في زيارته وكان قد طرأ بعض التحسن على صحته فخفّف ذلك من قلقي عليه بعض الشيء ، وعادت اللجنة الطبية للاجتماع مرة وثانية وثالثة خلال ثلاثة أيام وقررت قرارات جديدة ، وبعد أيام قال لي الدكتور محمد صالح ان العناية الربانية هي التي أنقذته وأن الخطر قد زال ولكن بقاءه في المستشفى سيستمر نحو أسبوعين أو أكثر ما لم يطرأ طارىء جديد .

وعلم به زملاؤه وأصدقاؤه فخف لزيارته رئيس الجامعة ، وعمداء الكليات والاساتذة ورهط من الاطباء والصحافيين بعد أن سمح بزيارته ، وحاطه الجميع بتفقدهم وعنايتهم ، وكنت قد لازمته طوال هذه الايام في المستشفى ولم أغب عنه الا ليلا وفي فترات من ساعات النهار ، وكان مشكور الاسدي من أكثر أصحابنا ملازمة لصحبته في المستشفى حتى منّ الله عليه بالعافية وتشافى تماماً ، وجاء وقت حساب الاجور ، أجور المستشفى ، وأجور اللجنة الطبية ، وغير ذلك ، واذا بالدكتور محمد صالح يأبى أن يتقاضى شيئاً ، وقال ان اللجنة الطبية هي الأخرى

لن تتقاضى أجوراً ما دام المريض يخصني أنا ، وان المستشفى هو مستشفاي — قال الدكتور محمد صالح — فكيف يمكن أن نتقاضى منه شيئاً ؟

وهكذا خرج الدكتور حمزة من المستشفى مزوداً بالنصائح بأن يتجنب جهده التعب وإشغال الفكر ، وقد رأينا من الراجح أن يصحب في السنة الثالثة السيدة قرينته لكي توفر له جواً من الراحة لا يتوفر بدونها .

وفي شهر حزيران من هذه السنة ، سنة ١٩٦٧ حدثت النكبة أو قل النكسة ، وفي تلك الليلة من اليوم السابع أو الثامن وقد بدأت المعركة تكشف عن نتائجها رأيت الدكتور حمزة يبكي كما يبكي الاطفال ، ولم أكن أعرفه من قبل هذا الا رجلا جلداً ، صبوراً ، مؤمناً بالله ، يتلقى كل شيء بما ينبغي أن يتلقاه الصابر المؤمن ، فقد كان مصلياً ، صائماً ، لا يفرّط في ذكر الله وعبادته ، وكان يحفظ الشيء الكثير من الشواهد الشعرية في الصبر ، والجلد ، والتسليم بقضاءالله ومشيئته ، ولكن هذه النكبة — ومن حقها أن تتجاوز حدود النكبات — لم تدع في قوس صبره منزع فبكى ما شاء الله أن يبكي على المسلمين ، والعرب ، وعلى مصر خاصة .

* * * *

وفي السنة الثالثة والاخيرة من انتدابه الى العراق صحب حرمه في هذه المرة ، واستأجر بيتاً واسعاً في شارع أبي طالب ، وتوثقت الصلة بيننا في هذه المرة أكثر بسبب هذه السيدة الجليلة الكريمة عقيلته ، التي كانت على جانب كبير من دماثة الخلق ، فكثر التزاور بيننا وبينهم وبين سائر بيوت الاصدقاء من الأدباء والأساتذة وفي طليعة تلك البيوت كان بيت الدكتور محمد صالح .

وفي هذه السنة كانت صحته على أحسن ما يرام وكان الطبيب يعزو ذلك الى ما ما كان يلاقي من عناية ورعاية من قبل السيدة حرمه في تنظيم أكله ، وشربه ، ونومه ، وكانت السيدة قد صحبت معها خادمة من مصر تعينها على أتعاب البيت في الطبخ ، والغسيل ، والشؤون الأخرى ، ومع ذلك فلم يفتر عن مراجعة الطبيب

بين فترة وأخرى .

وفي هذه السنة ايضاً حجّ الدكتور حمزة وحجّت معه حرمه بيت الله الحرام وعاد من الحج وهو في أتم سرور بان يكون قد وفق لأداء مناسك الحج وهو على احسن حال من الصحة خلافاً للسيدة حرمه التي كانت تؤدي بعض الفروض ، وتهمل البعض الآخر فهي مثلاً امتنعت عن استعمال حصى الجمار ورمي الشيطان بالصغير من الحصى بحجة انه لو كان هنالك شيطان لاقتضى ان نرميه باكبر حجر يستطيع احدنا ان يحمله لا بهذه القطع الصغيرة المحدودة الحجوم فيما لا تتجاوز حجم البندقية !! اما هو فكان يضحك من حججها واعتراضاتها .

وعند عودته من الحج تلقى مرة اخرى عرضاً سخياً من جامعة ام درمان في السودان لتولي رياسة القسم فيها ، اقول مرة اخرى لان هذه الجامعة قد سبق لها ان عرضت عليه مثل هذا الطلب في العام الماضي وكان الطلب مغرياً ، وكان بامكانه ان يستجيب ، لا سيما وقد كان الراتب الشهري الذي عرضته عليه الجامعة خمسمائة دينار بالاضافة إلى بيت مؤثث ، وواسطة نقل تقوم بشؤونه ، فاعتذر في حين لم يكن راتبه الشهري في العراق يتجاوز ٣٥٠ ديناراً ، وقال على الرغم من ان ليس في العقد مع جامعة بغداد ما يمنعه من اجابة مثل طلب السودان فانه يرى في مثل هذه الاجابة شيئاً من نقض العهد الذي قد يخلّ بمبادىء الشرف !! ، اما في هذه المرة فقد أجاب جامعة ام درمان مبدئياً على ان يؤجل البتّ في الأمر إلى نهاية عقده مع جامعة بغداد في هذه السنة .

وكان الدكتور حمزة في هذه الاثناء قد أتمّ خدمته في الحكومة المصرية ، وأحيل على التقاعد ، فوجهت له جامعه القاهرة كتاب شكر رقيق على ما أدى من خدمات علمية متواصلة طوال سنين عمله ، اما الجمهورية العربية المتحدة فقد منحته وساماً من اعلى الاوسمة المدنية الرفيعة مشفوعاً باشادة بمنزلته العلمية واعتراف بما بذل في خدمة الأمة عن طريق البحث والتأليف والتعليم .

وغادر الدكتور حمزة في آخر السنة إلى القاهرة ، ومن هناك التحق بجامعة ام درمان وقد حدث له هناك ما كان قد حدث له في بغداد من اعتلال خطير في صحته بسبب ما كلف نفسه من مجهود لتنظيم برامج قسم الصحافة والاعلام في هذه الجامعة ، وبسبب القاء المحاضرات والمشاركة في اعداد مناهج جديدة للجامعة كلها ، وظلت المراسلة بيني وبينه مستمرة دون انقطاع .

وعند قيام الثورة في السودان ألغيت جامعة ام درمان مع ما ألغي من المؤسسات التي وجدت (الثورة) في بقائها ما يعارض مبادءها ، فعاد الدكتور حمزة إلى القاهرة .

وفي شتاء هذه السنة سنة ١٩٧٠ كنت أشرف على طبع اجزاء جديدة من سلسلة موسوعة العتبات المقدسة ببيروت وكنت أكاتبه من هناك وقد تلقيت في هذه الاثناء خبر فجيعته بوفاة صهره وزوج ابنته القصاصة الاديبة السيدة جيلان حمزة فكتبت له ولابنته من بيروت اعزيهما به وكان صهره هذا من كبار الرجال العسكريين اللامعين وبرتبة أمير لواء في الجيش المصري ، ولكني لم اتلق منه الجواب الا بعد ايام طويلة وبتاريخ ٩٧٠/٤/١١ يقول فيه :

« ... الخجل يعقد لساني . والحياء منك يحبس بياني ، فقد قصرّت في الكتابة اليك فترة كبيرة من الزمن وان كانت رسائلي لم تنقطع عن ابنتنا العزيزة الانسة (فريدة) — وهو يقصد بها ابنتي الكبيرة — التي أدت واجب التعزية اكثر مما ينبغي ، غير ان مصائب الموت — اطال الله أجلك وبارك لنا في حياتك — لها تتابع ، وحوادث الدهر لها توال . وقد شاء القدر — ولاراد لمشيئته — ان يفجعنا بعد فجيعتنا بزوج ابنتي الكبرى جيلان — بوفاة آخر اخوالي في الحياة ، ثم أتبع ذلك بوفاة شقيق ثان لي (وكان قد مات شقيقه الاول في العام الفائت) وكان من رجال التعليم ، ومات في الخامسة والخمسين ، وهكذا أصبحت

في زمام هذه المصائب وتتابعها ، وتتآليها كما يقول ابو الطيب :

فصرت اذا أصابتني سهـــــام   تكسّرت النصال عـــلى النصال

والحق ــ لقد خرجت من جميع هذه الكوارث بنوع من السخرية من الحياة والاحتقار لها في غير تمرّد عليها بحيث تهون عليّ كل مصيبة من الان ، وان كنت أضرع إلى الله الكبير الرحيم ان يقينا مما نخاف من الشرور حتى نموت ... الخ » .

وفي آخر هذه الرسالة حاشية يقول فيها : « لا تؤاخذني على سوء الخط ، وعوج السطور فان بعيني شيئاً من الضمور هو المسؤول عن كل ذلك » .

* * *

وكتبت له معزياً مرة اخرى بوفاة خاله واخيه ولكنه لم يردّ علي ، وكنت قد انهيت عملي ببيروت فبعثت له من هناك بما صدر من الاجزاء الجديدة من موسوعة العتبات المقدسة ، وغادرت بيروت في ١٩ مايس ١٩٧٠ إلى بغداد بعد ان كتبت له رسالة أعلمه بتاريخ سفري ولم أدرِ انني لن أقرأ له شيئاً بعد هذا ، ولن اسمع له صوتاً ، وان رسالته المؤرخة في نيسان من هذا العام كانت آخر رسالة كتبها ليستقبل بعدها الموت ، فما كدت أصل إلى بغداد حتى فوجئت بخبر وفاته وكانت وفاته في اليوم الخامس عشر من مايس ١٩٧١ ولا تسلني كيف كان وقع هذا الخبر على نفسي .

ولا ابالغ اذا قلت ان الدنيا قد اظلمّت في عيني وضاق بي الوجود فلم أعد أحس بما يجري حولي لهول الصدمة ، واذا كان الدكتور حمزة قد خرج من جميع الكوارث ــ كما قال ــ بنوع من السخرية من الحياة والاحتقار لها

في غير تمرّد عليها بحيث أصبح تهون عليه المصائب ، فقد عزّ علي انا ان أخرج بشيء من هذا او غيره بعد فجيعتي بالدكتور حمزة ، فقد نفد صبري ، وهانت نفسي عند نفسي ، وشعرت بما يشبه المسكنة التي لا يشعر بها أحد الا ساعة يفقد فيها كل وسيلة من وسائل القوة ، والا ساعة يتمثل له ضعفه بأذل صورة من الصور فاسلمت نفسي للدموع حتى لم تبق والله في العين قطرة من صبابة ، وستظل ذكرى هذا العالم الصديق الكريم ترافقني ما دام هذا النفس يتردد في صدري صاعداً نازلاً ، تغمده الله برحماته الواسعة ومنّ علي بالصبر .

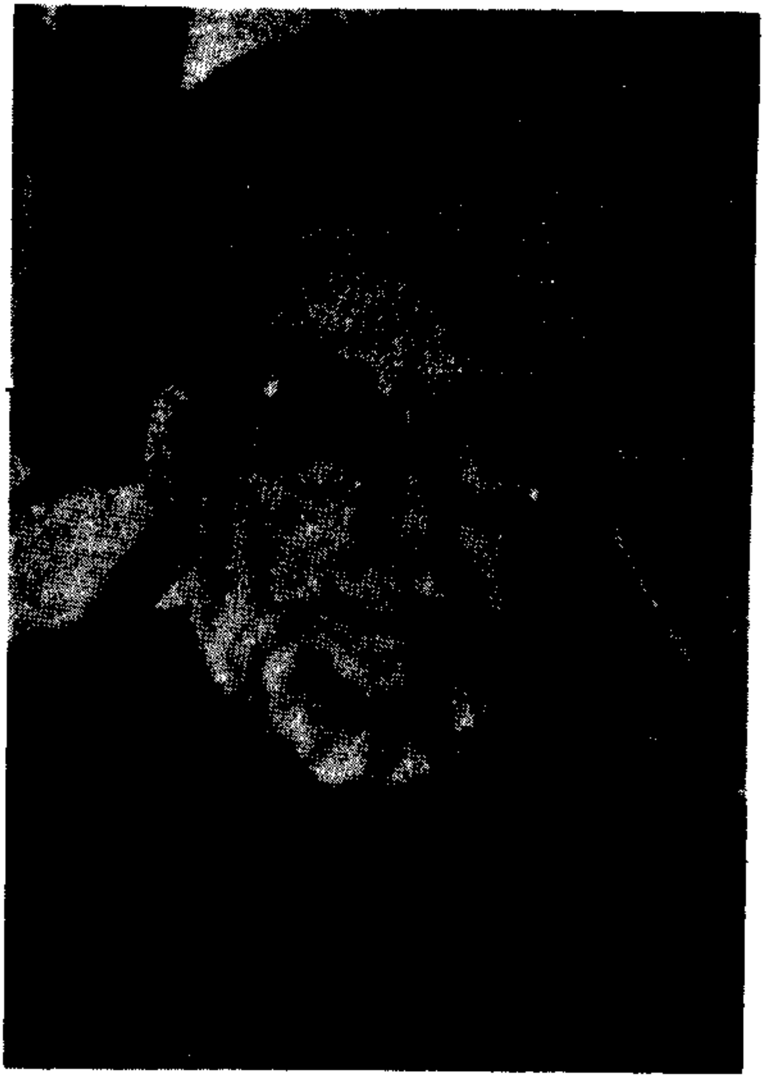

السيد حسين الحسيني

كيف عرفت
مفتي بيروت الجعفري الممتاز
السيد حسين الحسيني

في اواخر سني العشرينات شبت نار الفتنة وانقسمت طائفة الشيعة إلى قسمين حول شج الرؤوس بالسيوف فمنهم من كان يحرّمها ويحرّم معها الضرب بالسلاسل على الظهور والضرب على الطبول والصنوج في ايام المحرم حزناً على ابي عبد الله الحسين (ع) . ومنهم من كان يبيح للعوام مثل هذا العمل ولا يرى فيه بأساً وقد تبنى فكرة الصرخة بالتحريم المجتهد المصلح السيد محسن الامين العاملي وهو في الشام ، اما الذين ناوؤه او الذي تحداه بسبب الخصومة الشخصية فقد كان في طليعتهم المجتهد الشهير السيد عبد الحسين شرف الدين بصور ، والمجتهد الشيخ عبد الحسين صادق بالنبطية ، والحقيقة ان السيد العاملي لم يكن اول من حرّم الضرب بالسيوف او حلّل ذلك وانما سبقه علماء قبله ومراجع دينية كبيرة ، وكان المرجع الديني الكبير السيد ابو الحسن الاصفهاني في مقدمة اولئك المحرّمين ، حتى اورد الجواب على السائل الذي سأله في رسالته الفارسية عما يقول في ضرب الرؤوس بالسيوف ، في محرم الحرام حزناً على الحسين ، لقد اجاب بان الضرب بالسيوف ، والسلاسل ودق الطبول ، والصنوج ، وما جرت العادة عليه في محرم الحرام باسم الحزن على الحسين (ع) محرم كلياً وغير شرعي ، ولكن هذا التحريم من لدن السيد ابي الحسن ومن لدن غيره في السنين السابقة لم يثر الناس ولم يحدث صدى في النفوس كما حدث يوم دعا السيد محسن الامين إلى تحريمه ليمنع القائمين به في الشام وفي النبطية من عوام الشيعة .

والتف حول كل واحد من السيد محسن الذي حرّم ، وحول السيد عبد الحسين شرف الدين والشيخ عبد الحسين صادق اللذين حللا جماعات بل جماهير من الناس واتصل صدى المعارك الكلامية والدعوات بالعراق وهاجت النجف ، وماجت ، وهاجت معها المدن الشيعية وماجت ، وتناولت الصحف هذه الاختلافات ، وكتبت فيها كتب يؤيد بعضها دعوة التحريم ، ويفند بعضها هذه الدعوة ، وانقسم كبار العلماء بداعي الاغراض الشخصية والاحقاد إلى قسمين وبدأ خطباء المنابر من جانب اهل التحليل يثيرون الجماهير في وجوه اهل التحريم ، ولما كانت الاكثرية المطلقة هي من العوام ، فقد رجحت كفتّهم على كفّة الداعين بالتحريم حتى ضيّقوا الخناق عليهم ، وحتى صار يتخفى الذين لم يجارهم في آرائهم ، وقــد نعت الذين يسوّغون شجّ الرؤوس بالسيوف انفسهم : (بالعلويين) ووصفوا معارضيهم الذين كانوا ينادون بتحريم الضرب بالسيوف وما شاكل : (بالامويّين) ولم يبق في الميدان من هؤلاء الذين يعارضون السواد الا القليل من الجريئين وقد تعرض غير واحد منهم للتنكيل والبطش مما مرّ بعض وصفه واحواله في الجزء الاول والجزء الثاني من (هكذا عرفتهم) وكان هؤلاء المعارضون للعوام يعرف بعضهم بعضاً فكثيراً ما تضمّهم حلقات الدرس في النجف او مجلس من مجالس البيوت فيتكاشفون ، ويتسارون ، ويتناقلون الاخبار التي تصل اليهم من مختلف الجهات فيعرفون من لهم ، ومن عليهم ، وما مكانة كل واحد من هذه الفتنة ، وكان من ابرز دعاة التحريم بعد طبقة العلماء الكبرى من النجفيين الشيخ محمد الكَنجي ، الذي سخر قلمه ولسانه ، وكل نشاطه ، في شجب الضرب بالسيوف ، وقد شجعت جرأته الكثيرين على الالتفاف حوله ، اما البارزون من غير النجفيين فقد كان الشيخ محسن شرارة وكان من العناصر المليئة بالايمان وحرارة الدعوة في تحريم هذه التقاليد وهو رجل لم ينل بعد يومذاك درجة الاجتهاد فالتفت حوله من اهل بلده من العامليين جماعة فيهم الجريء العامل والموالي المؤيد بالعقيدة ، وكان من بين اولئك سيّد علويّ قصير القامة ، بشوش الوجه ، لا تكاد تفارق

الابتسامة ثغره ، وكان يدعى بالسيد حسين البعلبكي ، ولما كنت يومذاك من (الامويّين) وكانت لي بهذه الجماعات صلات صداقة كان لا بد لي ان اعرف الكثير من هؤلاء فعرفت السيد حسين ، وزادت معرفتي به حين علمت بانه صهر لأخت السيد محسن الامين صاحب الدعوة الاصلاحية ، ولكن هذه المعرفة لم تزد على تبادل التحية والالتقاء عرضاً في الطريق او في احد المجالس العامة او الخاصة ، وعندما اصدرت جريدة الفجر الصادق في النجف وكثر مرتادو مكتب الجريدة وزوارها كان السيد حسين ممن يزورني غبّاً مع زميل له يدعى الشيخ اسماعيل والذي يشغل اليوم مركز العالم الروحاني في جوار حلب ، والذي قلما كان يفترق عن السيد حسين في الدرس ، وفي زيارة الحرم ، وفي دخول المآتم الحسينية ، فهما صنوان لا يفترقان يجب بعضهما إلى بعض تقارب الاراء ، وشظف العيش ، فقد كان كلاهما مملقاً ، وكان السيد حسين من اكثر من عرفت قناعة وصبراً على المكروه حتى لم أره شاكياً ولا مرة بعد ان اشتدت علاقتي به ، وحتى لقد اعتبرت حياته مثلاً للمؤمنين الصابرين الذائبين في الله والراضين بقضائه .

وان مثل هذه الصور من الناس لتثير في نفسي الفضول بل الاعجاب وتجعل مني جهازاً كل همه ان يلتقط حتى الهمسة من الاصوات بل كثيراً ما ذُبت في الشخص وهو يحدثني عن حياته ، واستبقت الحديث وتصورته كما او كنت انا الذي يقص القصة ، ويتحدث عن نفسه ، وفي احد مجالسنا الخاصة وانا أسأل السيد حسين البعلبكي قصته وكيفية انتقاله من بعلبك إلى النجف قص علي القصة التالية :

قال ولدت في سنة ١٣٢٤ هجرية اي ما يساوي سنة ١٩٠٦ ميلادية بقصبة (شمس طار) بلبنان التي نزلتها اسرتنا من آل الحسيني من قديم الزمان وتملكت فيها اراضي وبساتينا ، فهي اسرة كبيرة يرجع نسبها إلى الامام الحسين (ع) ولما كانت هذه القصبة من توابع بعلبك اطلق عليّ اهل النجف . هذه النسبة وسميت بالبعلبكي .

وكما اصاب الناس بلبنان جميعاً من شظف العيش والقحط بسبب الحرب العظمى الاولى وشتت الناس شذر مذر فقد اصاب بيتنا ما اصاب الناس ولقينا من عنت الزمان اشده وانسدت في وجوهنا جميع الابواب وكنت يومها شاباً في نحو السادسة عشرة او السابعة عشرة وكانت الحرب قد وضعت اوزارها ولكن مخلفاتها كانت لم تزل على حالها عدة سنين فنشدت العمل في كل جهة فلم اوفق بسبب ضيق المحيط على انني قد زاولت تعليم الصبيان بعض الوقت وكنت قد ورثت عن ابوي وعن اهل بيتي الايمان بالله ورسله واوليائه ، وقد لقنتني عقيدتي بانه لم يلتجيء احد إلى الامام الثامن علي بن موسى الرضا ويتوسل إلى الله به الا وفرج الله كربه ، وكشف عنه غمّه وهمّه ، ولكن كيف الوصول إلى خراسان وبين (شمس طاز) وبينها نحو ثلاثة الاف كيلومتر ثم كيف استطيع ان ادبّر الزاد والراحلة ؟ ثم بمن استطيع ان استعين في رفقتي في هذا الطريق وانا لم ازل شاباً لم يعجم الدهر عودي بعد ، فلا اعرف طريق بيروت فكيف اعرف طريق خراسان ؟ ولم اكن يومذاك اعرف هذا البيت من الشعر :

كيف الوصول إلى سعاد ودونها قمم الجبال ودونهن حتوف

وحين تعلمت الشعر وجدت ان هذا الشاعر انما ارادني انا بهذا البيت يوم كنت افكر في زيارة الامام علي بن موسى الرضا (ع) بخراسان .

وبدأت اعلن رغبتي لاقربائي ولاصدقائي واصور لهم شدة شوقي لتحقيق هذه الرغبة فيضحكون مني وقد يتخذون مني سخرية وهزواً .

وذات يوم جاءني ابن عم لي يكبرني ببضع سنين ، وكان قوي البنية ، مفتول الساعد ، وقد برم هو الاخر من تلك الحياة الضنكة الضيقة وسألني :

ـ هل لا تزال بتلك الرغبة العارمة في زيارة الامام الرضا والدعاء عنده ؟

قلت ـ كل الرغبة ...

قال ـ منذ ايام وانا افكر نفس فكرتك وقد صممت على تنفيذ هذه

الفكرة طلباً للاستشابة

قلت ــ ولكن كيف يتم لنا تحقيق هذه الرغبة ؟ ونحن لا وَسيلة لنا ولا مال يوصلنا ؟

قال ــ نقطع الطريق ماشيين على اقدامنا بين قرية واخرى ، فاذا جنّ الليل استضفنا وجوه القرية ولا اظنهم سيبخلون علينا برغيف خبز ومساحة مترين مربعين من الارض ننام فيها ، وهكذا حتى نصل إلى العراق ثم نغادره إلى خراسان فماذا تقول ؟

قلت ــ انه والله الفرج ، ولكن من يقنع اهلي واعمامي بالموافقة على هذه الرحلة .

قال ــ انا ...

وكان كما قال .. ــ بعد ان جرت مناقشات ومذاكرات طويلة تعهّد فيها ابن عمي بان يكتب لأهلي من كل مدينة كتاباً وان يأتي بي اليهم سالماً معافى كما اخذني ان شاء الله .

وكان ابن عمي هذا ورعاً تقياً منذ صغره ولم يكن وحده على هذه الوتيرة فقد كان هنالك الكثير من اسرتنا قد شبوا وملء نفوسهم الايمان ، ولا تسل عن فرحتنا ونحن نغادر (شمسطار) ميممين اضرحة الأئمة الاطهار ، واذكر اننا زوّدنا ببعض الزاد ، وفي تلك الايام كان للريال الفرنسي اهمية كبرى بين النقود ، وكان المجيدي والريال النمسوي ، بدأ ينحط قدرهما ، ولم يبق في السوق من العملة الرائجة في كل مكان غير الليرة العثمانية والعملات الذهبية

وكان ان حصلت على ريالين فرنسيين هما كل ما استطاع اهلي ان يزودوني به اضافة إلى بعض الارغفة من خبز (المرقوق) ، ولم ادر كم كان يحمل ابن عمي من النقود ولكني اعلم علم اليقين بان حاله لم تكن احسن من حالي ، وحين خرجنا من البلد قال ابن عمي إقرأ الفاتحة لارواح المؤمنين والمؤمنات فان في مثل هذا تيسيراً كبيراً لسفرتنا .

وكنا جد فرحين ، وقد لقينا الشيء الكثير من اليسر في طريقنا إلى حلب لكثرة ما وجدنا من القرى التي استضفناها ، ولم يكن حال القرى يومذاك باحسن من حال (شمسطار) فقد كان الجميع في عوز ، وفاقة ، وقلّة مؤون ، ولكن الطبيعة التي جبل عليها سكان القرى كانت تحملهم على ايثار الضيوف على انفسهم .

وكلما كنا نوغل في الطريق كان شوقنا إلى زيارة العتبات يزداد شيئاً بعد شيء ، ومع ذلك فلم يحل هذا الشوق بيني وبين ذكري (لشمسطار) واهل بيتي ، ولقد مرت ذكراهم ذات ليلة على خاطري في الحلم ، وحين افقت بكيت ، وكتمت بكائي عن ابن عمي ، وظللت حتى الصباح وانا أبكي .

ولا يبعد ان يكون ابن عمي على هذه الشاكلة من العاطفة ، ولكنه كان جلداً وكان يتغلب على عاطفته بالصلاة ، فقد كان كثير الصلاة ، وكثير الدعاء ، وكان يحثني على صلاة النوافل وهو الذي علمني دعاء الصباح أقرؤه بعد صلاة الصبح من كل يوم .

ولم يكن ابن عمي محيطاً بخصائص الدين او ملماً بالشريعة ، وانما كان يدرك بعض المزايا من طريق قرائته القرآن الكريم وكتب الادعية ، وقصص الانبياء وما كان يسمعه من الخطباء والوعاظ وكنت انا الاخر في مثل هذا الحال ، ولكني كنت دونه بالنظر لصغر سني في مثل هذه الاحاطة اليسيرة المتواضعة .

وكان لابن عمي إلى جانب ميزة ايمانه ميزة فتوته وقوته الجسدية لذلك كان من انشط الفلاحين في زراعة الحقل ، وتشذيب الاشجار والتحطيب .

وقد بانت قوته هذه ونحن في طريق العراق حين غادرنا (البوكمال) على الفرات وقد التقانا رجل مسلّح ونحن نقطع جانباً من مفازة ، فاستوقفنا وامرنا بان نفرغ له جيوبنا مما كان فيها من النقود وكنا قد حصلنا على شيء من هذه النقود عن طريق اشتغالنا كعمال بناء في (دير الزور) فقد وجدنا هنالك ضاحية

اكرمنا اهلها بالمبيت في بيت الضيافة وتقديم العشاء لنا ، فكنا نعمل في النهار في البناء ونعود ليلا اليهم لنتعشى ونبيت ، وقد جمعنا من هذا الطريق طريق العمل في البناء ونقل الحجر وحمل الجص بعض النقود احتفظنا بها لوقت الحاجة ولم نمكث بدير الزور كثيراً لأننا لم نستسغ طول الاقامة في بيت الضيافة عند هؤلاء الاكارم .

اقول ــ يقول الحسيني ــ لقد بانت قوة ابن عمي هذا حين طلب منا قاطع الطريق وهو يهددنا بخنجره ان نفرغ له ما بجيوبنا اذا اردنا السلامة اذ انكب عليه ، وبسرعة لم اعرف لها نظيراً القاه ارضاً واخذ منه الخنجر ورماه بعيداً ، كذلك انتزع منه الغدارة والقى بها بعيداً ثم ناداني بان احلّ من وسط هذا اللص حزامه ، وكان حزاماً محاكاً من الصوف لا ازال اتصوره حتى اليوم فحللت الحزام في حين كان ابن عمي قد ضيّق عليه الخناق وراح بمعونتي له يشدّ وثاقه ويربط يديه إلى الخلف ، وقام عنه وهو يقول له « انت ونصيبك » فان مرّ عليك ابن حلال حلّ وثاقك وناولك سلاحك ، وان مرّ عليك ابن حرام مثلك سرق سلاحك وتركك حيث انت » ثم قال لي ابن عمي : ان علينا ان نعدو جهدنا لئلا يعثر علينا احد من رفاق الرجل وارحامه .

وهكذا فعلنا ، ومع ذلك فلم ننجُ في وقعة اخرى من السلب ، فقد داهمنا رجلان مسلحان ونحن بالقرب من مدينة الرمادي والشمس مالت نحو الغروب ، وكان بيننا وبين الرمادي مسافة يجب ان نقطعها قبل غياب الشمس . وفي هذا المكان ادرك ابن عمي بحكمته اننا غير قادرين على المقاومة لو اردنا الامتناع عن الاستسلام فاستسلمنا لهما ــ وكانا غير منصفين لانهما لم يكتفيا بما كنا قد ادخرنا من نقود بل سلبوا ما علينا من ملابس ولم يتركوا لنا غير الملابس الداخلية ، .

وحين وصلنا (الرمادي) وعرف قصتنا البعض دعانا شخص إلى بيته وقدم لنا عشاء ثم قدم لنا البسة اعتذر ابن عمي عن قبولها وقال له اننا علويّان وان هذه الالبسة بمثابة الصدقة ، والصدقة محرّمة على ذريّة الرسول ، قال الرجل ولكن

كيف تستطيعان الحصول على الألبسة قلنا له سنشتغل ، وان له الفضل الكبير اذا دلّنا على محل يقبل منا ان نعمل ما نستطيع ان نعمل ولو باجور اقل مما هو مفروض ، اما الطعام والمبيت فهو عادة مألوفة في الضيافة العربية لذلك لا يمكن عدها من الصدقات .

وقد كان الرجل كريماً معنا فاخذنا في اليوم التالي إلى النهر وهناك بدأنا ننقل اكياس الرز وقواصر التمر في السفن إلى البر ، وفي الليل لم نأو إلى دار الرجل وانما بتنا في نفس المحل الذي كنا ننقل اليه الحبوب وهو خان كبير ومخزن ينقل منه بعد ذلك مخزونه إلى السوق والى الضياع المجاورة ، والى داخل الصحراء .

ومن حسن الحظ ان السفينة ما كادت تفرغ حتى وافت سفينة ثانية وثالثة كانت محملة بنوع من الرز الذي يبتاعه عرب البادية فحصلنا على اجور كانت كافية لأن نجدد بها ملبوسنا ، وكم سررنا بكوننا استطعنا ان نحصل على البسة جديدة من كدّنا ووفرّنا بعض النقود .

وكانت الطائفية يومذاك قد بلغت أوجها وكان كره طائفة لاخرى من السنة والشيعة من الامور الشايعة المألوفة فكنا نسعى ان نخفي مذهبنا في الطريق فنصلي مكتوفي الإيدي ، ويبدو لي ان الرجل الذي برّ بنا في الرمادي وأضافنا في بيته قد عرف مذهبنا مذ رأى امتناعنا عن قبول الملابس باعتبارها صدقة ، ولم تستطع صلاتنا على طريقة اخواننا السنة ان تغير رأيه فينا ومع ذلك فقد عاملنا معاملة الكرام الطيبين .

ووصلنا (الكاظمين) ونزلنا في خان كان ينزل فيه الزوار مجاناً ، ولم نكد نصل حتى توضأنا وقصدنا الحرم الشريف مدفن الامام موسى الكاظم والامام محمد الجواد ، وأقرأني ابن عمي البيتين التاليين

لُذْ إن دهتك الرزايا ... والدهرُ عيشك نكّدْ
بكاظم الغيظ موسى ... وبالجواد محمّد

وقال لي : هذا باب الحوائج ما قصده زائر بحاجة الا وقضاها له ، فاطلب عند دخولنا إلى الحرم حاجتك فلا شك انها مقضية .

ودخلنا الحرم ، ودنوت من شبّاك الضريح وتذكرت غربتي ، ومسكنتي ، فبكيت وظللت ابكي حتى علا نحيبي وحتى دنا مني قريبي يجفف دمعي ، ويهدّأ روعي ، وكل ما دعوت به في هذا المقام الشريف هو ان يرزقني الله الايمان ويوفقني لرضاه ، وهذا كل ما احتفظت به ذاكرتي من هذه الرحلة ، وخرجت من الحرم وانا اشعر بما يشعر به الظامىء العطشان الذي لجّ به العطش في بحبوحة الصيف وقد بلغ رأس العين في بعلبك فعبّ من ذلك الماء البارد دلواً واكثر حتى ارتوى ، وحتى أحس ببرد الماء وقد أثلج له صدره .

وفي اليوم الثاني بدأنا نبحث عن عمل ، فقيل لنا ان هناك وعلى بعد قليل من الكاظمين اعمالاً ترابية تستوعب عدداً كبيراً من العمال ، وسألنا عمن يجب الرجوع اليه لكي نعمل مع العاملين ؟ فدلونا عليه وفي اليوم الثالث بدأنا نعمل ، وكانت الاجور مغرية ، اذ كانت نصف ربية في اليوم لكل عامل من العمال ، والربية يومذاك كان لها شأن كبير في حياة الناس فلم تكن تكلف المعيشة للفرد العراقي الواحد اكثر من خمس الربية وربع الربية اذا ما اراد البذخ والاسراف النسبي .

وكانت الثورة العراقية الكبرى قد انتهت منذ وقت قريب ، وقد تم نصب الملك فيصل الاول ملكاً على العراق ، وبدأت المفاوضات تجري بين رجال البلد والسلطات الانكليزية عما يمكن ان يتركه الانكليز والذي لا يمكن تركه من السلطة والحرية في تكييف الادارة والحكم ، وكان الاتجاه قد بدأ يسير نحو التعمير وقد بدأت العناية تظهر في شؤون الري ، والزراعة ، واصلاح الطرق ، واقامة الجسور ولم يكن قد مرت الا سنة على الثورة العراقية بعد ، فكثرت ميادين العمل وصرنا لا نخشى على انفسنا الجوع ما دام قد آتانا الله قوة تضمن لنا القيام بالعمل وتأديته على وجهه الكامل ، واني لأقسم اني كنت مخلصاً في

عملي اينما عملت وكان ابن عمي مخلصاً هو الاخر وكنا نرى العمال كيف كانوا يسرقون من اوقات عملهم وقتاً يقضونه فيما يسمى (بقضاء الحاجة) تارة ، وبعمل السيكارة وتدخينها تارة اخرى ، وبحجج أخرى ما استعملناها مرة ولا بعض مرة .

وعملنا نحو ثلاثة اسابيع وكنا نود ان نعمل اكثر حتّى اذا اردنا السفر إلى كربلاء والنجف كان لدينا ما يسد حاجتنا من الانفاق ويعيننا على السفر إلى خراسان ، لأن الاجور هنا كانت اجوراً مغرية كما قلت ، وقد لا نحصل على امثالها في كربلا والنجف وفي طريق خراسان ، ولكن الاعمال الترابية قد توقفت هناك إلى أجل غير معلوم ، وحين راجعنا المسؤول قال من المستحسن ان تراجعانا بعد اسبوعين فلعلنا سنشرع من جديد بالعمل ، لذلك فضلنا ان نقضي هذين الاسبوعين في زيارة كربلا والنجف ثم نعود إلى العمل ومن هناك نيمّم مرقد الامام علي بن موسى الرضا بخراسان ، على ان نقضي وقتاً اطول في زيارة الامام الحسين بكربلاء والامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب في النجف عند العودة .

وكنا قد جددنا بعض ملابسنا واشترينا لمتاعنا كيسين كانا احسن من الكيسين اللذين سلباهما منا قاطعا الطريق بالقرب من الرمادي كما اشترينا لنا حذائين جديدين حملناهما معنا في الكيسين وبالطريقة نفسها قصدنا مدينة كربلا ماشيين على اقدامنا .

وفي كربلا وانا ازور ضريح الامام الحسين عليه السلام واخيه العباس كان دعائي لنفسي لم يتغير ، فلقد طلبت من الله ان يستجيب دعائي وانا ادعوه في المقام المقدس ويرزقني الايمان ويوفقني إلى نيل رضاه وهي نفس الدعوة التي دعوت بها لنفسي في مرقد الامامين الكاظمين .

وقضينا اسبوعاً في كربلا قطعنا معظمه بالصلاة ، وقراءة الادعية ، والاستماع إلى الوعّاظ ، وحضور المآتم الحسينية ، ثم قصدنا النجف الاشرف

وسلكنا في ذلك طريق (طويريج) وكانت تفصل بين كربلا وطويريج بحيرة يجتازها المسافر بالسفن ، ورحنا نمشي من طويريج (الهندية) مع النهر ، ونمرّ بالعشائر وكان العمل يجري بحماس في حفر الجدول الايمن المعروف بجدول (بني حسن) وتطهيره فحدثتنا نفسانا بان نعمل مع العاملين ولو يوماً واحداً فعملنا اربعة ايام او خمسة بنفس الاجور التي عملنا بها في الكاظمين ، وكنا نخشى من قطاع الطرق فقيل لنا ان ذلك قد ولى مع الزمن فلا يجرأ اليوم احد ان يسلب احداً في هذا الطريق ، بل وحتى في الطرق الأخرى .

ووصلنا إلى النجف عن طريق الكوفة ، وصدف وصولنا في يوم الثلاثاء فقيل لنا انه يوم مبروك في زيارة مسجد الكوفة ، ومسجد السهلة من كل اسبوع ، وان الناس يخرجون في مثل هذا اليوم من مدينة النجف زرافات ووحدانا ، ويدعون في هذه المقامات التي حددّها المرجع الديني الكبير السيد مهدي بحر العلوم بناء على الاخبار والروايات التي تواترت عن فضيلة هذه (المقامات) ، وقد صلّينا في كل مقام ركعتين من الصلاة ، وزرنا ضريح مسلم بن عقيل ، ونصيره هاني بن عروة ، ثم يممّنا مسجد السهلة ، وهناك عملنا نفس العمل في كل مقام من مقامات هذا المسجد وكان هناك من يطوف بالناس في هذه المقامات ، وقد اقتدينا به ، ورددّنا مع المرددّين الادعية الخاصة بكل مقام ، وفي مقام الامام جعفر الصادق قيل لنا ان المستحب هو ان يصلي المصلي هنا ركعتين باسم صلاة (الاستجارة) اي أن يستجير المستجير بهـذا المقام إلى الله بان يحفظه ويحقق له امنيته ، ومرة اخرى لم اجد أمنية افضل من ان يحقق الله لي الايمان ، ويوفقني لرضاه ، وهذا كل مبتغاي من دنياي أمس ، واليوم ، وغداً .

وبتنا في تلك الليلة بمسجد السهلة مع العشرات من الزائرين ان لم يكن المئات ، وفي الصباح غادرنا مسجد السهلة قاصدين النجف ، وألفينا عدداً كبيراً يسير مثلنا على الاقدام قافلاً إلى النجف وكانت القبّة الذهبية تلوح لنا من بعيد وكلما وقع نظري عليها ارتفع نظري إلى السماء ودعوت بدعائي المعهود :

رب ارزقني الايمان ووفقني لرضاك بحق هذه البقعة المقدسة .

وعند وصولنا إلى النجف يمّمنا الحرم الشريف رأساً ، وفي الضحى توضأنا وتركنا كيسي متاعنا عند الكيشوان، (حافظ الاحذية) في مداخل الحرم واقبلنا على الضريح متلهفين ، وبكيت هناك مـــا شاء الله ولست ادري كم لبثنا في الحرم ونحن نصلي ، وندعو ، ولولا الجوع لمكثنا إلى آخر ما يسمح به لنا من البقاء .

وكان ابن عمي يعرف ان البعض من (العاملين) بل ان شخصاً من اهل بعلبك ــ وقد اورد اسمه ــ ممن يقيمون في النجف كطلاب علم ، فراح يسأل ممن كنا نرى من المعممين فدلونا على (مسجد الهندي) وقالوا لنا ان كثيراً من الطلاب يحضرون في الصباح لتلقي علومهم في هذا المسجد وان علينا ان ننتظر غداً لكي نرى هناك هذا الجمع عسى ان يدلنا البعض على من نريد ،

وفي الليل قصدنا مسجد الهندي حين علمنا بان المبيت فيه جائز لبعض الغرباء ، ففضلنا المبيت فيه على الخان الذي أعدّ لنزول الزوار مجاناً ، وكم كانت فرحتنا كبيرة حين اهتدينا في الصباح إلى من كنا نريد الوصول اليه ، وقد تعجب هذا من مغامرتنا وكوننا قد قطعنا هذه المسافة الطويلة ماشيين على اقدامنا واننا ننوي مواصلة السفر إلى خراسان على هذه الوتيرة ! !

وبواسطة هذا الشخص تعرفنا إلى بعض الطلاب العامليين وكان معظمهم يعرفون اسرتنا بالأسم ، فرّحب الكثير منهم بنا ، والبعض منهم دعونا في مدارسهم لتناول الغداء الذي كانوا يعدّونه هم انفسهم بانفسهم في غرفهم في المدرسة ، وقد حبّب لي زهدهم هذا حياة المدرسة ، ولاول مرة اشعر بارتياح لا عهد لي بمثله من قبل وانا ارى هذا الجمع الذي يسكن هذه الحجرات من هذه المدرسة ، بل وجدتني أتمنى ان اكون واحداً من هؤلاء ، ثم سألت نفسي من يدريك أن لا يكون هذا هو طريق الايمان الذي طالما لهج به لساني؟ ولكن اين لي مثل هذا التوفيق لاجد نفسي ذات يوم ضمن هؤلاء الطلاب احمل

كتابي في يميني كل يوم ، واقصد الحرم في اوقات الصلاة ، وأعدّ لنفسي الطعام بهذه البساطة التي يعدّ فيها طلاب المدارس طعامهم ،

ومكثنا في النجف اياماً ربما بلغت اسبوعين وقال لي ابن عمي ان علينا ان نقصد بغداد لكي نجدد العمل في اطراف الكاظمين إذا وجدنا العمل قد بدأ من جديد لكي نجمع مبلغاً آخر نستعين به على السفر إلى (خراسان) وقد رأينا من الصلاح ان يسافر هو ويتركني هنا في النجف حتى اذا اطمأن من عمله اوصى لي بواسطة هذه المدرسة والطالب العاملي بالالحاق به والا عاد ليقضي معي اياماً أخر في النجف ثم نغادرها إلى خراسان .

وسافر ابن عمي وصارت ملازمتي للطلاب العامليين اكثر من ذي قبل فلم اكن افارقهم الا ليلاً ملتجئاً إلى مسجد الهندي الذي زاد اهتمام الخادم المتوكل به بي بسبب الوصية التي تلقاها من الطلاب العامليين بشأني .

وسألت نفسي ذات ليلة : لم لا احاول البقاء هنا في النجف لتلقي العلم واترك زيارة الامام الرضا عليه السلام إلى وقت آخر ؟ فقد بدأت اعتقد ان هذا هو الايمان المنشود ، وان في هذا رضا الله تعالى ، ولو لم يكن ذلك هو لما جاء إلى النجف الآلاف من طلاب العلم من أقصى البلاد إلى اقصاها ، وصممت على ان اذاكر الشيخ العاملي الذي برّ بنا والذي اتخذناه ملجأً لنا وعنوان الوصول الينا .

وفي الصباح كانت موجة من الآمال تغمرني فلا اكاد استقر على حال من الفرح وانا بعد لم ار الرجل ولم اكلمه ولم اعرف رأيه .

والتقيته ظهر ذلك اليوم في المدرسة وعرضت عليه رغبتي فبشّ في وجهي وتلقاني بفرحة كبيرة ، وقال لي انه ليس اسعد منه حظاً ان يكون هو السبب في ادخال شخص علويّ مثالي في زمرة طلاب الدين الذين ربما انتفع بهم الناس حين يصبحون مرشدين ودعاة اصلاح وقدوة خير .

قلت ولكني لا املك من دنياي الا بضع (ربيّات) فكيف لها ان تضمن لي العيش ولو بشظف وتقتير ؟

قال : ليس هنالك من بأس . فانا استطيع بواسطة استادي التوسط لدى احد المراجع الدينية وهو المرجع الروحاني الكبير الشيخ احمد كاشف الغطاء بان يخصص لك في اليوم بعض الارغفة من الخبز تتسلمها كل يوم من الخباز على حسابه كما يفعل طلاب العلم الذين لا مورد لهم ولا معين .

ولا تسل عن فرحتي فكأنك قد أعطيتني الدنيا بجميع خيراتها . واصبحت منذ ذلك اليوم طالب علم ولكني لم اجد بعد ملجأ آخر آوي اليه ليلا غير مسجد الهندي .

وارسل ابن عمي من الكاظمين يدعوني اليه . ويخبرني بان العمل وافر هنا . وانه قد بدأ العمل . وينتظر مجيئي . وحرت كيف استطيع الرد على وصيته واعتذاري من الرواح . ثم تلقيت وصية اخرى منه يستعجلني فيها على اللحاق به ولكن لا طريق للرد عليه .

وبعد ايام وفّق الشيخ العاملي للحصول على نصف وقيّة من الخبز اي ما يعادل رغيفين يدفعهما لي خباز معيّن في كل يوم ويقطّ ذلك قطّة على عود من الصفصاف تجمع بعد ذلك عدد القطّات فيعرف منه كم وقيّة كان قد دفع لي في كل شهر . ثم وجد لي غرفة صغيرة في مدرسة المشراق كان قد تركها ساكنوها للخطر المحدق بها من كثرة الفطور البادية على سقفها وجدرانها وما يتساقط منها بين آن واخر من التراب والحجارة . وقال لي انه مسكن مؤقت وسنسعى لتبديله في اول فرصة ونحصل لك على حجرة جيدة في هذه المدرسة نفسها او في مدرسة أخرى .

واقبلت على الدرس بشوق كثير . واحسست انني ادنو إلى الايمان المنشود ، وانني احقق بعملي هذا شيئاً من رضا الله تبارك وتعالى ، وحين يئس مني ابن عمي ترك العمل في الكاظمين وجاء يستفسر عن حالي في النجف وهو في اشد

ما يكون من القلق علي ، فألفاني وقد تغيرّت بزّتي ، فها اناذا اعتمر عمامة سوداء واقبع بعباءة ، واتمنطق بحزام من القماش ، فدهش وتعجب ، وعرض علي السفر فرفضت ، وقلت له انني صممت على ان لا اخرج من النجف الا وقد اشبعت رغبتي من الدرس والعبادة ، فقال لي ولكن من اين ستعيش ؟ قلت : ان الله الذي يرزق النملة بل وادق من النملة لا يعجز ان يرزق انساناً له عينان ويدان ، ورجلان ، وعقل ولسان ، فانصرف ابن عمي إلى خراسان وبقيت انا ادرس العلم في النجف ! !

وحين عاد ابن عمي من خراسان عرض عليّ العودة إلى بلادنا إلى (شمسطار) فأبيت ، وكنت أشد عزماً في البقاء ، وقال لي : وبماذا اجيب اهلك وقد كنت انا الضامن بان اعيدك اليهم ؟ فقلت له : اني لست طفلاً . فانا اليوم أحسن التصرف ، وقد صممت على ان لا اخرج من النجف الا وانا مطمئن البال باني قد نلت مبتغاي ، فتركني وراح

• • •

هذا باختصار ما قص به علي السيد حسين البعلبكي ، او السيد حسين الحسيني ذات ليلة ونحن في مجلس سمر ، وقد نسيت الشيء الكثير من الحوادث ، ونسيت الاسماء التي ذكرها لي ، والاشخاص الذين جاء ذكرهم في معرض الحكاية فلم يبق في ذهني الا القليل القليل الذي اشرت اليه هنا .

وظهرت بوادر هذا الايمان جلية على السيد حسين فقد انقطع إلى الله وكانت القناعة احدى ضروب هذا الايمان فقد عاش على رغيفين من الخبز زمناً طويلاً وطالما اكل الرغيف بدون ان يؤدمه بادام واذا صادف له ما يستطيع ان يستعين به على تأديم رغيفه فلم يكن يزيد هذا الأدام على حفنة من التمر ، وكان الكثير من الطلاب العاملين يمدهم اهلوهم بالحوالات بين آونة واخرى ، بل ان الكثير منهم لا يقدم على السفر من بلاده إلى النجف الا ويكون اهله قد رتبوا أمره ترتيباً يضمن له البقاء ، ومواصلة الدرس ، وان ما يحصل عليه من

معونة من العلماء فهو من الامور التي يكون حكمها حكماً لم يجر في الحسبان ، اما السيد حسين فلم يغادر بلده على هذا الأساس لذلك فان المعوّل في بقائه في النجف كطالب علم عليه وحده وعلى المقدرات .

وفي مدة قليلة عرف السيد حسين بين اوساط الطلاب بالتقوى ، ولكنها كانت تقوى بعيدة عن التزّمت ، والحذلقة ، وما شابه ذلك مما كان يعرف به الكثيرون من الزهّاد والعبّاد الذين كان من اجلى مظاهرهم العبوس والتجهّم ، اما السيد حسين فقلما رآه احد وهو عابس ، وقلما كلّمه شخص ولم يجد الضحكة الحلوة مطبوعة على سحنته كلها وليس على شفتيه وحدهما.

ولست أدري كيف قضى السنين الاولى ، والى كم ظلّ على هذه الشاكلة زاهداً ، قانعاً ، غير شاك يملأ ملتقيه بشيء كثير من الفرح ، والمرح الدال على صفات المؤمـــن ، ويجنب لسانه الذم ، والشتم ، واللعن ، فلا احسب احداً قد سمع منه يوماً ذمّاً او قذعاً ، ولا احسب ان احداً سمح لنفسه ان يعادي هذا الرجل ، او يأخذ عليه خلّة ممقوتة .

وحين يئس ابن عمه من اعادته إلى لبنان عند رجوعه من خراسان اخبر اهله بان ابنهم فضّل ان يطلب العلم ، ويتفقّه ، ويعيش عيشة الضنك على عيشة اهله التي بدأت تتحسن بعد زوال آثار الحرب حتى كادت تصبح طبيعية اذ بدأت الارض و (الرزقات) كما يسميه اللبنانيون تعطي انتاجاً جيداً فانتعشت بذلك القرى اللبنانية وفي ضمنها (شمسطار) ، وحار أهل السيد حسين في الطريقة التي يوصلون المعونة التي تحصل ممن يعرفون لابنهم في النجف كما يفعل بقية الأهلين مع ابنائهم الذين يطلبون العلم هناك .

واخيراً ، رأوا أن يكتبوا إلى الشيخ حسين همدر بان يبحث لهم عن مقر السيد حسين وعنوانه ويطلبوا منه ان يدفع له مبلغاً معيناً ، والشيخ حسين همدر من العلماء الفضلاء سكن النجف كطالب علم ، وبلغ مرحلة مرموقة من الفقه إلى جانب ما اتصف به من الورع والتقوى بحيث كان من اشهر شيوخ العامليين

ومن اكثرهم جاهاً في النجف ، وكان من السهل على الشيخ حسين همدر الاهتداء إلى السيد حسين البعلبكي بسبب كثرة العامليين الذين يزورون الشيخ حسين همدر في بيته ، او الذين يلتقون به في الحرم الشريف وفي المجالس النجفية ، لذلك ما كاد يسأل عن السيد حسين البعلبكي حتّى اهتدى اليه وسرّه ان يسمع عنه كل ما يشرّف الطالب الروحاني من مديح واطراء . وكان ان تعرّف به ، وابلغه رسالة اهله وسلّمه المبلغ المحوّل بواسطته ، واصبح بعد ذلك هو الوسيط في ايصال ما يرسل اليه على سبيل المعونة بين آن وآخر ، وعلى مرور الزمن استطاع السيد حسين البعلبكي ان يشغل من محبة الشيخ حسين همدر محلاً ، وان يتملك شيئاً من اعجابه كطالب علم مجدّ في طلبه ، وتقيّ متمسك بتقواه ، فزوّجه ابنته ، وبرهنت بعد ذلك الايام على انه قد وضع الامر في موضعه وانه اختار الصهر المناسب من حيث الدماثة واللياقة .

والشيخ حسين همدر هو صهر آل الأمين فقد تزوج بشقيقة المجتهد الكبير السيد محسن الأمين العاملي لذلك ارتبطت عائلة السيد حسين البعلبكي من آل الحسيني بزواجه بعائلة الأمين وآل همدر واتسعت هذه الروابط .

وكانت هذه الروابط بآل الأمين من دواعي انضمام السيد حسين البعلبكي إلى الجماعة التي ايّدت الدعوة الاصلاحية التي قام بها السيد محسن الأمين ، الأمر الذي جعل روابط المعرفة بيني وبين السيد حسين البعلبكي تشتد وتتوثق ، ومع ذلك فلم تكن تلك الروابط بالشدة التي كانت بيني وبين الاخرين من العامليين امثال الشيخ محسن شرارة او حسين مروة . او محمد شرارة ممن كانوا يتفانون في الدعوة إلى مبادىء السيد محسن الأمين العاملي ذلك لان حماس السيد حسين البعلبكي لم يبلغ درجة حماسنا يومذاك ، ومع ذلك فقد كان من هذا الحزب الذي اطلق عليه اسم (الامويّين) نكاية به .

وفي اوائل الثلاثينات استجاب السيد حسين دعوة بلده وسافر إلى لبنان ليتولى هناك الارشاد الديني وقد زوّد من قبل علماء النجف بشهادة الجدارة الروحية والعلمية لتولي وظيفة الارشاد الديني وحل المشكلات الخاصة بالاحوال

الشخصية من زواج وطلاق وارث ووقف وغير الشخصية .

وفي لبنان طغى عليه لقب اسرته المعروفة ولم يعد احد يدعوه بالبعلبكي وانما صار يدعى بالسيد حسين الحسيني ، وكانت النجف قد عقدت بين الحسيني وبين بعض اللبنانيين والعامليين من طلاب العلم صلات صداقة وثيقة ، وحين تم لبعض هؤلاء الاصدقاء العودة إلى لبنان لتولي وظيفة الارشاد الديني في بلدانهم ازدادت هذه الصداقة في لبنان وثوقاً ، واشتدت أواصرها اكثر مما كانت عليه في النجف ، خصوصاً بعد ان دخل قسم من هؤلاء الاصدقاء المحاكم الشرعية ، قضاة ، ومستشارين ، ومفتين ، ومدرسين ، وكان السيد حسين الحسيني احدالداخلين في زمرة القضاء الشرعي وتعيينه مفتياً للقضاء الشرعي الجعفري ببيروت ثم ما لبث حتى صار مفتياً ممتازاً .

وتوثقت هذه الصداقة اكثر ما توثقت بين السيد حسين والشيخ حسين الخطيب خصوصاً بعد تولي الخطيب رياسة المحاكم الشرعية ، وبين السيد نور الدين شرف الدين ، وصار هؤلاء الثلاثة بمثابة الاثافي الثلاث في صداقة قل نظيرها في عالم الصفاء ، والمحبة ، والاخاء ، فلا يفصل بعضهم عن بعض فاصل ، فاذا وجهت دعوة ما إلى احدهم فلن تكون هذه الدعوة كاملة تامة ما لم يحضرها العضوان الاخران ، لذلك قلما وجد احدهم في محل لا يوجد الاخران فيه ، واتسعت دائرة هذه الصداقة ودخل فيها عدد كبير ممن تلقوا العلم في النجف ، ولكن هؤلاء الثلاثة كان لهم لون خاص يميزهم بين الاصدقاء الاخرين فقد كانوا دائرة مستقلة خاصة وسط تلك الدائرة الواسعة العامة .

وكما يفعل طلاب العلم في النجف عندما ينشدون اللهو ، والسلوان ، فيلجؤون إلى الشعر تقفية ونظماً ، فقد كان ديدن هذه الجماعة في وقت الفراغ المساجلة بالشعر ، والمناقشة في الشؤون الادبية ، وتقفيـة الشعر إلى جانب المباحثة في الاحكام الشعرية ، لذلك فكرّ هؤلاء الاصدقاء بان يؤسسوا جمعية تحقق لهم اجتماعاً متواصلاً يكون بمثابة الندوة الادبية العلمية فأسسوا (جمعية الارشاد) ببيروت ، واستأجروا لها محلاً في وسط المدينة ، وأثثوه تأثيثاً جيداً

وزودّوه بتلفون ، وفرّاش ، وخصوا جانباً منه بمكتبة تبرع بمعظم كتبها الاعضاء انفسهم وبعض الوجهاء والادباء .

وصار هؤلاء الثلاثة : الحسيني والخطيب ، وشرف الدين، بصورة خاصة اكثر التزاماً بالحضور في هذه الندوة ، وكان السيد علي ابراهيم الشاعر المعروف وهو رئيس قلم المحكمة العليا ملازماً لهذه الندوة بل هو الذي يمسك بديوان الشعر ويقرأ احدى القصائد ليشرع الحاضرون بالتقفية ، فاذا ما جاءت القافية عند بعضهم نابية بعض النبو اقام السيد علي ابراهيم الدنيا واقعدها ، وراح يذيع بين الاخوان والادباء ممن لم يحضر ندوة التقفية نوادر يحيكها نفسه بقصد الدعابة ، وينسبها إلى الذي خانته الاصابة في تعيين القافية ويتحمل الجميع مثل هذه الدعابة من السيد علي ابراهيم لما عرف به من ظرف وأدب حتى صار في الغالب بمثابة (الداينمو) عند سرد النكت واختلاق النوادر ، ونسبة المختلقات من الاقوال إلى من لم يكن له فيها شأن ، ولكنها الفكاهة وهي من بعض ما يحبّب السيد علي ابراهيم لمن يعرفه .

وحين استدعاني عملي وهو الاشراف على طبع موسوعة العتبات المقدسة ببيروت تجددت هذه الصداقات بيني وبين من كنت اعرف من هؤلاء يوم كانوا يطلبون العلم في النجف معرفة اسمية ، ام حقيقية ، واصبحت لي بالسيد حسين الحسيني صداقة أمتن واوثق مما كانت ، واكتشفت في الرجل صفات اكثر مما كنت اعرف بكثير من حيث تقواه وطهارة نفسه ، وعفته ، واباؤه ، ثم أضيف إلى سجل صداقاتي الوثيقة اسمان اعتززت بهما كثيراً وهما العنصران الاخران من المثلث الباهر : الشيخ حسين الخطيب رئيس المحاكم الشرعية العليا والسيد نور الدين شرف الدين ، وهذا الصديق الاخير الذي يقرّ في سويداء قلبي اليوم لم يكن معي على حال من حيث المبدأ يوم كنا في النجف فقد كان هو من حزب الحسينيين الذي لم يكونوا يرون بأساً في ضرب الرؤوس بالسيوف وكنت انا من حزب الامويين الذين يحرّمون الضرب بالسيوف ولكننا في بيروت اصبحنا من حزب واحد .

وكنت قد عرفت السيد علي ابراهيم مما كان ينشر في العرفان من تراجم لاعلام الشعراء والمغمورين منهم ، وزاد اعجابي به يوم عرفته عن كثب وسلمته قياد نفسي عن طيب خاطر . فكنا نجتمع في مقر جمعية الارشاد بالاضافة إلى ما كانت تجمعنا الولائم العامرة التي كان يقيمها لنا الشيخ حسين الخطيب في قريته (بتمنين) ، والشيخ حسين الخطيب من فضلاء اهل العلم ومن كرماء هذه الزمرة الروحانية الذي طالما شملت الطافة الجميع ، وقد لقح القضاء الشرعي بصفته رئيساً للمحاكم الشرعية الجعفرية العليا ببعض العناصر الموصوفة بالمقدرة والنزاهة ، فكنا نقضي اياماً وليالي من اوقات فراغنا في بيته ، يذبح فيه لنا الخراف ، ويعدّ انفس المأكولات ، ويهيء لنا منتدى ادبيّا عامراً بالشعر ، والطرائف ، لا سيما وهو شاعر وله شعر جيد على رغم كونه ، مقلاّ ، وطالما قضينا الليل كله سامرين بالشعر في بيته ، ومن اشهر سمارنا السيد نور الدين شرف الدين ، والسيد حسين الحسيني ، اما السيد علي ابراهيم فلم يكن لاحد منا غنى عنه ، ولم يقتصر أنسي به على وجودي ببيروت وانما كان يلاحقني برسائله إلى بغداد وينقل لي كل ما كان يجدّ في عالم الاخوانيات ، والطرف الادبية ، التي كانت تحدث بعدي ، ولا مانع لديه ان يلّفق الكثير مما لم يقع وينسب الكثير مـــن النكت والنوادر إلى اصحابنا ولاسيما السيد حسين الحسيني سواء أوقعت هذه النكت حقاً ام لم تقع .

وقد كتب لي ذات يوم يقول : ان ندوة الجمعية قد ماتت ... ومنها ان قراءة الشعر والتقفية اصيبت بنكسة فقد كنا في مجلس بدار بيروت وعند السيد محمود صفي الدين –يقول السيد علي–وقرأت لهم قصيدة(دالية)بقصد التقفية فكانت قافية الشيخ حسين الخطيب التي قفى بها القصيدة الدالية هي قوله (الصدر) وان قافية السيد نور الدين شرف الدين كانت : (يلَطُم) وقافية السيد حسين الحسيني المفتي كانت : (غشمشمُ) في حين ان القافية كانت (دالية) فاعرف – كما يقول السيد علي ابراهيم – كيف انتهى الأمر بهذه الجماعة ، ثم يصف لي اجتماعهم هذا (بدار بيروت) وكيف جرت هذه التقفية .

ويعلق الشيخ حسين الخطيب والسيد حسين الحسيني على هذه الرسالة بحاشية ينفيان فيها قول السيد علي ابراهيم ، وكان مضمون تعليقهما واحداً وهو نفي الصدق بالمرة في اقوال السيد علي ابراهيم ، واذا بالرسالة اشبه بالكتب الصفراء القديمة التي تحوطها الحواشي والتعليقات من كل جانب ، وقد وجد السيد علي ابراهيم نفسه مغلوباً فوقف على رأس الشاعر الاديب خليل الهنداوي مهدداً وطلب منه ان يؤيد اقواله وينفي قول الخطيب والحسيني فكتب الهنداوي هذه الحاشية على تلك الرسالة قائلاً :

« أمرت بان اكون – هنا – كأنني غير كائن ... لذلك فاني اصادق – بدافع النية الطيبة – على كل ما ورد في رسالة السيد علي ابراهيم ، وان لم يكن معقولاً ولا مقبولاً مع رفع الدعوى اليك لتحكم لي او تحكم علي » .

وقد أجبت الاستاذ خليل الهنداوي بارجوزة ، وطالما استعملت الاراجيز لسهولتها وسرعة نظمها وانتهيت منها بتحويل الأمر إلى الشيخ محمد زغيب ، وكان يومذاك قاضياً ، وذلك لما اعرف له من عضلات مفتولة سبق ان رأى السيد علي ابراهيم منها الويل ، حتى لقد قيل ان الشيخ زغيب قد كسر للسيد علي ابراهيم ضلعاً والعهدة على الرواة .

اما الارجوزة التي بعثت بها للشاعر خليل الهنداوي فهي :

حكّمني صديقي الهنداوي ... نزهه الله من المساوي
يطلب منّي ان اقول فيه ... ما انا ادريه وأرتئيه
وهو بمجلس من الاحباب ... نشوته بالشعر لا الشراب
ما فيه غير العالم الاديب ... كشيخنا المبرّز (الخطيب)
والسيد (المفتي) رعاه الله ... من تضرب الامثال في فتواه
والمستشار الفاضل الرصين ... أعني به السيد نور الدين
والشاعر المشاغب الحبيب ... ذاك الذي سكناه في القلوب [1]
ليس به عيب سوى المزاح ... يهني الكباش للنطاح

(١) المقصود به السيد علي ابراهيم

ويعتدي على حقـوق العلما ويفتري عليهـم متّهمـا
وهو يريد ان يكـون مزحه جداً ، كما يأتيك مني شرحه
يقول : في يوم من الايـام دعا جماعة من الاعـلام
مقترحاً بان يقفّوا الشعـرا وان يخوضوا النظم بحـراً بحراً
حتى أتوا (لدار بيروت) ضحى يمشون صفاً في وقـار مرحا
وسلّ من رفّ بها عريـض ديـوان شعر محكم القريض
وقال هذا الشاعر المولّـع : بالافتراء : قلت للقوم : اسمعوا[1]
ورحت أجاو صوتي الرخيمـا أنغّـم الشعر بـه تنغيما
اتلو لهـم قصيدة (داليّـة) كالراء قيل انها مطيـة[2]
وقلت للشيخ العظيم القـدر : قَفْ ، فقفّى (دالها) بالصدر
وقلت للاخر يا من يفهـم قَفْ ، فقفّى (دالها) بيلطـم
وقلت للثالث انت الأعلـم قَفْ ، فقال : انها غشمشم
فصحت من اعماق قلبي الدنف واضيعة العلم بارض النجف
يا ضيعـة الفن وضيعة الادب وضيعة الجهد وضيعة التعب
فان يكن ما كان من مثالـه صلّوا على محمد وآلـه
ولنقرأ الفاتحـة المألوفـة ولننعَ في (الغريّ) نحو الكوفة

* * *

وكان من حضار ذاك النادي الشاعر المعروف في البـلاد
أعني به صديقنـا الهنـداوي الصابر المهضوم في (الدعاوي)
قـال له شاعرنـا المشاغب إشهد : باني صادق لا كاذب
فأيّ (الخليل) قول الرجـل بدافع الخوف وداعي الوجل
وجاءني يسألني ما حكم من ؟ بدافع الخوف يؤيّد الفنّ؟
فقلت هذا الحكم دون ريب من اختصاص شيخنا (زغيب)

* * *

(١) المولع بالافتراء هو السيد علي ابراهيم
(٢) المقول ان الدال والراء مطية الشاعر

واشتدت اواصر الصداقة بيني وبين هذا المثلث وحاشيته ممن كنت اعرف بعضهم يوم كانوا يطلبون العلم في النجف وممن لم يسبق لي التعرف بهم من قبل، وصرت لا افارق مجالسهم وعلى الاخص بيت الشيخ حسين الخطيب ، وبيت السيد حسين الحسيني ، وبيت السيد نور الدين ، بالاضافة إلى مقر جمعية (الهداية والارشاد) ، وان تخلفت مرة قصدني هولاء الثلاثة بسوق الغرب حيث اقضي فصل الصيف هناك بفندق فاروق ، والى جوار صديقي الدكتور امين زهر ، فكانت الاوقات التي تمر علي بينهم من اسعد ما مرّت علي في حياتي ، اذ كانت نسخة طبق الاصل من مجالس النجف ، بل كثيراً ما كانت تمتاز على بعض مجالس النجف بما كان يسود هؤلاء الثلاثة من اخاء ، وصداقة ، يعجز عن وصف عمقها الكاتب ، واذا ما انتهى عملي في الصيف وتم طبع جزء او جزئين من موسوعة العتبات وعدت إلى بغداد اعتضت عن تلك اللذائذ الروحية برسائلهم التي كان يتجلى فيها بل وفي كل سطر منها اخاؤهم ، وتفاني بعضهم في بعض ، مما قد يفوق المألوف .

والسيد حسين الحسيني يمتاز بشيء كثير من طهارة النفس والقدسية التي تجتذب بها النفوس ، وقد صحبته مرة لنشتري آنية خاصة ، طُلب مني ان ابحث عنها في بيروت واشتريها ، وفي نتيجة المساومة بدا على البائع شيء كثير من روح التساهل حتى لقد اخرج لي دفتر مبيعاته واراني الفرق في ثمن هذه الآنية التي بيعت لغيري باغلى مما بيعت لي ، وسألت البائع : ولكن ما الذي دفعك بان تخصّني بهذا اللطف وانا غريب كما يستبان ذلك من لهجتي ؟ قال لي : لقد جذبني هذا الرجل – يعني السيد حسين – بروحانيته مع اني مسيحي وهذا الرجل روحاني مسلم ! ! !

وقال لي السيد محمود صفي الدين صاحب دار بيروت – وكثيراً ما كنا نجتمع في مكتبة (دار بيروت) ونشغله عن عمله بالمساجلات الادبية ، والمباريات لقد قال لي ما رجعت مرة إلى السيد حسين الحسيني مستخيراً الا وأتت استخارتي على يده باحسن الحلول ، وقد كنت تركت مرة سبعة عشر الف ليرة استرلينية ،

او قال ليرة لبنانية ونسيت انا ذلك ، قال لقد تركت هذا المبلغ في مصرف في القاهرة لاجراء صفقة من المشاركة التجارية بيني وبين احدى دور النشر المصرية وكان القرار ان اسافر إلى القاهرة لعقد تلك الصفقة ، ورأيت بعـد ذلك كما هي عادتي ان الجأ إلى الاستخارة (بالسبحة) عند السيد حسين ، فكانت الاستخارة نهياً عن اجراء هذه المشاركة ، ثم كانت الاستخارة تفرض الاستعجال في استعادة المبلغ ، ولما كنت ملتزماً حسب العادة بتنفيذ نتائج الاستخارة بادرت باسترجاع المبلغ حوالة برقية ، وما كاد يتم ذلك حتى صدر البيان المصري بمنع تحويل المبالغ ! ! فلو كنت تأخرت يوماً لتعذرت اعادة المبلغ الي .

ثم قال : ومثل هذا الشيء الكثير الذي تمّ على يد السيد حسين ، فقلت له : وهـل ترجع في استخاراتك إلى غيره ؟ فقال : ربمـا ولكن ايماني ببركة هذا السيد وقدسيته هو الذي يبعث في نفسي اليقين بصدق استخارته ! !

• • •

مرت علي بضع سنين وانا ناعم بهذه الصداقة مع هذه الزمرة في الصيف بلبنان ، وناعم برسائلهم في الفصول الاخرى بالعراق ، حتى جـاءت سنة ١٩٦٩ وهي السنة التي كسب فيها قيام المجلس الشيعي الاعلى بلبنان صفته الشرعية ، وتوجه الرأي العام إلى انتخاب الامام السيد موسى الصدر رئيساً للمجلس ، فانشق هذا المثلث وحاشيته على نفسه ، وجاءت الساعة التي تذرّ هذه الصداقة التي كان يحسدهم عليها الناس في الهواء كما لو كانت هذه الصداقة تبناً او قشاً فقد انفرد الشيخ حسين الخطيب والسيد نور الدين شرف الدين وبعض الاتباع بالمعارضة ، وانضم السيد حسين إلى الرأي العام الذي كان يرشّح الامام الصدر للرياسة ، وشق على الصديقين المذكورين مثل هذا الانشقاق ولكن السيد كان مؤمناً بصحة رأيه ومعتقداً بأنه يستجيب لداعي ايمانه وان قعوده عن التأييد سيكون مصداقاً للقول المأثور : (الساكت عن الحق شيطان أخرس) وهذا ما قاله لي بالنص ، لذلك لم يكتف بالتأييد ، بل عقد مجلس الانتخاب في

في بيته ، وفي هذا البيت ثم انتخاب الامام الصدر للرياسة ، وتفصّمت عروة تلك الصداقة الزاهية ، التي كانت مضرباً للأمثال ، وتباعدت النفوس ، فلم تعد تلتقي الا لماما ، وفي مناسبات اضطرارية .

وكانت تشدني الصداقة الروحية إلى زمرة اخرى بلبنان كانت تؤيد السيد حسين الحسيني في موقفه كان من بينها الشاعر السيد عبد الرؤوف الامين المعروف (بفتى الجبل) وكان السيد محمد الحسن يوسف المستشار القضائي السابق ، اما فتى الجبل فقد كنت اعرفه من النجف ايام انتدب ليدرّس اللغة العربية في ثانوية النجف ، وهو شاعر مبدع ، أبي النفس ، حلو السجايا ، ومن آل الامين المعروفين ، واما السيد محمد الحسن فقد كنت اعرفه على البعد حتى اذا جئت بيروت تم بيني وبينه التعارف ثم جرّ إلى الصداقة وتوثقت هذه الصداقة فنعمت بصحبته كما نعمت بصحبة (فتى الجبل) بالنظر لفضلهما وادبهما وما عرفا به من غيرة ، وحماس ، وكنت كثيراً ما اقضي شطراً من اوقاتي مدعواً على مائدتيهما ، أو مجتمعاً بهما في (جمعية الهداية والارشاد) او ناعما بزيارتهما لي بسوق الغرب ، مع السيد حسين الحسيني او بدونه ، وكنت أحس بانهما ليسا على وفاق تام مع ذلك المثلث باستثناء السيد حسين ، ولما حصل الاختلاف في انتخاب (المجلس الشيعي الاعلى بلبنان) ظهر عدم الوفاق هذا بصورة تذمّر ، ونقد ، واستهجان ، حتى تجاوز المجالس الخاصة إلى المجالس العامة .

وكان السيد محمد الحسن والسيد عبد الرؤوف الامين هما الاخران لم ينقطعا عن مراسلتي وانا غائب عن لبنان ، وكانا ينقلان لي الشيء الكثير مما حدث ويحدث بسبب هذا الاختلاف ، كما ان السيد علي ابراهيم لا يترك صغيرة ولا كبيرة الا وكان ينقلها لي في رسائله ، اما رسائل الشيخ حسين الخطيب والسيد نور الدين شرف الدين والسيد حسين الحسيني ، هذا المثلث الذي تصدّع وصار شذر مذر في عالم الصداقة فلم تزد رسائلهم على اشارات عابرة خفيفة لا يتجاوز مؤداها العتب والأسف لما حدث بينهم .

ولم يكن هناك من يستطيع ان يعيد المياه إلى مجاريها لان سوء التفاهم قد تفاقم وآل إلى شيء يقارب الاستحالة في عودة الصفاء ، وكنت انا ممن يؤاخذ على سكوته لانني كنت صديق جميع الاطراف وان اختلفت مع البعض في الرأي ولكن اختلاف رأيي هذا لا يتجاوز حدود قول احمد شوقي :

« واختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية »

فانا احب جميع هؤلاء الاطراف ولايمس محبتي كوني اختلف مع بعضهم اختلافاً جوهرياً فيما يذهبون اليه ، وليس في ذلك من عجب ما دام هناك من السور والايات القرآنية التي تعد مثل هذا أمراً مألوفاً وطبيعياً :

« قل يا ايها الكافرون ، لا اعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما اعبد ، ولا انا عابد ما عبدتم لكم دينكم ولي دين » .

فكيف وليس بين هؤلاء الاصدقاء من يجوز لنا نعته بالكفر ؟ .

وتلقيت على اثر هذه الخصومة التي وقعت بين الاصدقاء من السيد عبد الرؤوف الأمين قصيدة رداً على رسالة اعتذار وجهتها اليه بسبب فقدان رسالة سابقة ابردتها اليه فضاعت في البريد ، وفي هذه القصيدة ينعى فتى الجبل تلك الصداقة المشرقة التي كانت تجمع بين السيد حسين الحسيني ، والشيخ حسين الخطيب ، والسيد نور الدين شرف الدين ويقول :

أبا (هاتف) وافى كتابك حاملاً ... إليّ اعتذاراً عن ضياع الرسائل
وان الذي بيني وبينك عامـــر ... وان زال (صنّين) فليس بزائل
ومن عادتي ان لا أخادع صاحبي ... وان لا أدانيه دنّو المجامـــل
وان وفائي لا تصنّع عنـــده ... وفاء امرىء يصبو لكسب الفضائل

* * *

(أبا هاتف) لا تبعـــدنّ فانني ... أحن إلى لقيا الأديب المناضل
أحنّ إلى (وادي الفرات) واهله ... حنيني ــلما كنت فيهــ (لعامل)
إلى (النجف الاعلى) إلى المرقد الذي ... حوى من حمى الاسلام من كيد جاهل

إلى أمسيات عذبة ذكرياتهـــــا   إلى مجلس في الشعر والانس حافل
إلى (ندوة)[1] قد كنت انت عميدها   تقول فلا تبقي مجالاً لقائل

* * *

أبا هاتف ان الذين عهدتهـــــم   هنا عصفت فيهم رياح المشاكل
تشتت ذاك الشمل بعدك وانتهى   إلى حالة لم يرضها اي عاقل
فعجّل عسى ان يجمع الله شملهم   فتبعدهم عن شر تلك الغوائل

والسيد عبد الرؤوف شاعر من المع شعراء العربية ، له قصائد عامرة لا يستطيع تاريخ الشعر اللبناني ولا تاريخ الوطنية العربية الصادقة ان يغفل ذكرها والاشارة إلى مواطن البراعة في نسجها ، وكان آخر ما نظم قصيدة في ذكرى بشارة الخوري (الاخطل الصغير) كانت من أبرع ما انشد من الشعر في تلك الحلبة ، وكان يمنّي نفسه بان يحيلها على التقاعد ويستعفي من وظيفته كمفتش عام لوزارة الشؤون الاجتماعية بلبنان وينصرف إلى بحثه وتأليفه في مزرعته الخاصة في (الصوّانة) التي استضافني فيها ودلّني على مواطن اللذائذ الروحية حين يركن الشاعر إلى أفيائها ، وقال لي انه يفكّر في جمع شعره في ديوان ربما بلغ جزئين او ثلاثة وطلب مني ان اكتب له المقدمة في هذا الصيف وكان يعني به صيف ٩٧٠ فتشرفت بقبول هذه الدعوة ولكنه توفي ولم يحقق بعد هذه الامنية وكانت وفاته لي كارثة روحية لم تزل تعذبني ذكراها حتى هذه الساعة التي اكتب بها هذه الكلمة .

السيد عبد الرؤوف الامين (فتى الجبل)

---

(١) يريد بها ندوة جريدة الهاتف في النجف

وحين ارسل لي فى الجبل القصيدة المتقدمة التي يشكو فيها هبوب تلك العاصفة التي فرقت بين الاصدقاء الثلاثة وحواشيهم كان الصديق السيد محمد الحسن قد قرأها واستوعب شكواها فبعث لي هو الآخر بهذه القصيدة يقول فيها :

أبا هاتف هذا (ابو زيد)[1] يشتكي   اليك شجوناً من رجال (بعامل)
حسبناهم درعاً لكل ملمّة   وللرشد والاصلاح بين القبائل
ولكنهم قد اشعلوا النار بينهم   وما سلموا من قول لاح وعاذل
طغى الحقد واستشرى فلم يبق مبصر   فوا أسفي قد دُكّ صرح الفضائل
نصحناهم كي ينبذوا الحقد جانباً   فما ذاك من شأن الكرام الافاضل
وليس جميلاً ان يسيروا بخطة   يسير عليها كل غرّ وجاهل
ولكنهم ظنوا بنا السوء والهوى   وصرنا لديهم كالعدو المقاتل
ويشهد ربي قد اردت صلاحهم   وابعادهم عن كل خبّ مخاتل
صحبتهم عمراً طويلاً وما دروا   بان الوفا والصدق بعض شمائلي
فيا (جعفر) الخيرات عجّل فربما   تنير دياجيهم ببعض الوسائل
وتدفع عنهم نقمة الشعب انه   غضوب عليهم في جميع المنازل
فقد ابعدوا عنهم اولي الفضل والحجى   وضموا اليهم كل فدم وغافل
هنيئاً لاهل الجهل من لاث عمة   على رأسه يختل اسمى المحافل
فأسأل ربي ان يفيئوا لرشدهم   فتلك اماني كل فذ وعاقل

ولم تكن هذه الاختلافات بالامر العجيب بين بعض الطبقات من المشايخ ، فانا على علم بها لاني خلقت في اوساطها في النجف ، وخبرتها بنفسي ، ولكن الامر العجيب كان في انفصام عروة هذا المثلث ، والقضاء على صداقة دامت عشرات السنين حتى ضرب بصفائها المثل ، وكان لا بد لي ان اجيب الصديقين بابيات على غرار قصيدتهما بحراً وقافية فبعثت لهما بالمقطوعة التالية وصدرتها بقولي :

---

(١) وأبو زيد كنية السيد عبد الرؤوف الامين

إلى الصديقين الكريمين ابي الحسن محمد الحسن وابي زيد السيد عبد الرؤوف (فتى الجبل) جواباً على قصيدتيهما المتضمنتين الشكوى المريرة التي يشكو منها الجميع منذ مئات السنين بدون طائل وقلت :

خليلي يا رمز الفضائل إن محا ... زماني من دهري سطور الفضائل
ويا صفوة الاخوان قد صقلتهما ... يد الله دراً لا ايادي الصياقل
لقد هجتما في النفس مني همومها ... على انني ما كنت عنها بغافل
ولكن شأني في علاجي داءها ... تجاهلها كيما تخف بكاهلي
واعرفها من الف عام مصيبة ... تشد الذي يأتي بذيل الاوائل
وشنشنة من أخزم ضربوا بها ... لهم مثلا ما في جميع المحافل
فاين لامثالي المساكين قدرة ... لاصلاح ما قد كلّ مليون عاقل
على ان لي بين الذين عنيتما ... دعاة صلاح في الامور الجلائل
احبّهم من كل قلبي وانني ... أحنّ للقياهم حنين الفصائل
ولكنني لم ادر كيف تخاذلوا ... كما انني لم ادر سرّ تخاذلي
وكلي رجاء ان يسدّد ربنا ... خطانا فنمشي دون ميل لباطل

بغداد في ٦/٥/٩٦٩

وفي شتاء سنة ١٩٧٠ زرت لبنان ورأيت بعيني وسمعت باذني ما كان قد بلغ هذا التنافر ، وكان السيد حسين الحسيني قد انفرد بمجلسه في دار الافتاء الكبيرة الانيقة وعمر مجلسه بزائريه ، وكان اغلبهم ممن تقتصر زيارتهم عليه وحده والبعض منهم كانوا يزورونه في خفية من الشيخ حسين الخطيب على ما يقول السيد علي ابراهيم ، واذكر اني حين صحبت السيد علي ابراهيم لزيارته قال لي السيد علي في الطريق : اذا بلغ خبر زيارتنا الشيخ الخطيب فانه سيستاء منا فسألته على سبيل المزاح — ذلك لان واحداً مثلي صديق للطرفين لا يمكن ان يؤاخذ على مثل هذه الزيارة —

لقد سألت السيد علي ابراهيم – ولنفرض ان ذلك واقع فمن الذي سيخبر الشيخ حسين بزيارتنا هذه .

فقال لي وهو يضحك – أنا .. قال : انا الذي لا يستقر في صدري سرّ.

وكانت مجالسنا في هذه المرة سواء في بيت السيد الحسيني او بيت الشيخ حسين الخطيب مفتقرة إلى ذلك العنصر القديم الذي كان يجمع بين اضلاع ذلك المثلث ويؤلف منه تلك الروحانية التي تغمر النفس وتملأها محبة، وكانت هنالك دواع تحول بيني وبين السعي لازالة سوء التفاهم ليس هذا محل ذكرها فتركت الحبل على الغارب ورحت انعم بصحبة كل صديق على انفراد آسفاً ، وكلمني غير واحد بما يترتب عليّ من واجب السعي في اعادة المياه إلى مجاريها فكنت اعتذر لان الدواعي التي كانت تحول بيني وبين هذا المسعى دواع خاصة، ويجب ان تظل مكتومة في الصدر لمدة معينة فضلاً عن ان مثل هذا المسعى لم يكن ليخلو من صعوبة كبرى حتى لواحد مثلي يحب هذه الاطراف جميعاً وتحبه هذه الاطراف جميعاً .

وحين تركت لبنان عائداً إلى بغداد كان في نفسي أمل قوي بأني سأقوى على رد هذه المجموعة إلى عالمها الاول ونسيان الماضي ان عدت إلى لبنان ولم ادر ان هذا الاختلاف سيصحب هذه الاطراف إلى نهاية العمر .

وحين وصلت المطار لاستقل الطائرة عائداً كان السيد حسين الحسيني ضمن الاصدقاء المودعين فامسك بيدي وأدنى فمه من كل اذن من اذنيّ وقرأ فيهما الاية الكريمة التي تقرأ في اذن المسافر عادة ليعيده الله سالماً مرة اخرى وهي « ان الذي فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد ... » فترقرقت الدمعة في عيني ولكني لم ادع احداً يراها .

وتركت السيد حسين الحسيني كأحسن ما كنت اتركه في كل مرة صحة ، وعافية ، ومن بغداد كتبت له شاكراً محبته وما غمرني به من عواطف اضعاف ما كان يفعل في المرات السابقة اذ كثيراً ما كان يقلّني بسيارته ويذهب بي

متنزهاً خارج بيروت ، ويدعوني على مائدته ويستبقني في بيته فيعقد لي مجلساً من الاصدقاء كان السيد محمد الحسن والسيد عبد الرؤوف الامين في طليعة حضاره ، وكثيراً ما كان يخرجني من الاوتيل باسم تناول الشاي عند احد الاصدقاء .

قلت اني كتبت له حين عودتي رسالة مسهبة ومرت ايام طويلة فلم يجبني عليها وحين تجاوز انتظاري الحدود المألوفة بعثت اليه برسالة ثانية وكتبت إلى بعض الاصدقاء أسألهم عنه، وكم أسفت حين علمت بانه شكا بعد سفري من اوجاع في المعدة ما لبثت ان اشتدت عليه ، حتى تحتّم ان تجري له عملية في المستشفى وبلغ الخبر صهره الشيخ محمد جواد شرّي بمشيغن ، والشيخ محمد جواد زعيم روحاني له الفضل الكبير على المسلمين في مشيغن حين جمع كلمتهم وبنى لهم جامعاً كبيراً يعدّ اليوم من اكبر جوامع المسلمين خارج الاقطار الاسلامية ، واقام لهم دار تطبيب تقوم باسعافاتهم، ومدرسة، وقاعة اضرات، وصار يحاضر الجموع باللغة الانكليزية في كل يوم احد بالاضافة إلى ايام الجمعة، فانجذبت اليه طوائف عديدة، والفّ في الاسلام، وشريعته، وفلسفته، كتاباً باللغة الانكليزية كان له اثر كبير في تعريف الاسلام لغير المسلمين .

اقول لقد بلغ الشيخ محمد جواد شرّي خبر محاولة السيد حسين دخول المستشفى ، فرجّح له السفر إلى (مشيغن) واجراء العملية هناك على ايدي اطباء مهرة ، وهناك في مشيغن اجريت له عملية كشف للتحقيق ، فثبت انه مصاب بالسرطان وبنوع الخبيث منه ، فاعيد إلى لبنان بناء على نصيحة الطبيب الذي اعلمهم بيأسه من شفائه .

وكانت تصل اخباره إلي بصورة متواصلة فيشتد قلقي عليه فلم ادر كيف اطرد شبح موته وهو لم يمت بعد من عيني ، ولكم سعيت ان أكل الامر إلى القضاء ، واستسلم لمشيئة الله فاخفقت ، وكان خبر اليأس من شفائه قد عمّ جميع الجهات وتذكر هنا الشيخ حسين الخطيب والسيد نورالدين شرف الدين عهد تلك الصداقة والمحبة فخفّا لزيارته عائدين وقيل لي ان الشيخ حسين

الخطيب حين خرج منـــه بكى ، ومن الحق ان يبكي فقـــد تذكر في تلك الساعة ان ما كان قد وقع لم يكن يستحق مثل هذا الجفاء الذي ساد اولئك الاصدقاء ، ولكن من كان يدري بان شبح الموت يستطيع ان يمحو مـــن ذهن الانسان اشياء واشياء .

ومات السيد حسين الحسيني وارتفع نعشه فوق الرؤوس ومشى خلف جنازته مندوب رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ، والوزراء ، والنواب ، وجميع الشخصيات اللبنانية ، من علماء ، وساسة ، ووجهاء ، وكان ذلك في يوم ٨/١٠/٩٧٠ ونعته امهات الصحف اللبنانية ودار الاذاعة ، وانا الوحيد الذي لم اعرف عن ذلك شيئاً حتى وافاني كتاب المجاهد الكبير الاستاذ محمد علي الطاهر وفي كتابه قصاصات من الصحف اللبنانية التي نعته وقد لمست في كتاب الطاهر دموعه التي ذرفها على جسد الفقيد الطاهر .

صحيح انني كنت انتظر هذه الفاجعة ساعة بعد ساعة ، وصحيح ان الذهن اذا مااستعد للكارثة قبل وقوعها يكون اكثر تقبلاً واستسلاماً لقضاء الله ، ولكن كل هذا كان معدوم الاثر عندي ، فقد تلقيت الخبر كما لو كنت غير مسبوق باي انذار سابق للموت ، وصعدت إلى غرفة نومي واغلقت الباب على نفسي وبكيت ما شاء الله ان ابكي وتذكرت الاية الكريمة التي قرأها في اذني يوم ودعني في المطار : « ان الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » .

وتصورتني راجعاً ذات يوم إلى بيروت وطائفاً بدار الافتاء ودائراً حول ذلك البيت الذي كـــان يزهو به وانا ابحث عن هذا الصديق فلا اجـــده ، وتصورتني أسأل عن قبره فيدلني عليه الدالون فاقصده لاقول له انني جئت ، كما كنت تتمنى ان أجيء ولكن قل لي اين اجدك ايها الصديق الطاهر ؟

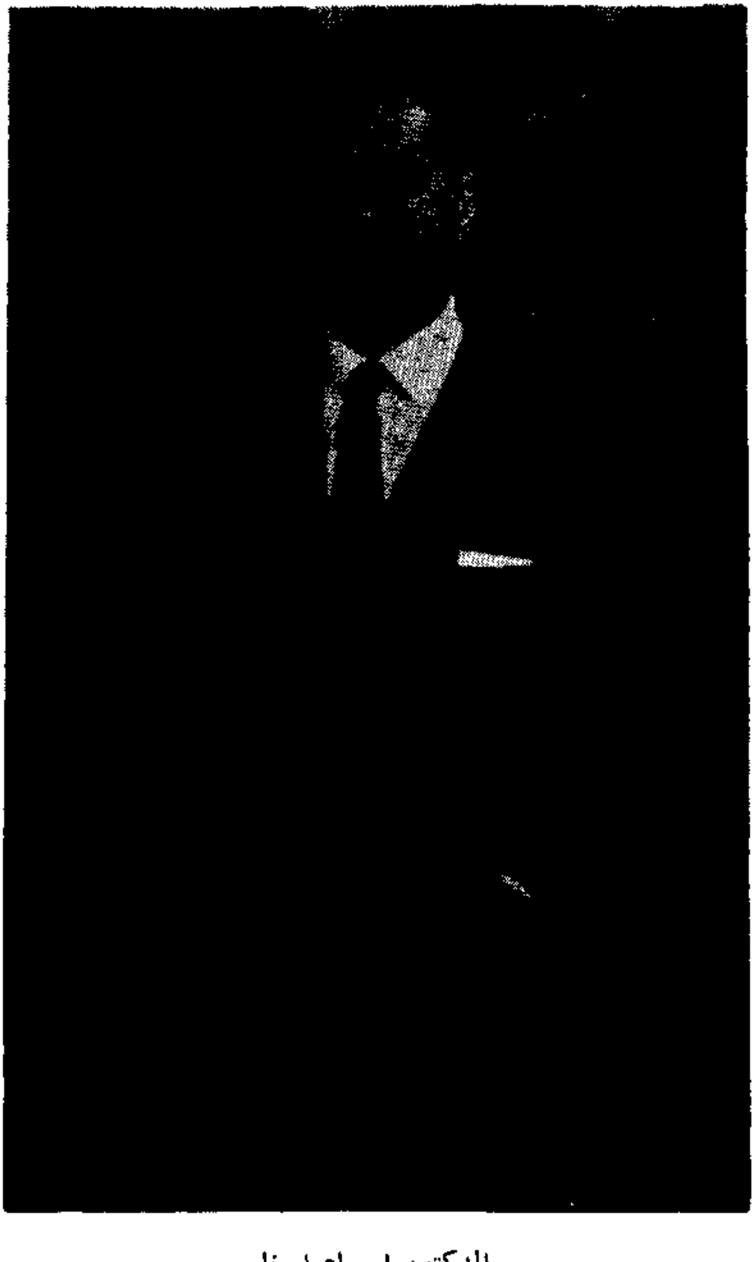

الدكتور اسماعيل ناجي

كيف عرفت

الدكتور اسماعيل ناجي

في سنة ١٩٤٨ تم انتقالي وانتقال جريدة الهاتف من النجف إلى بغداد ، وكان لي ببغداد عدد من الاصدقاء من الكتّاب والادباء الذين كانوا يكاتبون الهاتف ويكاتبونني وانا في النجف ، بل كان الكثير منهم يزورونني حين يمرون بالنجف في بعض المواسم ، وازورهم انا حين تقتضي شؤون الجريدة ان ازور بغداد بقصد تموين الجريدة بالورق ، او تزويد المطبعة بالادوات ، لذلك لم تكن بغداد ولا سكانها بالغريبة والغرباء عني .

ومع نقل الهاتف تمّ نقل يوم (الهاتف الادبي)، إلى بغداد وهو يوم اعتدت ان اقعده لزوار الهاتف من كل اسبوع . في النجف — وقد مر ذكر هذا اليوم كثيراً في هـذا الكتاب — فتجري فيـه احاديث الكتب ، والشعر ، والادب ، والمعارضة ، والمساجلة ، والمباراة ، والنقد ، والتقريظ ، وغير ذلك مما يتعلق بالادب والاجتمـاع في اغلب الاحيـان إن لم يكن في كل الاحيان .

وقد زاد هذا اليوم ، ببغداد من صلات اهل الادب بالهاتف وصلاتي بهم ،وكثر روّاد ه ، وكان من بين مرتاديه فحول من اهل الفصل والادب كالشيخ علي الشرقي ،والحاج عبد الحسين الازري ، والشيخ كاظم الدجيلي ،حين يكون حاضراً ببغداد ، وكان الدكتور مصطفى جواد وهو اكثرهم التزاماً

بحضور هذا اليوم .

ولا اذكر كم مرّ بالضبط حين بدأ اسم الدكتور اسماعيل ناجي يتردّد في بعض المناسبات على مسامعي في هذا اليوم ، وفي الايام الاخرى وكل ما اذكر هو ان ذلك لم يتجاوز السنة او السنتين من انتقالي إلى بغداد فلقد بدأت اسمع باسمه كثيراً كطبيب من اطباء الشباب المتخصصين بالامراض الداخلية ، وكرجل صاحب فكرة جديدة ترمي إلى نشر الثقافة الصحية ، وجعل المعالجة تحت متناول كل يدٍ من ايدي الشعب ؛ وايدي الفقراء منهم على الاخص فقد أنشأ مؤسسة باسم (العيادة الشعبية) ، وهي مؤسسة تسهل للمشاركين بها التطبب والعلاج بما يشبه المجان ، وذلك بان يدفع المشارك ١٥٠ فلساً في كل شهر مقابل فحوص ، و معالجة مجانية ، لنفسه ، ولمن يتعلق به من اهل بيته من زوجة واولاد !! واذا اقتضت إحالة المريض إلى المتخصصين من الاطباء فان هؤلاء المتخصصين لن يتقاضوا من هذا المريض الا نصف ما يتقاضونه عادةً من المرضى الآخرين ، ما دام هذا المريض مشاركاً في العيادة الشعبية ، وهكذا كان حال الفحوص في تحليل الدم وسائر الكشوف الاخرى .

وأقبل الناس على العيادة الشعبية حتى ضاق الدكتور اسماعيل ناجي بهذا الاقبال ، وحتى لقد فكّر بالاستقالة من وظيفته الحكومية كطبيب وكمدير لمدرسة الموظفين الصحيين على ما أذكر والانصراف بكله الى (العيادة الشعبية) .

أجل لقد فكّر في أن يستقيل من الوظيفة ، وينصرف بكله صبحا ، ومساء ، الى ادارة شؤون (العيادة) وفتح فروع لها في أغلب محلات بغداد ، ولكن بعض الاصدقاء نصحوه بأن يؤجل استقالته الى أن تبلغ شهرته المدى الذي يضمن له النجاح ، لاسيما وهو لم يزل شاباً لم يبلغ بعد منزلة الطبيب الاختصاصي الشهير ، الذي يستطيع الاعتماد على شهرته وقوفاً لو كتب لمشروعه الاخفاق ، ولكن (العيادة الشعبية) بدأت تشغل من بال الكثير من أبناء الشعب مكانة طيبة ، حتى حملت اذاعة بغداد غير مرة أن تدخل (العيادة) وتجري مقابلة مع الدكتور اسماعيل ناجي عن هدف (العيادة) وطبيعتها فتذيع ذلك على الناس .

ولقد احتفظت أنا باحدى هذه المقابلات التي اذيعت في أواخر سنة ١٩٥٣ من اذاعة بغداد وفيها الكفاية لتصوير فكرة اسماعيل ناجي وهدفه من هذه المؤسسة لو أردت أن أورد هنا خلاصتها .

يقول المذيع :

« العقل السليم في الجسم السليم : حكمة خالدة أخذت بها سائر دول العالم ، فأعطت الناحية الصحية عناية خاصة بها ، واهتماماً زائداً لخلق جيل قوي في بنيته ، سليم في تفكيره ، وفي العراق تعمل الحكومات باستمرار لرفع المستوى الصحي للشعب ، فأسست المستوصفات والمستشفيات في أنحاء القطر ، وفتحت المعاهد الطبية والصحية لتخريج الاطباء ، والصيادلة ، والموظفين الصحيين وغيرهم ، وبالاضافة الى هذه الجهود العظيمة التي تبذلها الحكومات للعناية بصحة المواطنين فقد قامت جهود أهلية ، وفردية ، دفعها شعورها النبيل للمساهمة في بناء كيان الوطن الصحي فكونت المشاريع الانسانية لخدمة المجتمع ، نذكر منها جمعية حماية الاطفال وجمعية مكافحة السل في العراق و (العيادة الشعبية) وبعض المستشفيات الاهلية ، ونقدم لكم اليوم سيداتي سادتي كحلقة أولى في برنامج : (هذه مؤسساتنا) مشروع (العيادة الشعبية) والمكرفون يدخل (مركز العيادة) الرئيسي ببغداد في زيارة قصيرة ، وها هوذا الدكتور اسماعيل ناجي مدير المشروع يستقبلنا بكل ترحاب مع بقية الاخوان وهناك بعض المرضى وقفوا ينتظرون دورهم للفحص والمعالجة .

وهنا يوجه المذيع السؤال التالي للدكتور اسماعيل .

ـ ان الكل يعرف مدى الجهود التي بذلتها لاخراج هذا المشروع النبيل الى حيز الوجود ، فهل تتفضل فتحدث المستمعين عن كيفية تكوين المشروع ؟ والدوافع التي دفعتك الى ذلك ؟

فيجيب الدكتور اسماعيل ويقول : ـ انتم تعلمون ان كل شيء في حياتنا الاجتماعية يوحي الى الملاحظ أن يفكر ، ثم يخرج فكرته بعد ذلك الى حيز الوجود على قدر استطاعته ، ولقد كانت (العيادة الشعبية) فكرة راودتني بوحي من

هذه العلل الاجتماعية ، وانها لكثيرة في مجتمعنا تطاردنا مصبحين ، ممسين ، في كل جانب من جوانبنا ، ولقد فكرت ملياً في هذا الجانب ، جانب الحاجة الى تعميم المعالجة ، وتيسيرها للفقراء ، وكان من السهل أن أجد من يعاونني لاخراجها ، فشرعت أنا وتلك الزمرة من الزملاء الاطباء الى اخراج هذه الفكرة بعد أن اختمرت في ذهني ، ولقد كان يحز في نفسي ويؤلمني أن أرى الامراض تفتك بالطبقة المتوسطة والفقيرة عندنا ، في حين قد قطعت الشعوب الاخرى أشواطاً بعيدة في تحقيق مشاريع الضمان الجماعي ، والعدالة الاجتماعية ، وتوفير الوقاية والعلاج الطبي للطبقة الفقيرة .

ومما زاد ايماني بتحقيق هذا المشروع – يقول الدكتور اسماعيل – هي التطورات السريعة في حياة الامم – ولاسيما بعد الحرب العالمية الاخيرة التي امتازت بظاهرة جديدة هي اضطلاع الشعوب بكثير من مرافقها بعد أن كانت الحكومات مضطلعة بشؤون الوقاية ، والعلاج ، وغيرها ، فساهمت هذه الشعوب مساهمة فعالة في القضاء على الاوبئة المستوطنة .

وحين سأله المذيع عن طريقة الانضمام الى العيادة الشعبية قال : – ان طريقة الانضمام الى المستفيدين من العيادة الشعبية في غاية البساطة فما على رب الاسرة ، اذا كان من الموظفين أو المستخدمين أو المتقاعدين غير أن يدفع ربع دينار اشتراكاً شهرياً بعد أن يتقدم الى العيادة باستمارة يبين فيها أسماء أفراد أسرته ، ومن هو مكلّف باعاشتهم ، فيزوّد بوثيقة الانتساب .

أما الفقراء فما عليهم الا أن يدفعوا ١٥٠ فلساً في الشهر ليتم انتسابهم وتجري معالجتهم ومعالجة سائر أفراد عائلتهم طوال الشهر مجانا .

ويسأل المذيع عن طبيعة المعالجة ، وما اذا كانت مقتصرة على الامراض الداخلية وحدها ، أم هي شاملة لمختلف المعالجات الاخرى ؟ كاجراء العمليات ، وما شاكل ، فيجيب الدكتور اسماعيل :

– ان المشروع لا يقف عند ناحية واحدة من نواحي العلاج وان رسالته أوسع

من ذلك ، فهو كما يعنى بالعلاج الباطني فانه يولي جل اهتمامه بضروب أخرى من العلاج ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، العمليات الجراحية ، والامراض النسائية ، وأمراض العيون ، والانف ، والاذن ، والحنجرة ، كما أن للمشروع فرعاً للتحاليل المرضية كافة .

أما عملية الختان ، والتلقيح ضد الاوبئة كالجدري ، والتيفوئيد ، والهيضة ، وما شاكل فكل ذلك يقوم به المشروع مجانا [1] .

ويسأله المذيع أسئلة أخرى ويجيب عليها الدكتور اسماعيل ويتردد اسم العيادة الشعبية في الاوساط ، وتتناوله الصحف ، ومحطات الاذاعة العربية ، وكان لصبيح الغافقي الذي تربطه بالدكتور اسماعيل علاقة صداقة كل الاثر في نشر أخبار العيادة الشعبية في ندوة الهاتف ويتناول البعض من رواد الهاتف مستقبل العيادة بشيء من التشاؤم ويتوقعون للمشروع الفشل لأن مشروعاً خطيراً كهذا لا يمكن أن يقوم به فرد واحد بدون رأس مال كبير ، ولكن الدكتور اسماعيل ناجي كان من قوة العزيمة والارادة بحيث لا يعبأ بمثل هذه التخوفات ، ولا يعرف معنى للتشاؤم فمضى في مشروعه بحزم لا يعرف الكلل ، وكان مركز العيادة يومذاك في راس القرية من شارع الرشيد وفي بناية يصعد اليها الصاعد بسلّم ، وهي تتألف من خمس غرف وصالون ، وبالكون ، وقد خصص هذان الاخيران للانتظار ، ويشغل الدكتور اسماعيل ناجي جانباً من هذه العيادة لفحص ومعالجة الامراض الداخلية ، ويشغل أخوه الدكتور خالد جانباً آخر منها للجراحة ، ويشغل احدى غرف العيادة الواقعة عند مطلع السلم الى السطح السيد عبد الاحد ، وهو من الاكفاء في عمليات التحليل الكيماوي الطبي وقد تناول الهدم أخيراً — هذه الجهة من الشارع — فيما تناول (دار العيادة الشعبية) فليس لها اليوم من أثر هناك اذ قامت محلها ومحل هذا الصف من العمارات ساحة لوقوف السيارات ، كانوا يريدون أن يقيموا فيها نصبا لعبد الكريم قاسم بصفته المكان الذي اطلق فيه عليه

---

(١) العدد ٢٥ من مجلة العيادة الشعبية

الرصاص ، وكان في هذه العيادة من يقوم على مساعدة الدكتور اسماعيل والدكتور خالد بعض المضمدين والملتزمين بخدمة العيادة ، أذكر منهم المدعو (شرهان) وأذكر منهم المدعو (جعفر) وأذكر (فرحان) الذي ربّاه الدكتور اسماعيل ورعاه منذ صغره ، وكان (شرهان) و (جعفر) يطوفان على روّاد العيادة من الاصدقـاء بالقهوة المرة وكانا يحسنانها حتى اشتهرت بها عيادة الدكتور اسماعيل .

واسماعيل ناجي كما كنت أسمع — وقبل أن أراه — شاب لم يزل في مقتبل العمر ، شديد الحرارة ، كثير الحماس ، ومن أبرز صفاته «الوفاء والشهامة» . لذلك كان شديد الاندفاع في شد أزر اللاجئين اليه ، والوقوف الى جانب أصدقائه وقت الحاجة ، ولقد شهدت له معارك الانتخابات البرلمانية في تأييد أصدقائه بعـالم تشهد الا للقليل القليل من باذلي الهمم ، والمضحين براحتهم ، وكثيراً ما كان ينجح اسماعيل ناجي في المهمات التي يريد انجازها ، وذلك بسبب ما عرف به من هذه الشهامة والوفاء والحزم ، فما من أحد الا ويرجو من وراء شهامته ذات يوم نفعاً ، ولذلك كثر اللاجئون اليه في مختلف الحاجات ، وكثر توسطه لهم في تحقيق رغباتهم ، فصارت له الى جانب أعماله كطبيب ، أعمال أخرى كصديق اجتماعي ، وكشخصية محبوبة في الاوساط ، وكعامل فعّال في الحياة العامة ، على قدر ما يدخل تحت امكان شخص من أمثاله المعروفين بوفرة النشاط ، وعلوّ الهمة ، وشدة الوفاء .

ولذّ له العمل في (العيادة الشعبية) فأحبّ أن يصدر مجلة تعنى بالثقـافة الصحية ، ولعله كان من أوائل المفكرين في نشر الثقافة الصحية ، فكان مشروعه هذا أي مشروع المجلة من أوائل مشاريع الصحافة الصحية في الاقطار العربية ، ان لم يكن أول مشروع صحي قام به اسماعيل ناجي .

وهنا ومع مشروع مجلته هذه ابتدأ أول تاريخ صداقتنا ، فقد كنت يومذاك أصدر جريدة الهاتف ، وكان مكتبي في الحيدرخانة بشارع الرشيد من بغداد ، وكان ممن يرتاد مجلس الهاتف بعض الأصدقاء ، الذين كانت لهم بالدكتور اسماعيل ناجي وشائج من المودة ، وفي طليعة هؤلاء كان عبد المجيد لطفي ،

من اليسار الدكتور اسماعيل ناجي وعبد المجيد لطفي والمؤلف

ولربما كان هؤلاء هم الذين دلّوا اسماعيل ناجي علي ، وهم الذين حسّنوا له أخذ رأيي في تطوير مجلته وتبويبها ، اذ لم أحسّ الا والدكتور اسماعيل ناجي في مكتبي يقدّم نفسه الي ويقول : انه كان يتمنى أن تحين الفرص التي تجمع بيننا ، وحين يئس جاء بنفسه ليبني هذه الفرصة على أساس قول القائلين ، اذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون ، وقد أقسمت له انني أنا الاخر كنت أبحث عن هذه الفرصة لما بلغني عن وفائه ، وشهامته ، وفضله على الفقراء فيما عمل ويعمل من أجلهم في (العيادة الشعبية) . ودعاني الى العشاء في بيت أبيه في الليلة الثانية ، اذ كان يومذاك يقيم في بيت أبيه ، ويرعى اخوته ، ويحدب عليهم ، فقد كان اسماعيل ناجي عصامياً كأبيه ، وكان أبوه يشتغل في البقالة ، وقد جنى منها ثمرة درّت عايه ما فيه الكفاية وزيادة ، أما اسماعيل فهو الذي نشّأ نفسه ثقافياً وهو الذي خطط لنفسه طريقها حتى تخرّج من كلية الطب ، وتقدم للاختصاص في الطب الداخلي ، ثم تولى رعاية اخوته ، وان له عليهم لفضلاً لا أظنهم جاحديه ، لاسيما الدكتور خالد ناجي الذي تخصص في الجراحة وأصبح من الجراحين المعروفين .

وبيت الحاج ناجي والد الدكتور اسماعيل بيت فخم ، تتوفر فيه كل أسباب الراحة ، وفي هذا البيت فتح معي الدكتور اسماعيل الحديث عن مجلته ، وطلب مني معونته ، ولا أذكر ما دار في ذلك المجلس عن المجلة بالتفصيل ، ولكني أذكر اني تعهدت له بالمرور (بالعيادة الشعبية) كلما وسعني ذلك لابداء رأيي في البحوث التي يجب أن تنشر ، والبحوث التي ينبغي أن لا تنشر ، وادخال الجديد مما قد لا تكون المجلة قد أخذت به من قبل ، وكان عبد المجيد لطفي من أكثر الملازمين للدكتور اسماعيل ومجلته ، وكان الدكتور اسماعيل ناجي من أكثر البارين الاوفياء لعبد المجيد لطفي ولسائر أصدقائه .

وفي هذه العيادة تشرّفت بمعرفـة بعض الاشخاص لأول مرة كهاشم جواد وزير الخارجية السابق ، والطبيب الاديب الدكتور كمال السامرائي ، وعمر باوزير ، وأشخاص آخرين كانوا يترددون على العيادة الشعبية للمعالجة ، وما لبثوا أن أصبحوا أصدقاء حميمين لي ولاسيما هاشم جواد الذي بدأ يزورني في مكتبي وينشر بعض مقالاته في (الهاتف) .

وكان هاشم جواد يشغل وظيفة معاون مدير مكتب العمل الدولي بجنيف ، وكان يرسل بمقالاته المتتابعة من هناك (للعيادة الشعبية) وحين يتيسر له المجيء لقضاء اجازته ببغداد كان يقضي معظم أوقاته في (العيادة الشعبية) ، وفي احدى جيئاته لم يتسن لي أن أراه لانشغالي فسافر الى جنيف دون أن أوفق الى رؤيته ، وكتب لي من هناك هذه الرسالة :

« تحية وشوقاً ، وبعد فلا أدري كيف مرت الايام سراعاً ولم أتوفق لرؤيتك ، فقد كنت آمل أن أراك في (عيادتنا الشعبية) وبين هذا الأمل وتغيبك عن عيادتك غابت أيام اجازتي ببغداد ، وها أنا ذا مسافر الى جنيف ولكن لم أنس أن أكتب ، وهذه مقالة شعبية ان أعجبتك فهي لمجلتك وان لم تعجبك فلا مانع مطلقاً من رميها في سلة المهملات .

وأرجو أن أوفق في المستقبل لارسال بعض الخواطر الى مجلتك التي أعجبتني طيلة أيامي ببغداد ، وفقك الله وحفظك ودم للمخلص »

هاشم جواد

ولقد رأيت مرة في ضمن المراجعين ضابطاً عسكرياً كان يمرّ بين آونة وأخرى على العيادة فيدخله الدكتور اسماعيل غرفة الفحص حين يحين دوره ثم يخرج بعد برهة ، وعلى انني أذكر جيداً أن الدكتور اسماعيل قد قدمني اليه وقدمه اليّ ذات يوم ولكني نسيت اسمه شأني مع الكثير ممن التقيهم في حياتي ولم يكن هنالك من سبب يستدعي دوام الاتصال .

وعند قيام ثورة ١٤ تموز من سنة ١٩٥٨ بدأ الكثير يسألون عن ترجمة القائمين بالثورة ، ولم يكتفوا بالتراجم المختصرة التي كانت تنشرها الصحف على سبيل التعريف بهم ، بل راح يضيف من يعرف شيئاً عن البعض الى معلومات الناس ، وجاء ذكر عبد الكريم قاسم مرةونحن فيالعيادة الشعبية فذكر عنه الدكتوراسماعيل شيئاً وقال لي انك ممن يعرفونه فأنكرت أن يكون لي علم أو بعض علم به ، ولم يزل الدكتور اسماعيل يذكرني به حتى ذكرت أنه الضابط الذي رأيته غير مرة في عيادته ، ثم سمعت بعد ذلك أن الزعيم عبد الكريم قاسم كان مبتلي بالامراض الزهرية فغلب على ظني انه انما كان يراجع الدكتور اسماعيل فلهذا الغرض اذا صح ذلك .

وصارت لي بالعيادة الشعبية ، وبالدكتور اسماعيل وباخيه الدكتور خالد علاقة صداقة تجاوزت حدود اهتمامي بمجلة العيادة الشعبية كمشروع ادبي ، إجتماعي ، يفرض عليّ الواجب الادبي الاهتمام به على قدر الامكان ، واصبحت علاقتي صداقة روحية ، كثيراً ما حملتني على التنفيس ، وقضاء الفراغ عصراً في العيادة الشعبية ، بعد أن أكون قد انتهيت من عملي في جريدة الهاتف ، ولم البث أن وجدت في (العيادة الشعبية) منتدى أدبياً التقي فيه الكثير من الاصدقاء الادباء ، فقد كان اسماعيل ناجي كما أشرت الى ذلك محبوباً في الاوساط ، وكان كثير الاصدقاء ، وكان أصدقاؤه من مختلف الطبقات ، وله حتى بين العمال ، والقرويين وسائر الطبقات ، أصدقاء متفانون في حبه لذلك كان من السهل أن يستعين بطائفة كبيرة من الشخصيات المرموقة في تحبير المقالات التي تلائم مجلته ، وكان من بينهم الدكتور مهدي البصير ،

ورؤوف البحراني ، وهاشم جواد في موضوعه الثابت (رجل الشارع) ، ورشيد اللامي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، وبلغ من نجاح المجلة أن كتب فيها مـــن الخارج عدد من المشاهير أمثال : الدكتور عبد المنعم عزة مدير الادارة الطبية في القاهرة ، وحسين أبو الفتح نقيب الصحافة المصرية ، والدكتور صبري القباني ، وميشيل تكلا ، بالاضافة الى العدد الكبير من أطباء العراق كالدكتور صائب شوكة عميد الكلية الطبية يومذاك ، وكالدكتور كمال السامرائي وكانت معونتي له تنحصر في وضع بعض التعليقات على بعض المقالات والاجابة باسم المجلة على الاسئلة ذات العلاقة بالمجتمع وما شاكل ، كما اني كنت أكتب له بين حين وآخر المقالات الافتتاحية حين لا تكون مقالات العدد ملائمة وموائمة .

وتوسعت حركة المجلة وقررت وزارة التربية (وزارة المعارف يومذاك) المشاركة بها والسماح لها بدخول المدارس ، كما توسع باب الاسئلة والاجوبة في هذه المجلة ، وتجاوز شأنها شأن العيادة الشعبية ، حتى سبقت جميع صحف العراق ومجلاته في كمية المطبوع الشهري والانتشار ، وبمشورتي قام باستخلاص بعض المواضيع المفيدة من مجلته ، ومن الكتب الاخرى ، وتنسيقها ، وطبعها ، في كتب مستقلة كان منهـــــا :

١ ـــ رسالة باسم (أخطاء طبية شائعة) وهي رسالة تتضمن جمهرة من الاراء الطبية التي يلتزم بها المجتمع الشرقي والعربي والعراقي خاصة كما لو كانت من القواعد الطبية الصحيحة في حين ليس لها أصل ، ولا فصل ، بل أن الالتزام ببعضها لا يخلو من الاخطار الصحية والاجتماعية .

٢ ـــ رسالة باسم (صرخات جنسية) وهي رسالة جمع فيها اراء عشرات العلماء وأرباب الاختصاص ، ولخص مجموعة كبيرة من الكتب التي تعنى بالجنس والمراهقة ، وأضاف اليها تجاريبه لمعالجة النواحي التي كان التعرض اليها حتى العهد الاخير من العيوب غير المغتفرة .

٣ ـــ رسالة باسم (ريثما يأتي الطبيب) وهي رسالة ترشد الناس الى مـــــا

يجب أن يعرفوه ويتخذوه في الازمات الآنية الطبية ، والعوارض الصحية ، الى أن يصل الطبيب ويتولى هو المعالجة .

ومرت هذه الرسائل على عبد المجيد لطفي ، وعلى عمر باوزير ، للاستعانة بهما في كيفية اخراجها كاملة ، كما مرت عليّ أنا قبل تمثيلها للطبع ، وقد اعتاد الدكتور اسماعيل ناجي أن يشرك معه في الرأي كل من يثق به لا في عالم التأليف والطبع وانما في كل أموره ، فهو الرجل الذي لم يعرف الاستبداد بالرأي حتى في شؤونه الخاصة ، ولقد وضع اسم (دار التعارف) على بعض مطبوعاته كما لـــو كانت(دار التعارف) وهي المؤسسة التي أسستها أنا بعد أن أغلقت الحكومة(الهاتف) بالمرسوم الذي شمل جميع الصحف ، وكتب لي بقلمه فوق الصفحة الاولى من احدى رسائله الاهداء التالي :

« هديتي لاخي الكبير صاحب الفضل والاحسان في اخراج هذا الكتاب ، الاستاذ الوفي جعفر الخليلي– الذي بدأنا تأليف هذا الكتاب في داره وانتهينا منه في داره » .

ولقد أفاد القارىء العراقي من كتب اسماعيل ناجي فوائد جمة وكان الدكتور اسماعيل قد أعدّ كتباً أخرى غاية في الاهمية وكان ينتظر الفرص الملائمـــة لتقديمها للطبع كان منها :

١ – أطباء مرضى يتحدثون عن أمراضهم :

أ – عن السرطان

ب – عن السكّر (والمقصود بهذا الطبيب الذي يتحدث عن السكر ، نفس الدكتور اسماعيل)

ج – عن الضغط الدموي .

٢ – ما رأت العين ، وما سمعت الاذن ، في أثناء اداء مهمة الطب .

ومن أسماء هذه الكتب يستطيع القارىء أن يفهم مدى أثر مثل هذه الكتب في تكييف الجمهور ، وتثقيفه ، تثقيفاً صحياً نحن بأمس الحاجة اليه ، ولا أظن طبيباً للان خدم القارىء العربي ، والعراقي على الاخص من هذا الطريق ، طريق معالجة المشكلات الصحية في هذا الاسلوب الجذاب الذي لا يخرج عن حدود القصة، ذات التأثير الفعال، كما خدم الدكتور اسماعيل ، وهي كتب مبسطة كما كان يقول الدكتور اسماعيل عنها تعالج أهم ما يعترض الانسان في حياته اليومية لتضمن له حياة صحية سعيدة، ولو لم ينخر مرض السكر في جسمه منذ عدة سنوات ، ولو بقي على ما كان عليه من النشاط لأسدى للمجتمع فوائد جد كبيرة على هذا النحو من النهج الذي نهجه في نشر الثقافة الصحية ، ولكن العيادة الشعبية لم تدم غير عشر سنوات ومجلة العيادة لم تدم غير تسع سنوات ، حتى أظهرت عوارض المرض مرض السكر على الدكتور اسماعيل وأصابه شيء من الفتور هدّ منه حيله ، وفتّ في عضده ، وأذهب نشاطه ، والى جانب ذلك كان يشكو من اعتلال الكبد والمرارة وكان اجراء العملية لاستئصال المرارة فيه لا يخلو من خطر بالنظر لارتفاع نسبة السكر عنده ، ومع ذلك فقد أخذ أخوه الدكتور خالد ناجي مهمة العملية على عاتقه وقام بها خير قيام ونجح .

* * * *

وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه لحد لم يكن يفارقني كلما شعرت بوعكة خفيفة كانت أم ثقيلة مع علمه بأن لنا ولعائلتنا طبيباً خاصاً هو الدكتور كاظم شبر ، فكان يأخذني بسيارته الى المستشفى ، ويقف بنفسه على ما ينبغي أن يجري لي من فحوص طبية ، وتحليلات ، ولقد تكرر مثل هذا عشرات المرات دون أن يتركني لمراجعة طبيبي الخاص الدكتور شبر الذي أثق به كثيراً .

وفي مسابقة أجراها (الهاتف) مرة وضع بعض التجار والشركات والمؤسسات هدايا بأسمائهم لتقديمها للفائزين ، وكان الدكتور اسماعيل قد وضع بـاسم (العيادة الشعبية) صيدلية جهزها بكل الالات والوسائل والعقاقير التي يحتاج اليها البيت عند حدوث العوارض المفاجأة من حروق ، وجروح ، ووعكات قد

يحتاجها البيت قبل حضور الطبيب، وأحيانا بعد حضور الطبيب، وهي صيدلية وضع تخطيطها للنجار فأخرجوها اخراجاً فنياً ، وكان من حسن حظ الهاتف أن ظفر بها الاديب المصري ميشيل تكلا فأهداها هذا الى (الهاتف) لصعوبة نقلها الى مصر ، ولم تزل حتّى اليوم في بيتنا نفيد منها عند الحاجة ونملأ ما يفرغ منها .

وبنى الدكتور اسماعيل له بيتاً جميلا أنيقاً في الوزيرية ، وصار يمرّ بي بمكتب الهاتف أو بالبيت لينقلني بسيارته الانيقة الحمراء الى بيته مساء لنتعشى هناك معاً، وكثيراً ما يدعو بعض الاصدقاء معي الى العشاء، وحين جاءت المطربة صباح الى بغداد دعاها الى بيته وهناك نعمنا بصحبتها ذات ليلة ، وقد عج بيت الدكتور اسماعيل برهط من أرباب الذوق ، ومن المعجبين بصباح ، ولقد عاش اسماعيل سنين طويلة وهو أعزب ، وقام هو بتزويج أخيه الدكتور خالد وهو أصغر منه سنا ، ولكنه لم يقم بتزويج نفسه وهو الاكبر .

وسألته مرة : لِمَ لا تتزوج يا إسماعيل ؟ فان كانت لك فلسفة خاصة فليس في ذلك من بأس لأن الذين لم يتزوجوا كثيرون ، وفي ضمنهم عدد من المشاهير ، أما اذا لم تكن من هؤلاء العــازفين عن الزواج فاحسب أن تأخير زواجك سيلحق بك أضراراً قد لا تتبيّنها الان ، وهو أن متوسط عمر الانسان في هذه الدنيا لا يزيد على الخمسين سنة وعليه أن لا يؤخر زواجه – اذا كان ممن يريد الزواج – لكيلا يموت ويترك أولاده عالة على المجتمع وهم لما يبلغوا بعد السن التي يتم فيها نضجهم ، فكان يقول لي انه كثيراً ما فكّر في الزواج بل ولقد أقدم على الخطبة غير مرة ولكنه لم يوفق .

وتغير الوضع بعد ذلك فكان من رأيي وجوب انصرافه عن الزواج بالكلية ، ليس لأنه قد فات وقت زواجه فحسب ، وانما لأنه قد ابتلى بالسكّر ، وانه لم يعد ذلك الفتى المشحون بالنشاط والهمة التي بدأ بها مشروع العيادة الشعبية ، وانشاء تلك المجلة ، واصدار المفيد من الرسائل الصحية ، والكتب المشار اليها ، ولكن الزواج كسائر الامور الاخرى يعمل فيه هذا العامل الذي يسمونه بالحظ ، والذي نعجز عن تعليله ، والاعتراف به ، على أساس علمي ، وكل ما في الامر هو اننا

نشهد شيئاً من آثاره فنعزوها الى (المصادفة)

وتشاء هذه المصادفة ، أو يشاء الحظ أن يقضي الدكتور اسماعيل ناجي صيف احدى السنين في النمسا فيتعرف في (فينا) بفتاة اجتمعت فيها صفات ملائمة فوقعت من عينه كما وقع هو من عينها الموقع الذي ينجذب فيه أحدهما للآخر ، ويسبق التأمل والتفكير في المستقبل ، وأنه لمن حق كل منهما أن ينجذب للاخر ، فقد كان في كل واحد منهما كل عناصر الجاذبية من جمال ، وأناقة ، وصفاء .

وتزوج اسماعيل ناجي ، وجاء بزوجته معه الى بغداد ، ولم يلبث كثيراً حتى بدأ الاختلاف يدبّ ، ومنشأ هذا الاختلاف كما كنت أرى يعود الى تغيير الجو والبيئة ، عند هذه الزوجة ، وفقدان سعة الصدر بسبب مرض السكر عند الدكتور اسماعيل ، وكان يلجأ اليّ في بعض أزماته فأحاول جهدي أن أخفّف من وطأة الهم ، والقلق بسبب هذا الاختلاف الذي كان يحدث بينه وبين زوجته ، ولكن الزوجة كانت حاملاً ، وان العقل فضلاً عن الشرع يتطلب أن يكون الزوجان في مثل هذه الحالة أكثر هدوءاً وتصبّراً .

ثم وضعت الزوجة بنتاً سماها (نيران) وكان الاختلاف قد بلغ حداً لم يطق الزوجان تحمله فقررا الطلاق ، واحتفظ الاب بالبنت وسافرت الام الى (فينا) وكنت على غير رأيه فيما انتهى اليه الأمر خوفاً مما قد يحدث للولد الذي يفقد أحد أبويه أو يفقدهما معاً من عقد تنغّص حياته في دنياه ان لم تقلب هذه الحياة رأساً على عقب ، ولكن الأمر قد تم ، والمؤسف انه قد تم على غير ما أعرف من مبادىء الدكتور اسماعيل وسجاياه ، فقد خرجت الام من البيت ولم تصحب معها البستها ولم تأخذ حليّها ، ولقد سمع مني الدكتور اسماعيل بهذا الخصوص ما يتجاوز حدود اللوم الى التقريع ، ولم يكن من حقي كصديق مهما بلغ شأنه أن اتجاوز حدود اللوم الى التقريع ، والتعنيف ، ولكن الدكتور اسماعيل هو الذي اختار لي مثل هذا المقام من نفسه طوال مدة اتصالي به كصديق ، وأشهد انني رأيت الدمعة في عينيه تترقرق ذات يوم وأنا أقرّعه على موقفه من زوجته ، فقد بدأ ضميره يتيقّظ ،

وأدرك أن الواجب كان يقضي عليه أن يسرحها بمعروف ، سواء استحقت ذلك منه أم لم تستحق ، فراح يكتب لها بوحي مني بأن ما حدث يجب أن لا يكون سبب اغاظة ، وبغض ، وانه سينتهز أول فرصة ليأتيها بثيابها وحلّيها بل وستكون ابنته معه لتّراها ، ولكنها لم تردّ عليه ، وزاد تأنيبه لنفسه فكتب لها مرة أخرى فلم تجب .

وجاءني الدكتور اسماعيل ذات يوم يقول لي بأنه يريد أن يغيّر مذهبه ويسجل نفسه في سجل المحكمة الشرعية الجعفرية كشيعي ، فقلت له : ومـــــا السبب الذي يحملك على مثل هذا؟ قال ابنتي (نيران) لانني اذا تركت ابي يحرمني من بعض ميراثه بتمليكه بعض ما يملك في حياته لبعض اخواني فلن أحرم ابنتي من الميراث الكامل وهذا ما يحققه لي الفقه الجعفري .

انه طبيب يعرف موضع الداء منه فكان يفكّر بالموت تفكير الشخص المشرف على الموت قريباً .

وأخذته الى السيد عباس شبر وقد كان قاضي بغداد الجعفري حينذاك ، وسأل الدكتور القاضي : ما الذي يجب أن يعمل ليكون شيعياً ، قال السيد عباس وهو يضحك : والله لا أعرف ما الذي يجب أن يعمل لأن التشيع ليس ديناً وانما هو مذهب من مذاهب الاسلام يكفي أن يأخذ به المسلم لا أكثر ولا أقل ، وأنت اذ تنقل نفسك من مذهب السنة الى مذهب الشيعة فلا يتجاوز الامر أكثر من أن تنقل منزلك من محلة ، الى أخرى. قال الدكتور : ولكني أريد أن أسجل تشيعي رسميـــاً .

قال القاضي ــ فلتتقدم بطلب ، وليتقدم شهودك على طلبك .

فتم تشيّع الدكتور اسماعيل وكنت أنا أحد الشهود ، وقد جرى ذلك بمحكمة الكرخ في بغداد .

وكبرت البنت (نيران) ولقيت من عناية عمتّها بها ما لم تلق بنت من أمّها ، وصارت لنيران منزلة حبيبة في نفوس أعمامها ، وأهل بيتها ، ولقد أحبّها أبوها حباً

قلما أحب اب ابنته بمثل هذا الحب ، وتعلقت هي به تعلقاً عجيباً لم يشهد له مثيل ، وصار يتولى ارسالها بنفسه صباحاً الى مدرسة الاطفال ويعود بها ظهراً إلى البيت بالرغم من قرب مدرستها لبيته . ووجود سيارة خاصة تنقل الاطفال بين بيوتهم والمدرسة .

* * * *

وقال لي اسماعيل انه ينوي أن يسافر الى النمسا ليستشفي في حماماتها ويفيد من أساليب الدلك المتبعة في المصحات وانه ينوي أن يصحب معه ابنته (نيران) فيهيء لأمها الفرصة لترى ابنتها من جهة ، وليظل هو مطمئن البال لقرب ابنته منه من جهة ثانية ، ورجحت أنا له الفكرة ، واقترحت عليه أن يكتب لأمها كتاباً يطلعها فيه على نيته ويبدي لها أسفه على ما حدث لعل المياه تعود الى مجاريها كما يقولون فيكون في الآتي من الايام ما يمحو اساءة الماضي منها ، ولكن اسماعيل لم يكن يرى فيما كنت أقول ولو بصيصا من الأمل ، وقد كتب لها فجاءه الجواب منها بأن ينصرف عن فكرة المجيء في هذه السنة على الأقل وليؤخر مجيئه الى النمسا الى وقت آخر غير هذه السنة .

وجاءني برسالتها فألفتها جافة بعض الجفاف ومع ذلك فقد طلبت منه أن يكتب لها مرة أخرى فيعتذر كما مضى ، ويؤكد لها أن ليس في قصده المجيء اعادة علاقتهما الزوجية ، وانما هو محض تعريفها بابنتها التي أصبحت في الرابعة ، بل أوشكت أن تلج باب الخامسة وتعريف ابنتها بأمها ثم انه يريد أن يأتي اليها بما تركته من الالبسة والحلي .

وهكذا فعل ولكنه تلقى الجواب بالاصرار على أن يؤجل هذا الى السنة المقبلة حتى لقد شككت أنا في الأمر واحتملت أن تكون هذا المرأة قد تزوجت أو أن في الامر أشياء أخرى ليست جلية عندي ولا عند الدكتور اسماعيل .

وصمم الدكتور اسماعيل على السفر ، رضيت زوجته المطلقة أم لم ترض ، وهناك في (فينا) رأت الام ابنتها ورأت البنت أمها مرات ، ولم يكن السبب في ممانعة الأم

الا أنها كانت تنوي أن تنتقل في السنة المقبلة الى بيت جديد وحياة جديدة من حيث الاثاث والوسائل ، ولم تكن تريد على ما قال لي الدكتور اسماعيل أن يراها وتراها ابنتها الا وهي في أرفع منزلة من حيث المعيشة ، وفي بحبوحة من الحياة الهنية .

وفي (فينا) حيث كان يعالج نفسه وجد من احدى الممرضات الجميلات عناية فائقة بابنته (نيران) خصوصاً بعد أن عرفت قصتها وقصة أمها المطلقة ، وما لبثت هذه العلاقة أن تحولت الى حب متبادل بين الدكتور اسماعيل وبين هذه الممرضة التي تدعى (دورلي) ثم الى تعلق عجيب من قبل الصبية نيران بالممرضة (دورلي) التي كانت تزيد من رغبة الدكتور اسماعيل في الحرص على محبة (دورلي) حتى انتهى الامر بأن يعرض عليها الدكتور اسماعيل الزواج بعد أن تأكد بأنها خير زوجة تصلح أن تكون أماً لنيران التي خلقت ولم تعرف لها أماً ، ومن يدرينا فلربما كان اسماعيل يحس بعدم بقائه في الحياة طويلاً ، فكان يريد أن يخلق لابنته بعده جواً مليئاً بالدعة ، والاطمينان ، فوجد ذلك كله في كنف الممرضة الجميلة (دورلي) .

وطالت مدة العلاج عند الدكتور اسماعيل وطالت معها الهناءة بحب أحدهما الآخر ، وما كاد يحين موعد الرجوع حتى بدأ ينتاب هذا الحب شيء من الفتور الذي لحظه الدكتور عند (دورلي) ، وفي احدى جلساته كانت دورلي تفكر وقد شاب وجهها الجميل شيء من القلق ، فجلست كأنها تعبة ، وفجأة قالت له تعلق على استفسار الدكتور اسماعيل عما يكون قد حدث قالت :

ــ ان الأمر كله ... (وسكتت)

فقال معقباً :

ــ ماذا يمكن أن يكون الأمر كله ..؟ أتريدين أن تقولي انه خيال ؟

قالت ــ لا يمكنني أن أقول هذا ، انني قبل أي أحد أشعر بالذل ، والنفاق ، اذا ما قلت لك ان ما حدث كان مجرد خيال ، فانه لا يزال يقلقني ويبعث في

روحي غمامة من الحزن .

قال ــ اذن انت نادمة يا دورلي ؟ وحسبك أن تعرفي انه لم يقع ما يمكن أن يؤدي الى أزمة .

فقالت مغضبة ــ وماذا تظن ؟ هل ستعتبرني واحدة عابثة ؟ أتظن أن (فينا) مدينة للخراب والاسى ... انني أحب الطفلة حباً جماً ، وكأنني أنا التي حملتها تسعة شهور ، وتعذبت في وضعها .

فقال ــ وأنا أشعر لذلك نحوك بالامتنان يا دورلي ، فأنت فتاة عذبة ، ورائعة ، مهما انتهت اليها النتيجة ... أقبلت أن تكوني أمّاً للطفلة أم لم تقبلي ؟ وكل مـــا يهمني هو أن لا تنتهي مشاعرك الى نهاية محزنة ، وان لا تعلق في ذهنك عني ذكرى شائنة ، قالت ــ أبداً أبداً فيجب أن لا تمر بلك هذه الافكار المريرة ، فأنت رجل صدمته الاحداث ، ولا اريد البتة أن اضيف جديداً على متاعبك ، ثم اني لم أبتّ بشيء بعد .

قال ــ ولكن اجازتي تدنو من خاتمتها يا دورلي ، ويجب أن أقرر المصير [1] .

ولم يمر الكثير حتى عرف الدكتور اسماعيل ان كل شيء قد تغير ، فقد وجد هناك من حذّر دورلي من هذا الزواج بالعراقيين ؟ ! فعدلت وأعلنت له عدولها ، وعجز عن اقامة الدليل على أن ما بلغها عن العراق والعراقيين كونهم يبيعون زوجاتهم محض افتراء . ولا تسل عن أثر هذه الخيبة المريرة التي أعجز عن وصف مـــا أحدثت في نفسه من الانفعالات ، فقد اختفى شبح السعادة التي كان يلوح له في ظل (دورلي) التي ظن أنه قد وجد فيها أمّاً لابنته (نيران) وكاد ينهار بل انه انهار على ما أخبرني ساعة سألته ابنته نيران وهما يغادران فينا :

ــ ولكن امي دورلي لم تجيء معنا كما قلت ؟

لقد قال لي : انه بكى ، ثم بكى ، ولا يدري كيف تمالك نفسه ، وقـــال لابنته :

(١) قصة دورلي ص ٢٥ ــ ٢٦

ـ انها ستلحق بنا بعد مدة ، لأن لديها ما يشغلها الان ...

وجاء العراق، وبدأ يزاول وظيفته كمدير للعيادة الخارجية في المستشفى الجمهوري الكبير ، ولم يلبث حتى كتب قصة (دورلي) في نفس السنة سنة ١٩٦٨ ، وهي قصة رائعة عرضها عليّ وهي مسوّدة قبل الطبع فاستحسنتها، وقد افتتحها ببيت من قصيدة للشاعر انور شاؤول وهو :

خبت المشاعر في الضلوع وأورثت للذكريـــات مجامراً لم تخمد

وجاء تحت اسم (دورلي ملاك الرحمة) قوله « عاطفة شبّت نارها ثم خمدت ولم تبق منها الا جذوة لم تخمد ولا يظن انها ستخمد » ثم أهدى هذه القصة الى ابنته نيران قائلاً :

« الى ابنتي نيران التي لم تعرف لها اماً في حياتها ، ليس لشيء الا لأن الظروف اقتضت ذلك وللظروف أحكامها كما يقولون .

وختم قصة (دورلي) بالتفاتة من البنت نيران الى أبيها ومخاطبتها له قائلة :

« والان يا ابي ... لقد غادرت دورلي .. لقد غادرت الى الابد .. أفلا ترى أن علينا أن نعود .

فاستدار بلهفة ، ورفع ابنته اليه وغمرها بقبلات حارة ثم أجلسها على ركبتيه والدموع تملأ عينيه ، وقال لها :

« لقد شاءت الظروف أن تظلي بلا ام »

* * *

وفي كانون الثاني من هذه السنة سنة ١٩٧٠ كنت قد أزمعت النية على السفر الى لبنان ، للاشراف على طبع أجزاء أخرى من موسوعة العتبات المقدسة ، فاتصلت بالمستشفى في اخر يوم مغادرتي بغداد لأودع الدكتور اسماعيل ناجي فقيل لي انه مريض وهو يعالج في احدى غرف المستشفى ، وكان المجال ضيقاً بحيث لم أجد الوقت الملائم لزيارته ، ولاني استهنت بالأمر ظاناً انها وعكة طالمـــا تحدث له فسافرت وأنا مطمئن البال .

وفي بيروت فضضت احدى الرسائل ، واذا بها خبر نعي الدكتور اسماعيل ناجي ، الصديق الوفي الكريم الذي ظل يرافق اسمه مشروع ما كان بالحسبان أن يستطيع القيام به غير دولة ذات ميزانية ، وامكانية ، وفكرة ، وقد أثبتت لمن عرفه بأن الفرد اذا ملك ما كان يملك اسماعيل من قوة الارادة والحزم ، يستطيع أن ينهض بما تنهض به الدولة برمّتها وأكثر ، ولولا المرض الذي هدّ حيله ، ولازمه سنين طويلة ، لكان للعيادة الشعبية ومجلتها اليوم الشأن الكبير في توجيه الشعب توجيهاً صحياً ، ولكنّا اليوم قد جنينا من (العيادة الشعبية) في هذه الحفنة من السنين ما لم نكن نجني من أكبر المؤسسات الصحية الأخرى في عشرات السنين .

مات اسماعيل ناجي وخلّف في نفوس عارفيه وأصدقائه حرقة لا أحسب أن لها نهاية ، ولقد عزّ علي والله أن أشهد ذبول تلك الزهرة اليانعة ، وغروب تلك الشمس الطالعة ، قبل أوانها ، فقد مات وهو لم يزل في أول مراحل الكهولة ، وكالاطفال والنساء اللاتي تلجأ الى الدموع حين تنعدم عندها وسائل التسكين ، والتصبر ، لجأت الى عيني لائذاً بالدموع التي طالما ذرفتها على أصدقاء مثل اسماعيل ناجي لاطفىء بها حرقة النفس ، ولكن هيهات للدموع أن تطفىء حرقة النفوس المشحونة بالذكريات .

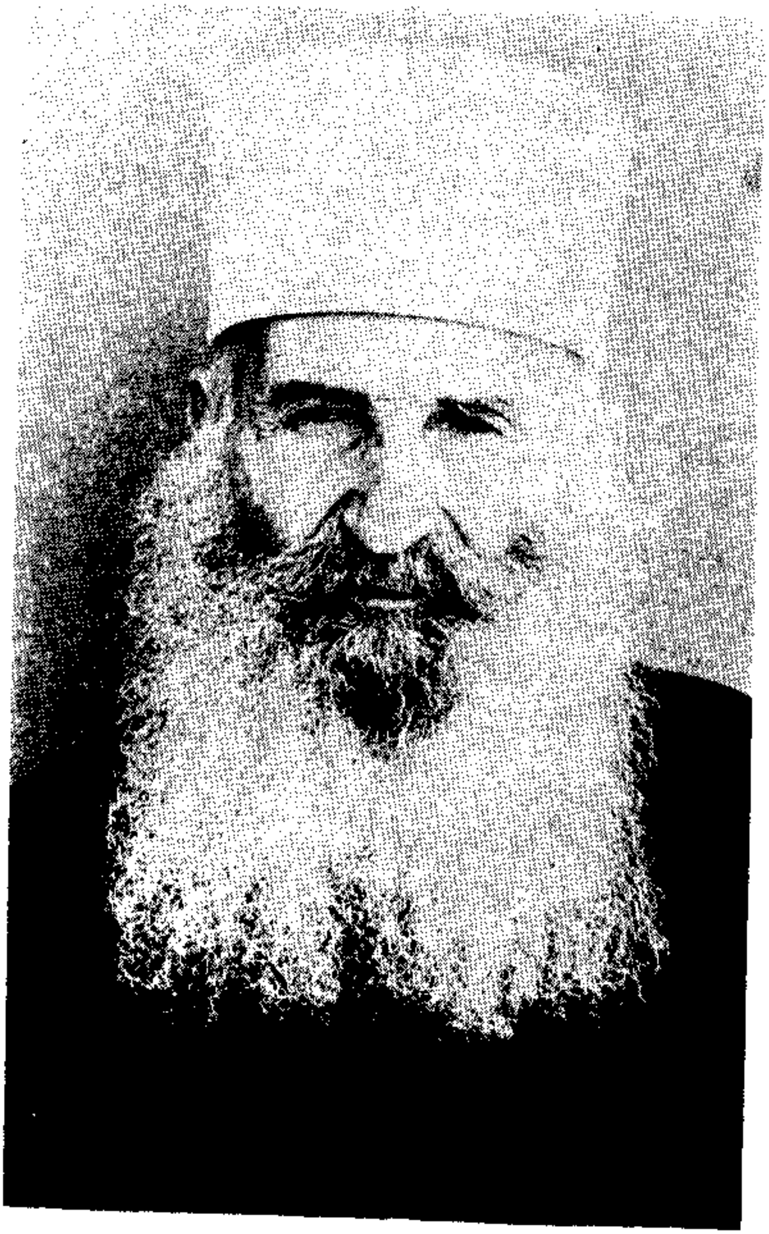

الشيخ نسيب مكارم

كيف عرفت

الشيخ نسيب مكارم

كنت صغيراً ، وفي الصفوف الأولى من المدرسة العلوية في النجف ، وكان لكل مدرّس أو الصحيح لبعض المدرّسين أساليب تجعل الدرس شائقاً ، ومحبوباً ، لدى الطلاب ، لما يتضمّن من حكايات وقصص وطرائف ، ولا سيما درس الجغرافيا منها ، ودرس التاريخ ، ولا تزال بعض الطرف من تلك الدروس عالقة بذهني حتى هذا اليوم ، وكان للخطّ معلم خاص اسمه السيد حسين ، ولا أتذكر الآن شهرته وهو من الطلاب الروحانيين وكان كل المدرّسين من الروحانيين حتى مدرّس اللغة الفرنسية . وكان السيد حسين من مهرة الخطّاطين ، والمتفنّنين ، وكنت إلى عهد قريب أحتفظ ببعض آثار خطوطه التي كتبها باظفر ابهامه على ورق من الرصاص اللين الذي كان يأتي مغلّفاً به الشاي ، في صناديق خشبية من الصين ، فكانت هذه الخطوط التي يخطها باظفره بارزة ، نافرة ، وغاية في الجمال ، وحين تم انتقالنا من النجف إلى بغداد أضعت الشيء الكثير من الطرف ، والوثائق ، والمذكرات ، وكان من ضمنها تلك القطع التي كنت أنشد الفراغ لكي اخرجها في إطار يناسب فنّها الجميل فلا أحسب اليوم من يستطيع مجاراته فيها .

وكان هذا المعلم الذي لا يأتينا إلا مرتين في الاسبوع لا يتركنا إلا ونحن في أشد الشوق إلى درسه ، لما كان يطرفنا به من حكايات عن الخط ،

وفنونه ، وما كان يرسم لنا على اللوحة السوداء من صور للبسملة في شكل طير ، أو عصا معكوفة الرأس ، وما كان يخرج من الورق من الخطوط المنقوشة في سطور متقابلة بمجرّد أن يطوي الورق عدة طيات غير متساوية ، وغير متناسقة ، ويبدأ بقصّها بالمقصّ ثم يفتحها فإذا بها كلمة مأثورة ، أو حكمة مشهورة ، داخل مربع من الورق أو داخل دائرة مفرغة إلا من سطور الكلمة !! هذا إلى جانب ما كان يعمل في الورق السميك الذي كان يمسكه بين اظفري الابهام والوسطى على أغلب الظنّ ويبدأ بتحريك الورقة تحت إظفر الابهام حتى يخرج منها آية بارزة نافرة تستدعي الدهشة بروعة الاخراج وجمال الخط !!

ولقد أخذ منه كل تلميذ بعض الأثر ، وتعلم الكثير منه حسن الخط ، وإذا لم أستطع أنا أن أكون من اولئك الذين اشتهروا بحسن خطهم عن طريقه ، فحسبي أن يكون خطي من الخطوط المقروءة التي تسهل قراءتها لوضوحها وذلك بشهادة عمال المطابع الذين عملوا معي سنوات ، وهي بركة — إذا صحّت — من بركات ذلك الاستاذ الذي طوّح به الزمان بعد أن أغلقت المدرسة في نهاية الحرب العظمى الأولى وترك طريق المشيخة والروحانية وأخذ يعمل في (تصليح الساعات) بسوق الساعتية ببغداد ، ثم لم أعرف عنه شيئاً .

وإلى جانب ما كان يقوم به السيد حسين من تقويم خطوط التلاميذ وما يواجهنا به في كل مرة من أعمال خطية باهرة ، كان يحدثنا عن طرائف الخطاطين الخالدين ، ويروي لنا بعض الحكايات عن آثارهم الخطية ، وعلى الأخص خطّاطي المصاحف الكريمة ، وما يبدعون في تزويقها ، وتلوينها ، وقد روى لنا مرة ان هنالك خطاطاً متفنناً لبنانياً وهو حيّ يرزق اسمه (مكارم) استطاع أن يكتب على بيضة الدجاجة الدستور العثماني بكامله ، وهنا شرح لنا المعلم معنى الدستور زيادة للتوضيح وقال — لقد كتب على هذه البيضة ٦٤ مادة باللغة التركية ، ثم كتب ترجمتها بالعربية ، فصرخ الطلاب مرّة واحدة : الله!

وظللت أنا أفكرّ في هذا الخطاط المتفنّن الذي اسمه : (مكارم) ولم أدرك يومها ولربما لم يدرك معلّم الخط نفسه أن (مكارم) ليس إلا شهرة بيث هذا المتفنن ، أما أسمه فكان نسيب مكارم ، ثم صار بعد ذلك الشيخ نسيب مكارم . ولربما قضيت وقتاً طويلاً أفكر في بيضة الدجاجة أفلا يخاف هذا الخطاط النابغة أن تنكسر البيضة مرة واحدة فتضيع جهوده التي ربما استغرقت بضعة شهور أو سنة حتى أتم كتابة هذا الدستور !! حتى علمت بعد زمن طويل أن البيضة لم تكن إلا قطعة من الرخام بحجم بيضة الدجاجة ، وان مواد الدستور كانت ١٢١ مادة وليست ٦٤ مادة كما ارتسم في ذهني في الصغر ، وبالاضافة إلى ترجمة المواد بالعربية ، فقد رسم على هذه البيضة خريطة الامبراطورية العثمانية وقصيدة شعر عرفتُ بعد ذلك شاعرها عن طريق مجلة (الزهور) لصاحبها أمين تقي الدين وانطون الجميل ، الا وهو الشاعر الدرزي المعروف أمين ناصر الدين ، وقيل إن هذه البيضة معروضة بمتحف اسطنبول ضمن التحف التي يحتويها المتحف .

وحين امتّد بي العمر بدأت أعرف الشيء الكثير عن الشيخ نسيب مكارم مما كنت أقرأ اسمه تحت عناوين الكتب التي تخرجها المطابع وبعض ما كان يتردد على مسمعي ، فتولد في نفسي إعجاب شديد ، وشوق شديد ، ومحبة شديدة لهذا الذي يكتب مثل هذا الخط الجميل ويكتب الدستور العثماني على البيضة ، وزاد إعجابي حين علمت بأن فنّه تجاوز الحدود ، وبدأ يكتب الآيات القرآنية على حبات رزّ صيغت من الفضة ، أو الذهب ، وكان منها حبّة من الفضّة نقش على أحد وجهيها خريطة لبنان مع أهم اسماء مدنه بالحفر وملأ هذا الحفر بالذهب ، فبدت الأسماء والحدود بارزة ، نافرة، وغير هذه من الحبوب المصوغة .

ترى اين يقيم هذا العبقري المتفنن ؟ وكيف يمكن لي أن أراه ، فلقد أصبحت رؤيته عندي من أعز الأماني وأغلاها ، وكنت أسأل نفسي هل أصدق أن مثل هذا يمكن أن ينقش محفوراً على حبةٍ من الرز ؟ وهل يستطيع أن يقرأها

القارىء بالعدسات كما يقرأ سائر المخطوطات ؟ وهل صحيح أن هنالك حبوباً من الفضة والذهب بحجم حبة الرز قد حفر عليها (مكارم) هذه الخطوط ؟ وبأية آلة حفرها ؟ وبأية وسيلةٍ من العدسات استطاع أن يرى صفحة الحبّة فينقش عليها هذه الخطوط ؟

صحيح أن خطه هو الآخر غير خاضع لمجاراة الكثير من الخطاطين لجماله بحيث انه كان هو الذي اختير ليكتب بخطه الليرة الذهبية التي سكّها الملك فيصل الأول لسوريا في أول إعلان استقلال سوريا وقبل احتلالها من قبل الفرنسيين ، ولكن هذا شيء آخر ، وفن قائم بذاته ، وليس له بالحفر على حبة الرزّ سورة من سور القرآن كسورة الاخلاص علاقة أو شبه علاقة .

* * *

وكنت أزور لبنان في أغلب السنين صيفاً ، وفي كل سنة كنت أضع في برامج زيارتي محاولة التعرف بأشخاص عرفتهم على البعد واعجبت بهم ، أو شراء كتب ، وحاجات ، كان يتعذّر الحصول عليها بيسر وسهولة في العراق ، وكان الشيخ نسيب مكارم في مقدمة هؤلاء الذين كنت أتوق إلى البحث عنه ، والتعرف به ، ولكني لم أفلح على رغم كثرة زياراتي للبنان في الصيف ، وكان النسيان مرة ، والانشغال مرة أخرى ، وضيق الوقت أحياناً يصرفني عن البحث عن مقرّه .

أما مسكنه فلم أكن أعرف عنه شيئاً ، ولم أدرِ أنه يسكن (عيتات) القرية المتصلة بسوق الغرب إلا من الصديق الكريم الدكتور أمين زهر الذي عمل في النجف طبيباً نحو ثلاث عشرة سنة ، ومنه علمت أن الشيخ نسيب مكارم من بيوتات الدروز الكريمة وأن مسكن آل مكارم هو (رأس المتن) مدينة المؤرخ الكبير ، والباحث النابغة المعروف ، عجاج نويهض ، وانما جده — اي جدّ الشيخ نسيب — هو الذي هاجر إلى عيتات وسكنها ، وعلمت أن للدكتور أمين زهر صلة رحمية بالشيخ نسيب ، وانه هو الذي سعى في خطبة السيدة

الفاضلة الست ابريزا قائدبيه ، وأن لآل قائدبيه هم الآخرون صلة رحمية وثقتها المصاهرة ، وقد علمت أن عقيلة الشيخ نسيب وهي أمّ ولديه الاستاذ سعيد مكارم الاستاذ بمدرسة سوق الغرب الثانوية ، والدكتور سامي مكارم الاستاذ بالجامعة الأميركية ببيروت ، هي خالة الست ابريزا عقيلة الدكتور أمين ، وهنا سقطت على الخبير .

وكثرت أسئلتي التي رحت أوجّهها للدكتور أمين عن الشيخ نسيب مكارم، وهل انه رأى بنفسه حبّة من تلك الحبوب ؟ وهل ان خطوطها المحفورة عليها واضحة ، ومقروءة تحت العدسات ؟ وقد علمت منه ان ليس هنالك حبّة واحدة بل هنالك حبات ، وفصوص خواتيم نقش على بعضها قصيدة لا تقل عن بضعة أبياتٍ ، في مساحة — من الصلب أو العقيق ، أو الذهب — لا تتجاوز السنتيمتر المربع ! !

ويبدو أن الدكتور أمين قد أحسّ بإعجابي ودهشتي ، فحين زار لبنان في الاربعينات جاءني بأغلى هدية من هدايا فن الشيخ نسيب ، لقد جاءني بلوحة كتبت بالخط الذهبي وسط لون سماوي يزيّنها إطار جميل مذهّب في حجم يقارب ٤٠ × ٧٥ سم خطّ فيها الكلمة المأثورة (صديقك من صدقك) وتحت هذه الجملة توقيع : مكارم ، وفي أقصى يسارها بخط الرقعة كتب مكارم : (هدية الدكتور أمين زهر لصديقه جعفر الخليلي) وأنا اعتزازاً مني بهذه اللوحة الفنية ، أو الصحيح تباهياً بهذا الفن علّقت هذه اللوحة الخالدة في مكتبي بجريدة الهاتف وهي لم تزل فوق رأسي من مكتبي بدار التعارف ببغداد .

* * *

وفي سنة ١٩٥٦ طلبت وزارة الاعمار ببغداد من مكتبي (دار التعارف) أن يعدّها تقريراً جامعاً ومصوراً يشرح فيه ما أنجز (الاعمار) خلال هذه السنة وما ينتظر أن ينجز خلال السنوات الخمس ، على أن يطبع هذا التقرير في المطبعة الكاثوليكيـــة ببيروت ، ويخرج اخراجاً فنيـــاً بمناسبة اسبوع الاعمار الذي قررت الوزارة أن تقيمه في كل سنة ، وقد أعدّ مكتبي هذا التقرير المصوّر ، والخرائط ، والتصميمات اللازمة له ، وأوصى بأن يتولى الشيخ نسيب مكارم خطّ العناوين لكل الصفحات من هذا التقرير ، فخرج مطبوعاً طبعة انيقة وملونة وقد زيّنت عناوين فصوله خطوط الشيخ نسيب مكارم .

وفي هذه السنة نفسها سنة ١٩٥٦ علمت أن للشيخ نسيب مكتباً خاصاً للخط ببيروت ، وان مكتبه هذا واقع في عمارة قريبة من البرج ، فقصدته فيها ، وهناك تم التعارف بيننا ودعاني لزيارته (بعيتات) .

كنت قد رأيت صورته غير مرة منشورة في بعض الصحف في بعض المناسبات وعلى صدره عدد من الأوسمة والنياشين التي نالها من بعض الدول ، ورأيت بأن له شاربين معكوفين نسبياً ، وهو حليق اللحية ، وعينين تتحدى مَن يواجههما بنظرات نافذة ، نظرات تقول لك انك أمام فارس صلب المراس ، قوي الشكيمة ، ليس بمقدور كل أحد الاتصال به ، والتعرف اليه ، ولا يعوز هذه الصورة إلا أن تتقلد السيف وتشد إلى محزمها الخنجر ، وهي صورة أبعد ما تكون عن صور النبغاء من أرباب الفنّ حتى لتكاد تسأل نفسك وأنت لم تر غير صوره في الصحف : كيف يجوز أن يكون صاحب هذه الصورة هو صاحب بيضة الدستور ؟ وصاحب حبوب الرز ؟ وصاحب هذه الخطوط الجميلة التي خطها عناوين للكتب ، والمجلات ، والصحف الشهيرة ؟ .

وتبدّدت هذه الفكر التي بثتها صوره في أول ملتقى لي بهذا الرجل ، وبدا لي رجلاً من أهدأ من رأيت نفساً ، ومن اكثر الوجوه بشاشة، وبشراً ، ومن اكثر من عرفت من المرحبين ترحيباً ، وتهليلاً ، بزائريهم ، فلا تكاد تمر دقيقة واحدة حتى تراه يقول لك : أهلاً ، وسهلاً ثم يكررها ويقول مرة أخرى : أهلاً وسهلاً ، وهكذا .

وتتبدد فكرة الغرور والكبرياء التي قد تبعثها صوره التي وصفت ، حين تهم بتوديعه ، فيمشي معك إلى نهاية الباب وبشيء كثير من التواضع يودعك ويرجو أن يسعد بلقائك مرات !! وتغيب عن ذهنك صورة الفارس المتحدي والمتمنطق بالسيف والخنجر وتحل محلها صورة الإنسان الذي قلما طبع انسان مثله بطابع الوداعة والتواضع .

وتكتب لي زيارته في بيته بعيتات ، فإذا به معرض من المعارض الفنية التي يزدان بصورها صالون بيته الكبير ، وتتسمّر قدماك أمام اية لوحة تستعرضها من هذه الألواح المخطوطة بالذهب ، والمنقوشة بالألوان الزاهية ، والمؤطّرة بالأطر الفنية التي كانت من صنع يديه نفسه ، فقد كان أول نشأته نجّاراً ، وابدع ابداعاً منقطع النظير في أعمال النجارة ، ولاسيما الفنية منها ، ثم انقطع إلى الكتابة حين رأى ليده مثل هذه البراعة في تخريم الخشب ، وحفره ، ونقشه ، وراح يتفنن في الكتابة ، ويخرج المخطوط على قواعد الفنون المبتكرة

الشيخ نسيب تزين صدره عشرات الاوسمة الدولية .

وليس على القواعد التي أخذ بها الخطاطون ، كأن يكون طول الألف سبع نقط مثلاً أو عين القاف نقطة واحدة ، وانما راح يكتب الخط كتابة فنية لا تستطيع أن تحول نظرك عن اللوحة إلى الأخرى إلا بالاكراه ، وهكذا أنت مع اللوحة الثانية ، والثالثة ، والعشرين ، والثلاثين .

هذه سفينة تجري في عرض البحر ، مؤلفة من كلمة : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم) وهذه صورة لقلب انسان مؤلفة من الدعاء إلى الله في قولك : (ارحمنا يا أرحم الراحمين) . وصورة لأجمل شبّاك من الشبابيك الفنية أو صورة ستارة من الستائر المطرزة ، مؤلفة من كلمة : (الحمد لله على نعمه) اخرجها على نسق الخط الكوفي . وانت حين تنظر إليها لا تظنها إلا شباكاً حتى إذا دققت النظر إذا بهذه الخطوط الممتدة ، والمتقاطعة كما تتقاطع قضبان الحديد ما هي إلا حروف يؤلف مجموعها بدون اية زيادة أو نقصان قولك : (الحمد لله على نعمه) . وصورة (لشمعدان) قائم على قاعدتين متناظرتين مؤلف من قولك : (يقيني بالله يقيني) مكررة من اليمين ، ومعكوسة من اليسار ، وصورة لقبة من هذه القبب التي تقوم في المشاهد المقدسة تتألف من مقطع الآية الكريمة (الحمد لله رب العالمين) ، وتجلس كلمة الله فوق القبة تماماً بدون أية زيادة أو نقصان . وهناك صور كثيرة وكثيرة لعب فيها فن الرسم والخط معاً لعبةً ما لعبها متفنن قبل الشيخ نسيب مكارم كصورة الشمس التي تحكي قولك (الله محبة)

وجئنا إلى لون آخر من البراعة ، والابتكار ، فرأيت هناك نموذجاً من حبوب الرز التي كاد يذهب بي الاعجاب — قبل أن أراها — إلى الشك في صحتها ، وتحت العدسة قرأت بوضوح ما نقش عليها من كلمات ، وبوضوح تام ، وخط من أجمل الخطوط ، ظهرت الحروف بارزة ، نافرة لكل عين ،

وقد لفت نظري الشيخ نسيب : كيف أن عيون الحروف من الصاد وحتى الميم كانت مفتوحة وظاهرة للعيان ! !

أما الخواتم ، والفصوص ، فقد نقشت عليها أبيات من الشعر ، وتواريخ لحوادث معينة ، وقد أراني خاتماً قد نقشت عليه عشرة أبيات من الشعر الفارسي في مناسبة من المناسبات وكان من أبرع ما رأيت عملاً ، وقد أسف غاية الأسف حين علم مني أن الشعر كان شعراً إلى العامية الفارسية أقرب منه إلى

من اليسار الى اليمين ـ اسكندر حريق ، الشيخ نسيب مكارم
المؤلف ، الدكتور سامي قائد بيه

(فصحاها) وان هذا الشعر لم يكن يستحق ذلك المجهود العجيب لما يسوده من ركة .

وسألت الشيخ نسيب عن بيضة الدستور ، وحكيت له كيف أن هذه كانت اول شيء شدّني اليه ، وكيف كان ظني بها من قبل بانها بيضة دجاجة

حقيقية ، حتّى لقد كنت أخشى عليها أن تتكسر ذات يوم ، فيضيع لك مجهود عظيم ، حتّى علمت فيما بعد أن البيضة لم تكن بيضة دجاجة وانما هي جسم من الرخام بحجم بيضة الدجاجة ، فضحك الشيخ نسيب وقال : لقد أسمعني غيرك مثل هذا ظاناً بأنها بيضة دجاجة حقيقية ، ولكنه لم يكن يحاذر عليها مثلك ، أما البيضة فهي ليست في متحف اسطنبول ولكنها ليست تحت يدي . وبعد عدة سنوات علمت بان البيضة المذكورة هي عند أحد الشخصيات اللبنانية بصفة رهينة ، ولكني لم أعلم كيف تمت هذه الرهينة ؟ وما هي حكايتها ؟ كما عامت أن هذه البيضة قد ركزت على ظهر نسر من الطيور ، ووضعت بحيث يمكن أن تدور أمام عين المشاهد الذي يكون قد وضع العدسة المكبّرة على البعد المناسب ليقرأ المواد ، والقصيدة الشعرية ، ويرى خريطة الامبراطورية العثمانية، وذلك بواسطة فذلكة تقوم بها آلة هي التي تتولى دورانها ، كذلك علمت أن عدد الكلمات التي كتبت على صفحة هذه البيضة كانت نحو عشرة آلاف كلمة ! ! وقال لي الآب انطوان ضو الأنطوني الذي تولى عرض ألواح الشيخ نسيب مكارم في المعهد الأنطوني في (بعبدا) بلبنان من شهر مايس ١٩٧١ إلى حزيران من نفس السنة يصف البيضة : « واما عقبها — ويقصد قاعدة البيضة — فقد بقي فارغاً من الكتابة ، وكان من الممكن أن يسع الفي كلمة أو أكثر ! ! » وتذكّرت وانا تلميذ في الصف حين كان السيد حسين المعلم يصف لنا هذه البيضة وصرخت من غير وعي : الله

وسألت الشيخ نسيب : بايـــة وسيلـــة او ما هي الآلات والادوات التي كنت تستعملها في مثل هذه الكتابة ؟ وبأي نوع من أنواع العدسات ؟ قال ليس هنالك من شيء غير طبيعي : انه قلم حديدي رفيع للكتابة ، وسكين ذات رأس دقيق ، وبالعين المجرّدة ، العين المجردّة تماماً . ! !

ومرة أخرى كان يحتاج الأمر مني إلى صرخة تعجب قائلاً : الله .

* * * *

وفي صيف سنة ١٩٥٧ عرض علي الصديق المرحوم اسكندر حريق بعد ان علم بصلتي بالشيخ نسيب أن أصحبه إلى بيته بعيتات ، لينعم هو الآخر برؤية التحف الفنية ، وكان المرحوم (حريق) يشغل يومها رياسة تحرير مجلة (أهل النفط) بعد أن تركها عبد الله مشنوق ، وضربنا موعدا ويممّنا (عيتات) ومعنا مصور المجلة .

ووقف اسكندر حريق كوقفتي أمام هذه الألواح ، غائب الذهن عما يدور حوله ، متوجهاً بكل حواسه إلى هذه البراعة التي تجاوزت حدود مسموعاته عن مبتكرات الشيخ نسيب الخطّية ، وصوّر المصور بعض هذه الألواح ، وأصغى اسكندر حريق إلى حديث الشيخ نسيب مكارم وكيف زاول النجارة اول ما زاول من عمل ، وكيف حدثته نفسه بأن يتحول إلى ممارسة الخط ثم كيف أطلق لنفسه العنان في أن يظهر هذه المخطوطات بالشكل الذي ترتضيه نفسه ، دون اهتمامه بالقواعد التي جمد عليها الخطاطون المتأخرون ، أما المتقدمون فقد أظهروا شيئاً غير قليل من البراعة في الخط ، ولا سيما في قسم (الثلثي) منه وتفننوا كثيراً في النقوش التي تحف بسور القرآن ، ولعل – قال الشيخ نسيب – ولعلها ، هي التي شجّعتني على أن أطلق لنفسي العنان فيما ترتئي وما يوحى اليها ، لأن الفن عندي مقدرة ووحي .

وظهرت مجلة (أهل النفط) بتسجيل هذه المقابلة ، وتصوير لبعض هذه التحف ، وحديث شهي عن الشيخ نسيب وفنّه ، وكانت لي صورة تذكارية تجمع بيني وبين الشيخ نسيب واسكندر حريق في بيت الشيخ نسيب هي عندي من أعز بل من أثمن ذكريات العمر .

* * *

وتوثقت عرى الصداقة بيني وبين الشيخ نسيب مكارم ، فلا أكاد أقدم على سوق الغرب وانزل بيت الصديق الكريم الدكتور امين زهر ضيفاً حتى يخفّ إليّ من عيتات ويدعوني إلى بيته ، وكنت أسعى كثيراً للاعتذار من الإجابة على دعوته لما شاهدت من توسع غاية في الكلفة لا من حيث أصناف المائدة وكثرة الطعام ، وما كان يبدو من سخاء مفرط في كل لون من المآكل فحسب ، وانما لكثرة ما كان يدعو من البيوتات الكريمة التي تربطني واياهم روابط الصداقة ، والمحبة ، كآل قائدبيه ، وآل زهر ، وآل مكارم ، ومع ذلك فكنت أنزل على رغبته طائعاً لكثرة إصراره وإلحاحه ، هذا بالاضافة إلى الولائم الأخرى التي كان يقيمها هو أو يقيمها ابنه سعيد مكارم بمناسبة تخص بعض أصدقائهم وأرحامهم فأدعى أنا الآخر إليها كما لو كنت واحداً من الأسرة .

وعن طريق الشيخ نسيب توثقت الصداقة بيني وبين نجليه الكريمين سعيد مكارم ، والدكتور سامي مكارم ، وابن أخيه رامز مكارم ، الذي يقيم اليوم في (فنزويلا) والذي كثيراً ما كتب لي عنه شاعرنا العبقري الكبير الياس فرحات واكثر من تفقده له يوم كان رامز في لبنان بعد عودته من البرازيل وقال لي فرحات فيما قال : انه تضاعف حبه للشيخ نسيب مكارم لا بصفته المتفنن الذي لا يجارى فحسب ، وإنما لانه عمّ رامز وأخو أبيه ، والحق ان (رامزاً) من سمو الأخلاق بحيث كان يحب عارفوه من أجله جميع اسرته وان لم يعرفوهم ، ثم إن (رامزاً) لم يكن وحده كذلك وانما كان سعيد مكارم يكاد يكون نسخة من أبيه من حيث طهارة النفس ، وصدق اللهجة والطيبة التي تصونه من الخبث ، والختل ، والدجل ، لذلك شدتني اليه هذه الصفات ، وعززته في عيني .

وسعيد مكارم يجمع بين المتناقضات ، فهو رجل يعمل بجد بحيث لا يفرّط في واجبه قيد شعرة كمدرس بثانوية سوق الغرب ، وكمحاضر في أحد معاهد بيروت ، ولكنه متهم بالتباطؤ في شؤونه الخاصة ، والتكاسل في القضايا الثانوية حتّى صار موضوعاً للتندر بيننا ، وكنا نغالي في وصف تكاسله حتّى نتجاوز الحد على سبيل النكتة فنقول مثلاً إذا طلب إلى سعيد ان يكتب لنا قطعة شعرية بخطه ــ وخط سعيد من الخطوط الجميلة وقد ورث هذه النعمة من أبيه ــ فلا يمكن أن ينجز لك هذا العمل بأقل من سنة حتّى وإن كان الشعر المطلوب بيتاً واحداً إلى غير ذلك من المقالاة في تباطؤ سعيد مكارم في إنجاز الأمور .

ولقد سألته مرة على سبيل المزاح : كم ساعة ينبغي لك حتّى تقطع الطريق بين سوق الغرب وبيروت بسيارتك ؟ فلم يفطن للدعابة وأجاب قائلاً أفلم تنزل أنت من سوق الغرب إلى بيروت كل يوم ؟ فهل يتجاوز الطريق اكثر من ربع ساعة ؟ قلت بلى ولكني لم أنزل من سوق الغرب إلى بيروت مع سعيد مكارم المتباطىء في كل شيء ، وانما أنزل مع سواق السيارات ، وهنا التفت إلى ما كنت أريد من المزح وقال لي يا أخي لا تقس ما أنا ملزم به في حياتي من الأعمال بما تعرفه عني ــ حقاً أم باطلاً ــ في تأجيل امور ليس فيها ما يستوجب الاسراع .

ثم إنه أي سعيد مكارم كان يتهم الدكتور أمين زهر ويقول إنه هو الذي يشيع عنه مثل هذه الاشاعات بقصد التفكهة ، لأنه كلّفه ذات يوم بأمر ولم يكن له من الأهمية التي تستدعي التعجيل فأجلّه ، وكانت ثورة اتسع لهيبها ، ولم تخمد حتّى اليوم ، وسرى مفعولها إلى جميع المعارف بوحي من الدكتور أمين .

ومن هذا اللون من المزح ، طلب مني مرة الدكتور أمين زهر أن أضع له تاريخاً شعرياً وانا لست من الذين يمارسون التاريخ – لدارة ينوي أن يشيدها بعد خمس سنوات ، فقلت له وهب اني استطعت أن أضع مثل هذا التاريخ فلماذا تطلب مني أن أعالج هذا التاريخ منذ الآن وقبل أن تقيم هذا البيت بخمس سنوات ؟ قال لأني أريد أن أعهد بكتابته إلى أبي نبيل (سعيد مكارم) ولا أحسبه سينتهي من كتابته بأقل من خمس سنوات !! فأوحت لي هذه الدعابة نظم ارجوزة تتضمن الحكاية ، وكان أن انتشر خبرها بين المعارف ، والأصدقاء ، بل كاد يستظهرها أو أنه استظهرها سعيد مكارم نفسه ، وهذه هي الارجوزة :

قال صديقي وأخي (أمين) إني بربي الله استعينُ
فقد نويت ان اشيد داري بأنفس المرمر والاحجار
على طراز ما له مثيل أو قل فإن مثله قليلُ
دار كما نفسي تشتهيها كل الذي تهواه نفسي فيها
أعنى بها عناية ابن المنذر بقصره المعروف والمشتهر
وأجعلنْ منها بناء يصبي يستلفت العين (بسوق الغرب)
مرّحباً بكل من يزورنا اكثر من ترحيبنا بهم هنا
وقال أشتهي بأن تعظّما داري ، وتاريخاً لها أن تنظما
قلت متى تريد وضع الأسِّ فقال من بعد سنين خمسِ
لكنني اريد منذ الساعَة أن تنظم التاريخ في براعَةْ
لأنني أرغب في (سعيد) يكتبه بخطه المجيد
لذاك إن لم تستعدَّ الآنا فأقرأ على تاريخه القرآنا
فكل حرف من حروف الشعر يكتبه (سعيدنا) في شهر

وذاك إكراماً لنـــا وإلا   فالحرف في عـــام ولن يقـــلا
لذا جرى التاريخ في أشعاري :   بعد السنين الخمس : ابني داري
وبعد ذا أرجو أنــا (الخليلي)   من صاحبي الشهم (أبي نبيل)
أرجوه أن يشملني بالصفـــح   فما حوى نظمي غيرَ المـــزحِ

* * *

ولمّا كنت أقضي صيف أغلب السنين بسوق الغرب ، فقد كثر ترددي على بيت الشيخ نسيب مكارم (بعيتات) وقد بهرني من هذا الرجل شيء آخر لا تقل أهميته عن نبوغه في الفن ، وذلك هو الايمان بالله والذي يستطيع أن يتحسّس به الناس من فحوى ألواحه اذا لم يكتب لهم أن يروه عن كثب ويتحسّسوا به عن قرب ، فما هنالك لوحة قد خطها ولم يكن للآيات القرآنية ، أو العظة ، والحكمة ، نصيب كبير منها ، مثل : بسم الله الرحمن الرحيم ، ومثل : الحمد لله رب العالمين ، ومثل : يقيني بالله يقيني ، ومثل : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ومثل : تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، ومثل ما بكم من نعمة فمن الله ، وغير هذه المئات من الألواح الفنيّـــة التي يعبّر اختيار نصوصها عن نزعته وايمانه .

وحتى اذا دعته المناسبة أن يخط شيئاً غير هذا فلا يخطّ إلاّ المأثر من الأدب، ومن ذلك كانت حبة القمح التي أهداها إلى متحف الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩١٩ وكانت الجامعة الأميركية تعرف يومذاك : بالكلية السوريةالانجيلية، وكانت قد أسست متحفاً خاصاً بالنفائس والآثار ، فكتب في هذه الحبّة هذا العنوان : (فريضة المدح في حبّة القمح) ثم هذه الجملة : « مقدمة إلى متحف الكلية السورية الانجيلية في بيروت تنويهاً بما لها من الفضل في خدمة العلم » ثم هذه المقطوعة الشعرية :

يا معهد العلم الصحيح تحيـــــة　　من كل سوري لوردك ظامـــي
علمتنا معنى الحياة ولم تـــــزل　　تعطي بذور العلم والاقدام
وغرست في النشء الجديد خلائقاً　　جاءت نتائجها بكل همـــام
وأقمت للآثار أسنى متحـــف　　تنمو محاسنه مع الأيـــام
فاليك من خطّي الدقيق هدية　　صغرت أقدمها مع الإعظام
هي قمحة سجلتُ فيها آيـــةً　　من آي فضلك في ربوع الشام
لا زلت في هذي المواطن زاهراً　　وعليك الف تحية وسلام

وكل هذا محفور على تلك الحبة التي صيغت بحجم حبة القمح ! ! وبخط جليّ وجميل يقرؤه كل قارىء من وراء العدسة فيعجب إلى جانب فنه بايمانه ومبلغ اعتزازه بالعلم والعرفان .

* * *

وقبل بضع سنوات طلّق الكتابة وترك محله ببيروت وكان يحسب أنه قد طلّق الفن إلى غير رجعة لا سيما وقد بدأ يحسّ بارتعاش في يديه واضطراب في قلبه وهناك أطلق لحيته واقتصر عمله على ذكر الله والاستغفار ، ومال إلى التصوف والانطواء ، ومرت على ذلك فترة هاجت منه حنينه إلى الفن لا سيما وان حياته أصبحت فارغة . أما الاستغفار وذكر الله فقد كان يلازمه منذ صباه حتى اشتهر بين قومه وعارفيه بالتقوى ، وليس هذا بالأمر الذي يسدّ الفراغ ولكن كيف يعمل والرعشة في يديه قد بدأت تزداد يوماً بعد يوم ، فعمد إلى مساطر من الخشب يمدّها على طول ذراعه ثم يشدّها بالخيوط شداً محكماً ، وينزل إلى العمل كما لو كان شابا وفي أدوار حياته الأولى نشاطاً ، ورغبة ، وتفانياً في العمل ، والغريب أن الألواح التي كتبها وهو في مثل هذا العمر الذي أتم فيه الاثنين والثمانين من السنين كانت من الروعة بحيث تثير الدهشة ! !

* * *

ووصلت إلى سوق الغرب في ١٩٧١/٦/٢٠ للتمتع بصيف لبنان والاشراف على طبع جزئين آخرين من (موسوعة العتبات المقدسة) ، وكما هي العادة جمعتني مائدة الدكتور امين زهر بعدد من أفراد الأسرة ، نساء ورجالاً ، وبين هؤلاء كان السيد طعان قائدبيه ، شقيق السيدة ابريزا الكبير وهو من الشخصيات المتصفة بالحصافة وبعد النظر ، وقد رأيت السيد طعان يختلي بصهره الدكتور أمين في ركن من أركان البيت، ثم يبتعدان ويقتربان بعد ذلك فيتهامسان في ركن آخر ، وكنت أحسب أن ذلك من الأمور التي تخصهما ، وكنا قد انتهينا من الغداء وانتشرنا في الصالون ، واذا بالسيد طعان ، والدكتور أمين ، يدعوانني إلى (الفرنده) بقصد مشاركتهما في الحديث ، ثم يفتتح السيد طعان الحديث معي ، في مقدمة طويلة عن الانسان ونهايته في هذا الوجود ، وأن هذه النهاية محتمة على الجميع ، فلا يستطيع أن يفلت منها أحد ، وقد تساوى فيها الأنبياء ، والفلاسفة ، والكبير والصغير ، ولم يزل بي حتى أثار انتباهي إلى ان هناك أمراً ذا بال وأن هذه المقدمة ستنتهي بنتيجة سيئة هي الموت ، ولكن موت من ؟ انني أرجو أن لا يكون الأمر خطيراً ، ولكنه كان الذي كنت أخشى ، فقد انتهى بالحديث إلى اعلامي بإن الشيخ نسيب قد مات ، ولكي يخفف وقع المصاب على نفسي قال انه مات سعيداً لأنه بلغ نهاية العمر التي يتمناها كل واحد ، وقد رأى بعينه كيف بلغ بفنه القمة وكيف جاء الوزير وهو في فراش المرض يقلده وسام الجمهورية اللبنانية ، إلى غير ذلك مما كان يقوله السيد طعان ، ويؤيده الدكتور أمين ، وكانت عيناي قد فاضتا بالدموع ولم أستطع أن أتمالك نفسي .

وفي عصر هذا اليوم قصدت بيت الشيخ نسيب لأعزي السيدة عقيلته وولديه وابنة أخيه السيدة سنية عقيلة الاستاذ سعيد مكارم ، وأوصيت نفسي في الطريق بأنني سأقابل سيدتين فمن العيب الشائن أن أقابلهما باكياً ومع كل ذلك فقد

انفجرت باكياً أمامهما ، ووقع المحظور .

لم يكن الفن وحده وإن بلغ ما بلغ هو الذي شدّني إلى هذا الرجل الذي عرفته وانا لم أزل طالباً في المدرسة بقدر ما شدّني اليه هذا الخلق الذي تتمثّل فيه الانسانية بكل معانيها ، فلقد كان صورة من أروع صور الإيمان والتقوى وطهارة النفس .

لقد ولد سنة ١٨٨٩ ومات في ٤ حزيران ١٩٧١ وكانت العلّة التي يخشى عليه منها هي القلب ، ولكنّ براعة الدكتور سامي قائدبيه المتخصص بجراحة وامراض القلب قد نجحت معه وحالت بينه وبين الموت سنين طويلة فمات بالسرطان الذي لم يمهله إلا أياماً معدودة . فوا لهفّي عليه ، ويا حسرتي على فقدانه ، رحمه الله وجزاه عن الفن والانسانية خير الجزاء .

ظرفـــاء عرفتهم

السيد حسين زازان

من ظرفاء القرن التاسع عشر ، الم بالادب العربي الماما جيدا وكان من خطباء المنابر المبرزين وكان من الفكاهة وحب النكتة وخلق المقالب قد بلغ الذروة ، واختار له تسعة ظرفاء من أرباب الملكات وضمهم اليه فصاروا عشرة ، وسماهم بالعشرة المبشرة ، وكان هؤلاء العشرة المبشرة وعلى رأسهم السيد حسين زازان لا يتركون فرصة تمر ، ولا فراغا يحصل . دون أن يقتلوه بالاجتماع لابتكار نكتة ، أو لوضع (مقلب) . أو القيام بتمثيلية لاشباع رغباتهم الخاصة نحو الفكاهة والهزل . ولقد عمت شهرة هؤلاء العشرة المبشرة في العراق من شماله الى جنوبه فلم تبق مدينة من مدن العراق المهمة أو ناد من الاندية الادبية في القرن الماضي ولم يتعرف الى بعض هؤلاء العشرة المبشرة أو اليهم جميعا . واذا كنت لم أدرك السيد حسين زازان فقد أدركت بعض حوارييه ، وبعض أعضاء العشرة المبشرة كالشيخ محمد الجيلاوي أو بعض أرباب الفكاهة والظرف الذين كانوا يلاحقون العشرة المبشرة اينما حلوا وارتحلوا كعبادة الحياط ، وكعبد الحسين الصايغ . ووجدت هؤلاء يحفظون الشيء الكثير من الشعر الذي كانت العشرة المبشرة ترتجله بمقتضى مناسباته . ويحسنون تمثيل بعض الادوار التي كانت العشرة المبشرة تقوم بتمثيلها في مختلف مدن العراق . ويروون الشيء الكثير من حكايات تلك الزمرة التي هوت الظرف لمجرد الهواية .

وارتأى السيد حسين زازان ذات يوم أن يقوم بدور راجا من راجات الهند باسم (راجا صفدر خان رامپور) على أن يقوم أعضاء العشرة المبشرة بالادوار التي يتطلبها الموقف من سكرتير للراجا ، ومن مشاور خاص وخدم ، ، وجاؤوا بعمائم لفوها على رؤوسهم على الطريقة الهندية ولبسوا النظارات بقصد التعمية وحملوا معهم بعض الحنط والعلب وبدلوا لغتهم بلغة قالوا عنها انها هندية ، ولم يكن فيها من الهندية الا الهاء التي تلحق أواخر الكلمات ، وهي في الحق مزيج من الفاظ غير مفهومة المعنى وقصدوا مدينة الكوفة ، وفي الكوفة نزلوا في ضيافة سادن المسجد الكبير الذي رحب بقدوم الراجا ترحيبا حارا ، وقد علق السادن على هذه الضيافة شيئا كثيرا من الامال وما قد سيحصل عليه من الراجا جزاء خدمته ، ففرش البيت ونظم الغرف وعلق المصابيح وذبح الدجاج وأولم الولائم ووقف هو أولاده في خدمة (الراجا رامپور) لتنفيذ رغباته ورغبات حاشيته .

واضطر السادن وأولاده أن يتبعوا التعليمات التي أصدرها لهم مشاور الراجا بالايماء والاشارة والصراخ في وجوههم بأن ينحنوا أمام الراجا مكتوفي الايدي حين يريدون أن يقابلوه ، ويجب أن يصرخ السادن هو وأولاده وأتباعه وهم على تلك الشاكلة من الانحناء بصوت عال كلما عطس الراجا مرتلين :

ـ خان صاحب ... راحت..

أي نسأل لك الراحة يا سيادة الراجا .

ولقد كثر العطاس الصناعي عند السيد حسين زازان بسرعة متناهية فكثر الترتيل بعجلة متناسبة : (خـــان صاحب راحت) وكان بعض خدم مسجد الكوفة يعرفون اللغة الهندية بحكم اختلاطهم بزوار المسجد من الهند ومختلف الجهات ولكنهم لم يعرفوا ولا كلمة مما كان يدور بين الراجا وخدمه ، فعللوا ذلك بأنها لغة من لغات الهند الخاصة وليس لها دخل بلغة الاردو العامة ، وحين كانت تضيق صدور العشرة المبشرة بتمثيل هذه الادوار وهم في بيت السادن كانوا يطلبون من السادن وأتباعه بأن يتركوهم لشأنهم وذلك بأن يبلل كل فرد من حاشية الراجا راحة

يده ويصفع بها جباه السادن وأولاده ويأمروهم بأن يديروا أظهرهم وبصوت واحد يرتلون وهم خارجون من عند الراجا :

ــ عافيت هه .. عافيت هه ..

أي نرجو لك العافية .

فيعملون ذلك وهم يعتقدون أن مراسيم هذا الراجا تقتضي هذا المقتضى وهنالك يخلو الجو للعشرة المبشرة فيتكلمون ويضحكون ويمرحون ، وهكذا قضى العشرة المبشرة ثلاثة أيام في ضيافة سادن المسجد الكبير ولم يترك العشرة أية وسيلة من وسائل المرح ولا أي دور من أدوار الضحك على الذقون دون أن يتخذوها مع سادن المسجد وأتباعه .

وفي صباح اليوم الرابع نادى الراجـا رامپور السادن وسلمه حوالة بمبلغ ثلثمائة ربية على أحـد التجار في النجف وبلّل راحة يده بلسانه وصفع بهـا جبين السادن فأدار هذا ظهره ومضى وهو في فرح لا يوصف مرتلا ومن خلفه أولاده مرتلين :

ــ عافيت هه ... عافيت هه .. !!

وبعد ارفضاض الجمع ظهر أن الحوالة غير ذات مفعول ...

واشتهر أحد علماء الدين بشدة الحياء فراقبه السيد حسين زازان حتى اذا رآه يدخل أحد المجالس الغاصة ببعض أهل الفضل والادب التفع السيد حسين بعباءة سوداء وتقمص شخصية امرأة ، من حيث الصورة وهو محجب ، من حيث الصوت واللهجة ، وتظاهر بأنه يحمل طفلا صغيرا ثم دنا من باب المجلس المذكور وطلب الانصاف من حضاره ، وقال انها زوجة تزوجها العالم المشار اليه ثم ما لبث أن تركها هي وطفلها الرضيع ، وهنا بدأ الطفل يصرخ كما لو كان هنالك طفل حقيقة ! ، وأقسم العالم بأنه بعيد جدا عما تقول هذه المرأة وهـو ليس له غير امرأته ، وقال ان الامر لا يخلو من اشتباه وسهو وقعت فيه هذه المرأة ، والا فهو لا يعرف لهذه الدعوى وجها ... !!

وسئلت المرأة عما اذا كانت حقا تقصد هذا العالم ؟

فقال زازان : — أترون ان امرأة تخطيء في معرفة زوجها وابي طفلها ؟ ألم يكن هذا العالم فلاناً ابن فلان وزوج فلانة ابنة فلان ؟ وصاحب فلان وصديق فلان ؟ فكاد العالم ان يصقع من شدة خجله وكاد المجلس يصعق من شدة الاستغراب . وجرت مداولات ومناقشات وكان العرق ينزل كالمطر من جبين ذلك العالم الذي لم يجد ما يلوذ به من وسيلة لتكذيب المرأة ولو لم يلق السيد حسين زازان بالنقاب جانبا ويظهر للمجلس لانتابت ذلك الرجل نوبة عصبية لما عرف به من شدة الحياء والخجل .

ودعاه المرجع الديني الاكبر مرة الى بيته ووبخه وقال له انه كثيرا ما رآه يستهزيء بالناس وينال منهم بسخريته اللاذعة واعتبر ذلك العمل منه كالاتيان بالمنكر لا يرضاه الشرع ، ونهاه عن هذا المنكر ، ولكن السيد حسين زازان قال ان طبيعة الاشياء هي التي تقتضي ذلك لا طبيعتي أنا فوبخه المرجع الديني وقال له :

— انها فلسفة لا يفهم لها معنى ....

وفي ذات يوم والحر كان على أشده رأى السيد حسين زازان وهو يمر في الطريق رجلا من البلوجيين الذين يؤمون العتبات بقصد الزيارة ، وقد اعتمر عمامة كبيرة غطس فيها رأسه وغاب حتى شحمة اذنيه تحت طياتها ، وقد التحف بفرو من هذه الفراء الكابلية المعروفة بكثافة صوفها ومن تحتها قباء من نوع (البرك) الخراساني الذي لا يلبس الا في بحبوحة الشتاء القارس ، وهو يسير بتؤدة ووقار في تلك الساعة من الظهيرة المشتعلة ، وهنا وقف السيد حسين واستوقف الرجـــــل وقال لـــه :

— انني افتش عنك منذ صباح امس حتى الان فلم أعثر عليك الا في هذه الآونة ...

قال — وما الذي تريد مني ؟

قال — بل ان الزعيم الروحي الكبير الذي يريد ذلك ، فتعال واتبعني اليه ...

ولم يزل به حتى وقف على باب الزعيم الروحاني يطلب مقابلته ، فيقول له :

ــ ولكن الوقت غير وقت مقابلة الان ...

قال ــ ولكن الامر فوري ومستعجل وسيلحق الدين والانصاف والمروءة ضرر لا يوصف اذا تأخرت هذه المقابلة ! !

وأذن للسيد حسين زازان بأن يدخل على الزعيم ومن ورائه ذلك البلوجي ، قال زازان للمرجع :

ــ أترى يا سيدي ..؟ فمن هذا الذي يستطيع أن يرى مثل هذا الرجل في مثل هذه الساعة بمثل هذه المشية والوقار ولا تفرض عليه طبيعة الظرف بــأن يضحك ؟.. والان أرجو أن تكون قد فهمت الفلسفة التي قلت لي انك لم تفهمها بعد .. ! ! فهل تطيق أن ترى هذا الاحمق على هذه الصورة ولا تضحك على الاقل ؟

واذا اقتضى الظرف فلا مانع لدى العشرة المبشرة ، أن تتخطى الجماهير وتقف أمامهم بأي حال من الاحوال النابية وذلك استجابة لمزاجها الفكه وصدوعا بأمر طبيعتها المرحة ، ولقد اقترح السيد حسين زازان مرة على حوارييه وهم في منتصف شهر شعبان بكربلاء ، وان منتصف شعبان يوم يحج فيه جمهور كبير من مختلف الجهات للزيارة ، لقد اقترح بأن ينزعوا كل البستهم ولا يبقوا الا على (اللباس) الداخلي وحده ، وأن يمتطوا عشرة حمير بالمقلوب اشترطوا على صاحبها بأن يسوقها بالترتيب واحدا بعد اخر دون أن يخرج أحدها من الخط المستقيم المرسوم ، ثم يحمل كل واحد باليد اليمنى كعكة وباليد اليسرى (زمّارة) من هذه (الزمّارات) التي يلهو بها الاطفال فلا يقضم أحدهم طرفا من الكعكة الا ويميل على الزمارة نافخا فيها نفخة معينة الطول والنغمة !

وهكذا مشى بهم المكاري في صف مستقيم واحد وقد امتطوا الحمير بالمقلوب يأكلون ويزمرون والناس من خلفهم صاحكون . أما هم فكأنهم عملا كانوا يؤدون

جديا ليس له بالهزل والظرف أي وشيج من النسب ، ذلك لأنهم وجدوا أمتعتهم ولمسوا لذتهم في القيام بمثل ذلك الدور .

وبلغ السيد حسين زازان الثمانين بل وتجاوز ذلك الى منتصف التسعين على ما قيل ، وكفّ بصره في السنوات الاخيرة ، ومات وهو في عوز شديد ، والسيد حسين الذي طالما أدخل السرور الى القلوب الحزينة ، وسرّى عن الناس همومهم ، لم يجد في آخر حياته شخصا واحداً يخفف عنه المه ، ويسمعه اطراءة واحدة مما يستحق ليغفو عليها غفوته الاخيرة . وهكذا شأن الناس ينسون حتّى الذين يحسنون اليهم اذا ما قلب لهم الدهر ظهر المجن وحال العوز أو الضعف بينهم وبين الشخوص أمامهم ...

كيف عرفت

قادر جاووش

هو عبد علي المعيبر ، من سكان قرية الخضر التابعة لقضاء السماوة وكان يعمل في معبر من سفينة تنقل العابرين بين ضفتي الفرات في الخضر صباحا مساء ، وانما سمي بقادر جاووش لانه كان يتقن تمثيل (الجندرمة) وهم جنود الدرك وأولو القوة على العهد العثماني ، لقد أدركته في شيخوخته ، طويل القامة ، مهيب الطلعة ، أجش الصوت ، كان يخضب لحيته بالحناء ، وكان قد تخطى العقد السابع حين رأيته أو كاد ولكنه كان لا يزال قويا ، وقد رجا الحاضرون منه أن ينشدهم قصيدته الغزلية فأنشدها .

عيني وراء أم غزيلات

وقصيدة ام غزيلات منظومة على لسان أحد الجندرمة ، يعشق فتاة قروية تغزل الصوف ، ويتغزل بها فيصف منها جمالها في لغة هي خليط بين التركية والكردية والعربية وفي لهجة الجندرمة في ذلك العصر ويصف في القصيدة حبه وغرامه ، ويعلم أهل هذه القروية بالخبر فيخفون الفتاة عن الجندرمة ويعلنون له خبر سقوطها في (الشط) وموتها فيه فيضمن هذا الجندرمة تلك القصيدة شيئا من الرثاء المضحك حزنا على تلك الحبيبة .

وكان قادر جاووش يلبس لباس الجندرمة حين يريد أن يقرأ هذه القصيدة ، ويفتل شاربيه الكثّين ، ويحمل بيده مخصرة ثم يتوسط حلقة كبيرة من الحضار

ويبدأ بقراءة تلك القصيدة والجميع يصفقون له ويرددون :

عيني ورام غزيلات

فيقول في نغمة حلوة :

آني رحتك سماوات

والمقصود بالسماوات مدينة السماوة ، أي اني رحت الى السماوة ، فترد عليه الحلقة :

عيني ورام غزيلات

فيقول :

شفتك هواية حلوات

فتجيب الحلقة : عيني ورام غزيلات

فيقول : —

عبالك ماكل قندات

أي تحسبه من الحلاوة وقد اكل قندا (سكراً)

ويظل يقرأ مثل هذا في نغمة حلوة جميلة ، ورقصة تتناسب والمعاني التي يأتي بها فيتحمس ويشب الى الاعلى ويسكر بخمرة تصوره لعشيقته الى أن يقول :

راحت وگعت بالشطّات

وهنالك يلقي بنفسه على الارض ويتظاهر بالاغماء فتبيض عيناه ويتدلى شارباه ، ويبدو كما لو كان قد أشرف على الموت حزنا على سقوط (ام غزيلات) في النهر ، والقصيدة طويلة جدا يحفظها الكثير ممن عرفوا قادر چاووش .

وقد يمر على جمع من الناس فيمدّ يده الى انفه ويعصره ثم يحدث صوتا كأنه ينتزع المخاط انتزاعا ثم ينفض يده على الجالسين فيفرّون منه هنا وهناك ، وقد يهجم البعض عليه ليضربه ولكنه يردّ الى الوراء مبهوتا حين يرى أن المخاط الذي

القاه قادر جاووش عليه لم يكن الا عددا من أعقاب السيكاير (الزبابين) ... !

وانتقل مدير ناحية الخضر المدعو قاسم أحمد وجاء في محله مدير آخر، وفي أول ليلة من ورود المدير الجديد قصد قادر جاووش بيت المدير، وبالتواطؤ مع خادم المدير والفراش اختفى الفراش والخادم في تلك الساعة وتركا قادر جاووش يدق باب بيت المدير في زي امرأة تحمل طفلا، وكان الوقت صيفا والمدير فوق سطح البيت في تلك الساعة وحده ولم تكن عائلته قد جاءت (الخضر) بعد، وسمع المدير الطرق على الباب فنادى الخادم ونادى الفراش فلم يجبه أحد فأطل من فوق السطح الى الشارع ليرى من الطارق : فوجدها امرأة تحمل طفلا تحت العباءة — ولم يكن الطفل غير وسادة حملها قادر جاووش بقصد التمثيل — وسألها المدير عن حاجتها فقالت :

اعتاد طفلي هذا — وهنا بدأ يصرخ كما يصرخ الطفل الحقيقي، لقد اعتاد أن لا ينام دون أن يرقص له أحد رقصة ولو كانت خفيفة :

قال — وما هو المطلوب مني الآن ؟

قالت — (يرحم أبوك فد ركصة ولو زغيره ..) فلم يحس المراقبون العارفون بالقضية، الا وصياح المدير يشق عنان السماء مناديا : شرطه، ولكن قادر جاووش ينسحب عن الباب بسرعة ويخفي نفسه .

وبعد بضع دقائق عاد قادر جاووش وطرق الباب طرقا عنيفا والطفل يصرخ صراخا شديدا وحين أطل المدير من السطح قال قادر جاووش :

— ما الذي يضيرك لو أخرجت رأسك قليلا وهززت رقبتك وتظاهرت بالرقص ليراك الطفل وينام ؟

واشتد غضب المدير ونادى الشرطة بأعلى صوته مرة أخرى من فوق سطح الدار ولكن قادر جاووش ظل يتابع قائلا :

— رحم الله قاسم أحمد مدير الناحية السابق... فالناس الذين يضيعون الذهب لا يجدون بدله ذهبا ... قال المدير — أكان قاسم أحمد يرقص لكم هنا ؟

قال قادر چاووش – (يرحم روحه لابوك طلّع نص بدنك اشضّارك لو رّگصت شوية وخليت الطفل ينام ..؟)

وهنا لم يطق المدير صبرا بل أسرع نازلا من السطح ليرى هذه المرأة التي تريد منه أن يرقص لينام ابنها وليرى أين الخادم واين هم الشرطة ؟ ولم يترك شتيمة لم يسقها لسلفه السيد قاسم أحمد الذي لا يدري كيف كان يرضى بأن يرقص للاطفال هنا لكي يناموا ... ! !

* * *

وكان يسكن الخضر سرّاج من آل الچبان كثيرا ما كان يتحدى قادر چاووش ويباهيه بابن عمه الفكهي المعروف عباس الچبان الذي كان يسكن يومذاك النجف ويقول له انك لو استطعت أن ترى ابن عمي عباس الچبان وترى (مقاليبه) لتركت الهزل ووليت خجلا من نفسك ... !

وكان قادر چاووش يسمع عن عباس الچبان شيئا كثيرا ولكنه لم يره ، وانتهز ذات مرة أحد مواسم الزيارات فطلب من هذا النزيل السراج أن يكتب الى ابن عمه فيحمل قادر چاووش الكتاب معه كتعريف به وتوصية باكرام مثواه ان نزل ضيفا على عباس الچبان .

وجاء قادر چاووش النجف وسأل عن محل عباس الچبان فدلوه على دكانه ، وكان يعمل سرّاجا كما يعمل أفراد أسرته جميعا ، وغاب قليلا ثم عاد في زي امرأة وهو يحمل ثلاث خرزات قال لعباس الچبان انها تمائم يريد منه أن يلفها في قطعة من الجلد ويخيطها ويجعل لها سيرا يمكن أن يشده الى عضد الطفل طلبا للخير والبركة والسلامة كما يفعل الكثير يومذاك ، ثم دفع له الاجرة المطلوبة ، وراح على أن يعود بعد نصف ساعة ليجد هذه التعويذة قد كملت .

وعاد قادر چاووش في نفس الزي السابق وتسلّم التعويذة من الچبان وراح ، ولم يغب غير بضع دقائق وقد فتق الجلد وحمل بيده ثلاث حصيات من هذا الحصى الذي يكثر بين الرمل وهو يصيح في وجه الچبان :

ــ سارق .. حرامي ... ساختجي ... لص .

ويولول ويصرخ ويشتم ويعربد ، وقد اجتمع الناس أمام دكان الچبان يسألون الخبر فقال قادر چاووش وهو يتقن تمثيل دور المرأة اتقانا لا مثيل له لقد قال :

انني اخت زوجة القائمقام ، وقد جئت من بغداد بثلاث تمائم معدومة النظير تقدر قيمتها بثلاثمائة ليرة عثمانية وأكثر وقد دفعت بها الى هذا السراج ليخيطها وذهبت ، ثم عدت فاذا بالذي كان خيط في هذا الجلد لم يكن غير هذه الحصيات الثلاث !! فمن الذي سرقها وأبدلها غير هذا اللعين السارق ؟

وأقسم عباس الچبان بأنه لم يعمل أكثر من أن يلف الحرز في قطعة الجلد ويخيطها وهو لا يعرف من أمر التمائم وقيمتها وشأنها أي شيء ثم لا يعرف كيف تحولت بعد ذلك الى هذه الحصيات .

وكثر الاخذ والرد ، فمدّ قادر چاووش يده الى بعض المعلقات كأقربة المسدسات وبعض ألجمة الخيل فاستلها من دكان الچبان على سبيل الرهينة وقال للجمع بأنه سيأتي بالجندرمة بعد قليل لأخذ الچبان الى الحبس ...

وغاب نصف ساعة وعاد في هذه المرة في زي رجل من رجال الجندرمة ، وكان يحمل معه على الدوام كل عدد التمثيل ولوازمه ومقتضياته .

وحين وصل الى دكان الچبان الفاه مغلقا ، فقد رأى الچبان أن النجاة كل النجاة في الهروب من هذه المرأة العفريتة فأغلق دكانه بسرعة وأطلق ساقيه للريح ...

وبحث قادر چاووش عن بيت الچبان ، ولم يزل يسأل هنا وهناك حتى اهتدى الى بيته ، وهنالك طرق الباب طرقا عنيفا وقد تجمع الناس من حوله متسائلين ، ...

وقالت « زوجة عباس : ان زوجها ليس في النجف وانه سافر الى بغداد ، ولكن قادر چاووش قال انه سيلج البيت ويبحث عنه فاذا ما وجده فانه سيهدم البيت على رؤوس ساكنيه حجارة حجارة ... !!

وتدخل الناس في الأمر ورأوا أن خير الحلول هو في اخراج عباس الچبان من البيت والاعتذار الى قادر چاووش عن كذبة زوجته والتي لم تكن لعباس الچبان فيها يد ، وهكذا خرج عباس الچبان من البيت وتولاه قادر چاووش بالدفع والركل دقائق ثم أماط اللثام عن حقيقته وعرفه بنفسه ، وأطلعه على الدواعي التي حملته على أن يعمل فيه ما عمل ليعرف ابن عمه بأن قادر چاووش ليس أقل شأناً من عباس الچبان وان لم يكن أعلى منه وأرفع .

ولقادر چاووش نكات وقصص كثيرة مع ولاة بغداد والبصرة على العهد العثماني ، وكان يقضي جانباً كبيراً من السنة ببغداد استجابة لدعوة الولاة في تدبير المقالب مع رؤساء الدوائر والقضاة والتجار ، ومع ذلك فقد مات وهو في اشد العوز والحاجة .

كيف عرفت

السيد علوان الرفيعي

من الجائز ان يكون كل شيء قد اخذ حقه او بعض حقه على الاقل من العناية والاهتمام في العصور الاخيرة حتى خص الادباء والاطباء والمتفننون بمختلف انواعهم وغير اولئك من مختلف الاصناف ـ ببحوث واستقصاءات ، وتحليل وترجمة اما الظرفاء اولئك الذين اوتوا من المواهب والمرح ما جعلهم يغيرون طبيعة الناس ، وينسونهم انفسهم ولو لساعات ، ويخرجونهم مما هم فيه من همّ وغمّ ولو لمدة مؤقتة يحببون فيها الحياة للسائمين واليائسين والمنطوين على انفسهم ، ويبعثون فيهم شيئاً من النشاط والبهجة ، اقول اما اولئك الظرفاء فقلما عني بهم العصر الحديث العناية اللازمة وخصهم ببعض ما خص به الاخرين ، من البحوث والدراسة ، ولو انصفهم الناس ، او لو انصفهم التأريخ لاولاهم الجانب الاكبر من عنايته ولوضعهم في اول الصفوف ولذلك علل واسباب وفلسفة خاصة ليس هذا محلها ، وانما الذي يعنيني انا من امر الظرف والظرفاء هو ان استعين بذاكرتي فارو عن بعض الذين عرفتهم من هؤلاء بعض الذي عرفته عنهم ، وذلك بداعي الادب الذي يلزمني ان اقول ما اعرف على قدر ما يستساغ . ومن هؤلاء الذين عرفت كان السيد علوان الرفيعي ..

هو السيد علوان الرفيعي من اسرة آل الرفيعي العريقة توفي في الكوفة في

اثناء الحرب الثانية وهو لم يزل في ميعة الصبا ، وترك الشيء الكثير من امثلة الوفاء والسخاء وطيب السريرة والحياء ، وكان معروفاً بنوع خاص من الظرف فكان يقول الشعر المرتجل وليس عليه منه غير الوزن ، اما المعنى فليس بالمسؤول عنه فان ادى المقصود فيها والا فالمهم ان يكون البيت موزونا ، فمثلا سأل مرة سائق سيارة يريد الخروج من بغداد إلى الحلة ، لقد سأله على هذا النمط.

نريد مجلســـاً لنـــا في الصـــدر
يا صاحب العـــزة ياذا القـــدر ..

واردف هذا البيت بتوضيح استفهامي قائلاً :

ــ عندك مكان بالصدر .. ؟

اي هل لديك محل لنا في صدر السيارة .

ولكثرة استعماله هذا الشعر المرتجل سماه بعض الاصدقاء تفكها بشاعر العراق .

ووقف السيد علوان الرفيعي مرة على محل حلويات وسكريات في الشام يتحدث إلى صاحبه وكان الحلواني يقص على السيد علوان : انه كان ضابطاً في الجيش العثماني ، وان له من الثقافة ما تؤهله لادارة اعمال مهمة كبيرة ، ولكن الحلويات والسكريات انما هي صنعة ابيه التي اشتهر بها وقد احببت — على ما قال — ان احييها ، فقال السيد علوان معقباً بالشعر :

دنياك عودهـــا عـــلى التفريـــع
لا بأس بالاحيـــاء والتصنيـــع

وحين سئل عن المقصود (بالتفريع) قال رحمه الله يجب على الانسان ان (يفرّع ويندعي) اي ان يحسر رأسه ويدعو للناس بالخير .. ! !

وعجب الحلواني من هذا البيت ، وتعجب ان يكون بمقدور شاعر ان يرتجل البيت بمثل هذه السهولة ويضمنه فكرة احياء الصناعة فسأل الواقفين من

اصدقاء الرفيعي قائلاً :

ـــ من يكون الاخ الكريم ... ؟

فقيل له ـــ انه شاعر العراق ...

فرحب وهلّل . وقام وقعد ، وظن ان شاعر العراق هذا لا يتجاوز احداثنين ، فاما ان يكون الرصافي واما ان يكون الزهاوي ، وفتح الباب الصغير الذي يلج منه المرء إلى داخل محله واصر على دخول شاعر العراق وحاشيته اليه ، وهنالك هلل ورحب مرة أخرى ، واسمعهم الكثير من شرفتوا يا سيدي .. ونوّرتوا المحل يا سيدي ... وآنستوا يا سيدي ... ثم قال ... قال اني انوي ان افتح فرعاً لمحلي هذا ببغداد لاجهز حفلات العرس ومجالس الافراح بكل حاجاته من الملبس والشكولاته وما تقتضيه الافراح من لوازم تتعلق بمناسباتها ، وانه من حسن الحظ ان احظى بشاعر العراق هنا وحاشيته ، وسيتم الشاعر نعمته علي اذا تفضل فقال بيتا في (حلوياتي) لاطبعه في صدر عنوان المحل ، قال هذا وبدأ يقدم انواعا للجماعة من السكريات ويحضهم على اكلها .

وكان على السيد علوان ان يستمهله حتى اذا جاء الفندق طلب من رفاقه ان ينظموا له بيتا او بيتين ولكن الظرف والمزح تغلبا على الجد فالتفتاليه وسأله :

ـــ ما اسم جنابك ؟

قال ـــ اسمي فارس القضماني

فصاح الرفيعي باحد رفاقه قائلاً :

ـــ أخرج قلمك

وعبثا راح ايماء الرفاق له بالتريث والاشارة بترك الهزل ، فقد راح يستعجل صاحبه صائحاً :

ـــ أخرج قلمك عاجلا واكتب ...

وهنالك املى عليه ما يلي :

يـــا فـــارس القصمان والحـــلاوة

أحسنـــت في صنعـــك للبقـــلاوة

وبدل ان تنكمش سحنة فارس القضماني ويتغير لونه فقد ازداد بشرا وانطلاقاً وقال :

لقد صدق (شاعر العراق) فانا احسن صنع البقلاوة ايضاً ، ثم اشكر له هذا اللطف . وادّعى المدّعون بان القضماني طبع هذا البيت بعد اسبوع على سبيل المباهاة على اوراق عنوانه وجيء بقدر كبير من هذه العناوين إلى العراق ! !

ومعرفة القضماني للرفيعي من شعره وتقديره اياه على هذا النمط المار ذات نظائر كثيرة ، والشيء بالشيء يذكر كما يقولون ، فقد حدثني الملاعبد نايف صاحب فندق الروضة بحلب قال :

انه كان يعيش ببغداد شاعر شعبي كبير اسمه عبد النبي وكان يعاصره في حلب شاعر شهير اسمه محمد سعيد الحلبي وقد سمع كل منهما باسم الاخر وقرأ شعره واعجب به على البعد ...

وزار عبد النبي حلب دون ان يعرفه احد وساقته المصادفه إلى محل الشاعر محمد سعيد فوجد عنده جود ماء معلقاً فطلب منه شربة ماء فأبى محمد سعيد لشدة بخله فلم يكن من عبد النبي الا ان قال :

يالي تمدح الكرم وايش شفت من جوده   عطشان ما يرويك من جوده

وان تسأل عـــن اهل الكرم والجوده   هم على الشـــط مـــوجوده

ومن هذه الابيات البليغة . ومن هذا الشعر الخالد .. . من هذه الملكة الشعرية الفياضة ! ! استطاع محمد سعيد ان يعرف ان شعرا كهذا لا يمكن ان ينطقه غير عبد النبي فقال :

ـــ اقسم بالله انك الشاعر عبد النبي

فاجابه ـــ وانا هو ...

وتعانقا ... !!

وبعد ما مر لا ارى بأسا على فارس القضماني ان يتعرف بشاعر العراق من بيت شعره وان يعرف قيمته حتى يدفع بالبيت إلى النشر ...

* * * *

وكانت للمرحوم الرفيعي قضية في احدى المحاكم فخسرها وكان في احدى عيني الحاكم انحراف او احولال خاص فتوجه الرفيعي بكل ملكاته الهزلية للاستهزاء بالحاكم وتصويره بصور مضحكة ساخرة ، فقال : انني لم ادخل على هذا الحاكم مرة حتى حسبني شخصين توأمين وصاح بي :

– سيد .. اخذ اخوك وروح

وقال انه طلب مني ذات مرة ان آتي له بشاهدين وحين جئت بهما قال :

اني لم اطلب منك اربعة شهود وانما طلبت شاهدين فليخرج اثنان منكما وليبق الاثنان .

لذلك اخرجت واحداً وبقي واحد ولكنه كان اثنين في نظر حاكمنا حفظه الله ...

* * * *

ورأيته ذات مرة في دمشق وهو يكلم البعض من اصدقائه بالفارسية فاشرت اليه بان يتحول إلى اللغة العربية خشية ان يكون هناك من لا يستسيغ المتكلمين بهذه اللغة فرد علي قائلاً :

– لا تدير بال عباالهم المالي. !!

وكان يتقن التغابي والتباله لحد بعيد ، وكان لا يمتنع ان يتحدث إلى جلسائه في المقهى وفي السيارة والقطار وان لم يسبق له التعرف بهم وكأنهم اصدقاء قدماء ثم سرعان ما يدخل معهم في فصل مضحك من التجاهل ، ولقد دخل ذات مرة بمقهى الرشيد ببغداد في حديث مع جليس لم يعرفه من قبل وقال له وهو

يتظاهر بالتغابي والسذاجة، لقد قال له تعال: لنتحازر، احزرك وتحزرني، ويقصد بذلك المحاجاة وقبل ان يقول الرجل شيئاً قال الرفيعي :

ـ ما هو هذا الجرم الذي يطلع من المشرق صباحاً فيضيء الارض، ويغيب في المغرب مساء فيسود الظلام ؟

قال الرجل ـ انه الشمس ..

قال الرفيعي وهو يبالغ في بساطته وتغابيه ـ يجب ان تحلف بانك لم تكن مسبوقاً بهذه الحزورة ..

وحلف الرجل وعبثاً حاول ان يفهم الرفيعي بان الحزورة التي القاها عليه من البساطة والوضوح بحيث يعرفها حتى الصبيان ، ولكن الرفيعي ظل مصر على ان الرجل لم يتكلم بالواقع وانه كان يعرف هذه الحزورة من الاول . . ! !

واقترح الرفيعي على الرجل بان يلقي عليه (حزورة) من احازيره .. : فقال الرجل :

(ما هو : طير الطار ، شقّ بحار ، لا له ريش ولا منقار)

قال السيد علوان بعد تأمل قليل : انه جنطة المسافر فضحك الرجل وقال له : وما هي المناسبة ؟

قال ـ انها جنطة المسافر التي تحملها السيارة ، واذا لم تكن جنطة فما هي اذن ؟

قال الرجل انه الدخان ..

فضحك السيد علوان وهزيده مستهزئاً ودخل مع الرجل في نزاع طويل عريض اشرك معه فيه المجاورين من تخوت المقهى فيما اذا كان يجوز ان يوصف الدخان بالطير وهو غير طير ، ويغتاظ الرجل ويحاول ان يقوم فيردّه الرفيعي وهكذا يقضي ساعتين وأكثر في جدل مصطنع ولا يعرف احد الحقيقة غير اصدقائه .

وفي اثناء احتلال الحلفاء لايران في الحرب الثانية كان الحصول على مقاعد في الدرجة الاولى والثانية من القطار الصاعد والنازل بين الاهواز وطهران في غاية الصعوبة وذلك لاقتصار القطار – الا ما قل – على نقل جيوش الحلفاء ، وحين سئم السيد علوان الرفيعي من الانتظار اياماً للحصول على موقعين له ولصديقه صمم على ان يقتحم القطار ويتولى انزال شخصين من المدنيين من عربة الدرجة الاولى ويركب هو وصديقه في محلهما ، وتقدم إلى القطار ومعه حمال وحذر صديقه من ان يتكلم بلغة مفهومة وقصد احدى العربات وهنالك عربدعلى الحمال ، وأومأ بان يحمل امتعة ذينك المسافرين وينقل إلى الدرجة الثالثة .. ! وهو يصيح :

جيانا تمباكي .. كياهه شعر باتي ..

وهنا سمع الرفيعي احد المسافرين المنقولين يكلم رفيقه :

– ومن يكون هذا الرجل الذي القى بامتعتنا خارجاً ؟

قال رفيقه – ربما كان احد قواد الانكليز ..

قال – ولكنه لم يرتد بذلة عسكرية ...

قال – انك لا تستطيع ان تحصي انواع جنود الحلفاء واقسامهم والبستهم ، فمن يدريك ان لا يكون الرجل من قواد سيلان ، او سنغافورة ، او من زنجبار؟

وهكذا ركب السيد علوان الدرجة الاولى وحول الراكبين إلى الدرجة الثالثة ، وفي الاهواز نزل من القطار واعتذر للرجلين ودفع لهما فرق الاجور...

لقد وجهت له ذات يوم احدى الصحف التركية باسطنبول – وقد مر بها لينشر اعلانا – اسئلة فامسك بالقلم واجاب على الاسئلة باجوبة غامضة مضحكة كان من بينها السؤال عن نفوس العراق ، وكان الجواب عليه بمعادلة حسابية على هذه الصورة

$$٤,٥٠٠,٠٠٠ - ٩ = ٧٣ \times ١٢٠ \times ١٨$$

$$٣ \times ١٠ + ٦$$

نفوس العراق

ونشرت الجريدة تلك الاجوبة ومعها هذه المعادلة بالنص على ما رووا ولم يحصل من يسأل كيف ادت نتيجة تلك العملية الحسابية إلى مجموع نفوس العراق ؟

رحمه الله لقد كان الظرف طبيعة متأصلة فيه وكان كالملح في الطعام لا تستطيع ان تستغني عنه ، وقد رافقه الظرف إلى اخر ساعة من حياته ، ومع ذلك فلم تكن شهرته في مختلف الفضائل باقل من شهرة ظرفه بين خلص اصدقائه .

كيف عرفت

عباس الجبان

ادركت عباس الجبان في اواخر ايام حياته وهو يحبو إلى السبعين ، واعتقد ان وفاته كانت قبيل الحرب الثانية بناحية (الحمزة) من لواء الديوانية فقد كان يعمل هناك سراجاً ، وقد عمل زمناً في (الشنافية) وآخر في (الرميثة) وكان مجبولا على الظرف والدعابة والعبث المضحك حتى انه لا يجلس اليه زبون يستعرض سرجاً من السروج او الالجمة ، او اقربة المسدسات التي يصنعها ويبيعها الا ويمد (الجبان) يده من فوق رأس الزبون (وبخفة لا توصف يحرك منه عقاله ذات اليمين وذات الشمال او يعرك له اذنه ، او يقرص ظهره ثم تعود يده باعجوبة من عجائب السرعة إلى محلها وهو يتظاهر بانهماكه في تفصيل قطعة من الجلد ، او معالجة جانب من السرج ، بينما يروح الزبون متلفتا يمنة ويسرة ليعرف من هذا الذي يعبث به مثل هذا العبث من ورائه ؟ وقد تتحول هذه التحرشات الخفيفة إلى صفعات متواصلة ينزلها الجبان على رأس الزبون حين يكون السوق في حركة يصعب معها تعيين الصافع الامر الذي طالما آل إلى اتهام البعض للبعض ، وعباس الجبان مشغول بعمله كأنه لم ير ولم يسمع فضلا عن كونه لم يضحك ....

* * * *

ولعباس الجبان صوت شجي رخيم وعلى رغم كونه لا يحفظ شيئاً من

المراثي فان المتصدين لتمثيل واقعة الطف بيوم عاشوراء طالما استفادوا من صوته الشجي وحسن ادائه للنعي والتعديد في تمثيل احدى حرم الحسين (ع) فالبسوه عباءة نسوية واركبوه جانباً من المحمل الذي يشد على البعير واركبوا ممثلا آخر في دور سيدة اخرى في الجانب الثاني من المحمل لحفظ توازنه ، ولكي يستلفت الممثلون الانظار ويهيجون العواطف يفرضون على راكبات المحافل ان يعددن ويرثين ويرددن النعي بانغامه الشجية المألوفة ليجسمن بذلك الظليمة النازلة بآل الرسول في موقعة الطف . ولكن الچبان ، الچبان الظريف لا يمتنع حتى في هذا الموقف من الحزن ان يستمتع ويشبع لذته بالشكل الذي يختاره هو ويستدعيه مزاجه وعبثه المضحك ....

ولقد فكر مرة وهو يمثل دور سيدة من حريم الحسين في المحمل ، لقد فكر ما الذي سيحل بزميله الراكب في الجانب الثاني من المحمل لو وجد المناسبة التي تتيح له ان يلقي بنفسه من فوق المحمل ليختل توازن المحمل ويسقط زميله الممثل ؟ وقويت الفكرة في ذهنه ورأى ان ينفذها لمجرد اشباع لذته ليس الا !

وحمى وطيس الحرب في التمثيل وتساقطت الجثث حتى اذا قتل الحسين في ميدان التمثيل صرخ عباس الچبان كما لو كان حقاً من عيال الحسين ، والقى بنفسه من فوق المحمل متظاهراً بشدة الحزن والجزع وهكذا اختل توازن الجانب الثاني من المحمل كما يختل طرف الميزان الثاني حين يخف او يثقل الطرف الاخر واذا بزميل الچبان يسقط من فوق المحمل المشدود إلى البعير فيسقط بين الناس ، ويكلفه هذا السقوط ملازمته بيته اكثر من شهر لما حدث له من التواء في القدم وخلع من جانب الفخذ ! !

* * * *

وذات مرة وهو يمثل دور السيدة زينب وهي تطوف بين جثث القتلى من آلها في كربلاء وتجلس عند كل جثة دقيقتين واكثر لتبكي وتندب قتلاها ، جلس الچبان على بعض الجثث المجندلة في ذلك الميدان ممن يعرفهم من اصدقائه

وبحجة البكاء على تلك الجثث ملأ وجوهها كلها بالبصاق والمخاط ، ولم يكن بوسع الممثلين ان ينهضوا لينتقموا منه مخافة ان يفسد التمثيل فكانوا يتلقونها منه ضربات وبصقات وشتائم يلقيها في آذانهم وهو يتظاهر بالنعي والتعديد والبكاء ولا يقوم من فوق الجثث الا بعد ان يكون قد اشبع نفسه من لذتها ، فاذا أوشك التمثيل على الانتهاء اطلق عباس الچبان ساقيه للريح واضاع وجهه اياما هرباً من انتقام اولئك الذين كانوا يمثلون ادوار القتلى ممن اشبعهم (الچبان) شتماً وملأ وجوههم بصاقا ومخاطا .. ! !

* * *

ونزل ذات يوم ضيف غبي في ثوب رجال الدين لم يعرف التاريخ له نظيراً نزل هذا الضيف على رجل ظريف يعرف بالملاهاني كان يعمل خياطاً في (غماس) ولم يكتف هذا الضيف الثقيل الغبي بما سبب للملاهاني من مضايقة بل راح يفرض عليه الاهتمام به والتصدي لجمع مبلغ من التبرعات له على سبيل الحقوق الشرعية من زكاة، او ردّ مظالم ، او ما شاكل ذلك ، ولقد فكر الملاهاني كثيراً وقلب الرأي على جميع وجوهه للتخلص من هذا الضيف الغبي الثقيل فلم يهتد إلى حيلة يستريح عندها ، واخيراً ذكر ، لقد ذكر ان هنالك كوّةمن الرجاء فلماذا لا يفتحها ويطلّ منها ، وهي ان يبعث بهذا الشيخ الثقيل إلى عباس الچبان الذي كان يسكن حينذاك ناحية (الشنافية) ؟ ؟

وهكذا افهم الملاهاني ضيفه بانه سيبعث به إلى الشنافية إلى صديق له يعرف بعباس الچبان وسيحسن هذا الصديق وفادته ، وسيجمع له مبلغاً كبيراً في ظرف ساعات ، ولم يزل يؤكد له قدرة الچبان وعظم جاهه في تلك الناحية حتى وافق الضيف على ان يمتطي حماراً استكراه له الملاهاني وزوّده بكتاب إلى عباس الچبان وصف له فيه رقة ضيفه وخفة ظله، وحسن طبعه، وحثّه على ان يجمع له مبلغاً كافياً لسد حاجاته .

وادرك عباس الچبان منذ اول يوم مغزى هذا الكتاب مما راه من سماجة

الضيف ، وثقله ، وتطفله ، وجرأته ، وعلم ان الملاهاني لم يرسل ضيفه اليه الا تخلصاً منه ، وفي اليوم الثاني كلف الجبان احد المكارين بان يأتي اليه في دكانه وبمحضر من الضيف الثقيل يسلمه كتابا كان قد اعده عباس الجبان بتوقيع من الملاهاني يقول فيه ان الضيف الشيخ لم يكد يبارحنا من غماس حتى مات احد تجار القصبة وترك (ثلثا) جسيما من ماله وقد وافق ورثته على ان يدفعوا هذا الثلث من المال إلى ضيفنا الكريم فابعث به سريعاً إلى غماس ليتسلم المبلغ عاجلا ، ...

وتسلم عباس الجبان الكتاب واحاله إلى الضيف الشيخ ليقرأه ، وما كاد يقرؤه حتى طلب من الجبان ان يعد له الراحلة للعودة إلى غماس ،

ولم يشعر الملاهاني الا وضيفه يعود اليه في اليوم التالي ولا يكاد يقف على الخبر واسباب عودة الشيخ الضيف حتى يخبره الملاهاني بكل اسف بانه حين استبطأه ارسل المبلغ إلى عباس الجبان ليدفعه له هناك في الشنافية وما عليه الا ان يعود من حيث اتى ليتسلم المبلغ من الجبان .

وهكذا اركب الشيخ مرة اخرى واتجه به المكاري في اليوم التاني إلى الشنافية ، واذا به امام عباس الجبان مرة ثانية ، وعند وقوف الجبان على جليّة الامر استماح الضيف عذراً وقال انه اعاد المبلغ منذ نصف ساعة فقط إلى غماس ليدفع به الملاهاني اليه ، ثم اركبه واعاده مع المكاري إلى غماس ،

واعاده الملاهاني في اليوم التالي إلى الشنافية ، واعاده عباس الجبان إلى غماس ، ولم يزل يبعث به هذا إلى ذاك حتى اهلكاه من كثرة الذهاب والاياب وحتى فطن الشيخ الغبي بعد عذاب ومشقة وعرف اللعبة ... ! !

* * *

وكان الناس على عهد العثمانيين غير آمنين على انفسهم واموالهم في الطرق البرية والنهرية وقلما كانت القوافل والسفن تنجو من قطاع الطرق والسلب اذا لم يكن لها ضامن من وجهاء السادة العلويين ، او من شخصيات رجال الدين

او من وجوه العشائر الذين كانوا يدعونهم (بالمسيّرين)، وصادف ان يكون عباس الجبان في احدى السفن التي كان عليها ان تمر بقبيلة آل شبل التي كان يكثر بينها يوم ذاك قطاع الطرق وكـــان في السفينة شيخ معمم طلب منه اهل السفينة ان يقوم في وجه من يعترضهم من قطاع الطرق فيسبّهم ويشتمهم ويخبرهم بانه خادم لابي عبدالله الحسين ومن قراء مأتمه فاذا ما تعرض احد منهم للسفينة بسوء انزل الله بهم نقمته، وسلبهم نعمته .... الخ جرياً على عادة (المسيّرين) من امثال السادة وقراء المآتم .. ولكن الشيخ ابى، وقال انه لا يحسن تمثيل هذا الدور وانه يخاف كل الخوف ان يجابه اللصوص على هذه الصورة من الجرأة، فلم يبق امام عباس الجبان الا ان يأخذ عمامة الشيخ فيعمّ بها ويرمي بيشماغه وعقاله إلى الشيخ ....

ووقع المحذور ... وكان كما توقع ملاحو السفينة اذ لم تكد السفينة تتوغل في قبيلة آل شبل والوقت قبيل الغروب حتى نادى قطـــاع الطرق بالسفينة ان تعبر اليهم، وقام عباس الجبان ممثلاً دور احد خطباء المآتم الحسينية ووجهاء رجال الدين واسمعهم الشيء الكثير من الشتم والقذف على اعتراضهم طريق زوّار ابي عبد الله الحسين (ع) حتى وقفت السفينة على الشاطيء،

ولعباس الجبان قيافة تستلفت النظر فقد كان بدينا ووقرا ومهيباً ولم يكد يخرج اليهم من السفينة حتى انكب اللصوص على يديه يقبلونها ويستميحونه العفو ...

وهنالك تقدم رئيسهم إلى الشيخ المزيف ورجا منه ان يتفضل ويمشي بركاب السفينة إلى اكواخهم القريبة ليقوم هنالك بذبح خروف كان قد نذره منذ سنتين (للحسين) فلم يحصل على من يقرأ له المآتم وقال انها لفرصة اتاحها الله لهم الان ليتم ايفاء النذر فيها ... !!

وهنا وجم عباس الجبان ... ماذا تراه فاعلا؟ انه لم يعرف للان شيئاً من مقتل الحسين ومن المراثي التي تقرأ ... واذا كان يجيد النغمة ويحسن تقليد مختلف القراءات بصوته الشجي الرخيم فانه لا يعرف ولا كلمة مما يقوله الخطباء

ورجال المنابر في مناسبة مقتل الحسين ، .. ولكن كان عليه ان يستمر في تمثيل دوره إلى النهاية والا قضي عليه وعلى ركاب السفينة ، .

وهكذا اندفع الچبان ومن خلفه نحو اربعين راكباً إلى بيوت تلك الطغمة ، وهنالك جيء له بجاون ارتقاه بدلا من المنبر ، وافتتح الكلام كما يفتتح خطباء المآتم وشرع يقرأ مرثية من ابدع المراثي من حيث الوزن والنغمة، والترتيل، اما الكلم فلم يفهم احد منها شيئاً غير اسماء تمر في اثناء النغم والانشاد فيبكي بسببها السامعون واكثر هذه الاسماء كانت تدور حول :

كربلا . والحسين . والشمر، ويزيد، والقتيل، والمظلوم ، والعطشان، والشهيد، وانهى الچبان مجلسه على خير ما تنتهي به المآتم وبكى الناس لمجرد مرور هذه الاسماء في النغم دون ان يفهموا شيئاً من المعاني وتعشّوا على مائدةاللصوص عشاء فاخرا وغادروهم على اتم حال ... ! !

لقد قرأ علي الچبان نمطاً مماثلاً مما قرأ عليهم من الأبيات في ذلك المجلس، وقال ان الذي يقرؤه علي هو غير الذي قرأه عليهم، وغير الذي سيقرؤه على من يرجون منه ذلك ولا حاجة للتذكير بان للنغمة فعلها في اعطاء هذا الشعر الفارغ من المعنى قيمة وروحا وتأثيراً ، قال رحمه الله : وقد سجلت في مذكرتي بعض ما قرأ علي من ذلك الشعر وهو

سل ما جرى فالشمر اوقع كربلا يوم المطير

والقتل ان دم الشهيد بكربلا عند المصير

عطشان من ظمأ وما كانت امية بالاسير الخ ..

وقد كان رحمه الله يحسن الوزن والقافية .

. . .

ونزل ذات يوم ضيفاً على صديق له في كربلا فسمع صوت استغاثة امرأة ينبعث من بيت الجيران وحين استفسر من مضيفه عن الخبر قال له ان لهم جارا

شرساً شكس الطبع شديد القسوة وهو لا ينفك لاقل شيء ينهال على زوجته بالضرب المبرح وقد مات له طفل لم يتجاوز الرابعة بركلة واحدة من رجله ولم يفد معه توسط الجيران والتماسهم وتدخل الاصدقاء فلم يزدد الا قساوة وشدة ، وياليته كان كما يبدو امام زوجته واهلها وبنيه من الشجاعة والرجولة ، وانما هو من الجبن بحيث لا يوصف كما يشهد سكان المحلة ... ! !

قال عباس الچبان :

— اتريد ان اخلص المحلة والاهل من شراسته ؟

قال — لا اعرف ثوابا اكثر من هذا ، ولا عملا صالحاً يفوق عملك اذا استطعت ان تفعل شيئاً ولكن ما عساك تفعل ؟

قال — لا تقل ما عساك ... وما عليك الا ان تحضر لي بذلة من بذلات (الجندرمة) لالبسها كما لو كنت شرطياً من شرطة الحكومة العثمانية وسلمني سوطاً من الجلد المضفور ، واتركني بعد ذلك وشأني .

وبعد يومين قضاها المضيّف في البحث عن بذلة من بذلات الجندرمة تمّ لعباس ان يلبسها ، وان يحمل السوط بيده ويقف على باب الرجل وكان اسمه حسناً ويصيح بلهجة الجندرمة وبلغتها :

— ولك حسينات ، پيزونك ابن چليب مال المعدان ، اتلع بره ، آني يريد يشوف انّي شسوين بالمرية مال انّي كل يوم ، كل يوم ،

وتعني هذه الجمل الّتي يركّبها تركيب الاتراك والجندرمة من خليط من التركية والعربية الدارجة المكسرة مناداته لحسن قائلا اخرج يا حسن يا كلب ويا ابن الكلب لارى كيف تعامل زوجتك كل يوم بالقسوة والعذاب .

ولم يزل يدقّ الباب دقا عنيفاً ويشتم ويعربد حتّى خرج اليه حسن وهو يرتجف كالسعفة في مهب الرياح ، ومدّ عباس يده بالسوط ونزل به ضرباً وهو يصيح :

ــ ولك حسينات ، بعد يسوي قارش وارش ؟ يبسط نساوين ؟ ولك يبزونك چلب مال معدان ،

ويتخضع حسن ويقسم انه لن يعود إلى مثل هذا ، ولا يكتفي الچبان بل باخذه معه متظاهراً بانه سيسجنه سنتين وسبعة شهور وثلاثة عشر يوماً ، اما لماذا يسجنه سنتين وسبعـــة شهور وثلاثة عشر يوماً ولا يسجنه ثلاث سنوات فهذا ما يستدعيه ظرف الچبان وطرز دعابته ،

وهنالك بعد ان يجتاز به شارعين او ثلاثة في طريقه إلى (السراي) يطلق سراحه بشروط ثقيلة على ان لا يمس زوجته واولاده او اي احد من ذويه باي سوء ولو كانوا مخطئين ومذنبين ... وكان كما اراد .

ويموت عباس الچبان الذي عرفته عن كثب ، يموت والابتسامة لم تغادر شفتيه وهو في آخر رمقه مسجى على فراش الموت .

كيف عرفت

حسين قسام

وعلى ان حسين قسّام في آخر حياته لم يكن كالسابق من حيث الحيوية والنشاط والقابلية الذهنية ، فقد كان الجلوس اليه واستعراض ما بقي في ذهنه من القضايا لا يخلو من متعة وطرافة ، فلقد تجاوز حسين الخامسة والستين ، وافتقد تلك القابلية التي كانت تعينه على تمثيل ادوار (المقالب) المضحكة ، وضاقت به الواسعة لكثرة المصروف وقلة الوارد الذي لا يتجاوز مرتبا زهيدا يتقاضاه من الاوقاف لقاء سدانته لمقام (هود وصالح) بمقبرة وادي السلام في النجف ، ثم القليل مما يدفعه له بعض زائري (المقام) على سبيل النذر اوالتقرب إلى الله .

وحسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الادوار الفكهية والظرف ونسج الاحابيل والنكات ونظم الشعر الهزلي المضحك ، ولقد عرفته اول ما عرفت عن كثب يوم كنت اصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف ، فلقد ربح حسين قسام احدى جوائز مسابقات ـ الجريدة الفكهية التي طلبت من المتسابقين ان يأتوا بافكه مستحيلات ثلاثة كما لو كانت بايديهم العصا السحرية التي تومىء للشيء بان يكون ما يريدون فيكون .

ودخل يومها المسابقة عدد كبير لمحض التسلية وكانت لبعض تلك المسابقات

مغاز وأبى حسين الا ان يكون جوابه قصيدة شعر باللغة العامية كان منها الابيات التالية :

لو وكَع بيدي صعدت سابع سمه
بلا درج واركب بعيره معممه
وبالسما الثالث اطش خضرة هنود
من تورّد تطلع بزازين سود
وفرد عتوي زارع برجليه يهود
وفوك علباته كنيسه مهدمه

وبالنظر لما لقيت هذه المستحيلات المنظومة يوم ذاك من اقبال فقد نظم حسين قسام على غرارها عدداً من القصائد الفكهية الاخرى فيما بعد ...

ويختلف حسين قسام عن غيره من الظرفاء بكونه طبع على الفكاهة كمتفنن وممثل يتعاطى التمثيل في الطرق والاسواق كما يتعاطاه الممثلون فوق المسارح .

وقد يتفق لحسين ان ينادي القهواتي في المقهى فيسأله عمّا اذا كان شاي المقهى شايا جيداً ؟ فيجيب الرجل على العادة بان شايه في غاية الجودة وقد ابتاع منه عشرة صناديق خوفاً من ان ينفد ، فيسأله حسين : وهل هو جديد(التخدير) لم تأخذ منه النار اكثر مما ينبغي ، فيقسم القهواتي بانه لم يصب منه ولا فنجانا بعد ، ويعود فيسأل : وماذا تظن من ناحية الطعم والرائحة فهل شايك هذا جيد الطعم في المذاق ؟ معطر الرائحة في المشام ، فيجيبه بان يسأل جميع الزبائن عنه ، وهنالك يقول له حسين :

ـ اذن جيب فرد حامض ... اي إتني بقدح من الشراب الحامض .

ووقف مرة وسط الشارع مشيراً لسيارة كانت تسير بسرعة من هناك وحين وقفت السيارة قال حسين قسام يسأل السائق :

ــ عندك خردة ربع دينار ؟

اي هل تستطيع ان تصرف لي ربع دينار ؟

وفي مثل هذه الاحوال كثيراً ما كان يتعرض حسين لمشكلات كبيرة تؤول إلى الشتائم والضرب والشكوى لدى الشرطة ، ولكن حسين قسام المطبوع على الهزل لا يمتنع من حبك الفكاهة ولو ادى الامر إلى زجه في السجن .

. . .

وقيل لحسين قسام وهو يصعد احدى عربات الدرجة الثالثة من القطار العامل بين كربلاء وبغداد ، لقد قيل له ان هنا مفتش بطاقات ارمنيا لا يشبهه احد في الشراسة وسوء الخلق وهو يعمل على هذا الخط منذ زمن طويل وقد ضجّ الركاب من شراسته فما تقول لو اتخذت منه موضوع سخرية في هذه الليلة ولم تكن عربات هذا الخط مضيئة في الليل يومذاك ، فمـــا كاد القطار يتحرك ويسود الظلام ويحس حسين بالمفتش المذكور يصعد العربة وبيده مصباح صغير حتّى القى بنفسه في وسط العربة والتفع بعباءته وتظاهر بالنوم وراح يغط غطيطا مسموعاً .

وبشيء من تلك الشراسة التي يتحدث فيها ركاب هذا الخط قام المفتش بتفتيش بطاقات الركاب وحين دنا من حسين قسام ركله برجله وصاح به في لهجة خشنة نابية .

ــ يا الله .. تذكرتك ؟. اي أعطني بطاقتك ... ؟

وهبّ حسين من نومه متظاهراً بالفزع كما لو كان في حلم مزعج وقبض على رقبة المفتش بيده اليسرى ، وباليد اليمنى راح ينزل على رأسه الصفعات تلو الصفعات ، مصحوبة بصرخات متوالية :

ـ حرامي . حرامي ..

ثم يجمع ما يحتوى عليه فمه من البصاق ويقذف به في وجه المفتش بصورة متمادية ، ولا ينفك يصرخ :

ـ حرامي .. حرامي ...

كل ذلك والمفتش يصرخ بصوت مبحوح مخنوق ويقول :

ـ انا لست حراميا .. وانما قارض تذاكر ...

ولكن حسين قسام يستمر في التضييق على رقبة المفتش وفي انزال الضربات على رأسه وفي ملء وجهه بالبصاق حتى يقوم رفاقه في العربة فيخلصوا المفتش من بين يديه ويفهموه بان الرجل ليس حراميا كما قد توهم بسبب نومه وانه ليس الا قارض التذاكر فيعتذر حسين للمفتش ويضحك المفتش من هذه المصادفة على رغم ما نزل به من الضرب المبرح والاهانة ...

. . .

وفي مقام (هود وصالح) حيث يجلس حسين قسام لاستقبال زائري هذا المقام كثيراً ما يسأم من وضعه الجدي فيلتمس الهزل في كل شيء وكيفما اتفق ، وذات مرة رأى جمعاً من القرويين متحلقين عند ايوان المقام ، فقام اليهم وفي غفلة وضع بالقرب منهم رغيف خبز وشيئا من الحلوى الذي يأتي به الزوار نذراً لمقام هود وصالح ثم وقف عن بعد يراقب هذه الحلقة وما قد يكون من امرهم لو التفتوا إلى الرغيف والى الحلوى ، وصدقت فراسته ، اذ لم تمض بضع دقائق حتى التفت احد القرويين إلى جانبه فالفى الرغيف والحلوى فجرهما اليه بقصد الاستثابة التي ينشدها آكلو النذور في هذا المقام المقدس ، وعلى رغم حرص هذا القروي والسعي للظفر بالرغيف وحده فقد استطاع قرويان اخران من

تلك الحلقة ان يختطفا منه بعض اللقم ويقاسماه هذه الاكلة الشهية .

كل هذا وحسين قسام يختلس النظر منهم حتّى اذا علم بانه لم يبق من الخبز والحلوى شيء نادى بمسمع من تلك الحلقة، لقد نادى رفيقا له كان ينتظر نجاح خطة حسين الهزلية وهو يتظاهر بالبحث عن شيء ... لقد ناداه حسين قائلاً :

— هل رأيت يا جاسم رغيف خبز وحلوى كان هنا إلى ما قبل دقائق ؟

لقد قال حسين ذلك بشيء كثير من الاهتمام والاضطراب ، فنفى (جاسم) ان يكون قد رأى شيئاً

قال حسين— اذن قم معي نبحث عن الرغيف خشية ان يكون قد حمله احد او أكله احد

قال جاسم — ولكن لم كل هذا الاهتمام فليأكله من يعثر عليه ؟

قال حسين — وهو يتعمد ايصال صوته واضطرابه ووجله إلى اولئك القرويين — قال :

— يا ويلي اذا وقعت الواقعة

قال جاسم — لم لا تفصح ؟

قال — اي افصاح ؟ واي سخام بل واي لطام ؟ فاني قد دُفت الخبز والحلوى (بسمّ الفار) وكنت أريد ان اضع لقمة منه في فم جحر من هذه الاجحار التي تنطلق منها الفيران والجرذان العابثة بالمقام ....

ولم يتم بعد حسين الكلام حتّى علت اصوات القرويين الثلاثة وبدأوا بالقي والاستفراغ ووضع الايدي على بطونهم والشروع بالاستغاثة والنجدة ، وساءت حال احدهم فاصفرّ لونه ، وانقلبت سحنته وشعر حسين بان هؤلاء الثلاثة الذين أكلوا الخبز والحلوى سيموتون او سيموت هذا القروي منهم على الاقل

ان لم يبادر إلى كشف خطته،وتكذيب خبره،ولم يزل هو وجاسم يسعيان ويقسمان باغلظ الايمان بانهما كانا هازلين وان القرص والحلوى لم تشبهما اية شائبة ولم يدفهما بشيء من سم او غير سم وان حكاية الفئران والجرذان ما هي الا مقدمة مصطنعة لطلي الخدعة والضحك ...

. . .

وحسين قسام يجيد تقليد اغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في اية لغة ولكن بدون معنى ، وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم احد الهنود او الترك او الايرانيين او الانكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى فيهزون رؤوسهم امامه ويصفحون عنه وهم لا يعرفون الذي يقول ، .

وبهذه الطريقة يتكلم العربية فلا يدعك تفهم منه شيئاً وكثيراً ما يقصد احد الحكام شاكياً وينصت له الحاكم ويسعى لان يعرف شيئاً فلا يفهم من كلامه الا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الارتياب والشك الذي قد تبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانه ، وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحنته كما يشاء دون ان تبدر منه بادرة تفسد عمله او تشكك من لا يعرفه فيه ولقد سيق في اثناء الاحتلال الانكليزي ليعمل في (السخرة) على حد اصطلاح المصطلحين في تلك الايام فيحمل الناس الرمل على ظهورهم إلى خان يقع على النهر ، وحمل حسين قسام اول كيس إلى المحل المقصود مكرها وحين خرج من الخان مع الخارجين لحمل اكياس اخر تحت مراقبة الجنود انطوى على نفسه وعوّج احدى رجليه وصعّد احد حاجبيه إلى الاعلى وانزل الثاني واطلق لاعضائه العنان لتهتز وترتجف فلم يعرفه احد وظنه المراقب انه من العاجزين المشلولين المشوهين ، ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة واطلق هنالك ساقيه للريح ... !!

. . .

وقصص حسين قسام اكثر من ان تروى وهي قصص تمثيلية خاصة بالرؤية وليست بالسمع وشعره الفكهي اكثر من ان يحفظ وقد طبعت انا له اول

ديواناً باسم (سنجاف الكلام) وهو يحاول ان يصدر دواوين اخرى باسم (قميص الكلام) و (جبّة الكلام) (وقيطان الكلام) وما شاكل .

وهذه بعض نماذج من شعره العامي الهزلي المرتجل .

الموال

يا صاح دهرك عليك اليوم ذب كاله

واعرفت هذا وذاك وهالبحث كاله

هيهات لنّك تميز النعـــل من كالـــه

بجفـّه سقاك الدهر سمّ الركَط وامداس

وميمون جهلك لعد صدرك عبر وامداس

(ماركة) حظك بذاك امسجليها امداس

لالا يكَلّي سمعته امسجلي كاله

ومن البسته (الغناء) يقول :

شفت الحلو من بعيد لابس عبايـــه

مجفف بكرّاث واعقالـــه تايـــه

ولقد خرج ذات مرة من الحمام في الكاظمين ولم يجد ألبسته فظن ان هنالك (مقلباً) قد دبر له للضحك منه فمد يده إلى كارة من الثياب فلبسها وو جدهنالك عمامة من العمائم المعروفة بالكشيدة، التي يلبسها (الجلبية) والتجار فاعمّبها، ووضع قدميه في الحذاء فلم يجده ملائماً فاثنى طرفيه من الكعب وادخل قدميه فيه ولبس عباءة لم يلبس حسين نظيرها طول عمره فقد كانت البذلة بذلة تاجر محترم على اغلب الظن وخرج حسين من الحمام وهو ينتظر ان يباغته اهل (المقلب) ليعيدوا اليه البسته ويأخذوا منه البسة الناس ، ولكن لم يجئه احد .. وظل نحو سنة واكثر وهو يلبس الكشيدة والعباءة الفاخرة وتلك البذلة الشائقة ولم يعرف ما الذي تم بعد خروجه من الحمام ...

وكان الهزل والدعابة هواية حسين قسام منذ صغره ، وقد ورث هذه السجية من أبيه، كان أبوه من ذيول (العشرة المبشرة) يلاحقها ويقتفي أثرها ويتبعها اينما

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
الكاظمية - العراق

سارت حتى لقد خلفها هو وعدد آخر واشتهروا بالفكاهة والتندر وابتكار المقالب .

وكثيراً ما دعوت حسين قسام الى بيتي حين يكون لدي ضيوف من الخارج وأنا بعد لم أزل في النجف وكثيراً ما صحبته معي الى بغداد وأشرت اليه بأني سأنتظره في المحل الفلاني وطلبت منه أن يأتيني هناك ولا يتظاهر بمعرفتي ويجري مع صاحب المحل ما اعتاد أن يجريه من تمثيل يؤدي الى خلق مشكلة كأن يتهم صاحب المحل بتهمة مناسبة ويهدده بالشكوى لدى الحكومة ويتكلم بكلام لا يفهم منه أكثر من اتهامه ولكن بماذا ؟ فهذا ما لا يستطيع أحد أن يفهمه وبعد أكثر من ساعة وحين يتأزم الامر اميط انا اللثام عن حقيقته وأكشف عن هويته لدى صاحب المحل الصديق واذا بها حكاية غريبة كثيراً ما تناقلها الذين تجري معهم وعجبوا منها لاسيما تظاهره بالجنون وتهديده الذين لا يعرفونه ، وخلطه الكلمات باللهجات الاجنبية .

ولم أره جاداً الا في مناسبات قليلة وذلك حين يكتب لي مهنيا بعيد أو راجياً مطلباً ، أو ملتمساً حاجة ، كقوله في أحد الاعياد يخاطبني في بطاقة معايدة يقول فيها :

أيـــامك سعيده وعيدك مبارك ... يلّلي تعجب المخلوق بأفكارك
أيامك سعيدة بكل سنة وكل عام ... عليك بخير وبعز ترجع الايـــام
ما ينكّر طيبك مثل بدر التـــام ... بالطيبات تگضي ليلك نهارك

وفي معرض الهزل كنت اتلقى منه لوناً من الخليط بين الجد والهزل وقد أرسل لي مرة قصيدة قد لا يستساغ هنا ذكرها لافراطه في مدحي ويختمها بأن يدعو الله بأن ينبت لاعدائي كفاً في القفا وهي ممسكة بنعال سميك ، ديدنه صفع راس هذا العدو كلما تنحنح ، أو سعل ، أو عطس ، أو جاع ، أو شبع ! !

مات حسين قسام وهو في منتصف العقد السابع ، مات وماتت معه ذكراه ، كأن لم يكن ذلك الانسان الذي ملأ النفوس بهجة وسروراً ، شأنه شأن الاخرين الذين يذيبون أنفسهم في اسعاد الناس بما خصوا به من براعة في تلطيف الامزجة ، وانعاش النفوس حتى اذا أدركهم الضعف ودبّت في نفوسهم الشيخوخة نسيهم الناس وتجاهلوهم وهم أحياء يرونهم كل يوم فكيف بهم اذا ماتوا ؟